

# أَبُو الْعَتَاهِيَّة

شاعرُ الزهد والحكمة

الجزء الأول

تأليف

الدكتور محمد فرج عبد الحميد العقدة

أستاذ البلاغة والأدب  
بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



للطباعة والنشر  
١٩٨٥ - ١٤٠٥ هـ



أَبُو الْعَتَاهِيَّة

شاعر الزهد والحكمة

الجزء الأول

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة  
لدار العلوم للطباعة والنشر  
ص.ب. ١٠٥٠ - هاتف ٤٧٧٧١٢١ - ٤٧٧١٩٥٢  
الرياض - المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى  
١٩٨٥ = ١٤٠٥ هـ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تمهيد

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علماً، ووسع المنيين التائبين رحمة وحلماً، وملاً قلوب المتقين سكينه وحكمة وسلامة وسلماً، أحمله جلّ شأنه وتعالّت كلمته وتقدّست أسماؤه وتباركت آلاؤه حمداً يرضيه، وأفوض إلى جميل صنعه وكريم تلافيه ما أعلنه وما أخفيه، وأسأله أن يشرح صدري ويربط على قلبي ويقوي جنائي ويثبت إيماني ويطلق بالحق والخير والهدى والرشد قلبي ولساني، ويرزقني السعادة والسداد والقبول والتوفيق في نيتي وقولي وعملي، وأن لا يجعل رأياً من آرائي ولا نية من نياتي حسرة علي لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن يجعلها كلها خالصة لوجهه مصروفة لرضاه وعفوه وتجاوزه وصفحه فإنه، وجلّ شأنه، هو الحليم الغفار القادر على ما يشاء ويختار، وهو الفتاح العليم الرحمن الرحيم ذو الطول والفضل العظيم. وأصلي وأسلم أفضل الصلاة وأزكى التسليم على رحمة الله التامة وبركته العامة ومظهر إحسانه الشامل وسرّ فضله الكامل، وسراج المنير محمد البشير النذير صلاة وسلاماً تسلم بهما القلوب، وتغفر الذنوب، وتكشف الغمرات، وتنحسر الحشرات، وتبيض الوجوه في الحياة والممات.

وبعد، فبين يديك رسالة في أبي العتاهية شاعر الزهد والحكمة. وهي - وإن لم تبلغ في دراسة هذا الشاعر مبلغه في شرف شعره وعظيم منزلته لأنها جهد المقل وسعي الظالع الطليح - أمدت بأشرف ما يطيقه إنسان من نية خالصة لوجه الله ومقصد مقصور على إعلاء كلمة الحق، وإذاعة معاني الخير. وحسب امرئ من الخير نيته ومقصده الشريف، وبذله من ذات نفسه ما يستطيع. وقد رتبها على مقدمة وخاتمة وثمانية أبواب. . مرتبة كالتالي:

|    |                               |
|----|-------------------------------|
| ١١ | ..... المقدمة، في سر الاختيار |
|----|-------------------------------|

## الباب الأول

|    |                                 |
|----|---------------------------------|
| ٢١ | ..... في عصر أبي العتاهية وبيته |
|----|---------------------------------|

وهو قسمان :

|    |                            |
|----|----------------------------|
| ٢٣ | ..... القسم الأول: في عصره |
|    | وفيه فصول:                 |

|    |                                       |
|----|---------------------------------------|
| ٢٥ | ..... الفصل الأول: في الحالة السياسية |
|----|---------------------------------------|

|    |                                          |
|----|------------------------------------------|
| ٤١ | ..... الفصل الثاني: في الحالة الاجتماعية |
|----|------------------------------------------|

|    |                                                |
|----|------------------------------------------------|
| ٧٥ | ..... الفصل الثالث: في الحالة العلمية والأدبية |
|----|------------------------------------------------|

|     |                                          |
|-----|------------------------------------------|
| ١٢٥ | ..... القسم الثاني: في بيئة أبي العتاهية |
|     | وفيه فصول:                               |

|     |                                    |
|-----|------------------------------------|
| ١٢٧ | ..... الفصل الأول: في مولده ومنشئه |
|-----|------------------------------------|

|     |                              |
|-----|------------------------------|
| ١٣٣ | ..... الفصل الثاني: في مقامه |
|-----|------------------------------|

|     |                               |
|-----|-------------------------------|
| ١٣٧ | ..... الفصل الثالث: في متقلبه |
|-----|-------------------------------|

|     |                               |
|-----|-------------------------------|
| ١٤٣ | ..... الفصل الرابع: في إقليمه |
|-----|-------------------------------|

## الباب الثاني

|     |                                |
|-----|--------------------------------|
| ١٤٥ | ..... في التعريف بأبي العتاهية |
|-----|--------------------------------|

وفيه فصول:

|     |                            |
|-----|----------------------------|
| ١٤٧ | ..... الفصل الأول: في جنسه |
|-----|----------------------------|

|     |                                   |
|-----|-----------------------------------|
| ١٥٣ | ..... الفصل الثاني: في أسرته وآله |
|-----|-----------------------------------|

|     |                                          |
|-----|------------------------------------------|
| ١٥٩ | ..... الفصل الثالث: في اسمه وكنيته ولقبه |
|-----|------------------------------------------|

|     |                                              |
|-----|----------------------------------------------|
| ١٦٣ | ..... الفصل الرابع: في هيئته وأوصافه وأخلاقه |
|-----|----------------------------------------------|

|     |                              |
|-----|------------------------------|
| ١٦٥ | ..... الفصل الخامس: في حرفته |
|-----|------------------------------|

|     |                                     |
|-----|-------------------------------------|
| ١٧١ | ..... الفصل السادس: في ثقافته وأدبه |
|-----|-------------------------------------|

|     |                                           |
|-----|-------------------------------------------|
| ١٨٣ | ..... الفصل السابع: في حياته وموته ومدفنه |
|-----|-------------------------------------------|

## الباب الثالث

١٨٩ ..... في دواعي شعره وأغراضه

وهو قسمان :

١٩٠ ..... القسم الأول: في شعر المجون والرغبة  
وفيه فصول:

١٩١ ..... الفصل الأول: في شعر النشأة الكوفية

٢٠٥ ..... الفصل الثاني: في شعره في عهد المهدي

٢٣١ ..... الفصل الثالث: في شعره في عهد الهادي

٢٣٩ ..... الفصل الرابع: في شعره في عهد الرشيد

٢٦٣ ..... الفصل الخامس: في شعره في عهد الأمين

٢٧١ ..... الفصل السادس: في شعره في عهد المأمون

٢٨٠ ..... القسم الثاني: في شعر الزهد والحكمة  
وفيه فصول:

٢٨٥ ..... الفصل الأول: في وصف زهده وما ذكره القدماء من سببه وبدئه ...

٢٩٧ ..... الفصل الثاني: في أسباب زهده الدينية والعقلية وشواهدا من شعره

٣٢٣ ..... الفصل الثالث: في زهدياته الاجتماعية والسياسية

٣٦٣ ..... الفصل الرابع: في حكمته ومذاهبها في شعره

## الباب الرابع

٣٨١ ..... في آرائه وآراء الناس فيه

وفيه فصول:

٣٨٥ ..... الفصل الأول: في مطاعن الطاعنين في زهده ودينه وردها

٤٠٣ ..... الفصل الثاني: في آرائه الكلامية والفلسفية

٤١٥ ..... الفصل الثالث: في رأي أبي العتاهية في نفسه

## الباب الخامس

٤٢٣ ..... في معاني شعره وأخيلته

وفيه فصول:

٤٢٥ ..... الفصل الأول: فيما الأصل فيه الاقتباس من القرآن الكريم

٤٦٧ ..... الفصل الثاني: فيما الأصل فيه الاقتباس من الحديث النبوي الشريف

- ٥١١ ..... الفصل الثالث: فيما الأصل فيه الأخذ من سائر الآثار والأخبار
- ٥٨٧ ..... الفصل الرابع: في أخذه من الشعراء وأخذ الشعراء منه
- ٦٥٩ ..... الفصل الخامس: فيما يغلب على الظن أنه اختراع لا اتباع

### الباب السادس

- ٦٦٣ ..... في عبارة شعره

وفيه فصول:

- ٦٦٥ ..... الفصل الأول: في سهولة عبارته وأسبابها
- ٦٧٣ ..... الفصل الثاني: في مظاهر الطبع والصنعة في عبارته
- ٦٨١ ..... الفصل الثالث: في أسلوب شعره

### الباب السابع

- ٦٨٥ ..... في شاعريته

وفيه فصول:

- ٦٩١ ..... الفصل الأول: في منزلته الشعرية
- ٧١٥ ..... الفصل الثاني: في ملكاته الشعرية
- ٧٣٧ ..... الفصل الثالث: في عيوب شعره
- ٧٤٧ ..... الفصل الرابع: في موازنات في شعره وشعر غيره

### الباب الثامن

- ٧٨٣ ..... في رواية شعره وأخباره

وفيه فصلان:

- ٧٨٥ ..... الفصل الأول: في رواة شعره وأخباره ومصادرها
- ٨٠٩ ..... الفصل الثاني: في منازعات في شعره وشعر غيره

### الخاتمة

- ٨٣١ ..... في تاريخ شعر الزهد والحكمة إلى عصر الشاعر

وفيه فصول:

- ٨٣٧ ..... الفصل الأول: في شعر الزهد والحكمة في العصر الجاهلي



|     |                                                               |
|-----|---------------------------------------------------------------|
| ٨٥٣ | الفصل الثاني: في شعر الزهد والحكمة في عصر صدر الإسلام . . . . |
| ٨٦٣ | الفصل الثالث: في شعر الزهد والحكمة في العصر الأموي . . . . .  |
| ٨٧٣ | الفصل الرابع: في شعر الزهد والحكمة في عصر الشاعر . . . . .    |
| ٨٨٩ | ... ثم أخيراً: مراجع الدراسة . . . . .                        |



## مقدمة

### في سر الاختيار

ليس أبو العتاهية بالشاعر الذي يرضي القرن العشرين وما فيه من مادية جارفة، وإباحية مسرفة، ومنكر معروف وهجر مألوف. وليس أبو العتاهية بالشاعر الذي يلائم مشاعر هذا الجيل الذي أخذ الغرور وقاية من الحق، والكذب حاجزاً عن الصدق، والأمانى الباطلة والآراء الفائلة ديناً صده عن الدين وبقيناً صرفه عن حق اليقين. وأننى يكون لشاعر مثله أن ينال البشاشة والرضا من قوم آثروا لذات الحياة الدنيا وركنوا إليها، واتبعوا الشهوات وتكالبوا عليها واتخذوا فتن الحياة نصباً إليها يوفضون. وقصب سبق يركضون نحوه ويتسابقون، وجعلوها مثلهم العليا وآمرهم المثل وغايتهم الفضلى، وهو لا ينفك يبدى ويعيد في فنون من النصيح والتهذيب واللوم والتأنيب والزجر والتثريب، إلى ما أولع به من ذم هذه الحياة الدنيا ووصفها باللؤم الخالص من شوب الكرم، والكذب البريء من سمة الصدق، والغدر القاطع أسباب الوفاء، فلا يدع لها متاعاً إلا كشف عن وجهه الفاني ولا نعيماً إلا أفصح عن وشك زواله الداني، ولا يدع لها صريعاً إلا هتك القناع عن دمه المسفوك ودمعه القاني. فذلك الذي كان مظنة أن يصرفني عنه هو الذي صرفني إليه وعطفتني عليه ورزقني من الشغف به والعناية بشعره ما جعله موضوع رسالتي ومناط اختياري. ذلك أن بكثير من القلوب جراحاً لا تندمل وكلوماً لا تلتئم وأحزاناً لا تزول وهموماً لا تنحسر وأسفاً لا يحول لما صار إليه كثير من أهل هذا العصر من تحلل وترف وفساد، مما جعل همّ المنصف أن يحزنهم ولا يسرهم وأن يسخطهم ولا يرضيهم، بما يجبههم به من

قوارع تقضّ المضاجع وزواجر تفيض المدامع، ومواعظ تذيب الأكباد وتلين القلوب، عليهم عن غيهم ينتهون ومن سكراتهم يفيقون.

والأزهر - وهو حصن الروحية الحصين وعمادها الثابت المكين - هو القوة الباقية في وجه طوفان المادية المتلاطم وشرّها المتدافع، فهو أولى أن يصدم السيل بسيل يدفعه، ويقذف الباطل بحق يدمغه، ويدفع في صدر الشر بخير يصصره.

والأزهر - وهو معدن الفضائل الدينية ومظهرها، ومبعث الشيم الرفيعة ومصدرها - جدير أن يفسح صدره الرحيب لشاعر زاهد في متاع قليل، عاقبته الزوال ومغبته الوبال، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، في أسلوب شريف بارع ونظم محكم رائع ولفظ نقي ناصع، وطبع متدفق شاعرية وسحرًا وذهن صوّاغ من كلّ فكرة لؤلؤًا ودرأً، إلى ما قال جامع زهدياته الإمام ابن عبد البر النمري، رحمه الله، في وصفه لسبب جمعه ما جمع من عيون مواعظه وأمثاله وحكمه، من أنها تعين أهل الدين والعقل على التقوى وتبعثهم على الزهد في الدنيا وتذكرهم من أمر الموت وما بعده، ما فيه تذكرة وموعظة بالغة عسى أن تلين بها القلوب القاسية، وما أشار إليه مما هو ألصق بأهل عصرنا من حاجة أهل عصره إلى ذلك لقساوة القلوب وغفلتها عما يراد بها مما له خلقت وإليه مصيرها، وقوله الذي يؤتسى به. ولولا أي رجوت في ذلك لنفسي ولمن طالعه وتدبره صرف النفس عن بعض هواها وردعها عن كثير من غيها ومناها لما جمعتها وما تبعه من قوله. والذي حملني على اختصاص شعر هذا الرجل دون غيره كثرة ما في شعره مما يزهّد في الدنيا ويرغب في الآخرة؛ وهو في شعر غيره قليل، إلى ضروب من الحكم قد احتوى عليها نظمه وقاده إلى حسن نظمها طبعه. وقد شهد له شيوخ الأدب بالطبع وأثنوا عليه بتقدمه في ذلك وأنه فيما مال بهمته نحوه من المعنى المقصود إليه في هذا الكتاب لا يشق فيه غباره ولا تدرك آثاره.

اهـ.

وقد يظن فريق من الناس أن دعوة الزهد دعوة خور لا قوة، وجبن لا جرأة وخول لا نباهة وذلة لا عزة وكسل لا نشاط، ومن هنا تكون دعوة هدامة مخربة

لا تنهض بها أمة ولا يعمر بها إقليم، وأنها لا تعدو أن تكون ضعفاً ظاهراً أمام قوة الحياة العارمة الغالبة، وهزيمة نكراء أمام سطوتها السالبة الواهة، وأنها دعوة تواكل وخذلان لا يفلح معها مجتمع ولا يحيا بها إنسان، فيلى هؤلاء نزجي الحديث:

للإنسان ناحيتان مختلفتان كل الاختلاف: ناحية مادية، وأخرى روحية. ولكل منهما من المآرب والمشارب ما يخالف مآرب الأخرى ومشاربها مخالفة تصل إلى حد التدافع والتناقض والمنافاة. فكلما أطلق لإحدهما العنان لتنال ما يوائمها ويتفق ومشاربها كان ذلك في قوة الكف، بل الإزهاق للأخرى. ولو أن للناحية الروحية من عوامل التيسير والرغبة والإنالة ما يساوي نصيب الأخرى من هذه الخصال لكان لها من الناس نصيب يساوي هذه الكثرة الغالبة من أتباع الشهوات ومؤثري اللذات، ولكن للناحية المادية رجحاناً ظاهراً تنبىء عنه هذه الظلمات التي طبقت أقطار الأرض وأحاطتها بضروب متظاهرة من الإثم والعدوان والأثرة والظلم والفساد.

ومما أجمع عليه أولو الرأي والدين أن الإنسان مهما أوتي من الحظوظ ونال من اللذات فلن يخرج بذلك عن ضعفه ونقصه، ولن يعدو به طوره ولن يزيد عن كونه إنساناً من لحم ودم تعرض له الآفات وتنتابه عوارض الفناء والتغيير، وأنه ليس — وهو بهذه المنزلة — بالقوة المهيمنة على ما سخر للجنس البشري من قوى تيسر سبل الفلاح أو تهدي إلى حياة المجد والسعادة والخلود، وأن القوة البشرية المسيطرة على ما سخر للجنس البشري من وسائل السعادة والخير ليست إلا القوة الروحية، لسلامتها من الأعراض وعلوها على عوامل الفناء وثبوتها على عواصف المسرات والأحزان وقهرها لأحداث الحياة وقدرتها على احتمال فادح الأعباء وثقل الأرزاء. وبمقدار غلبة هذه الناحية على مقابلتها في الإنسان تكون قوته، وبمقدار سير الأمم على آثار هذا النوع من الرجال يكون نصيبها من السعادة والمجد والعزة والفلاح. ولا عجب أن يكون الزهد هو مبعث القوة والمجد، فناشرو لواء العمران وباسطو الخصب والرخاء في مشارق الأرض ومغاربها والذين أحيا الله بهم القلوب الميتة وأيقظ العزائم الهامدة وأشعل الهمم الخامدة، هم أنأى الناس عن الدنيا وأربؤهم بنفوسهم عنها وأبرؤهم من متاعها

وزخرفها، وأبلغهم في الدعوة إلى مجافاتها. فها هو ذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدخل عليه عمر، رضي الله عنه، وهو على حصير قد أثر في جنبه فيقول له: يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوتر من هذا. فيقول له، صلى الله عليه وسلم: «لا، مالي وللدنيا وما للدنيا وما لي. والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»<sup>(١)</sup>. ويعهد إلى أصحابه أن يكون متاع أحدهم أو بلاغه من الدنيا كزاد الراكب<sup>(٢)</sup>، ويوصي معاذ بن جبل، رضي الله عنه، حين بعثه إلى اليمن بهذه الوصية: «إياك والتنعيم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»<sup>(٣)</sup>.

وها هو ذا الخليفة الأول أبو بكر، رضي الله عنه، وقد كان أزهد الناس وأكثرهم تواضعاً في أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه<sup>(٤)</sup>، يظهر زهده من قوته ما لم يستطعه أحد من الرجال فيقسم إذ ارتد أكثر العرب بعد وفاته، صلى الله عليه وسلم، وتسير جيش أسامة أن يقاتلهم على ما كانوا يؤدون من حقوق الله ولو أفرد بقتالهم، وإنه مع هذه القوة التي لا تعباً بكثرة الأعداء إنما يخيفه ويهيجه على البكاء ما يراه من إقبال الدنيا. فقد روى زيد بن أرقم أن أبا بكر، رضي الله تعالى عنه، استسقى فأتي بإناء فيه ماء وعسل فلما وضع على يده بكى ورد الإناء وانتحب، فما زال يبكي حتى بكى من حوله حتى ظنوا أنه لا يسكن ثم سكن. فلما ذهب يمسح عن وجهه ذهبوا يسألونه، فعاد وانتحب وبكى حتى يشوا منه أن يسأله يومهم ذاك، فمسح عن وجهه فذهبوا يسألونه فعاد وانتحب وبكى حتى يشوا منه أن يسأله، ثم سكن فأقبلوا عليه فقالوا: يا أبا بكر، ظننا أن سنقوم اليوم من عندك من غير أن نسألك فما الذي هيجك على ما هيجك؟

- 
- (١) الحلية، لأبي نعيم، ج ٣ ص ٣٤٢؛ والمستدرک، للحاكم، ج ٤ ص ٣١٠؛ والإحياء، للغزالي، ج ٣ ص ١٤٩؛ وجامع السنن، للترمذي، ج ٢ ص ٦٠.  
(٢) المستدرک، ج ٤ ص ٣١٢، ٣١٧؛ والحلية، ج ١ ص ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧.  
(٣) الحلية، ج ٥ ص ١٥٥.  
(٤) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٢ ص ١٩٢.

قال: بينما أنا ذات يوم عند النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يدفع عن نفسه شيئاً بيده ويقول: إليك عني إليك عني. فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما الذي أراك تدفع عن نفسك ولا أرى شيئاً؟ قال: يا أبا بكر، الدنيا تطاولت لي بعنقها ورأسها، فقلت: إليك عني إليك عني. فقالت: أما إنك لئن انفلتت مني فلن ينفلت مني من بعدك. قال: فظننت أنها أدركتني وحالت بيني وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهو الذي هيئني على ما هيئني عليه<sup>(١)</sup>. ودخل عليه عبدالرحمن بن عوف، رضي الله عنه، في مرضه الذي مات فيه فحدثه عما يكون من إقبال الدنيا وقال له: والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا<sup>(٢)</sup>.

وها هو ذا الخليفة الثاني الذي أعز الله به الإسلام وأذل لجنوده الظافرة جيوش الأكاسرة والقيصرة عمر، رضي الله عنه، تقول له ابنته أم المؤمنين حفصة، رضي الله عنها: يا أمير المؤمنين لولبت ثوباً هوألين من ثوبك وأكلت طعاماً هوألين من طعامك، فقد وسع الله عز وجل في الرزق وأكثر من الخير. . فيقول لها: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان يلقي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من شدة العيش؟ فما زال يُذكرها حتى أبكاها. فقال لها: أما والله لئن استطعت لأشاركنها (يعني النبي صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، رضي الله عنه) بمثل عيشهما الشديد لعلّي أدرك معهما عيشهما الرخي<sup>(٣)</sup>. ولقد كان زهد السلف، رضي الله عنهم، وخشونة ملابسهم وجثوبة مطعمهم من أبلغ عوامل الرهبة في قلوب أعدائهم وأؤكد أسباب خضوع الدنيا لهم إلى أن بدأ خلفهم يحبونهم ويتنعمون بها فبدأت الرهبة تزايل قلوب أعدائهم، والدنيا تعز

(١) الحلية، ج ١ ص ٣٠، ٣١، ج ٦ ص ١٦٤.

(٢) الحلية، ج ١ ص ٣٤.

(٣) الحلية، ج ١ ص ٤٨، ٤٩؛ وتاريخ عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ص ١٤٣.

(٤) فتوح البلدان، ص ٤٠٦.

وتمتنع على عمالهم وجنودهم، كالذي رواه البلاذري في فتوح البلدان من أمر رتبيل ملك سجستان، وعمال يزيد بن عبد الملك إذ لم يعطهم شيئاً وقد كان صالح أسلافهم على ألف ألف هبة لهم.. قال لعمال يزيد: ما فعل قوم كانوا يأتوننا خصاص البطون سود الجباه<sup>(١)</sup> من الصلاة نعالهم خوص. قالوا: قرصوا. قال: أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً<sup>(٢)</sup>.

وإن هذا المبلغ الذي بلغناه بعد من تمكن شتى الأمم من ليس إلا من حب الدنيا. وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: من قلة بنيومئذ؟ قال: أنتم ذلك اليوم كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن. قال: حب الدنيا وكراهية الموت<sup>(٣)</sup>. فالضعف إذن ليس في الزهد ولكن في الرغبة، وليس في ترفع المرء عن الحياة وضنه بنفسه عليها، ولكن في ارتكاسه فيها وبذله نفسه لمفاتنها، وليس في القناعة والرضا ولكن في الحرص المعنى والطمع الأثيم، وليس في أن يكف المرء نفسه عن فضول الشهوات ودنيء اللذات ولكنه في الدناءة والفضول، وليس في أن يدع لبني جنسه من البشر ما يتبّلغون به من الزاد ولكن في إتيانه على كل ما تناله يده من رغائب العيش وطيبات الحياة، غير شاعر بحق المعوز ولا متعفف عن بلاغ البائس الفقير. وليس الضعف إذن هو ما يظنه كثير من الناس ضعفاً، بل هو القوة والعزة لأنه بناء المجد المتساند، بل المتماسك، بل المتمازج.. بناء القلوب المتألّفة التي لم تفرق بينها فتن المال والجاه، والأرواح المتعارفة والنفوس المتعاطفة التي لم تخالف بينها أطماع الحياة. والمستقرىء لأحوال الجنس البشري في شدته ورخائه وبأسائه وسرائه يرى أنه ما ذاق الشقاء والبأساء إلا بما اتبع من أرجاس الشهوات وما آثر من دنيء اللذات، وأنه لم يجد الخلاص من شقائه والراحة من عنائه إلا بما أدركه الله به من الدعوات الروحية الصارفة عن متاع

(١) في الأصل سود الوجوه، ص ٤٠٨.

(٢) فتوح، ص ٤٠٨.

(٣) الحلية، ج ١ ص ١٨٢.



هذا العيش القليل ونصيبه الضئيل . نعم، وليس الزهد كف اليد عن العمل والرجل عن السعي ولكنه كفها عما تعبت به أيدي الأئمين وتركض إليه أرجل الخاطئين، وليس قصر الهمة عن الغايات السامية والمثل العالية ولكنه قصرها على هذه المثل دون غيرها، وصرفها إلى تلك الغايات لا لأضدادها، حتى تخضع الحياة كلها لأشرف الأغراض منها، وهو أن تكون وسيلة وسبيلاً إلى المجد الدائم والعيش الكريم، فكيف يكون إخضاع الحياة لأشرف غاياتها والإعراض عن فاني زهراتها إلى الباقي من ثمراتها عزوفاً عن المجد أو انصرافاً عن الحياة أو خولاً وضعفاً أو تواكلاً وخذلاناً؟!

هذا وللزهد — بما يصلح من القلوب ويهذب من الأخلاق — من الآثار العمرانية ما لا يتهيأ إلا به ولا ينتسب إلا إليه، ومرجع ذلك إلى أمور ثلاثة: أولها طيب النفوس ومسرتها، وثانيها أمنها وطمأنيتها، وثالثها رغبتها في خير الجماعة وحرصها على سعادتها.

أما طيب النفوس فلأنه لوخلت الحياة من الزهد الباعث على القناعة والرضا لكانت شرهاً وحسداً يأكلان القلوب ويوهيان القوى ويضنيان الأجسام، وينفثان سموم التشاؤم والأحزان في النفوس فلا تقبل على خير ولا تفعله ولا تبتهج بفلاح ولا تأمله.

وأما أمن القلوب وطمأنيتها فلأن الإنسان إنما يقض مضجعه ويثير هلعه وفزعه أن لا يزال له مغالب على عيشه من بني جنسه يبغيه الغوائل ويناصبه العداء فيبدد همته ويفرق فكرته ويطيش صوابه.

وأما الرغبة في خير الجماعة والحرص عليها فلأن الزاهد قد يسمو بهمته إلى أن يسخر كل مساعيه عن طيب نفس وقرة عين لخير إخوانه وأمته، وقد يرتقي فوق ذلك فلا يسره خير يعود على ذات نفسه دون شركة لأمته فيه . وقد يجاوز هذا المرتقى صاعداً بهمته إلى سماء السماحة المطلقة فيرى أن ما يعود على خاصة نفسه ما هو إلا الشر بعينه مهما طاب وزكا، وأن الخير الخالص ليس إلا فيما يعم إخوانه من بني الإنسان ولو حمل وحده في سبيله صنوف النصب وألوان العناء . .

وصدق يزيد بن أبان الرقاشي إذ يقول: للأبرار هم تبلغهم أعمال البر وكفاك  
بهمة دعتك إلى خير خيراً<sup>(١)</sup>.

ووصف آثار الزهد العمرانية مما لا يستطيع ولا يمكن الإحاطة به، وقد  
ألمنا بطرف منه يدل إن شاء الله على سائره فلا دعه إلى أمرين آخرين يرجعان  
إلى سر الاختيار:

أحدهما، وهوة أجلهما خطراً وأبعدهما أثراً، يتعلق كل التعليق بكيد  
أعداء هذا الدين الخفيف له ولغوهم فيه رجاء أن يصرفوا عن الخير والنور وأن  
يوجهوا إلى الشر والظلام؛ فقد أقاموا لأنفسهم جماعات شرقية أو مستشرقة تتظاهر  
بالعناية بالأدب ونشر نفائسه وتُسِرّ وراء ذلك الكيد للإسلام والمسلمين. وقد كان  
من صور ذلك طبعهم لديوان شاعر المكارم الإسلامية وداعيتها البليغ طبعاً  
قصدوا به إلى حذف ما يدحض عقيدتهم الأثمة في التثليث، وما يغصون به من  
مدائح النبوة وحسن ثنائه على مؤيد الأنبياء ومصدقهم وراذ كيد الأمم الكافرة  
عنهم، رسول الله إلى الناس كافة، محمد، صلى الله عليه وسلم. وقد لا يستطيعون  
وصل الكلام بعد قطعه بهذا الحذف، أو لا يستطيعون هذا الحذف من أصله  
لشدة استدعاء السياق إياه فيلجأون إلى تبديل اللفظ الشريف بغيره تبديلاً  
يضيف إلى خياناتهم الدينية خيانات علمية تجمع على ذمهم ومقتهم مختلف  
الأسلحة وشتى القلوب، إلى جهل فاضح بمقاصد الشاعر ينبىء عنه عنونتهم  
لأشعاره عنونة يعوزها الإمام ببواعث هذا الشعر التي وجهت الشاعر وصورته  
مقاصده في نفسه؛ إلى عيٍّ ظاهر في تبديل الألفاظ مع ظهور معانيها ظهوراً يقطع  
الريب ويحسر الأوهام. والعجب من جرأتهم إذ يصرحون بنقلهم هذا الديوان  
عن ديوان النمري ومصادر غيره مع أن هذا الديوان وحده كفيل بوصف هذه  
الفضائح والمقايح. ومن الطرافة بمكان أنهم يأتون إلا أن ينتسبوا إلى المسيح،  
عليه السلام، وينزلوا أنفسهم من الناس منزلة الآباء من الأبناء، فلا تكاد تجد  
لهم مؤلفاً إلا بعنوان ألفه أو جمعه الأب فلان أو أحد الآباء اليسوعيين، كما في

---

(١) الخلية، ج ٢ ص ٥١.

عنوان هذا الديوان. وقد كان لهم بعض ما يحبون فغفل الناس عن غلولهم واغتروا بظاهر أمرهم وظلوا كذلك أكثر من ستين عاماً. فقد طبع هذا الديوان في سنة ١٨٨٦م ولم يعن أحد بنشره على صورة أصله الوسيمة التي براه الله عليها، ولم يعن أحد من دارسي شعره بإنباه الناس إلى هذا الكيد الأثيم فحرموا أنظارهم من استجلاء بعض مجالي الحق ومظاهره، وأذواقهم من بعض بدائع الأدب وروائعه، وستجد إن شاء الله في باب «الدواعي والأغراض» طرفاً مما وصفت. وفي باب «الرواية» خاصة وصفاً جامعاً لما ذكرت، وهذا الوصف بلا ريب سبب من أكد أسباب الاختيار.

أما الثاني من الأمرين، فهو راجع إلى نكد هذه الحياة الدنيا، وضيق صدرها بالخير، وسوء تلقيها له وزهدا فيها وعزوفها عنه وصدها عن سبيله ومحوها لآيته وقطعها عن غايتها، فستجد في الباب الرابع إن شاء الله، أن كثيراً من رواة الشعر والأخبار — ممن لا يستحبون الزهد والحكمة على الخلاعة والمجون أو ممن غلبتهم العصبيات المذهبية على ما ينبغي من الإنصاف — قد وقفوا لأبي العتاهية بالمرصاد فطعنوه كل مطعن في زهده ودينه وخلقه ورأيه، فدنسوا دعوته البيضاء الناصعة وشوهوا مقاصده الحسنة الرائعة فأثاروا حوله من غبار الريب والشكوك ما غمى على أبصار كثير من الناس في القديم والحديث، فأخذوا يرددون مقالاتهم ثقة منهم بهؤلاء الرواة وحسن ظن بهم، وإنها الثقة في غير موثق وحسن ظن بغير أهل البر والإحسان. وبدهي أن الوقفة في وجوه هؤلاء مع قلة الأنباء عن غير طرقهم لرد سهامهم وكشف غماتهم وتفنيد مزاعمهم تقتضي بلا ريب وصف هذه المطاعن وبيان منازعها ومقاصدها، وهو غير ميسور ولا متقبل إلا بعد تصور أخلاق الشاعر وتبين أطوار نفسه والأمور الباعثة لفنون شعره، وهذه كلها هي لباب الباب الثالث وهو باب الدواعي والأغراض فكان هذا الدفاع هو الغرض من الباب الذي يليه.

وأريد أن أحظى من ثقتك بمذهبي في هذه الرسالة وأنا لا أزال أعرض عليك مقدمتها ما يعينني على القول، ويؤيدني في موقفتي العصيب العسير في وجه هذا السيل الغامر من الطعن والتشهير بشاعر الفضائل والمآثر والإيمان والإحسان

على أنني — بما أثرته من وصف جميع شأنه في مجونه ورغبته قبل وصفه في زهده وحكمته — خليق بأن تحظيني بهذه الثقة الكريمة والتأييد الشريف، فإنني بوصف أوائل حاله على وجهها وهي، مؤيدة لسوء الظن به، ملاق لأسود كواسر ووجوه سوافر؛ وقد كان بودي أن أستأثر لنفسي بنصيب من وقتي فأقصر البحث على ما غلب على الرجل وانتهى إليه أمره من الأحوال الطيبة الزكية لولا أني خشيت وأنا أزيه، غير متهم، أن تكون صورتي في العيون صورة من يعنل في غير معمل أو ينفخ في غير فحم، فإن لم تجد في نفسك ما أنا به متعلق وله مؤمل وعليه حريص فأنا جدير منك، إن شاء الله، بأكثر مما أملت فيك. كيف لا وقد تركتني لوحشة تزل القدم وتبسط الهمم وتثير في النفس الفزع والوجل، وقطعتني عن أملي وصرفتني عن رجائي وأفردتني بحمل أعباء ثقال ألقى بها على كاهل الحقيقة والتاريخ هذه الكثرة المتظاهرة من القدماء والمعاصرين.

وأنا بعد هذا كله إنما أصف ما أعتقد وأدلل على ما أرى، وقصري في ذلك وقصدي منه كما يقول الأول:

لأبلى عذراً أو لأبلغ حاجة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح  
وإني أضرع إلى الحق، جل وعلا، أن يحيينا على الحق ويعيننا. عليه وبيعتنا  
تحت لوائه ويثبتنا به، كما يثبت الدين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي  
الآخرة، فإنه تبارك وتعالى هو الحق المبين، الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

د. محمود فرج العقدة



الباب الأول

في  
عصر أبي العتاهية، وبيئته



## القسم الأول من الباب الأول

### في عصر أبي العتاهية

وهو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان المولود سنة ثلاثين ومائة المتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين على أقصى الأقوال فيها. وفيه فصول:

الفصل الأول: في وصف الحالة السياسية.

الفصل الثاني: في وصف الحالة الاجتماعية.

الفصل الثالث: في وصف الحالة العلمية والأدبية.

ووجه الحاجة إلى وصف هذه الأحوال راجع إلى آثارها النفسية والعقلية واللسانية إلى الحد الذي وصفه عمر، رضي الله عنه، بقوله: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم»<sup>(١)</sup> وهو قول حق، فإن لشؤون الحياة في ملابس المشاعر والأفكار وغيرها وإمدادها بالمعاني والأخيلة وتوجيهها وجهات موافقة أو مقابلة ما هو ظاهر في جميع آثار الناس وأحوالهم، لا في الأدب وحده بل في جميع الشؤون النظرية والعملية. فدراسة عصر الرجل إذن دراسة إجمالية له أو عون عليها وتيسير لسبيلها إن شاء الله فبالله نستعين.

\* \* \*

---

(١) عيون الأخبار، ج ٢ ص ١؛ وتاريخ عمر بن الخطاب، ص ١٤٤.





في  
الحياة السياسية

صعد الخليفة الأول من بني العباس، وهو أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الملقب بالسفاح، منبر الكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر<sup>(١)</sup>، وقيل في النصف من شهر جمادى الآخرة من سنة اثنين وثلاثين ومائة فقال:

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرامة، وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوام به والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته، ثم ذكر ما لأهل البيت من الفضل والحق الذي نطقت به آيات القرآن الكريم، وردّ مزاعم القائلين بأن غيرهم أحق منهم بالرياسة والسياسة والخلافة، ثم فخر وحق له الفخر بما فتح الله لمحمد صلى الله عليه وسلم منّة ومنحة من هدي الناس بعد ضلالتهم، وتبصيرهم بعد جهالتهم، وانقاذهم بعد هلكتهم، وجمعهم بعد فرقتهم، حتى عادوا أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، وأثنى على القائمين بالأمر من أصحابه، صلى الله عليه وسلم بأن أمرهم شورى بينهم وأنهم حووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خاصاً منها، ثم ذكر وثوب بني حرب ومروان عليها وابتزازهم لها وتداولها بينهم،

(١) مروج الذهب، ج ٣ ص ١٨١ .

وجورهم فيها واستثأرهم وظلمهم أهلها مما آسفوا به الله سبحانه وتعالى بعد أن أملى لهم. ثم قال: فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا. ثم قال: وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. ثم أثنى على أهل الكوفة أطيب الثناء وبشرهم بدولتهم وزاد في أعطياتهم، وأمرهم أن يستعدوا إذ كان لم يقض على بقية بني أمية ومروان بعد، ووصف نفسه لهم بأنه هو السفاح المبيح والناثر المبير<sup>(١)</sup>، وكان موعوكاً فاشتد به الوعك فجلس وصعد دونه فقام على مراقي المنبر عمه داود بن علي فقال:

الحمد لله شكراً شكراً الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أيها الناس الآن اقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من ميزغه وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، إنا والله ما أخرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا، ولا لنحفر نهراً ولا لنبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم. ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم، واستثأرهم بفيئتكם وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. ثم أعطاهم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس، رضي الله عنه، أن يحكموا فيهم بما أنزل الله، ويعملوا فيهم بكتاب الله ويسيروا في العامة والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم عاد إلى بني أمية وبني مروان فدعا عليهم بالتباب، ووصفهم بإثارة العاجلة على الآجلة وبركوب الأثام وظلم الأنام وانتهاك المحارم وغشيان الجرائم والجور في السيرة، وما ذكر من استلذاذهم تسربل

(١) تاريخ الطبري، ج ٦ ص ٨١ - ٨٣.

الأوزار وتجلبب الأصار، والمرح في أعنة المعاصي والركض في ميادين الغي جهلاً باستدراج الله وأمننا لمكر الله مما أتاهاهم به بأس الله بيئاً وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق. ثم بشر أهل الكوفة بهذا النصر كما فعل صاحبه، وأعلن أنها دولة خراسانية فقال: إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاه الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا؛ وذكر أن هذا الأمر فيهم ليس بخارج منهم حتى يسلموه إلى المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم. وختم كما افتتح بالحمد لله رب العالمين<sup>(١)</sup>.

وقد تضمنت هاتان الخطبتان من وصف أسباب هذا الانقلاب العظيم ووصف دستور هذه الدولة وصفاً أقر العيون وطمأن القلوب وأحيا الآمال، إلا أن تعميم الحكم على أهل الدولة الذاهبة يتضمن من الجور ما تخفف منه الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور إذ يقول: أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما صنع، وأما سليمان فكان همته بطنه وفرجه، وأما عمر فكان أعور بين عميان، وكان رجل القوم هشام، ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ويصرفون ما وهب الله لهم مع كسبهم معالي الأمور ورفضهم أدانيها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جل وعز جهلاً منهم باستدراجه، وأمناً منهم لمكره، مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة، وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز، وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة<sup>(٢)</sup>. ولم يكن أبو جعفر أيضاً مقسطاً فيما يقول. فلم يكن عمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنه، أعور بين عميان بل كان من الراشدين الأبرار ومن أولى الأيدي والأبصار، وصدق الشافعي، رضي الله عنه، إذ يقول: الخلفاء الراشدون خمسة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز<sup>(٣)</sup>. ونحوه عن سفيان الثوري<sup>(٤)</sup>.

(١) تاريخ الطبري، ج ٦ ص ٨٣، ٨٤.

(٢) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢١١.

(٣) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١١٢.

(٤) حلية الأولياء، ج ٧ ص ٣٢.

وإنما كان رجل القوم هشام عند أبي جعفر لخصلتين جمعتهما بينهما: البخل والقسوة على آل البيت. ولبخل هشام الذي استن الناس به في عهده مثالان في شذرات الذهب<sup>(١)</sup>، وقتله زيد بن علي بن الحسين، رضي الله عنهم، وصلبه وحرقه معروف مشهور. أما احتجان أبي جعفر الأموال فستأتي الإشارة إليه، وله نوادر مشهورة في البخل منها: طائفة في تاريخ الطبري<sup>(٢)</sup>. وأبو جعفر هو الذي أنزل ببني عمه العلويين ما يهد الجبال كما سيأتي وصفه، وهي خلة نبتت في رأسه منذ استقرت الخلافة لأخيه السفاح وقد حضه على القسوة عليهم فأبأها أبو العباس بقوله: من شدد نفر ومن لان تألف<sup>(٣)</sup>. وعن الهيثم بن عدي والمدائني وغيرهما ان المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره، وسياسته متبعاً لهشام لكثرة ما يستحسنه من أخباره وسيره<sup>(٤)</sup>. وأدهى من ذلك وأمر أنه كان يستحسن سيرة الحجاج ويقول: والله لوددت أني وجدت مثل الحجاج حتى أستكفيه أمري وأنزله أحد الحرمين<sup>(٥)</sup>. ومن العجيب أنه لولا جور مثل الحجاج ما أسرع الأمر لبني هاشم ثم إلى أبي جعفر. وقد كاد يقطعنا الحديث عن أبي جعفر عن السياق، ولكنه حبیب إلى النفس أن ينقطع للزيادة عن الرجل الصالح عمر بن عبدالعزيز الذي جار عليه أبو جعفر إذ جعله أعور بين عميان واستحسن سيرة غيره من الجائرين. فلنعد إذن إلى أثر خطبتي الفتح والنصر العباسي في النفوس، فبدهي أنه كان لهما من حسن الوقع وعظيم الأثر ما لا يبلغ وصفه ولا يدرك كنهه. كيف لا وقد أقبلت بهما القلوب على ما غرب من مسراتها وما انقطع من آمالها، وتهبأت لكل رغد في العيش وصلاح في الدين وثبات وتمكين للعدل القويم. وأشرقت الوجوه بالمسرات والبشريات بعد عبوس لازمها، من مثل مصرع الحسين في ثلاثة عشر من أهل بيته<sup>(٦)</sup> وحفيده زيد ويحيى بن زيد بسيوف

(١) شذرات، ج ١ ص ١٦.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٣١٧ - ٣٢٠.

(٣) شذرات، ج ١ ص ١٩٥.

(٤) شذرات الذهب، ج ١ ص ١٦٥.

(٥) الطبري، ج ٦ ص ٣١٥.

(٦) الخلية، ج ٣ ص ١٣٨.

يزيد بن معاوية وهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد، وانشرحت الصدور  
الخرجة من حسراتها وارتاحت النفوس المثقلة بعظيم آرزائها:  
وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر

وقد كان لهؤلاء المنتصرين من بيت النبوة الكريمة وما عرف لأسلافهم من  
حسن السيرة وطيب الذكر والأثر ما جمع القلوب على سعادة روحية مشرقة بمعاني  
الخير والإيمان والقوة ساطعة بالمنى والآمال والمثل العوال، ومن شأن هذه السعادة  
لودامت أن تهىء بجماها لفتوح إسلامية سلمية دائمة وببأسها لفتوح حربية  
حاسمة، ومن شأنها أن تسهل الحزن وتيسر العسير وتجتاز كل حد عجزت  
جيوش بني أمية لما شغلها من الفتن عن اجتيازه وأن تطوي كل قطر قعدت بهم  
همهم عن ارتياده، وان تنشر نور الله في كل أفق من آفاق الأرض المظلمة  
بدياجير الملل الفاسدة والنحل الكاسدة، وأن توحد الكلمة على كلمة التوحيد  
وتجمع الناس على هذا الهدى الجديد، وتحرر العقول من أوهامها وتبرىء النفوس  
من آثامها وتشفي الأمم من أسقامها وآلامها، قبل أن تتضعض همهم المسلمين  
أوقبل أن تحول فضائلهم فلا يصلحوا جنوداً ظافرة ولا قدى صالحة ولا مثلاً  
ظاهرة لحقيقة هذا الدين الكريم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد  
كان للمسلمين آئذٍ من القوى المادية التي توازر قوتهم الروحية ما لا نظير له على  
وجه الأرض، فقد طووا من قديم تحت جناحيهم إلى بلادهم العربية ملك كسرى  
وما لقيصر في بلاد الشرق كمصر والشام ووصلت فتوحهم إلى بحر الظلمات،  
(المحيط الأطلنطي) وامتلكوا الأندلس وأخذوا غربي الهند وزاحموا أعاجم  
الشمال كالترك والخزر والديلم في بلادهم وألزمهم بأداء الجزية.

وها هو ذا نصر الأحبة يجعل من كل رجل أمة ومن كل مؤمن همة، ويصل  
بالإسلام والمسلمين إلا قليلاً من ذوي السلطان الذاهب أو المتدبرين بطرف  
الغيب لما وراء هذه السعادة التي جلاها للناس داود بن علي، وأضفى عليها من  
العبارات المشرقة والكلمات الباسمة ما سبق من مثل قوله: الآن اقشعت  
حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها من أمور تقصم  
الظهور وتخرج الصدور. وليته كان حقاً دائماً ما قال، فها هي ذي سحائب الفتن

تعرض النور فتحبسه في سمائه، وسخائم الإحن تنقص من سعادة كل قلب أو تصرفه عن رجائه، وسهام المحن ترمي العزم فتكفكف من غلوائه، وتشتد الأمور على أهل الورع والدين فيبغضون هذه الدولة ويتمنون لها الزوال فيقول مثل سفيان الثوري وكان كثيراً ما يقوله: اللهم ابرم لهذه الأمة أمراً رشداً يعز فيه وليك، ويدل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك ورضاك، ثم يتنفس ويقول: كم من مؤمن قد مات بغيظه<sup>(١)</sup>.

أما مبدأ هذه المحن وما إليها من الأمور التي ما زالت تعمل في كيان هذه الدولة حتى آلت إلى أسوأ مآل فما شرعه أبو جعفر لخلفائه من الاستئثار دون الطالبين بالخلافة وجعلها وراثية في بيته، وكان قبل ذلك أمرهم واحداً<sup>(٢)</sup>، وضربه الأمة بعضها ببعض ليخلص له الأمر، واحتجانه الأموال لإشعال الفتن أو إطفائها، وإمعانه في تقديم العجم على العرب إلى أن صار الأمر كله للعجم.

وقد كانت خلافة أبي جعفر مبكرة. فقد أسرع إليه الأمر بوفاة أخيه أبي العباس في سنة ست وثلاثين ومائة فكان في ذلك إيذان بما كان من الأحداث الجسام، فقد شهر على البقية الزكية من أولاد فاطمة، رضي الله عنهم، ما أغمد من سيوف بني أمية ومروان، ونسي انهم أمس منه رحماً برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأحق قرابةً بالأمر وأولاهم بالرعاية والمودة والعطف، وأقربهم إلى قلوب المسلمين، وأخذهم بالغدر والظنة وقتلهم بالحسد والغيرة وتجاوز معهم كل ما صنعه أعداؤهم الغابرون. لا جرم أن جاف جبروته عليهم وبطشه بهم بين الجنوب وبين مضاجعها، وفرق بين القلوب وبين مسراتها وطمأنيتها، ومحا بشاشة النصر وحلاوته، وبدل هذه السعادة التي ملأت القلوب قوة وأملاً حسرات وأحزاناً تثبط الهمم وتوهن القوى وتضني الأجساد وتكبل العزائم المتوثبة إلى أقصى الفتوح وأقصى الجهاد، ففي سنة أربع وأربعين ومائة حج المنصور بالناس وأهمه شأن محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن وأخيه

(١) الحلية، ج ٧ ص ٨١.

(٢) مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٤١.

إبراهيم لتخلفهما عن الحضور عنده، فوضع عليهما العيون وبذل الأموال وبالغ في تطلبهما وقبض على أبيهما فسجنه في بضعة عشر من أهل البيت بعد أن حملهم إلى العراق على المحامل المكشوفة مثقلين بالقيود والأغلال، ثم مرّ بهم في قبته وهم على تلك الحال فصاح به عبدالله بن حسن: يا أبا جعفر، ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر. وصدق عبدالله فإن جده محمداً، صلى الله عليه وسلم، أخذته السهاد لأنين العباس في القيد حتى خَفَّف عنه، ثم كان الفداء. وروي أن أبا جعفر طرحهم في بيت وطيَّن عليه، حتى ماتوا. وروي أن الموت إنماتم على سبعة منهم بأن حبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل وأنهم كانوا يتوضؤون في مواضعهم فاشتدت عليهم الرائحة. وكان الورم في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه. وأنهم لما حبسوا في هذا الموضع فأشكلت عليهم أوقات الصلاة جزؤوا القرآن خمسة أجزاء فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه<sup>(١)</sup>.

وقد كان فيما صنع أبو جعفر مع عبدالله وأهل بيته ما أثار ثائرة كثير من المسلمين فبايعوا لمحمد بالخلافة في الحجاز والشام واليمن والعراق وفارس والأهواز وغيرها، وقامت بينه وبين محمد في الحجاز وإبراهيم في العراق حروب قاسية انتهت بقتلهما في سنة خمس وأربعين. ومن العجيب مع هذا ما يروى من أن المنصور كان هو والسفاح من الدعاة لمحمد بن عبدالله هذا<sup>(٢)</sup>، وهي رواية لم ينكرها ابن خلدون وميوله العباسية معروفة مشهورة. قال في العبر: حين اضطرب أمر مروان بن محمد اجتمع بنو هاشم وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة فاتفقوا على محمد بن عبدالله بن الحسن المثنى بن علي، وكان يقال: إن المنصور ممن بايعه تلك الليلة<sup>(٣)</sup>. وقد كان الناس متعلقين بمحمد لما روي من أنه كان أشبه الناس خلقاً وخلقاً بجده محمد، صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>، وكان

(١) شذرات الذهب، ج ١ ص ٢١٣؛ والطبري، ج ٦ ص ١٧٤؛ ومروج الذهب، ج ٣ ص ٢٢٥؛ يكمل بعضها بعضاً.

(٢) شذرات، ج ١ ص ٢١٣.

(٣) العبر، ج ٣ ص ١٨٧.

(٤) الشذرات.

يلقب بالمهدي والنفس الزكية لزهده ونسكه<sup>(١)</sup>، ويوجه هذه الرواية أن أصل الدعوة كانت للعلويين والشيعة شيعتهم؛ وسبب قيام العباسيين آخر الأمر بالدعوة أن الإمام أبا هاشم بن محمد بن الحنفية حضرته الوفاة ولا عقب له فأوصى إلى محمد بن علي والد المنصور والسفاح، ودفع إليه كتبه وصرف الشيعة إليه. فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده إبراهيم المعروف بالإمام، فلما حبسه مروان بن محمد وعرف أنه مقتول أوصى إلى السفاح<sup>(٢)</sup>. ولا تنافي بين إمامة السفاح ومبايعة محمد بن عبدالله فهي إمامة للدعوة لا تخرج الأمر عن الشوري بين آل البيت حين تؤتي الدعوة إلى الرضا من آل محمد ثمرتها لاختيار الأصلح للخلافة.

وليت أمر أبي جعفر وقف عند هذا الحد، فقد استحل لنفسه بعد أن أخذ عبدالله بن حسن ومن معه أن يصعد المنبر فيوجه القول إلى أهل خراسان بأن العباسيين خير من ولد علي بن أبي طالب، ويزعم انهم أهل الخلافة ووارثو النبي، صلى الله عليه وسلم، بل يتجاوز ذلك إلى النيل من علي، رضي الله عنه، وتشنيعه عليه بقبوله التحكيم، ومن ولديه: الحسن بما ذكر من خدع معاوية له وغير ذلك، والحسين بخدع أهل العراق وأهل الكوفة له، ومن زيد بن علي بن الحسين لمثل ما ذكره من أمر الحسين. بل انه يصف أنصاره الذين بشروا بالنصر وبأن الأمر لهم وزيدوا في اعطياتهم بمثل قوله في أهل العراق والكوفة «أهل الشقاق والنفاق والاغراق في الفتنة.. أهل هذه المدرة السوداء — وأشار إلى الكوفة»<sup>(٣)</sup>.

وقد سن أبو جعفر بأثرته على بني عمه لأبنائه المهدي والهادي والرشيد هذه السنة في اضطهاد بني عمهم، إلا أن الأمور كانت أهدأ في عهد المهدي فلم يقتل منهم أحداً إلا بعض دعاةهم، وهو أبو حاضرة داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد على خلاف في قاتله: أهو المهدي أو الرشيد سيأتي في الباب الثالث إن شاء الله. وأشد ما عرف عن المهدي ما روي أنه مكث برهة من دهره يطلب عيسى بن

(١) مروج، ج ٣ ص ٢٢١؛ تاريخ أبي الفداء، ج ٢ ص ٣ بإدماج بينهما.

(٢) شذرات، ج ١ ص ١٦٦.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٣٣٤.



زيد والحسن بن إبراهيم بن عبدالله بن حسن بعد هروب الحسن من سجنه، فقال يوماً: لو وجدت رجلاً من الزيدية له معرفة بآل حسن وبعيسى بن زيد وله فقه فأجلبه إلي على طريق الفقه فيدخل بيني وبين آل حسن وعيسى بن زيد. فدل على يعقوب بن داود فاستوزره وفوض إليه أمر الخلافة، فأرسل إلى الزيدية فأتى بهم من كل أوب وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل<sup>(١)</sup>. وقد كانت مكيدة عظيمة من المهدي، فقد دفع إليه أحد العلويين ليقتله بعد أن أهدى إليه جارية أوصاها بأن تحبّه بما يفعل، فساعده على الهرب فأبلغت المهدي، فأمر بمن لحق بالعلوي وأحضر يعقوب، فأمر أن يحبس في المطبخ مدلى في بئر لا يعرف الليل من النهار حتى ذهب بصره، ولم يخرج إلا في عهد الرشيد ليل كان له إليه في حياة أبيه. وأمر المهدي بحبس أهل بيته وعزل أصحابه فاختلفوا وتفرقوا في البلاد<sup>(٢)</sup>. وفي عهد الهادي كان ظهور الحسين بن علي بن الحسن المثنى بالمدينة وكان معه جماعة من أهل بيته، وقد بويع على كتاب الله وسنة نبيه، وكان ذلك في وقت الحج فقاتله طائفة من بني العباس ومن كان معهم من شيعتهم ومواليهم، فقتل واحتز رأسه وجمع معه من رؤوس أصحابه ورؤوس أهل المدينة ما يزيد عن مائة رأس<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد الرشيد سار يحيى بن عبدالله بن حسن أخو النفس الزكية إلى الديلم فظهر أمره هناك، فأرسل إليه الرشيد جيشاً بقيادة الفضل بن يحيى، فكتبه الفضل وبذل له الأمان وما يختاره، فأجابه يحيى إلى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكابر. ففعل ذلك وحضر يحيى إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيراً ثم أمسكه وحبسه حتى مات في الحبس<sup>(٤)</sup>. وفي حبسه أيضاً توفي موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين. وكان يلقب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسيء إليه. وأشد من ذلك قتله

(١) الطبري، ج ٦ ص ٣٨٢.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٣٨٤ - ٣٨٦، باختصار.

(٣) أبو الفداء، ج ٢ ص ١١؛ والشذرات، ج ١ ص ٢٦٩.

(٤) أبو الفداء، ج ٢ ص ١٣.

غيلة إدريس بن عبد الله بن الحسن الفار بعد المقتلة الأنفة في عهد الهادي إلى طنجة في بلاد المغرب؛ فقد أرسل الرشيد إليه من تودد إليه وداخله حتى سمّه، وابنه إدريس هو منشئ دولة الأدارسة<sup>(١)</sup>. وذكر أبو الفلاح في أحداث سنة إحدى وسبعين ومائة أن الرشيد أمر بإخراج الطالبين إلى مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup>، ونحوه في تاريخ الطبري باستثناء واحد<sup>(٣)</sup>. وتحرك تسعة من العلوية باليمن فكتب والي الرشيد إليه بأمرهم وخوفه من الشافعي، رضي الله عنه، وقد كان في اليمن في هذا الحين فكتب إليه أن يحملهم إليه جميعاً. قال الشافعي: فلما قدمنا عليه دعا بالنطع والسيف وضرب رقاب العلوية<sup>(٤)</sup>. وفي عهد الأمين حدث خلاف بينه وبين أخيه المأمون على الخلافة وولاية العهد فانحاز المأمون إلى الشيعة من أهل خراسان وأظهر لباس الخضره وهولباس العلويين وأبطل لباس السواد وهولباس العباسيين، وجعل ولي عهده من العلويين وسمّاه الرضا من آل محمد، صلى الله عليه وسلم، استجابة لأصل الدعوة وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن زين العابدين، وكان ذلك في سنة إحدى ومائتين. ولم يلبث ولي العهد أن توفي في سنة ثلاث ومائتين بسبب ظاهره الإكثار من أكل العنب كما هي رواية الطبري<sup>(٥)</sup> وغيره، ولا يعلم خفاياه إلا الله. ولم يلبث المأمون أيضاً أن عاد إلى لبس السواد في سنة أربع ومائتين ثم صرف الخلافة إلى أخيه المعتصم فقطع السبيل ثانية على العلويين. وإن المتأمل في هذه الأمور ليقن بما قيل من أن المنصور وأبناءه ساسوا الأمة بسياسة الملوك، وإن المتأمل فيها أيضاً ليوافق بما كان بين آل حرب ومروان من تواصل وتراحم ومواساة في الأمر ومفاوضة في الخلافة لا يكاد يقضي العجب من تضييع بني العباس لما حفظه آل حرب وآل مروان.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤.

(٢) شذرات، ج ١ ص ٢٧٩.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٤٤٥.

(٤) معجم الأدباء، لياقوت، ج ١٧ ص ٢٨٧.

(٥) الطبري، ج ٧ ص ١٥٠.

## إجحاف بني العباس بالعرب:

قد رأيت في خطبة داود بن علي أنه أضاف هذا النصر إلى أهل خراسان وله نظير في استهلال المنصور في خطبة التشنيع على العلويين إذ يقول: يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا<sup>(١)</sup>. والحق أن العباسيين حين قلبوا أمورهم من قبل لم يروا أهلاً لثقتهم وآمالهم إلا أهل خراسان، فقد قال محمد بن علي بن عبدالله بن عباس لرجال الدعوة حين اختارهم للدعوة وأراد توجيههم: أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول: كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام، فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، عداوة لنا راسخة وجهاً متراكماً، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر. . ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وصدوراً سليمة، وقلوباً فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل، ولم تشغلها ديانة ولم يتقدم فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات، وكتحالف القبائل وعصبية العشائر؛ ولم يزلوا يداون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون الدول وهم جند لهم، أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب، وأصوات هائلة ولغات فحمة تخرج من أفواه منكرة. وبعد، فإني أتفائل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق<sup>(٢)</sup>.

ولا ينبغي أن يعد هذا التعظيم والتفخيم لأهل خراسان إلا ملقاً لهم وتقرباً إليهم، ولا يصح منه إلا ما وصفه الإمام من كثرتهم وجبروتهم وتمنيهم التحرر من عصبية بني أمية والعرب عليهم، لا بل تشفيهم من سألبي ملكهم ومستذلي رقابهم. ولم يكن الخراسانيون إلا طلاب سيادة وجاه وعز قديم،

(١) الطبري: ج ٦ ص ٣٣٣.

(٢) عيون الأخبار، ج ١ ص ٢٠٤.

ولم يكونوا كما ذكرهم من أنهم لم تتوزعهم النحل ولم تتقسمهم الأهواء، بل كان فيهم بقية من المانوية والمزدكية مالبثوا أن داخلوا هذه الدولة مداخله ظاهرها الإسلام وباطنها الكيد له، ولم يزالوا ينفثون في هذه الدولة من سموم الفناء والفساد ما انتهى إلى أسوأ مآل. ويصور لنا حقيقة هؤلاء الخراسانيين ما كتبه نصر بن سيار والي بني أمية على خراسان وقد بلغه انجفال الناس على أبي مسلم الخراساني، وكانوا زهاء مائة ألف رجل مسودي الثياب، إلى ربيعة واليمن ولم يأمن انحيازهم إليه لما كان بينهم وبين قوم من مضر من العصبية والقتال:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها      أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب  
مبالكم تلقحون الحرب بينكمو      كأن أهل الحجاء عن فعلكم غيب  
وتتركون عدواً قد أظلكمو      ممن تاشيب لا دين ولا حسب  
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم      ولا صميم الموالي إن همونسبوا  
فمن يكن سائلي عن أصل دينهمو  
فإن دينهمو أن تهلك العرب  
قوم يدينون ديناً ما سمعت به

عن الرسول ولا جاءت به الكتب<sup>(١)</sup>

وما كتب به إلى مروان بن محمد:

أرى خلل الرماد وميض نار      ويوشك أن يكون لها ضرام  
فإن النار بالعودين تذكي      وإن الحرب أولها الكلام  
أقول من التعجب ليت شعري      أيقاظ أمية أم نيام  
فإن كانوا لحينهمو نياماً      فقل قوموا فقد حان القيام  
ففري عن رحالك ثم قل لي      على الإسلام والعرب السلام<sup>(٢)</sup>

(١) الأخبار الطوال: للدينوري. ص ٣٤٣ و ٣٤٤؛ والكامل: لابن الأثير. ج ٥ ص ١٣٧.

(٢) مروج الذهب، ج ٣ ص ١٧٠؛ والإمام والسياسة، ج ٢ ص ١٢٥.

والظاهر أن عصبية العجم على العرب لم تكن تابعة لتشيّعهم لآل البيت، بل كان التشيع تابعاً لها ووسيلة من وسائلها، وقد يكون لهم بعض العذر في ذلك أو قد يرفع عنهم بعض الإصر فيه ليقع على أكتاف بني أمية والعرب. والعجب أن أصل العصبيتين الأموية للعرب والعصبية للعجم، ليس إلا إعزاز فريق ليرضى عن تنحية أحق الناس بالأمر عنه، وإذلال فريق حتى لا يرتفع له صوت. وما جاء بشيء من هاتين العصبيتين كما لم يجيء بالاثرة والاستبداد بالأمر هذا الدين الخفيف، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». وإنك لتجد هذه العصبية السياسية ظاهرة في قول معاوية، رحمه الله، لوفد أهل العراق: مرحباً بكم يا معشر العرب، أما والله لئن فرقت بينكم الدعوة لقد جمعتكم الرحم، إن الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم، ثم حفظ الله عليكم نسبكم بأن تخير لكم بلاداً تختار عليها المنازل فلا تدنسوا أنسابكم وأعراضكم، فإن الحسن حسن لقربكم منه، والقيس قبح لبعدهم عنه<sup>(١)</sup>. ولقد كانت عصبية معاوية سنة بني أمية والعرب، بل تجاوزتها إلى أبعد الغايات. قال الراغب الأصفهاني: كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء، فرأى مولى، دفعه إليه ليحمله معه، فلا يمتنع ولا السلطان يغير عليه، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزله فعل، وإذا رغب أحدهم في مناكحة مولاة، خطب إلى مولاها دون أبيها وجدها. ولا يقولون للمولى كريم ولا حبيب، وإنما يقولون فاره<sup>(٢)</sup>، إلى كثير من مظاهر الخيف على العجم ذكرها الراغب في هذا المقام.

وقد تجاوزت هذه العصبية العربية أمور الجاه والسلطان إلى ما هو من صميم الدين كالإمامة والقضاء، وقد امتن الحجاج على سعيد بن جبير حين

(١) زهر الآداب، ج ١ ص ٨٧ و ٨٨.

(٢) محاضرات الراغب الأصفهاني، ج ١ ص ١٦٨.

أراد قتله بقوله: أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربي فجعلتك إماماً، فقال: بلى، أما وليتك القضاء، فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك، قال: بلى<sup>(١)</sup>، فانظر إلى عصبية تغلب الحجاج على جبروته في أمر سعيد بن جبير على فضله، لا جرم، كان ذلك أقوى باعث للخراسانيين على التشيع لآل البيت ومناصرتهم على أعدائهم من بني أمية والعرب، ولا عجب بعد ذلك أن تكون الدولة العباسية، كما قال الجاحظ، دولة أعجمية خراسانية كما كانت دولة بني مروان عربية أعرابية<sup>(٢)</sup>؛ ولا عجب بعد ذلك أن يكون العجم هم أصحاب الأمر والنهي في هذه الدولة إثارةً من بني العباس لهم به حيناً، واستثارةً منهم به أحياناً، حتى انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه من الضياع والتباب.

وكما بدأت الفرقة بين آل البيت وأثرة بني العباس عليهم على يد المنصور، بدأت مظاهر العصبية للعجم وإيثارهم على يديه، فقد كان أول خليفة صرف مواليه وغلماناه في مهماته وقدمهم على العرب، فاتخذ ذلك الخلفاء من بعده، فسقطت وبادت العرب وزال بأسها<sup>(٣)</sup>. ومن وصيته لابنه المهدي: وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم، وتحلف من مات منهم في أهله وولده<sup>(٤)</sup>. وقد كان المهدي عند وصية أبيه، ولعله تجاوزها، إذ يقول: إنا بني هاشم، موالينا أحب إلينا من أهلنا<sup>(٥)</sup>. وقد كادت هذه الغلبة الأعجمية

(١) شذرات، ج ١ ص ١٠٩.

(٢) البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢١٧.

(٣) مروج، ج ٤ ص ٢٤٢.

(٤) الطبري: ج ٦ ص ٣٤٣.

(٥) محاضرات، ج ١ ص ١٦٨.

على العرب أن تتجاوزها إلى الخلافة فتذهب بها ذهاب أمس الدابر على يد البرامكة لولا حزم الرشيد.

وفي عهد المأمون، ثار للعرب نصر بن شبث وهو عربي من بني عقيل، واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، فملك بعض البلاد وعبر من الشام إلى شرقي العراق وأقصر مضجع المأمون وكانت حجة ما ذكره ابن خلدون من قوله: إن هوائ مع بني العباس، وإنما حاربتهم لتقدمهم العجم على العرب<sup>(١)</sup>. وفي عهد الرشيد أو المأمون استطاع بعض الشعوبية أن يؤلف في مثالب العرب كعلان الشعوبية. قال ابن النديم، وأصله من الفرس، وكان منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة، عمل كتاب الميدان في المثالب الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها<sup>(٢)</sup>. وقد أضاف المأمون إلى الخراسانيين فريقاً آخر كان شراً على الدولة منهم وهم الأتراك. ووصف المقرئ ولوعه بهم، فقال: أكثر من شراء الأتراك وتغالي في أثمانهم حتى كان يشتري المملوك منهم بمائتي ألف درهم، واقتدى به أخوه أبو إسحاق المعتصم الذي أخرج العرب قوم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذين أقام الله بهم دين الإسلام من الديوان وأسقط عطاءهم فسقط ولم يفرض لهم بعده عطاء، وأقام بدلهم الأتراك فكان مقتل ابنه المتوكل على أيديهم، ووصف آثار هذه الغلبة الأعجمية على الدولة إلى أن انتهى بها إلى المصير المعروف مما يطول وصفه ويخرج بنا عما نحن فيه، إلا أن جذور هذا الشر قد استقرت في هذه الفترة وثبتها في قرار هذه الدولة طائفة من خلفائها، أظهرهم: المنصور والمأمون.

ومما هو جدير بأن نختم به هذا الفصل أبيات قالها أبو خالد بن محمد المهلب يري المتوكل الذي قتله جنوده الأتراك لما تتضمنه من وصف سبب ضياع هذه الدولة باعتقادها العجم وإطراحها العرب، قال:

(١) العرب، ج ٣ ص ٢٤١.

(٢) الفهرست: لابن النديم. ص ١٥٣ و ١٥٤.

لما اعتقدتم أناسًا لاحتفاظ لهم      ضعتم وضيعتم من كان يعتقد  
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم      حمتكم الذادة المنسوبة الحشد  
قوم هم الأصل والأسماء تجمعكم  
والدين والمجد والأرحام والبلد  
إن العبيد إذا أذلتهم صلحوا  
على الهوان، وإن أكرمتهم فسدوا<sup>(١)</sup>

□ □ □

---

(٦) زهر الآداب، ج ١ ص ٢٦١ و ٢٦٢.



## في الحالة الاجتماعية

لقد كان انتصار شيعة بني العباس على العرب وسيطرتهم على الدولة انتصاراً لأخلاقهم وعاداتهم وإشاعة لها في أكثر نواحي الحياة، وكيف لا، ومنهم إلا قليلاً وزراء الدولة وحجابه وكتّابها وشعراؤها ومغنّوها وندماؤها. ولا نستطيع أن نصف أثر هؤلاء الأعاجم في الأخلاق والعادات حتى نلم بوصف ما طرأوا به على هذه الدولة إلا من عصم الله منهم ومن سائر المسلمين من سيئات المذاهب والأخلاق. ومما ينبغي الإلمام به، أن خراسان التي أقبلت الدولة العباسية منها، لم تكن هذا القسم الذي يكون مع ستة أقاليم أخرى بلاد فارس أو إيران في العصر الحديث، بل كانت مترامية الأطراف شاملة لأكثر بلاد فارس القديمة الممتدة بين الهند وبلاد العرب، كما يظهر ذلك من معجم ياقوت وغيره<sup>(١)</sup>. وقد ظهر في فارس قبل الإسلام وبعده مذهبان إباحيان على اختلاف في مظهريهما هما: المانوية والمزدكية إلى ما لم يألفه العرب من السيئات الجنسية والحضرية.

### المانوية أو المانائية:

نسبة إلى ماني. وقد ولد مؤسسها حسبما يقول البيروني في كتابه «الآثار الباقية» سنة ٢١٥ أو سنة ٢١٦ م. وعاش مذهبه رغم ما لقي من اضطهاد إلى

(١) انظر كتاب الأمكنة والبقاع الواردة في كتب الفتوح ليهجت، ص ١٠٣.

القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي<sup>(١)</sup>. وخلاصة مذهبه أن صانع العالم اثنان: فاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا حساسين سميعين بصيرين<sup>(٢)</sup>. وقد نقض هذا المذهب بما نقله ابن نباتة من أن النور قد يضر والظلمة قد تنفع وقال: ومن هنا أخذ المتنبيء قوله: وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب<sup>(٣)</sup>

وقد اشتهر من مذهبه تحريم النكاح لعله تتضمنها مناظرته لأحد الموابذة حين أحضره بهرام ابن يزدرجرد<sup>(٤)</sup> ليقتله، قال له الموبذ: أنت الذي تزعم وتقول بتحريم النكاح تستعجل فناء العالم ليرجع كل شكل إلى شكله وان ذلك حق واجب، فقال ماني: واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل مما هو فيه من الامتزاج. فقال له: فمن الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه وتعان على إبطال هذا الامتزاج المذموم، فقطع ماني فأمر بهرام بصلبه. وكان بهرام قد أظهر أولاً متابعتة حتى أحاط علماً بمن تبعه فلما قتله أمر بقتل أصحابه، ثم ظهر ممن يسلك مسلكهم في الإسلام بشر عظيم يسمون الزنادقة فقتلهم المهدي وأبادهم<sup>(٥)</sup>. وقد علل الأستاذ أحمد أمين قتل بهرام له بهذا الزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجال الفناء لأنه في منتهى الخطورة لمملكة حربية كفارس. وذكر مما يؤيد ذلك عبارة من الأخبار الباقية هي أن بهرام قال: إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن نبداً بتخريب نفسه قبل أن يتهياً له شيء من مراده<sup>(٦)</sup>. ووصف هذا المذهب بهذا الوصف العفيف ليس مما يحمد، فإن له مظهراً ومخبراً. أما المظهر فهو هذا الزهد العفيف؛ وأما المخبر فهو الفتك القبيح.

(١) فجر الإسلام، ج ١ ص ١٢٩.

(٢) سرح العيون، لابن نباتة، ص ١٩٨.

(٣) سرح العيون، ص ١٩٩.

(٤) في المروج، ج ١ ص ٢١٢، ابن هرمرز.

(٥) سرح العيون، ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٦) فجر الإسلام، ص ١٣٢.

ففي تاريخ الطبري، قال المهدي للهادي يوماً وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه: يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين، أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتتقدهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرّب بأمرها إلى الله تعالى لا شريك له فإني رأيت جدك العباسي في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين<sup>(١)</sup> وقال: فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر: أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف<sup>(٢)</sup>. ويقال أنه أمر أن يهيباً له ألف جذع فقال: هذا في شهر كذا [وهذا في شهر كذا] ومات بعد شهرين. فالظاهر أن البيروني وابن نباتة قد اغترا بهذا الظاهر الحسن ولم يعلما عن القوم ما علمه المهدي والهادي. والظاهر أن الأستاذ أحمد أمين أيضاً لم يطلع على هذا النص حين كتابة هذا الفصل فإنه قد أورده بطوله في ضحى الإسلام<sup>(٣)</sup> إلا أنه لم يسقه مساق الاستدراك لما سلف في فجر الإسلام مع ما بينهما من التناقض، بل إنه ظل على تقريره الأول أنه مذهب زهدي إذ تعرّض بعد لأثر الفرس في حياة الزهد<sup>(٤)</sup>.

ولم تكن مقالة المهدي للهادي مجرد رأي في هذه الفرقة فإن أشنع ما وصف الزنادقة به قد وقع، وعاقب عليه هاشميّين بالحبس لأنه كان أقسم أن لا يقتل هاشمياً إن وليّ الخلافة. ثم أوصى الهادي أن لا يناظرهما فقتل من بقي

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٤١.

(٤) ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٨٧.

منها حياً إلى عهده<sup>(١)</sup>. وقد برح الخفاء وظهر أن هذا المذهب ليس إلا مذهباً إباحياً متسترأ بما نقله ابن النديم من مقالات المانوية في فصل عنوانه: (كيف ينبغي للإنسان أن يدخل في الدين)، فقد قالوا فيه: وإن كان يجب الدين ولم يقدر على قمع الشهوة والحرص فليغتنم حفظ الدين والصديقين وليكن له بإزاء أفعاله القبيحة أوقات يتجرد فيها للعمل والبر والتهجد والمسألة والتضرع، فإن ذلك يقنعه في عاجله وآجله<sup>(٢)</sup> فإن هذا وحده كاف في وصف تحليل القوم وخضوعهم للشهوات.

ومما ينبغي التعرض له في هذا البحث بيان أصل كلمة الزندقة ومعناها لكثرة إطلاقها على أتباع ماني. وقد تعرض لذلك المسعودي وابن عبدون والجواليقي في المغرب والدخيل، ومضمون قول المسعودي أن هذا الاسم ظهر في أيام ماني لأخذه بالتأويل - أي تأويل زرادشت - لكتابه الذي أتى به الفرس. والتأويل عندهم هو الزند. فلما عدل ماني عن الأصل إلى التأويل أضيف إلى الزند وهذه الإضافة تعني النسبة عند المسعودي زندي<sup>(٣)</sup>، وعند ابن عبدون زنديين<sup>(٤)</sup>. وعلى الوجهين فقد عرب اللفظ إلى زنديق ونقل الجواليقي تفسيراً للأصل في الفارسية غير ما سلف، وقال المسعودي: والثنوية هم الزنادقة ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم. وأضاف ابن عبدون: من أنكر البعث. ونقل الجواليقي استعمال العامة له فيما يريده العرب من قولهم ملحد ودهري وفسر معناها في الأصل الفارسي في بعض نقوله بأنه القول بدوام الدهر<sup>(٥)</sup>. وذكر الأستاذ أحمد أمين أن معناها اتسع عند العامة فكانت بمعنى الاستهتار والمجون<sup>(٦)</sup>، وعند الخاصة فكانت اعتناق الإسلام

(١) انظر الطبري، ج ٦ ص ٤٠٩، ٤١٠.

(٢) الفهرست، ص ٤٦٥.

(٣) مروج، ج ١ ص ٢١٢ باختصار.

(٤) شرح ابن عبدون لقصيدة ابن بدرون، ص ٣٧.

(٥) المغرب والدخيل للجواليقي، ص ١٦٧.

(٦) ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٤٦.

ظاهراً والتدين بدين الفرس القديم باطناً، وخاصة مذهب ماني<sup>(١)</sup>، وهو صحيح فإننا سنجدتها تطلق أيضاً على المزدكية. ومما ينبغي التعرض له أيضاً أن الديانة القديمة للفرس وهي المجوسية كانت تقول بإلهين، هما: النور، وتسميه يزدان؛ والظلمة، وتسميه اهرمن. إلا أن الأول قديم والثاني حادث<sup>(٢)</sup>.

## المزدكية:

فرقة تنسب إلى مزدك أو مزدق ومزدك في ألسنة المؤرخين واحد ظهر في عهد قباد ملك الفرس، وقتله كسرى بن قباد المعروف بأنوشروان. ولكن ما قاله ابن النديم في الفهرست في الكلام على أخبار الخرمية والمزدكية يتضمن أن اسم مزدك مشترك بين رجلين قديم وحديث على مذهب واحد وأن الذي ظهر في عهد قباد، وهو الذي يجري ذكره على ألسنة المؤرخين هو الحديث. قال ابن النديم في الخرمية المحمرة: وهم الخرمية الأولى [أما الثانية فهي الخرمية البابكية أصحاب بابك الخرمي الذي حارب المأمون والمعتصم]. وقال في الأول: هم مجوس في الأصل وصاحبهم مزدك القديم، أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض، ولهم مشاركة في الحرم والأهل، ومع هذا الحال يرون أفعال الخير وترك القتل وإيلام النفوس، ثم قال: وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر في أيام قباد<sup>(٣)</sup> ووصف بابك الخرمي وهو مزدكي<sup>(٤)</sup> أيضاً بأنه أحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الخرمية تعرف ذلك<sup>(٥)</sup>. وهنا أمور تستلفت النظر منها ما رأينا من سبق الإباحية

(١) ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٥٠.

(٢) الفهرست، ص ٤٧٩.

(٣) الفهرست، ص ٤٧٩.

(٤) الفهرست، ص ٤٨٢.

(٥) الفهرست، ص ٤٨٠.

الصريحة على المزدكية الحديثة، كما سبقتها الإباحية المانوية المتقنعة ومنها أن مزدك القديم الذي انفرد بذكر مذهبه صاحب الفهرست لم يجر له ذكر على السنة أحد من القدماء أو المعاصرين مع ذكر صاحب الفهرست لأسماء مناطق كثيرة من بلاد فارس قد انتشر فيها مذهبه وستأتي<sup>(١)</sup>. ومنها أن زرادشت، الذي يطلق عليه كثيراً اسم نبي الفرس<sup>(٢)</sup>، ليس إلا داعية الإباحية الأولى وأن مذهبه هو أصل مذهب مزدك الحديث، كما كان أصل المانوية المضافة إلى لفظ الزند وهو تأويل زرادشت لكتابه كما سبق عن المسعودي وابن عبدون. قال الطبري: لما استحكم الملك لكسرى كتب إلى عماله أنه أبطل ملة رجل منافق يقال له زرادشت بن خرکان ابتدعها في المجوسية فتابعه الناس على بدعته تلك وفاق أمره فيها وكان ممن دعا العامة إليها رجل يقال له مزدق بن بامداذ وكان مما أمر به الناس وزينته لهم وحثهم عليه التآسي في أموالهم وأهلهم وذكر أن ذلك من البر الذي يرضاه الله، ثم قال: فحضر بذلك السفلة على العلية واختلط أجناس اللؤماء بعناصر الكرماء وسهل السبل للغصبة إلى الغصب وللظلمة إلى الظلم، وللعهار إلى قضاء نهمتهم والوصول إلى الكرائم اللائي لم يكونوا يطمعون فيهن، وشمل الناس بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثله. فنهى الناس كسرى عن السيرة بشيء مما ابتدع زرادشت ومزدق وأبطل بدعتها وقتل بشراً كثيراً ثبتوا عليها ولم ينتهوا عما نهاهم عنه منها وقوماً من المانوية وثبت للمجوس ملتهم التي لم يزالوا عليها<sup>(٣)</sup>. ولا حرج علينا مع هذا الاتحاد الذي بين الزرادشتية والمزدكية الحديثة وبين هذه والمزدكية القديمة أن نحكم أن المزدكية القديمة هي الزرادشتية وأن مزدك القديم هو زرادشت. والظاهر أن إطلاق هذا الاسم عليه من باب التغليب لقيام مزدك الحديث بالدعوة إلى مذهبه ويؤيدنا في هذا الحكم أمور:

(١) الفهرست، ص ٤٧٩.

(٢) فجر الإسلام، ص ١٢٢.

(٣) الطبري، ج ١ ص ٥٢٥.

## □ الأمر الأول:

أن لفظ زنديق — وقد علمنا قبل عن المسعودي وابن عبدون أنه نسبة إلى زند وهو تأويل زرادشت لكتابه — قد أطلق على مزدك الحديث وعلى الملك الذي اتبعه وهو قبادز وعلى الذين قتلهم كسرى من أتباعه. قال المسعودي: وفي أيامه يعني قبادز ظهر مزدق الزنديق وإليه تضاف المزدقية<sup>(١)</sup>. وقال الطبري: وكان قبادز زنديقاً<sup>(٢)</sup>. وروى أبو الفرج من قول كسرى: كنت تمنيت أن أملك فأقتل هؤلاء الزنادقة فقال له مزدك — وكان في المجلس ولم يعلم كسرى بوجوده —: أتستطيع أن تقتل الناس كلهم فقتله وصلبه وأمر بقتل الزنادقة فقتل منهم ما بين حاذر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة مائة ألف زنديق<sup>(٣)</sup>. ونحوه في الكامل لابن الأثير<sup>(٤)</sup>.

## □ الأمر الثاني:

إن أحدث الدراسات لا تكاد تصل إلى يقين شاف في أمر زرادشت فقد كان وجوده موضع شك عند كثيرين، وموضوع جدل طويل بين النافين والمثبتين، واختلف المثبتون في تاريخ وجوده على أقوال تتردد بين ستة آلاف ق. م. وسنة ستمائة ق. م.<sup>(٥)</sup>.

## □ الأمر الثالث:

إن مرجح كفة المثبتين لوجوده بالكتاب الذي ألفه في حياته وهو الأستاذ جاكسن جعل موطنه أذربيجان وأول نجاحه في بلخ ومنها انتشر دينه إلى فارس كلها<sup>(٦)</sup>. وليس جاكسن أول من قال ذلك، فقد نصّ أبو الفداء على أنه من

---

(١) المروج، ج ١ ص ٢٢٣.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٥٢٢.

(٣) الأغاني، ج ٨ ص ٦٢.

(٤) الكامل، ج ١ ص ١٥٢، ١٥٣.

(٥) فجر الإسلام، ص ١٢٣.

(٦) فجر الإسلام، ص ١٢٣.

أهل قرية من قرى أذربيجان<sup>(١)</sup> وأصحاب مزدك القديم كما في الفهرست بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمذان ودينور وما بين أصفهان وبلاد الأهواز<sup>(٢)</sup>. وما هو موضع إجماع عند المؤرخين أن قباذ قد اعتنق مذهب مزدك وشايعه عليه حتى أنه سأل زوجته فأجابه لولا أن قبل كسرى قدميه فتركها له وأن الذي قتله كسرى كما سبق. ولكن الأستاذ أحمد أمين يقول: ولكن قباذ نكل به وبقومه ودبر لهم مذبحة سنة ٥٢٣م كاد يستأصلهم بها<sup>(٣)</sup>. ونستطيع أن نحكم بأن هذا سهو من الأستاذ أو اتباع لساه فإن الذي هو نقيضه هو ما في الأخبار الطوال للدينوري<sup>(٤)</sup>، وتاريخ الطبري<sup>(٥)</sup>، والأغاني<sup>(٦)</sup>، ومروج الذهب<sup>(٧)</sup>، والكامل لابن الأثير<sup>(٨)</sup>، والفهرست<sup>(٩)</sup>، وأبي الفداء<sup>(١٠)</sup>. وقال الأستاذ أمين: وقد ظل قوم يتبعون مذهبه حتى إلى ما بعد الإسلام، وذكر الاصطخري وابن حوقل أن سكان بعض قرى كرمان كانوا يعتنقون المزدكية طول عهد الدولة الأموية<sup>(١١)</sup>. وسنجد أن المزدكية كانت مذهب بعض شعراء المجون كحماد وشار وأبي نواس لأنهم لم يكونوا يخفون شيئاً من أمرهم الإباحي كالمانوية إلا أن يشدد عليهم النهي أو العقاب.

(١) أبو الفداء، ج ١ ص ٨٣.

(٢) الفهرست، ص ٤٧٩.

(٣) فجر الإسلام، ص ١٣٦.

(٤) الدينوري، ص ٦٥ إلى ٦٧.

(٥) ج ١ ص ٥٢٥، وما حوّلها.

(٦) الأغاني، ج ٨ ص ٦١، ٦٢.

(٧) المروج، ج ١ ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٨) الكامل، لابن الأثير، ج ١ ص ١٥٢، ١٥٣.

(٩) الفهرست، ص ٤٧٩، ٤٨٠.

(١٠) أبو الفداء، ج ١ ص ٥١.

(١١) فجر الإسلام، ص ١٣٦.



## المساواة الجنسية والحضرية:

### □ السبئية الجنسية:

ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن عبدالله بن عامر والي البصرة لعثمان، رضي الله عنه، غزا خراسان في سنة ثلاثين وبعث على مقدمته الأحنف بن قيس فقدم إلى قوهستان فلقيته الهياطلة وهم أتراك ويقال بل هم قوم من أهل فارس وصفهم البلاذري بالفعللة التي أهوى الله بها المؤتفكة وأرسل عليهم حاصباً وقال: فنفاهم فيروز إلى هراة فصاروا مع الأتراك<sup>(١)</sup>. أما الجاحظ فقد أضافها إلى الخراسانيين وعللها بكثرة الغزو المفرق بينهم وبين نساءهم، ثم قال: ولوتعرض العرب لمثل هذه الأسفار البعيدة لفعلوا فعلهم<sup>(٢)</sup>، وهي شعوبية ظاهرة فإن هذه الفتوح العظيمة في العصر الأموي التي لم تزد إلا قليلاً في العصر العباسي، إنما قام معظمها على أكتاف العرب وبسيوفهم. وقد ظهر وصف هذه الخصلة في الشعر العباسي ظهوراً شوه وجه الأدب العربي ودل على تأثير الخراسانيين السيئ في الأخلاق والآداب.

### □ السبئية الحضرية:

قال الأستاذ أحمد أمين: الفرس من قديم يعرفون بالميل إلى اللهو والسرور والإفراط في حب النبيذ. وقد كانت الديانة الزرادشتية تبيح شرب النبيذ بل تجعله من شعائرها ولا يزال النبيذ، كما يقول الأستاذ (براون)، إلى اليوم ظاهرة قوية في الحياة اليومية للفرس الزرادشتية. كان الفرس قديماً يفرطون في فنون كثيرة من اللهو الطيب، واللهو الخبيث فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية وخاصة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة وما كان فيها من حضارة وهو عبث<sup>(٣)</sup>.

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤١٠.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي باختصار، ص ٤٣٩، ٤٤٠.

(٣) ضحى الإسلام، ص ١١١، ١١٢، ج ١.

## كلمة جامعة:

قال الذهبي: في عام اثنين وثلاثين ومائة، تحولت دولة الإسلام من بني أمية إلى بني العباس فجري بسبب ذلك التحول سيول من الدماء وذهب تحت السيف عالم لا يحصيه إلا الله بخراسان والعراق والجزيرة والشام، وفعلت العساكر الخراسانية الذين هم المسودة كل قبيح، فلا حول ولا قوة إلا بالله<sup>(١)</sup>.

## زنادقة العصر ومظاهر زندقته:

عن الجاحظ قال: كان والبة بن الحباب ومطيع بن إياس ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي وحفص بن أبي وردة وابن المقفع ويونس بن أبي فروة وحماد عجرد وعلي بن الخليل وحماد بن أبي ليلى الراوية وابن الزبرقان وعمارة بن حمزة ويزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ وبشار المرعش وإبان اللاحقي ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترون ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وجداً وكلهم متهم في دينه<sup>(٢)</sup>. وعد منهم ابن النديم عبد الكريم بن أبي العوجاء، وصالح بن عبد القدوس - وجعلهما ممن ألف في نصرة الاثنين - وإسحاق بن خلف وابن سيابة وبشاراً وسلمًا الخاسر وعلي بن الخليل وعلي بن ثابت، وذكر - فيمن كان يرمى بالزندقة من الملوك والرؤساء - أنه قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة. وقيل في الفضل وأخيه الحسن يعني ابني سهل وزير المأمون مثل ذلك، وقال: وكان محمد بن أبي عبيد الله كاتب المهدي زنديقاً واعترف بذلك فقتله المهدي<sup>(٣)</sup>. وقد اتجهت هذه الزندقة ثلاث جهات:

## □ الوجهة الأولى:

ناحية المجون والإباحة كما هو الأصل فيها كوصف الجاحظ لمن وصف.

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي، ج ١ ص ١٤٩.

(٢) الأغاني، ج ١٦ ص ١٤٣.

(٣) الفهرست، ص ٤٧٣.

## □ الوجهة الثانية :

وجهة علمية دينية كان أسوأ مظاهرها وضع الأحاديث ودسها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كيداً للدين ثم وضع الأخبار المأجنة على العباسيين، ثم وضع الشعر - وسنلمّ بهذين بعد.

## □ الوجهة الثالثة :

تضمين الشعر من معاني الخلاعة والمجون ما يزيّن الفساد والفجور أو تضمينه ما ينبىء عن سوء الاعتقاد.

ومن آثار الوجهة الثانية: ما روي عن حماد بن زيد قال: وضعت الزنادقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألف حديث وعنه. قال: سمعت المهدي يقول: أقر عندي رجل من الزنادقة أنه وضع أربعمئة حديث فهي تحول في أيدي الناس. وأخرج ابن عساكر عن الرشيد أنه جيء إليه بزنديق فأمر بقتله فقال: يا أمير المؤمنين أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام ما قال النبي صلى الله عليه وسلم منها حرفاً؟ فقال له الرشيد: أين أنت يا زنديق عن عبدالله بن المبارك وأبي اسحق الفزاري ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً؟

وقال ابن عدي في الكامل: لما أخذ عبدالكريم بن أبي العوجاء ليضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام<sup>(١)</sup> وليس عبدالكريم هذا بصاحب الرشيد الذي سبق فإنه قاتله هو محمد بن سليمان والي الكوفة لأبي جعفر المنصور وكان ذلك في سنة ١٥٥<sup>(٢)</sup>. ولقد استطاع والله الحمد علماء الحديث أن يميزوا بما رزقهم الله من العلم والدراية هذا الموضوع وينفوه. أخرج الخطيب عن الربيع بن خيثم قال: إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تنكره<sup>(٣)</sup>.

(١) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، للسيوطي، ص ٥٥، ٥٦.

(٢) العبر، ج ٣ ص ٢٠٢.

(٣) تحذير الخواص، ص ٥٧.

ومن آثار الوجهة الثالثة: ما روي عن أبي نواس قال: كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في سجن الزنادقة، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم قال: وكان له صاحب يقال له حريب على مذهبه وله يقول بشار حين مات عجرد على سبيل التعزية له:

بكي حريب فوقره بتعزية مات ابن نهبي وقد كانا شريكين

وبعد هذا البيت من وصف هذه المشاركة الشنيعة ما لا يحسن ذكره. قال: وفي حماد يقول بشار أيضاً وينسبه إلى أنه ابن نهبي:

يا ابن نهبي رأس عليّ ثقیل واحتمال الرأسين خطب جلیل  
ادع غيري إلى عبادة الاثنين فإني بواحد مشغول  
يا ابن نهبي برئت منك إلى الله جهاراً وذاك مني قليل

قال: فأساغ حماد هذه الأبيات لبشار وجعل فيها مكان:

فإني بواحد مشغول  
فإني عن واحد مشغول

ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس حتى انتهت إلى بشار فاضطرب منها وجزع<sup>(١)</sup>. وعن حماد أنه لما أنشد قول بشار فيه:

يا ابن نهبي رأس عليّ ثقیل

(البيتين الأول والثاني)

قال: والله ما أبالي بهذا من قوله وإنما يغیظني منه تجاهله بالزندقة يومهم الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها لأن هذا قول تقوله العامة لا حقيقة له وهو والله أعلم بالزندقة من ماني<sup>(٢)</sup>. وكل واحد منها

(١) الأغاني، ج ١٣ ص ٧١، ونحوه في شرح العيون، ص ٢١٠، ٢١١.

(٢) الأغاني، ج ١٣ ص ٧٣.

هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه وكانا يجتمعان عليها فسقط حماد مجرد وتهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه وبقي بشار على حاله لم يسقط حتى عرف مذهبه بالزندقة فقتل به<sup>(١)</sup>، وكان قتله في سنة سبع وستين ومائة إذ جد المهدي فيها في طلب الزنادقة في الآفاق وأكثر الفحص عنهم وقتل طائفة<sup>(٢)</sup>. وروى أبو الفرج أن الرشيد قتل صالح بن عبد القدوس بها واحتج عليه بأنه لا يقبل له توبة بقوله:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

وقال: إنما زعمت أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً<sup>(٣)</sup>، والذي في تاريخ بغداد<sup>(٤)</sup>؛ وفوات الوفيات<sup>(٥)</sup>؛ وحياة الحيوان للدميري<sup>(٦)</sup>، أن قتله المهدي، وأنه بريء مما رمي به.

ومن جمع بين الإلحاد والمجون من شعراء هذا العصر، أبو نواس الحسن بن هانيء، وقد جمعت مجونياته خواص طبقة من الشعراء الفارسيين ومن تخلق بأخلاقهم من شعراء العرب كوالبة بن الحباب الشاعر الأسدي الكوفي الذي تتلمذ عليه أبو نواس الذين جمعوا إلى الزندقة بمعنى الإلحاد هذه الوصمة الخراسانية التي جنت على الشعر العربي جنابة شوهدت وجهه السطح الصبيح إلى جرأة في وصف الفسق والفجور لا نظير لها في الشعر العربي في جاهلية ولا إسلام. وخمريات أبي نواس مضرب الأمثال، وقد أتى فيها بكل معنى عجيب بما أوتي من قدرة على الاختراع والتوليد ووضعها في أكثر شعره موضع التشبيب؛ وقد وصف ابن نباتة منزلته بين شعراء المجون، فقال: وكان

(١) الأغاني، ج ١٣، ص ٨٢.

(٢) شذرات، ج ١ ص ٢٦٢.

(٣) مذهب الأغاني، ج ٨ ص ١١٥؛ تاريخ بغداد، ج ٩ ص ٣٠٣ إلى ٣٠٥.

(٤) تاريخ بغداد، ج ٩ ص ٣٠٣ إلى ٣٠٥.

(٥) فوات الوفيات، ج ١ ص ١٩١، ١٩٢.

(٦) الدميري، ج ١ ص ٥١.

أبونواس قد انفرد في زمانه بإتقان الشعر وإفراط المجون والتهتك<sup>(١)</sup>. ومن أمثلة زندقته الإلحادية والمجونية قوله على ما في الموشح:

وملحة بالعدل ذات نصيحة      ترجو إنابة ذي مجون فاسق  
بكرت تخوفني المعاد وشيمتي      غير المعاد ومذهبي وخلائقي

الآبيات... وقد حبسه بها الرشيد في المطبق<sup>(٢)</sup>، وحبسه على أبيات أخرى من نوعها<sup>(٣)</sup>. ويدل وصفه للخمر ومجالسها وكؤوسها وشأنه فيها على محاكاته هو وندمائه لحياة العجم وتعلقهم بها، فمن قوله المنبئ عن اعتقاده بأنهم القدوة والمثال في هذه الحال:

أبحت حريم الكأس إذ كنت مشرباً  
وأقصرت عنها بعدما صرت معسراً  
ولو أن مالي يستقل بلذتي  
لأنسيت أهل اللهو كسرى وقيصراً<sup>(٤)</sup>

ونحوه في أسباب لهوه من قطعة:

ذخائر كسرى لأولاده      وغرس كرام بني الأصفر<sup>(٥)</sup>  
ونحوه في وصف مجالس نداماه ومنزلة كسرى في نفوسهم وكؤوسهم:  
ودار ندامى عطلوها وأدلجوا      بها أثر منهم جديد ودارس  
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً      ويوماً له يوم الترحل خامس  
تدار علينا الراح في عسجدية      حبتها بأنواع التصاوير فارس  
قرارتها كسرى وفي جنباتها      مها تدريها بالقسيّ الفوارس  
فللخمر ما زرت عليه جيوبها      وللماء ما دارت عليه القلائس

(١) سرح العيون، ص ٢١٨.

(٢) الموشح، للمرزباني، ص ٢٧٨.

(٣) نفس المصدر.

(٤) شرح ديوان أبي نواس، لمحمود كامل، ص ١٩٥.

(٥) نفس المصدر، ص ١٩٨.

ولأبي نواس كأضرابه من الشعراء كثير من شعر المخازي عني بروايته مثل أبي الفرج في الأغاني، وابن منظور في أخبار أبي نواس. وقد جمع مخازيه بعض الأدباء في ديوان الفكاهة والالتناس في مجون أبي نواس وهو مصادر ككتاب ابن منظور، وقد وصف أثر هذا الشعر السيئ ونهى عن روايته إمام من أئمة الأدب هو محمد بن القاسم الأنباري<sup>(١)</sup> في مساجلة بينه وبين الخليفة العباسي عبدالله بن المعتز لم يروها إلا الحصري فيما أعلم، وقد نبه على أنه اختصر منها موضع الحاجة والسياق. يدل على هذا الاختصار ما كتب إليه - جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانئ والشعر الذي قاله في المجون وأنشده وهو يؤم قوماً في صلاة وهو - إن لكل ساقطة لاقطة وإن لكل قول<sup>(٢)</sup> رواة وكل مقول محمول، فكان حق شعر هذا الخليل أن لا يتلقاه الناس بالسنتهم، ولا يدونوه في كتبهم، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم لأن ذوي الأقدار والأسنان يجلون عن روايته والأحداث يفسدون<sup>(٣)</sup> بحفظه، ولا ينشد في المساجد، ولا يتجمل بذكره في المشاهد، فإن صنع فيه غناء كان أعظم لبلية لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى فيهيح الدواعي الدنيئة ويقوي الخواطر الرديئة، والإنسان ضعيف يتنازعه على ضعفه سلطان الهوى<sup>(٤)</sup> ونفسه الأمانة بالسوء، والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كرة<sup>(٥)</sup> منحدره من رأس رابية إلى قرار فيه نار، إن لم تحبس بزواجر الدين والحياء أداها انحدارها إلى ما فيه هلكتها.

والحسن بن هانئ ومن سلك سبيله من الشعر الذي ذكرناه شطار، كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساوئهم

---

(١) كنيته أبوبكر في سنة ٣٢٨ وهو غير أبي البركات الأنباري عبدالرحمن، صاحب نزهة الألياف سنة ٥٧٧.

(٢) في الأصل: لكلام القوم.

(٣) في الأصل: يفشون.

(٤) في الأصل: القوى.

(٥) في الأصل: كوة.

ومخازيهم، وحسنوا ركوب القبائح. فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم وعلى كل متصون أن يستقبح ما استحسنوه ويتنزه من فعله وحكايته. وقول هذا الخليل: ترك ركوب المعاصي ازدراء بعفو الله تعالى، حض على المعاصي أن يتقرب إلى الله عز وجل بها تعظيماً للعفو، وكفى بهذا مجوناً وخلعاً داعياً إلى التهمة القائلة في عظم الدين وأحسن من هذا وأوضح قول أبي العتاهية:

يخاف معاصيه من يتوب فكيف ترى حال من لا يتوب

وقد أجابه ابن المعتز بإنكار نسبة الكلمة لأبي نواس وأنها حكيت عن غيره، وأن البيت الذي أشد له بحضرته هو:

لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا  
فإن حظره بالدين إزرء

وقال: وهذا بيت يجوز للناس جميعاً استحسانه والتمثل به، وأنه لم يؤسس الشعر بأنه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق، ولم يقو على صبوة، ولم يرخص في هفوة، ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذم، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزور الباطل ويكسه معارض الحق؛ ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبي الصلت الثقفي وعدي بن زيد العبادي، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس. فقد قال امرؤ القيس - وذكر بعض فحشه في أبياته اللامية، وقال النابغة - وذكر له وصفه الصريح للمتجردة، وأخذ يحتج بوقوع الرواية لمثل هذا الشعر الفاحش وتناشد الناس إياه على الملأ وفي حلق المساجد، فأنت ترى أن الأنباري يحتج لمكارم الأخلاق وللإيمان ويحذر من سوء أثر شعر المجون في النفوس، وأن ابن المعتز يدع هذه الناحية فيحتج لشاعرية هذا النوع من الشعراء ووقوع روايته. ولا ينبغي أن يصدنا عن قوة أدلة الأنباري ونبيل مذهبه ما رواه الحصري من زعمه في الجواب على ابن المعتز أنه رجع إلى الصواب واعتذر له عن زلله



وخطأه، فإنه تقية ظاهرة أمام إصرار الأمير على رأيه<sup>(١)</sup> وأنا لا أدري كيف يجوز للناس جميعاً استحسان هذا البيت الذي رواه ابن المعتز لأبي نواس وهو:

لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا

فإن حظركه بالدين إزراء

فإن الذي ينبغي أن يقال في هذا الخطر انه خطأ أو نحوه. وأياً ما كانت الحقيقة في نسبة الكلمة إليه، فقد دل على أنه مذهبه، إذ يقول:

تكثر ما استطعت من الخطايا      فإنك بالغ رباً غفورا  
ستبصر إن وردت عليه عفواً      وتلقى سيداً ملكاً كبيراً  
تعض ندامة كفيك مما      تركت مخافة النار السورورا

وإن هذا النوع من الشعر لمن أخدع حبائل الشيطان وأخلبها للألباب، ولا أدل على ذلك من انخداع الحصيف اللبيب القاضي ابن خلكان به، إذ يقول، تقديماً للأبيات: وما أحسن ظن أبي نواس بربه عز وجل<sup>(٢)</sup>، فإن الأمر بفعل الخطايا ليس من الرجاء وحسن الظن في شيء، على أن الرجاء بلا خوف ليس من خصال الإيمان. وكان وهيب بن الورد المكي يقول: يقولون إنا نرجو، ولا والله ما رجا عبد قط حتى يخاف، ثم يقول: كيف تجترى أن تقول انك ترجو رضا من لا يخاف غضبه<sup>(٣)</sup>. والأمر بالاستكثار من الخطايا لا يكون إلا عن نزعة مزدكية لزعمهم أن نحو ما يحض عليه أبو نواس من البر الذي يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب<sup>(٤)</sup>، أو نزعة مانوية لما سبق عن ابن النديم في تيسيرهم أمر المغفرة<sup>(٥)</sup>، وسيأتي إن شاء الله في باب المعاني عند قول أبي العتاهية:

(١) ذيل زهر الآداب، للحصري، ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) وفيات الأعيان، ج ١ ص ١٦٩.

(٣) الحلية، ج ٨ ص ١٥٠.

(٤) الطبري، ج ٥ ص ٥٢٥.

(٥) الفهرست، ص ٤٦٥.

يقولون نرجو الله ثم افترؤا به  
ولو أنهم يرجون خافوا كما رجوا  
وصف حقيقة الرجاء والخوف في الإسلام.

### أخلاق الخاصة:

لعلي لم أجزم بأن (لا أدري) نصف العلم، وأن (من ترك قولها أصيبت مقاتله) كما جزمت بذلك الآن، فأنا لا أكتب عن غلبة الخراسانيين على الأمر ولا عن استئثار بني العباس على أبناء عمهم بالخلافة — ولعل لهاتين الغلبة الخراسانية والأثرة السياسية من الأسباب الاضطرابية ما لا حيلة لبني العباس فيه — ولكني أكتب عن قوم لهم من شرف النجار وطهر المنبت وبيض الأيادي على العلم والعلماء ما يصد عن اعتقاد كثير من روايات التاريخ ومطاعن المؤرخين، وقد كان القوم كما رأيت أعداء ألداء للشيعه وواترين لبني أمية والعرب جميعاً إلى منازعات على الخلافة بين المنصور وعمه عبدالله بن علي، وبين المنصور وبين ولي عهده عيسى بن موسى، ثم بين عيسى والمهدي، ثم بين الهادي وولي عهده الرشيد، ثم بين الأخوين الأمين والمأمون وبينه وبين إبراهيم بن المهدي، بل إن للعباسيين أعداء من بطانتهم أعانوهم وتقربوا إليهم ليضربوا بعض المسلمين ببعض ويمزقوا العرب كل ممزق، ويذهبوا بهيبة الخلافة والإسلام مما اضطر معه أبو جعفر أن يقتل داعيتهم وقائدهم الكبير أبا مسلم الخراساني وألجئ معه الرشيد أن ينزل بوزرائه البرامكة — وقد كان يدعو عميدهم يحيى بيا أبت — من النكبات ما يجبل عن الوصف، واضطر معه المأمون إلى الإيعاز بقتل وزيره الفضل بن سهل. وقد منيت هذه الدولة في القرون الثلاثة التي دونت فيها أخبارها وهي الثالث والرابع والخامس<sup>(١)</sup> بانقسامات أتت على جميعها حتى مدينة السلام، مقر الخلفاء، فاختص السامانيون، وهم

---

(١) أول من صنف في أخبار العباسيين محمد بن صالح النطاح الأخباري المتوفى في سنة ٢٥٢، له فيها كتاب الدولة، من تاريخ بغداد، ج ٥ ص ٣٥٨.

فرس، بالتركستان من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩، والبويهيون، وهم فرس أيضاً، بفارس والعراق من ٣٢٠ إلى ٤٤٧، والاششيديون، وهم أتراك، بمصر نحو هذه الفترة، والغزنويون، وهم أتراك أيضاً، بأفغانستان والهند من منتصف القرن الرابع إلى ما بعده بأمد طويل، واختص الحمدانيون، وهم عرب، بالشام من سنة ٣١٧ إلى ٣٩٤، والفاطميون، وهم عرب، بمصر من سنة ٣٥٧ إلى ٥٦٧هـ، والزيدية بطبرستان وجرجان من منتصف القرن الثالث إلى منتصف الرابع، ومن هؤلاء من الشيعة البويهيون والحمدانيون والفاطميون والزيدية.

وفي ظلال هذه الانقسامات وفي ظلال بني أمية بالأندلس وبتشجيعهم ألف أسوأ ما كتب في أخلاق خلفاء بني العباس. وليس أقل أثراً في تشويه أخلاق القوم من هذه الأسباب السياسية ما أشار إليه ابن خلدون مما يرجع إلى فساد أخلاق الطاعنين فيهم من الأخباريين. قال في القصة التي نقلها ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران وفي غيرها، وأمثال هذه الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين معروفة وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدرات، ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشبه هذه الأخبار<sup>(١)</sup>. ولئن كان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني قد جمع أسوأ ما كتب وأكثره من هذه الأخبار، فقد دل على نزعته أن أهدها إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه<sup>(٢)</sup>. وقول ياقوت، وكان يرسل مصنفاته إلى المستولين على بلاد المغرب من بني أمية وكانوا يحسنون جائزته<sup>(٣)</sup>. ولا ينفع أبا الفرج ما قاله ابن النديم من أن أكثر تعويله في تصنيفه كان على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠؛ وانظر العقد، ج ٨ ص ١٦٤ وما بعدها.

(٢) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٤٤١.

(٣) معجم الأدباء، ج ١٣ ص ١٠٠.

من الأصول الجياد<sup>(١)</sup>، فإن إثارة هذه الأخبار واستكثاره منها دليل على هواه، وقد كان أموياً نسباً، شيعياً مذهباً<sup>(٢)</sup>.

ولئن كان اتساع هذه الروايات وكثرة مصادرها وطرقها قد غلب أوثق المؤرخين وأجمعهم لصنوف العلم الإمام ابن جرير الطبري، فأورد من الأخبار ما لا يسيغه عقل كالذي يتضمن أن من قتل المنصور أطفالاً من العلويين<sup>(٣)</sup>، وما يرويه في سبب قتل جعفر البرمكي والعباسة<sup>(٤)</sup>، وما رواه من أن موسى الهادي كان حائقاً على عبدالله بن مالك متولي شرطة أبيه المهدي، ثم قبل اعتذاره وأراد أن يثبت في قلبه رضاه عليه، فساق إليه أربعمئة بغل موقرة دراهم<sup>(٥)</sup>، وما رواه مما ينال من مروءة المهدي عن وزيره الذي نكبه لزيدته يعقوب بن داود<sup>(٦)</sup> فدل على أنه لا يتنخل الأخبار أو ينظر في طرقها كما يصنع المحدثون، فما عسى أن يبلغه طالب اليقين من كتب التاريخ؟

وقد أظهر لنا تناول جهبذي المؤرخين وناقديه الحصيفين العلامتين المقرزي وابن خلدون في كتاب النزاع والتخاصم والمقدمة لأحوال القوم، أنه ليس في كتب التاريخ مقنع ولا يقين، فقد جعلهم المقرزي أكاسرة وقياصرة ورأى أن بعضهم أشد على المسلمين من فرعون على بني إسرائيل وأن بعضهم قد قدم عوائد العجم على السنة وسماها أدباً، ووصف تعريب المأمون لكتب الفلسفة بأنه عون للكائدين للإسلام من أهل الزيغ والإلحاد<sup>(٧)</sup>، وجعلهم ابن خلدون أظهر الناس من الآثام وأبعدهم عن العيوب وزيف كل ما ورد في

(١) الفهرست، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٤٢١.

(٣) تاريخ ابن جرير، ج ٦ ص ٣٤٤.

(٤) الطبري، ج ٦ ص ٤٨٩.

(٥) ج ٦ ص ٤٣١.

(٦) ج ٦ ص ٣٨٦.

(٧) النزاع والتخاصم، من ص ٧٢ إلى ص ٨٠.

الطعن عليهم من الأخبار ووصفهم بالتقشف والزهد والدين<sup>(١)</sup>، إلا أنه لم يستمر له الوصف بالزهد فقد تعرض لإعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذله أبوها لحاشية المأمون وما أنفقه في إملاكها، وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها وهو موصوف وصفاً يدل على مبلغ ترف المأمون وسرفه الشديد وتمكن العجم من أمثال الحسن بن سهل من أموال الدولة. ومن تناول هذا الوصف: الطبري<sup>(٢)</sup>، والمسعودي<sup>(٣)</sup>، وابن الجوزي<sup>(٤)</sup>، وابن خلكان<sup>(٥)</sup>. وقد جعل ابن خلدون ذلك من الأطوار الطبيعية للدول وللملك حين ينتقل من البداوة إلى الحضارة، وليس أقل من هذا الذي يصفه المؤرخون من ترف المأمون وسرفه وما يرويه مثل الطبري من ترف الأمين وإسرافه<sup>(٦)</sup> مع ما فيه من شبهة المبالغة كالذي سلف من صنع الهادي مع عبدالله بن مالك، فمن المستطاع إذن أن ننتهي إلى أن الدولة قد تحضرت وخضعت لمقتضيات الأحوال الأعجمية التي غلبت عليها من جهة التمتع واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والفرش والأنية وسائر الماعون<sup>(٧)</sup>. ولعل أقرب الأحكام في سائر القوم إلى اليقين ما ذكره الذهبي، قال بعقب الطبقة الرابعة من الحفاظ: وخلفاء هذا الزمان أبو جعفر المنصور، وأين مثل أبي جعفر على ظلم فيه، ثم ابنه المهدي في سخائه وكثرة محاسنه وتبعه لاستئصال الزنادقة، وولده الرشيد هارون في جهاده وحجه على لعب ولهو، ولكن كان معظماً لحرمات الدين<sup>(٨)</sup>. ولعل أبعد ما يستحقونه من الملام قول ابن الجهم يخاطب أحمد بن أبي دؤاد:

يا أحمد بن أبي دؤاد إنما تدعى لكل عزيمة يا أحمد

(١) المقدمة، من ص ١٧ إلى ص ٢٠.

(٢) الطبري، ج ٧ ص ١٧٩.

(٣) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٢.

(٤) بطريق شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٣.

(٥) وفيات الأعيان، ج ١ ص ١١٦.

(٦) الطبري، ج ٧ ص ١٠١ وما بعدها.

(٧) انظر المقدمة، ص ١٧٢ التمتع وما بعده.

(٨) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٢٥.

أبلغ أمير المؤمنين ودونه      خوض الردى ومخاوف لا تنفد  
أنتم بني عم النبي محمد      أولى بما شرع النبي محمد

ولئن كان الكلام على الخلفاء من الحرج بمكان لما أسلفت، فليس كذلك القول في الولاية والعمال. وقد أجمل المأمون وصف لصوقهم بهذه الدولة وابتلائها بهم، فقال: إنا نعرف موضع الكفاة الثقات المتقدمين من الرجال ولكن دولتنا منكوسة، إن قومناها بالراجحين انتقصت، وإن أيدناها بالناقصين استقامت<sup>(١)</sup>. وقد حفظ لنا التاريخ في ذلك مصدراً لا ترقى إليه الشبهات هو كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف الذي تقدم إليه الرشيد أن يؤلفه جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به لرفع الظلم عن الرعية ولصلاح أمرهم<sup>(٢)</sup>. فقد أشار القاضي إلى بعض ما ينكر من أمور البطانة في هذا العصر وما يجر إليه من الشر، فقال، بعد حضه على اتخاذ عمال الخراج من أولي العفاف والأمانة: إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب الناس وجباية خراجهم، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك. وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئاً من أمر الخراج والبحث عن مذاهبهم والسؤال عن طرائقهم كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء<sup>(٣)</sup>.

ولعل أشد ما في هذا الكتاب مما يعود باللائمة على عمال الرشيد أو عليه إن كان بعلمه خروج أهل السجن بسلاسلهم يسألون الناس لعدم إجراء النفقات عليهم من بيت المال وحضه إياه أن يقدر لهم ما يقوتهم، على أن يكون دراهم تدفع إليهم كل شهر بيد رجل من أهل الصلاح خشية أن يذهب

(١) تاريخ بغداد، ج ١٠ ص ١٨٦.

(٢) كتاب الخراج، ص ٣.

(٣) الخراج، ص ١٠٦، ١٠٧.

بما يجري عليه من الخبز ولاية السجن والقوام والجلالوزة<sup>(١)</sup>. وأشد من ذلك ما ذكر من ترك الميت منهم اليوم واليومين حتى يتصدق عليه أهل السجن، ثم يدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه، وقد عقب على هذا بقوله: فما أعظم هذا في الإسلام وأهله، وأشد منها قوله له: ولو أمرت بإقامة الحدود، لقل أهل الحبس، ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عما هم عليه، وأشد منه ما وصفه من أن ولاته يضربون الرجل الثلاثمائة والمائتين لأمر لا يجب فيه حد<sup>(٢)</sup>. وأشد مما سلف كله قوله له: وما أظن كثيراً من القضاة، والله أعلم، يبالي بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم<sup>(٣)</sup>. وبعض ما أشار إليه القاضي أبو يوسف كان قد أصلحه المهدي وأصلح نظيره قبل، ففي سنة اثنتين وستين ومائة أمر أن يجري على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق<sup>(٤)</sup>.

### أخلاق العامة:

عن يحيى بن يمان عن أبيه: سمعت سفيان الثوري (في سنة ١٦١ هجرية وهو من أهل الكوفة) يقول: ما بالكوفة رجل أثق به في قرض عشرة دراهم إلا رجل إن أعطانيها نوه باسمي فيها، وعنه أصحب من شئت ثم أغضبه، ثم دس إليه من يسأله عنك. وعن عطاء بن مسلم قال لي سفيان: يا عطاء، إحذر الناس واحذرن، فلو خالفت رجلاً في رمانة، فقال: حامضة وقلت حلوة، أو قال حلوة وقلت حامضة لخشيت أن يشيط بدمي.

وعن عبدالله بن مرزوق: استشرت سفيان الثوري فقلت: أين ترى أنزل؟ فقال: بمر الظهران<sup>(٥)</sup>، حيث لا يعرفك أحد<sup>(٦)</sup>. ويظهر أن الشر كان قد

(١) خراج، ص ١٥٠.

(٢) نفس المصدر، ص ١٥١.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٧.

(٤) شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٥٥.

(٥) هو واد موصل إلى مكة.

(٦) الحلية، ج ٧ ص ٨.

بلغ غايته المدمرة قبيل حروب الأمين والمأمون وفي أثنائها، فقد روى الطبري وابن الأثير في أحداث سنة إحدى ومائتين في ولاية منصور بن المهدي على بغداد، بعد قتل الأمين وقبل مقدم المأمون من خراسان، أن المتطوعة تجردت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان سبب ذلك أن فساق بغداد والشطار آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية، وكانوا يأخذون ولد الرجل وأهله فلا يقدر أن يمتنع منهم وكانوا يطلبون من الرجل أن يقرضهم أو يصلحهم فلا يقدر على الامتناع، وكانوا ينهبون القرى لا سلطان يمنعهم ولا يقدر عليهم لأنه كان يغريهم وهم بطانته<sup>(١)</sup>. وقد تعرض الخريمي الشاعر لوصف هذه الحال السيئة في قصيدته التي وجهها إلى المأمون يصف بها ما نزل ببغداد من الأهوال على يد الجنود والفساق، فقال:

يا بؤس بغداد دار مملكة      دارت على أهلها دوائرها  
أهلها الله ثم عاقبها      لما أحاطت بها كبائرها  
بالخسف والقذف والحريق      وبالحر

ب التي أصبحت تساورها  
حلت ببغداد وهي آمنة      داهية لم تكن تحاذرها  
طالعها السوء من مطالعه      وأدركت أهلها جرائرها  
رق بها الدين واستخف بذي الفضـ

ل وعز النسك فاجرها  
وخطم العبد أنف سيده      بالرغم واستعبدت مخادرها  
وصار رب الجيران فاسقهم      وابتز أمر الدروب داعرها  
ثم قال يخاطب المأمون:  
أصبحت في أمة أوائلها      قد فارقت هديتها وأواخرها

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ١١٠؛ وانظر الطبري، ج ٧ ص ١٣٦ وما بعدها.



وأنت سرسورها وسائسها      فهل على الحق أنت قاسرها  
أدب رجالاً رأيت سيرتهم      خالف حكم الكتاب سائرها<sup>(١)</sup>

ولئن كانت هذه الناحية قد بلغت من السوء إلى هذا الحد، فإنّ في توافر أهل الصلاح على مقاومتها إلى ما سنجد إن شاء الله في مواقف الوعاظ والزهاد من الدعوة إلى الخير حيثما وجدوا السبيل إلى النصح والإرشاد مما يصور لنا ناحية أخرى بيضاء ناصعة تتناسب وقرب العهد بهذا النور الوضاء الذي أنزله الله من السماء.

### مواعظ الزهاد

#### تمهيد في نشأة الوعظ وصلته بالقصص:

لم تنشأ الحاجة إلى الوعظ بنشأة الدولة العباسية، فقد وجدت هذه الحاجة منذ بدأ العهد يتقدم بالناس ومنذ ظهر عسف بني أمية بهم وأخذ الترف يدب إليهم والغلظة تستولي على قلوبهم، وقد سبق وصف ذلك في الكلام على الحالة السياسية في خطبتي داود والسفاح، ووصف المنصور للقوم على ما فيها من الإسراف والتعميم. وقد كانت هذه المواعظ تتجه حيناً إلى التجبيه بالظلم كموعظة سعيد ابن جبير للحجاج<sup>(٢)</sup> وحيناً تعتمد إلى التقويم كمواعظ أبي حازم الأعرج<sup>(٣)</sup> وطاووس اليماني<sup>(٤)</sup> وعمر بن عبدالعزيز<sup>(٥)</sup> لسليمان بن عبد الملك. ومن هذا النوع موعظة زر بن حبيش لعبد الملك<sup>(٦)</sup>، وموعظة خالد بن

(١) الطبري، ج ٧ ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) الحلية، ج ٤ ص ٢٩٣ و ٢٩٤؛ والإمامة والسياسة، ج ٢ ص ٤٩.

(٣) مروج الذهب، ج ٣ ص ١١٤ و ١١٥؛ وسراج الملوك، والحلية، ج ٣ ص ٢٤٣ وحواليها؛ والإمامة والسياسة، ج ٢ ص ٩٧ إلى ١٠١.

(٤) الحلية، ج ٤ ص ١٥؛ والإمامة والسياسة، ج ٢ ص ٩٧.

(٥) الحلية، ج ٥ ص ٢٧٢ و ٢٨٨.

(٦) الحلية، ج ٤ ص ١٨٤.

صفوان لهشام<sup>(١)</sup> وحيناً تقصد إلى التذكير والإعانة على الخير كمواظ يزيـد الرقاشي<sup>(٢)</sup> والحسن البصري<sup>(٣)</sup> وسالم السدي<sup>(٤)</sup> وطاووس اليماني<sup>(٥)</sup> والقاسم بن مخيمرة<sup>(٦)</sup> وأبي حازم<sup>(٧)</sup> وخالد بن صفوان<sup>(٨)</sup> ومحمد بن كعب القرظي<sup>(٩)</sup> وهو وسالم بن عبدالله ورجاء بن حيوة<sup>(١٠)</sup> لعمر بن عبدالعزيز وعبد الملك ابنه ومزاحم مولاه له<sup>(١١)</sup>.

وقد تكون هذه المواظ عن استدعاء من الموعوظ كمواظ السالمين ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة لعمر وفي سراج الملوك أنه قال لميمون بن مهران: قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره<sup>(١٢)</sup>. ومنه ما روي أن ابن هبيرة لما ولي العراق وخراسان ليزيد بن عبد الملك استدعى الحسن وابن سيرين والشعبي فاستشارهم فيما يصنع من طاعة الخليفة أو مخالفته فيما يغضب الله؛ وقد كانت موعظة الحسن له أنصح وأصرح في ترك أمر يزيد لأمر الله فنال من إجلاله وإحسانه إليه أكثر من نصيب صاحبيه<sup>(١٣)</sup>.

والحسن البصري ممن جمع بين وعظ الخاصة والعامة. ووصفه الذهبي

---

(١) الأغاني، ج ٢ ص ٣٣.

(٢) سراج الملوك.

(٣) الحلية، ج ٢ ص ١٣٤ إلى ١٤٠، ج ٥ ص ٣١٧.

(٤) المروج، ج ٣ ص ١٣٠؛ والحلية، ج ٣ ص ٢١٤.

(٥) شذرات، ج ١ ص ١٣٣؛ وابن خلكان، ج ١ ص ٢٩١.

(٦) الحلية، ج ٥ ص ٣١٦، ج ٦ ص ٨٢.

(٧) الحلية، ج ٥ ص ٣١٧.

(٨) الحلية، ج ٨ ص ١٨.

(٩) أمالي القالي، ج ٢ ص ٢٩؛ والحلية، ج ٥ ص ٣١٣.

(١٠) الحلية، ج ٨ ص ١٠٦.

(١١) الحلية، ج ٥ ص ٣٥٦.

(١٢) سراج الملوك، ص ٨٠ و ٨١.

(١٣) القصة في شذرات الذهب، جزء أول ص ١٣٧؛ والحلية، ج ٢ ص ١٤٩.

فقال: مليح التذكير بليغ الموعظة رأس في أنواع الخير<sup>(١)</sup>. وفي الشذرات: وله مع الحجاج وقعات هائلة وسلمه الله من شره، وربما حضر مجلسه فلم يقم، بل يوسع له فيجلس إلى جنبه ولا يغير كلامه الذي هوفيه<sup>(٢)</sup>. وقد بلغ صدق الدين بمالك بن دينار أن يقف فيعظ في الأسواق<sup>(٣)</sup> وأن يقصد إلى بشار بن برد في منزله ينهاه عن شتم أعراض الناس والتشبيب بنسائهم<sup>(٤)</sup>؛ وشاركه في وعظ بشار سوار بن عبدالله فقد كان عند قولها فيه: ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة، أي البصرة، إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد<sup>(٥)</sup>. وخطب واصل بن عطاء الناس فقال: أما لهذا الأعمى الملحد من يقتله<sup>(٦)</sup>؟ فقد كان عند قوله فيه: إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد. ومن وعاظ العصر الأموي من الخوارج أبو حمزة الخارجي وله خطبة طويلة في ذلك رواها الجاحظ<sup>(٧)</sup> وأبو الفرج<sup>(٨)</sup>؛ وقطري بن الفجاءة، وله خطبة في الوعظ أيضاً رواها الجاحظ مع السابقة.

### صلة الوعظ بالقصص:

اشتهر من قديم تسمية الواعظ قاصاً تسمية له بمخالطه أو بما انبنى عليه من الأخبار الباعثة على الرقة والاعتبار؛ وقد كان الغرض الأول منه سياسياً. فعن نافع وغيره من أهل العلم قالوا: لم يقصّ في زمان النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر، وإنما القصص محدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة<sup>(٩)</sup>. وفي كتاب القصص لابن الجوزي أن معاوية ندب رجلاً

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٦٧.

(٢) شذرات، ج ١ ص ١٣٧.

(٣) سراج الملوك، ص ٣٠.

(٤) مذهب الأغاني، ج ٤ ص ٢٥٨.

(٥) مذهب، ج ٤ ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٦) زهر الأدب، ج ٢ ص ١٣٧؛ والأغاني، ج ٣ ص ٢٤.

(٧) البيان والتبيين، ج ٢ ص ٩٩ إلى ١٠٤.

(٨) الأغاني، ج ٢٠ من ص ١٠٦ إلى ١٠٧.

(٩) تحذير الخواص، ص ٦٣.

من الصالحين لوعظ الناس وتقوية دينهم برواية القصص الدينية<sup>(١)</sup>. وعن عاصم الأحول أو سليم بن عامر قال: أرسلتني أم الدرداء إلى نوف البكالي وإلى رجل آخر كان يقص في المسجد وقالت: قل لهما: اتقيا الله ولتكن موعظتكما الناس موعظتكما لأنفسكما<sup>(٢)</sup>. وكان ربيعة الجرشي الصحابي في زمن معاوية يقول في قصصه: إن الله جعل الخير من أحلكم كشراك نعله، وجعل الشر منه مد بصره<sup>(٣)</sup>. وكان مالك بن دينار يقول في قصصه: ما أشد فطام الكبير<sup>(٤)</sup>. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عماله أن يأمرُوا القصاص أن يكون جل اطنابهم ودعائهم الصلاة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>، وهو دليل على أن القصص أصبح لا يلحظ فيه ما كان أولاً من رواية الأخبار الدينية، بل صار للوعظ والذكر والدعاء؛ ودل على أن القصص قد صار إلى الاعتماد على التفسير لآيات الترغيب والترهيب والأخبار عن المغيبات قول الجاحظ: وكان الفضل بن عيسى الرقاشي سجعاً في قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وإبان بن أبي عيَّاش يأتون مجلسه. وقال له داود بن أبي هند: لولا أنك تفسر القرآن برأيك لأتيناك في مجلسك. قال: فهل تراني أحرم حلالاً أو أحل حراماً؟ قال الجاحظ: وإنما كان يتلو الآية التي فيها ذكر النار والجنة والحشر والموت وأشباه ذلك. ومما يدل على ما كان لهؤلاء الوعاظ من المكانة في القديم قوله أيضاً: وقد كان عبد الصمد بن الفضل وأبو العباس القاسم بن يحيى وعامة قصاص أهل البصرة وهم أخطب من الخطباء يجلس إليهم عامة الفقهاء<sup>(٦)</sup>. وروى الذهبي أن أبا إدريس الخولاني كان واعظ أهل دمشق وقاصهم وقاضيهم فعزله عبد الملك عن القصص وأقره على القضاء فقال: عزلوني عن رغبتني وتركوني في رهبتني<sup>(٧)</sup>.

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ج ٢ ص ١١٨ وما بعدها.

(٢) تحذير الخواص، ص ٦٤؛ والحلية، ج ٦ ص ٥٢.

(٣) الحلية، ج ٦ ص ١٠٦.

(٤) البيان، ج ١ ص ٢٣٦.

(٥) الحلية، ج ٥ ص ٣٣٨.

(٦) البيان، جزء أول ص ٢٣٦.

(٧) تذكرة الحفاظ، جزء أول ص ٥٣.

## الوعظ في عصر الشاعر

### وعظ الخاصة:

بدأت هذه الدولة قاسية مسرفة في سفك الدماء، وعرف عن أبي جعفر المنصور جمع للمال وحرص عليه، ثم انتقلت على يدي المهدي إلى سخاء يبلغ حد الإسراف، ثم ظهرت بمظهر التنعم والترف في عهد الرشيد. ولابسها في جميع هذه الأحوال أمور سلفت الإشارة إليها أنزلت بالرعية ضرورياً من الجور والحرمان فوجهت هذه الأحوال مواعظ الوعاظ وجهات ثلاثاً:

#### □ الوجهة الأولى:

التجبيه بالظلم والتحذير من عواقبه وتحسين الرحمة والإحسان إلى الناس.

#### □ الوجهة الثانية:

الحض على الاقتصاد واللوم على الإسراف.

#### □ الوجهة الثالثة:

تحقير أمر الدنيا والتذكير بالموت والحساب والعقاب، إلى ما يلابس هذه الأمور من التخويف من جور البطانة وضياح الحقوق.

فمن النوع الأول: مواعظ عمرو بن عبيد المنصور<sup>(١)</sup> ومنها بلفظ سراج الملوك أنه دخل عليه فقراً: ﴿والفجر وليال عشر﴾ حتى بلغ ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ فقال: لمن فعل مثل فعالمهم فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن ببابك نيراناً تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنت المسؤول عما اجترحوه وليسوا مسؤولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك. ومن رواية الخطيب البغدادي بعد نحو هذه، أن أبا جعفر بكى بكاء شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة وقال: زدني. فقال: إن

(١) البيان والتبيين، جزء ٣ ص ٢٦٠؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص ٣٦٣؛ ومروج الذهب،

ج ٣ ص ٣٢٨؛ وتاريخ بغداد، ج ١٢ من ص ١٦٧ إلى ١٦٩؛ وسراج الملوك، ص ٢٦.

الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها. واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك. وإني أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة. فبكي أشد من بكائه الأول حتى جف جفناه فقال له سليمان بن مجالد: رفقاً بأمر المؤمنين قد أتعبته منذ اليوم. فقال له عمرو: بمثلك ضاع الأمر وانتثر لا أبالك؛ وماذا خفت على أمير المؤمنين إن بكى من خشية الله؟! فقال له أمير المؤمنين: يا أبا عثمان - كنية عمرو بن عبيد - أعني بأصحابك استعن بهم، قال: أظهر الحق يتبعك أهله.

ومن هذا النوع أيضاً سائر مواعظ الوعاظ لأبي جعفر فمنها لمحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ذئب: يا أمير المؤمنين قد هلك الناس فلو أعنتهم بما في يدك من الفيء. فقال: ويلك لولا ما سددت من الثغور وبعثت من الجيوش لكنت تؤق في منزلك وتذبح. فقال ابن أبي ذئب: فقد سد الثغور وجيش الجيوش وفتح الفتوح وأعطى الناس أعطياتهم من هو خير منك. قال: ومن هو ويلك؟ قال: عمر بن الخطاب. فنكس المنصور رأسه والسيف بيد المسيب والعمود بيد مالك بن الهيثم فلم يعرض له والتفت إلى محمد بن إبراهيم الإمام فقال: هذا الشيخ خير أهل الحجاز<sup>(١)</sup>. وله موعظة ثانية للمنصور واجهه فيها بأنه جائر<sup>(٢)</sup> وثالثة واجهه فيها بقوله: الظلم ببابك قاس<sup>(٣)</sup>. ومنها موعظة سفيان الثوري له بنحو ما سلف آخر<sup>(٤)</sup>. وفي الشذرات: وكان كثير الخط على المنصور لظلمه فهم به وأراد أن يقتله فلم يمهله الله<sup>(٥)</sup>. ومنها موعظة عبدالله بن طاووس اليماني له - ووهم صاحب الشذرات في وفاة عبدالله - دخل مع مالك على المنصور فقال: حدثني عن أبيك. قال: حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة

(١) تاريخ بغداد، ج ٢ ص ٢٩٩.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٢ ص ٢٩٨.

(٣) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١٨٠، ١٨١؛ والشذرات، جزء أول ص ٢٤٥.

(٤) الحلية، ج ٧ ص ٤٢.

(٥) شذرات، ج ١ ص ٢٥٠.

رجل أشركه الله في سلطانه فأدخل عليه الجور والظلم في حكمه. فأمسك المنصور قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً أن ينضحني بدمه. ثم قال له: ناولني الدواء. فلم يفعل فقال: لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية. قال: قوماً عني. قال: ذلك ما كنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف فضله<sup>(١)</sup>. وروى القصة ابن خلكان في ترجمة أبيه طاوس<sup>(٢)</sup>. ومنها مواعظ الأوزاعي له وهي كثيرة<sup>(٣)</sup>. وذكر أبو الفداء موعظة طويلة لأعرابي وعظ بها المنصور وهو في الطواف وهي من هذا النوع<sup>(٤)</sup>. ومن هذا النوع ما واجه به الأوزاعي عبدالله بن علي عم المنصور منكرأ عليه ما سفك وما أخذ من دماء بني أمية وأموالهم<sup>(٥)</sup>.

ومن النوع الثاني: مواعظ سفيان الثوري للمهدي<sup>(٦)</sup> ومنها من رواية أبي نعيم في الحلية عن سفيان الثوري قال: دخلت على المهدي - يعني وهو في الحج - فقلت: بلغني أن عمر بن الخطاب أنفق في حجه اثني عشر ديناراً، وأنت فيما أنت فيه. فغضب وقال: أتريد أن أكون مثل الذي أنت فيه؟ قال: فقلت: فإن لم تكن في مثل ما أنا فيه ففي دون ما أنت فيه. ومن وعاظ المهدي صالح بن عبد الجليل وموعظته إياه في الحضر على قبول المواعظ قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء<sup>(٧)</sup>. ومن وعاظ المهدي صالح بن بشر المري فله من عظة حضه فيها على احتمال غلظة النصيحة والتخلق بأخلاق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، قوله له: واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى يدّعيه إلى الله قربة، وإن أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم<sup>(٨)</sup>.

(١) شذرات، ج ١ ص ١٨٨؛ وسراج الملوك، للطرطوشي.

(٢) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٩٢.

(٣) انظر كتاب محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي، ص ١٢٠، وما بعدها.

(٤) تاريخ أبو الفداء، ج ٢ ص ٧.

(٥) محاسن المساعي مع ما سبق؛ وتذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١٧٠، ١٧١.

(٦) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٤٤؛ وشذرات الذهب، ج ١ ص ٢٥٠؛ والحلية، ج ٦ ص ٣٧٧.

(٧) البيان، ج ٢ ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٨) تاريخ بغداد، ج ٩ ص ٣٠٦.

ومن النوع الثالث: مواعظ ابن السماك للرشيده<sup>(١)</sup> ومنها بلفظ الخطيب في تاريخ بغداد عن المغيرة قال: حضرت يحيى بن خالد البرمكي يقول لابن السماك: إذا دخلت على هارون أمير المؤمنين فأوجز ولا تكثر عليه. قال: فلما دخل عليه وقام بين يديه، قال: يا أمير المؤمنين إن لك بين يدي الله مقاماً، وإن لك من مقامك منصرفاً فانظر إلى أين منصرفك إلى الجنة أم إلى النار؟ قال فبكى هارون حتى كاد أن يموت. ومنها: أني والله ما رأيت وجهاً أحسن من وجهك فلا تحرق وجهك بالنار. ومنها وقد استسقى فأتي بقدر فيه ماء فقال: يا أمير المؤمنين أكلمك بكلمة قبل أن تشرب هذا الماء؟ قال: قل ما أحببت. قال: يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتى تصل إليك؟ فقال: نعم. قال: فاشرب رياءً بارك الله فيك. فلما فرغ من شربه قال له: يا أمير المؤمنين أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتدي ذلك بالدنيا وما فيها؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه؟ فبكى هارون واشتد بكاءه فقال يحيى بن خالد: يا ابن السماك قد آذيت أمير المؤمنين. فقال له: وأنت يا يحيى فلا يغرنك رفاهية العيش ولينه.

ومن وعاظ الرشيد محمد بن الليث، رفع له رسالة يعظه فيها ويذكر له أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً وقد جعلته فيما بينك وبين الله فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما فعلت في عباده وبلاده. فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك - أترك تحتج بحجة يرضى بها؟ مع كلام فيه توبيخ وتقريع<sup>(٢)</sup>.

ومن وعاظه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن حفص المعروف بالعمري واجهه بالإنكار والموعظة الغليظة في المسعى فقال: يا هارون، قال لبيك يا عم،

(١) تاريخ بغداد، ج ٥ ص ٣٧٢، ٣٧٣؛ والكامل لابن الأثير، ج ٦ ص ٧٢؛ وشذرات الذهب، ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٤٨٤.



قال: انظر هل تحصيلهم؟ يعني الحجيج. قال: ومن يحصيلهم؟ قال: اعلم أن كلاً منهم يسأل عن نفسه وأنت تسأل عن كلهم ثم قال: والله إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر فكيف من يسرف في أموال المسلمين<sup>(١)</sup>؟. ولما تقدم الرشيد إلى أبي يوسف أن يؤلف له كتاب الخراج ضمنه أبو يوسف نصائح كثيرة من الأحاديث والآثار وافتتح ذلك بقوله: يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قللك أمراً عظيماً ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب؛ قللك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمست وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله واثمنتك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه. وقال الرشيد لأبي علي الفضيلي بن عياض: ما أزهذك؟ قال: أنت أزهد مني لأنني زهدت في الدنيا الفانية وأنت زهدت في الآخرة الباقية<sup>(٢)</sup>. ووعظه بمواعظ أخرى كبعض ما سلف<sup>(٣)</sup>. ومن وعظه منصور بن عمار<sup>(٤)</sup>.

### وعاظ العامة:

عن ابن عون المتوفى سنة ١٥١ أنه في مساجد البصرة كان لعلماء الفقه حلقة واحدة على حين كان للقصاص حلقات لا تخصى حتى كانت المساجد مملوءة بهم<sup>(٥)</sup>. ومن الطريف أن صالح بن عبدالقدوس مع قتل المهدي إياه على الزندقة كان يعظ وقصّ بالبصرة<sup>(٦)</sup>. ومن جمع بين وعظ الخاصة والعامة في هذا العصر صالح المري البصري القاضي الذي سبقت موعظته للمهدي. وحدث الخطيب بسنده إلى عبدالرحمن بن مهدي أن سفيان يعني الثوري قال

(١) شذرات، ج ١ ص ٢٧٩.

(٢) شذرات، ج ١ ص ٣١٧.

(٣) الحلية، ج ٨ ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨.

(٤) شذرات، ج ١ ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ج ٢ ص ١١٨.

(٦) حياة الحيوان، للدميري، ج ١ ص ٥١.

له: أما لكم مذكر؟ فقلت: بلى لنا قاصّ. قال: فمر بنا إليه. قال: فذهبت معه ما بين المغرب والعشاء فلما انصرف قال: يا عبدالرحمن تقول: قاصّ؟ هذا نذير قوم<sup>(١)</sup>. ومنهم ابن السماك وحضر الرشيد مجلس وعظه متخفياً<sup>(٢)</sup>. ومنهم منصور بن عمار وذكر ابن النديم أسماء مجالسه ومنها مجلس في حسن الظن بالله ومجلس في العرض على الله عز وجل ومجلس في ذكر الموت<sup>(٣)</sup>. وقال ابن عبدربه: وقال منصور بن عمار في مجلس الزهد: إن لله عبداً جعلوا ما كتب عليهم من الموت مثلاً بين أعينهم وقطعوا الأسباب المتصلة بقلوبهم من علائق الدنيا فهم أنضاء عبادته، حلفاء طاعته قد نضحوا خدودهم بوابل دموعهم وافترشوا جباههم في محاريبهم يناجون ذا الكبرياء والعظمة في فكاك رقابهم<sup>(٤)</sup>.



(١) تاريخ بغداد، ج ٩ ص ٣٠٨.

(٢) الإمامة والسياسة، ج ٢ ص ١٦٦.

(٣) الفهرست، لابن النديم، ص ٢٦١.

(٤) العقد، ج ٣ ص ١٢٧.

في  
الحالة العلمية والأدبية

قسم ابن خلدون العلوم من حيث طريق إفادتها إلى صنفين: طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره وهي العلوم الفلسفية، ونقلي مستند إلى الشارع لا مجال للعقل فيه إلا في إلحاق الجزئيات الحادثة بالكليات المنقولة فمرجعها إلى النقل. ونبه إلى أن أصل العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة وما يتعلق بها من العلوم التي تهيؤها للإفادة وما تستتبعه من علوم اللسان العربي؛ وحصر علوم القسم الثاني في التفسير والقراءات والحديث وأصول الفقه والفقه والفرائض والكلام والتصوف والتعبير ثم اللغة والنحو والبيان والآداب. وحصر علوم القسم الأول وهي علوم الفلسفة والحكمة في المنطق والطبعيات والإلهيات والرياضيات. ثم ذكر أن أكثر من عني بهذه العلوم العقلية الأمتان العظيمتان قبل الإسلام وهما فارس والروم<sup>(١)</sup>.

ولا تحتمل هذه الرسالة الكلام على جميع هذه العلوم لأن منها ما لا صلة له بالأدب كالقراءات وأصول الفقه والفرائض وتعبير الرؤيا، فسنخصص بالحديث منها ما كان منه أو ذا أثر ظاهر فيه، مضيفين إليه الكلام على علمي العروض والقافية ومقدمين على ذلك كله الكلام على أصل العلوم ومستمد الفهوم وهو القرآن الكريم.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٨١ وما بعدها؛ وانظر كشف الظنون، ج ١ ص ٢٥.

## القرآن الكريم:

هو هذه الحكم البالغات والمواعظ الشافيات، والهدى والنور والشفاء لما في الصدور، وهو الحق والرشاد والصواب والسداد وصلاح أمر المعاش والمعاد. وهو النصيح الذي رغب وبشر ورهب وأنذر، وهو القصص الحكيم والنبأ العظيم والشرع القويم؛ به أبصر المستبصرون واستيقظ الغافلون واهتدى الضالون الحائرون ونجا الهالكون ووصل المنقطعون، وبه عرف الله وألهم وأرشد وقوم، وقد عظمت العناية بتلاوته وحفظه في هذا العصر بما كان من عناية الخلفاء بالدين وأهله، وما أخذ الأدباء به أنفسهم من احتذاء أساليبه والاقتراس من معانيه التي لا ينفد مددها ولا ينضب معينها. وصدق عبدالله ابن (مسعود)، إذ يقول: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين<sup>(١)</sup>. والاقتراس من القرآن الكريم ظاهر جداً في آداب هذا العصر، منشورها ومنظومها. وقد وصلت هذه العناية إلى حد لا نظير له في عهدي المهدي والرشيد، فقد كان استعجام اللسان به وتجنبه في تلاوته من علامات الزندقة، وقد علمت ما كان من شأنها في عهد المهدي. فحين استحكمت الظنة عند المهدي بمحمد ابن وزيره أبي عبيدالله فأحضره قال: يا محمد اقرأ. فاستعجم عليه القرآن فأمر به فضربت عنقه<sup>(٢)</sup>. ولو صح ما في الامامة والسياسة: أن الرشيد كتب إلى أهل الأمصار إلى أمراء الأجناد في كتاب له: «ومن جمع القرآن وأقبل على لب العلم فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في الدين والعلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف، وإن ابن المبارك قال: فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن بعد أيام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبأيام الصحابة والخلفاء أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه؛ لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث ويجمع الدواوين وينظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة<sup>(٣)</sup>— لكان فيه دليل على هذه العناية،

(١) تذكرة الحفاظ، ج أول ص ١٥.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٣٧١.

(٣) الامامة والسياسة، ج ٢ ص ١٦٧.

أي دليل. وذكر ابن خلكان في ترجمة زبيدة زوج الرشيد أنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن<sup>(١)</sup>.

### رواية الحديث وتدوينه:

الحديث ما أضيف إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي أو خلقي<sup>(٢)</sup>، أو هو أعم من أن يكون قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، أو الصحابي أو التابعين وفعلهم وتقريرهم<sup>(٣)</sup>، وهذا التعميم مبني على أن السلف أطلقوا الحديث على قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان وآثارهم وفتاواهم، رضي الله عنهم أجمعين<sup>(٤)</sup>. ولا يكاد يخلو صحابي من رواية شيء منه قل أو كثر. وقد اشتهر بسعة الرواية منهم طائفة حصرهم الذهبي في واحد وثلاثين منهم اثنتان من أزواجه، صلى الله عليه وسلم، هما عائشة وأم سلمة، رضي الله عنهما، وخلفاؤه الراشدون الأربعة، رضي الله عنهم.

وأوسعهم رواية علي ويليهِ عمر ثم عثمان ثم أبو بكر. وأكثر الجميع رواية أبو هريرة فمروياته خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون ثم عبدالله بن عمرو فله ألفان وستمائة وثلاثون ثم أنس بن مالك خادم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فله ألفان ومائتان وستة وسبعون، ثم عائشة فلها ألفان ومائتان وعشرة، ثم عبدالله بن عباس فله ألف وستمائة وسبعون<sup>(٥)</sup>.

وليس معنى ما سلف أن الخلفاء الراشدين دون أبي هريرة ومن يليهِ علماً بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهم أدرى بشأنه كله وغايته انهم

(١) وفيات الأعيان، ج أول ص ٢٣٧.

(٢) مصطلح الحديث للمرحوم الشيخ عبدالغني محمود، ص ٥، ٦.

(٣) الديباج المذهب، للسيد الجرجاني.

(٤) شرح الديباج، ص ٦، ٧.

(٥) شذرات الذهب، ج ١ ص ٦٣.

لم يكثرُوا من التحديث لمثل ما ذكره الذهبي بإسناد إلى قرظة بن كعب قال: لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر وقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم مكرمة لنا. قال: ومع ذلك انكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم؛ جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنا شريككم<sup>(١)</sup>. وما ذكره أيضاً من أن عمر حبس ثلاثة، ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري، فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup>. فهو كما ترى تخرج من مزاحمة القرآن أو تخوف مما تجره كثرة الرواية من الشبهات، وقد صرح بأولى العلتين عروة بن الزبير، فقال: كنا نقول: لا نتخذ كتاباً مع كتاب الله فمحوت كتبني فوالله لوددت أن كتبني عندي، إن كتاب الله قد استمرت ميرته<sup>(٣)</sup>. هذا وسيأتي التصريح بالثانية، ومن أسباب سعة الرواية طول الصحبة وهو من أسباب إكثار عائشة وأم سلمة، رضي الله عنهما، وهو والرواية عن بعض الصحابة وطول العمر من أسباب إكثار أنس خادم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد أخذ عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي وطائفة<sup>(٤)</sup>، وجميعها مع قوة الحفظ من أسباب إكثار أبي هريرة فقد كان مسكيناً من أصحاب الصفة يلزم النبي، صلى الله عليه وسلم، على ملء بطنه فكان يحضر ما لا يحضر اخوانه من المهاجرين والأنصار ويعي ما لا يعون<sup>(٥)</sup>. وروى أبو هريرة عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وكعب<sup>(٦)</sup>، وعن الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره؛ ونحوه عنه يقوله عن نفسه<sup>(٧)</sup>. والكتابة من أسباب إكثار

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٧.

(٢) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٧.

(٣) الحلية، ج ٢ ص ١٧٦.

(٤) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٤٢.

(٥) الحلية، ج ١ ص ٣٧٨.

(٦) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣١.

(٧) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣٤.

عبدالله بن عمرو بن العاص. كتب عن النبي، صلى الله عليه وسلم، علماً كثيراً وكان يعترف له أبوهريرة بالإكثار من العلم وقال: انه كان يكتب عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وكنت لا أكتب<sup>(١)</sup>.

وليس بعجيب أن نرى التابعين أوسع رواية من الصحابة فانهم جمعوا إلى ما تفرق من رواياتهم فتاواهم وآثارهم حتى كانت رواية سفيان بن عيينة نحواً من سبعة آلاف حديث<sup>(٢)</sup> وشعبة بن الحجاج الذي يقول فيه الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق - عشرة آلاف حديث<sup>(٣)</sup>، ولحماد بن سلمة بضعة عشر ألفاً<sup>(٤)</sup> ولإبراهيم بن سعد الزهري نحو من سبعة عشر ألف حديث في الأحكام سوى المغازي<sup>(٥)</sup> ولسفيان الثوري وهو وأبوه من علماء الكوفة ثلاثون ألف حديث<sup>(٦)</sup> ولهيثم بن بشير بن أبي خازم نزيل بغداد عشرون ألف حديث<sup>(٧)</sup>. وقد تصل رواية الرجل الواحد إلى مائة ألف كعبدالله بن وهيب بن مسلم<sup>(٨)</sup>. وبعد الفترة التي نصفها بلغت رواية البخاري أربعمائة ألف ومسلم ثلاثمائة ألف لم يخرج منها إلا عشرة آلاف<sup>(٩)</sup>. بل روي ان الامام أحمد بن حنبل كان حفظه ألف ألف<sup>(١٠)</sup>، (والروايات مضطربة في إباحة تدوين الحديث ومنعه وصورة من هذا الاضطراب في كشف الظنون<sup>(١١)</sup>) وعن الحاكم بسنده إلى عائشة ان أباه، رضي الله عنهما، أحرق صحيفة كانت عنده فيها خمسمائة حديث

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣٩.

(٢) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٤٢.

(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ١٩٢.

(٤) نفس المصدر، ج ١ ص ١٩٠.

(٥) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٣٢.

(٦) نفس المصدر، ج ١ ص ١٩٢.

(٧) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٢٩.

(٨) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٨٠.

(٩) شروط الأئمة الستة، ص ١٢.

(١٠) تذكرة الحفاظ، ج ٢ ص ١٧.

(١١) كشف الظنون، ج ١ ص ٢١، ٢٢.

خشية أن يكون فيها حديث عن رجل قد ائتمنه ووثق به ولم يكن كما حدثه<sup>(١)</sup>. وعلى فرض أنه كان في صدر الإسلام كتابة للحديث فالظاهر أنها لم تكن إلا لمجرد التقييد دون ترتيب أو تبويب. وفي أوائل السيوطي: وأول من دون الحديث ابن شهاب في خلافة عمر بن عبدالعزيز، وفيه قال مالك في الموطأ: إن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله كتب إلى أبي بكر بن محمد بن حزم أن انظر فيما كان من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أوسنته أو حديث عمر أو أخبار الخلفاء الأربعة وفقهاء الصحابة أو نحو ذلك فاكتبه لي، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء. فدون كثير من العلوم في خلافته، رحمه الله<sup>(٢)</sup>، وفي كشف الظنون انه اختلف في أول من صنف فقيلاً: الامام عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج البصري (ت سنة ١٥٥ هجرية) وقيل أبو النضر سعيد بن أبي عروبة (ت سنة ١٥٦) وقيل ربيع بن صبيح (ت سنة ١٦٠) ثم صنف سفيان بن عيينة ومالك بن أنس بالمدينة المنورة وعبد الله بن وهب بمصر ومعمر وعبد الرزاق باليمن وسفيان الثوري ومحمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة وحماد بن سلمة وروح بن عباد بالبصرة وهيثم بواسطة وعبد الله بن مبارك بخراسان<sup>(٣)</sup> ومن مظاهر الحرص آنئذ على التدوين والأخذ عن الشيوخ قول ابن المبارك كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ<sup>(٤)</sup>. ومن مظاهر عناية الخلفاء العباسيين بالمحدثين أن الرشيد وصل أبا بكر بن عياش المحدث الكوفي بستة آلاف دينار<sup>(٥)</sup>. وعن أبي معاوية الضرير، محدث الكوفة: أكلت مع الرشيد فصب على يدي رجل لا أعرفه فقال الرشيد: يا أبا معاوية: تدري من [كان] يصب على يديك؟ قلت: لا. قال: أنا. قلت: أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إجلالاً للعلم. (ووراء هذه العناية الدينية بالحديث عناية أخرى أدبية تشبه ما سلف

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٥.

(٢) محاضرة الأوائل، للشيخ علاء الدين، ص ١٠١.

(٣) كشف الظنون، ج ١ ص ٢٢.

(٤) شذرات، ج ١ ص ٢٥٠.

(٥) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٤٥.



من العناية بحفظ القرآن الكريم للأغراض الأدبية المذكورة ثمة، فمثل أبي نواس من الشعراء وإسحاق الموصلي من المغنين والأدباء من رواة الحديث الآخذين عن الشيوخ. فقد كتب أبو نواس الحديث عن عبد الواحد بن زياد وأزهر السَّمان وغيرهما<sup>(١)</sup>، وروى إسحاق الحديث ولقي أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وهيثم بن بشير وإبراهيم بن سعد وأبي معاوية الضرير وروح بن عباد وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز<sup>(٢)</sup>.

### التفسير:

التفسير في الأصل هو الكشف والإظهار وفي الشرع توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة<sup>(٣)</sup>. وفي كشف الظنون أسماء المفسرين من الصحابة والتابعين ومن يليهم وهم كثيرون. ومن مفسري الصحابة الخلفاء الراشدون الأربعة إلا أن الإكثار مقصور على أحدهم وهو علي كرم الله وجهه. وروي عن ابن مسعود أكثر مما روي عنه. وأما ابن عباس، رضي الله عنهما، فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة ورئيس المفسرين دعا له النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. وروي عنه التفسير بطرق كثيرة سردها صاحب الكشف وذكر أن أحسنها طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ١٤٣ واعتمد عليها البخاري في صحيحه. ولأبي بن كعب المتوفى سنة ٢٠ نسخة كبيرة بإسناد صحيح ذكره صاحب الكشف ثم قال: وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب ابن عباس وهم علماء مكة المكرمة ومنهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٣ واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري ومنهم سعيد بن جبر المتوفى سنة ٩٤ وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥ وغيرهم من أصحاب وأصحاب ابن مسعود وزيد بن أسلم؛ ثم بعد هذه الطبقة الذين صنفوا كتب

(١) مهذب الأغاني، ج ٧ ص ٢٠٤.

(٢) الأغاني، ج ٥ ص ٤٩.

(٣) التعريفات للجرجاني.

التفسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين وذكر منهم سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج<sup>(١)</sup>. وذكر ابن النديم كثيرين من ذوي الكتب في التفسير منهم أبو حمزة الثمالي واسمه ثابت بن دينار من أصحاب علي، عليه السلام، ومن النجباء الثقة ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن البصري<sup>(٢)</sup>، رضي الله عنهما.

وقد ردّ ابن خلدون كثرة وجود الإسرائيليات في التفسير إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداءة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حِمَيْر الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم<sup>(٣)</sup>؛ وسنذكر في مبحث الأخبار والسير غير هؤلاء الذين ذكرهم من الإسرائيليين إن شاء الله.

### الكلام:

الكلام علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام، والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة<sup>(٤)</sup>. وعن الأمدى: كان المسلمون عند وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، على عقيدة واحدة وطريقة واحدة، إلا من كان يبطن النفاق ويظهر الوفاق. ثم نشأ الخلاف

(١) كشف الظنون، ج ١ من ص ٢٢٨ - ٢٣٠.

(٢) الفهرست، ص ٥٠، ٥١.

(٣) المقدمة، ص ٤٣٩.

(٤) التعريفات.

ففيما بينهم أولاً في أمور اجتهادية لا توجب إيماناً ولا كفراً، وكان غرضهم منها إقامة مراسم الدين وإدامة مناهج الشرع القويم؛ ومثل لذلك بأمور منها: اختلافهم في موته، صلى الله عليه وسلم، حتى قال عمر: من قال إن محمداً قد مات علوته بسيفي، وإنما رفع إلى السماء كما رفع عيسى بن مريم؛ وقال أبو بكر: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد إله محمد فإنه حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ الآية. فرجع القوم إلى قوله، فقال عمر: كأني ما سمعت هذه الآية إلا الآن. وكاختلافهم في الإمامة وثبوت الارث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وفي قتال مانعي الزكاة حتى قال عمر: كيف نقاتلهم وقد قال، عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم». فقال له أبو بكر: أليس قد قال: إلا بحقها، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو منعوني عقلاً بما أدوه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، لقاتلتهم عليه، ثم اختلافهم بعد ذلك في تنصيب أبي بكر على عمر بالخلافة، ثم في أمر الشوري حتى استقر الأمر على عثمان، ثم اختلافهم في قتله وفي خلافة علي ومعاوية وما جرى في وقعة الجمل وصفين... ثم قال الأمدي: وكان الخلاف يتدرج ويترقى شيئاً فشيئاً إلى آخر أيام الصحابة حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الأسواري وخالفوا في القدر وإسناد جميع الأشياء إلى تقدير الله. ولم يزل الخلاف يتشعب والآراء تتفرق حتى تفرق أهل الإسلام وأرباب المقالات إلى ثلاث وسبعين فرقة<sup>(١)</sup> وكبار هذه الفرق ثمانية: المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة والنجارية والجبرية والمشبهة والناجية<sup>(٢)</sup>. وأشهر هذه الفرق وأبلغهم أثراً في هذه الدولة ثلاثة: الشيعة والمعتزلة وأهل السنة. أما الشيعة فلمنازعتهم العباسيين الخلافة حتى اضطر المأمون أن يظهر تشيعه كما سلف؛ وأما المعتزلة فلتمكنهم عند المأمون ومشايعته إياهم على القول بخلق القرآن وإظهاره ذلك في سنة اثنتي عشرة ومائتين<sup>(٣)</sup>؛

(١) شرح المواقف للسيد، ص ٦١٩، ٦٢٠.

(٢) المواقف، ص ٦٢٠ من الشرح السابق.

(٣) شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٧.

وأما أهل السنة أو الناجية فلما نالهم من المعتزلة من العناء والعنف عند تمكنهم عند المأمون.

ويلاحظ أن بعض الفرق الكبار قد نشأ قبل هذا العصر: كالشيعة والخوارج والمعتزلة وأهل السنة أو السلف وهم الأصل؛ وبعض الفروع نشأ بعد هذه البرهة: كالأشعرية أصحاب أبي الحسن الأشعري ت سنة ٢٦٠هـ من أهل السنة والجاحظية أصحاب الجاحظ (ت سنة ٢٥٥)، من المعتزلة. وقد كان من أسباب اتساع الخلاف وكثرة الفرق ترجمة الفلسفة اليونانية وكتب الزندقة. وأول من تأثر بالفلسفة وجادل بها المعتزلة حتى عاب عليهم ابن قتيبة استعانتهم بها بقوله: ومعاني الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطرفة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والكمية والأينية<sup>(١)</sup>. وقد وجد أهل السنة من المتأخرين انهم في حاجة إلى الفلسفة لمجادلة هؤلاء فظهر ذلك بعد هذا العصر في مثل كتب الباقلاني والغزالي والبيضاوي والجرجاني. وذكر ابن النديم أسماء طائفة كثيرة من كتب الكلام، نذكر منها ما وقع في هذه الفترة أو كان قبلها: فمنها لمقاتل بن سليمان كتاب الرد على القدرية وللحسن بن صالح بن حي من الشيعة الزيدية (ت سنة ١٦٨هـ) كتاب التوحيد وكتاب امامة ولد علي من فاطمة، ومنها لرأس النجارية أبي عبدالله الحسين بن محمد النجار كتاب الاستطاعة وكتاب القضاء والقدر وكتاب الثواب والعقاب<sup>(٢)</sup> ولواصل بن عطاء كتاب أصناف المرجئة وكتاب التوبة وكتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب في التوحيد والعدل وكتاب فيما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد (وهو معتزلي أيضاً) وكتاب السبيل إلى معرفة الحق وكتاب في الدعوة<sup>(٣)</sup>.

ولأبي حنيفة، رحمه الله، كتاب «الرد على القدرية»، وكتاب «الفقه

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص ١٦.

(٢) الفهرست، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.

(٣) تكملة الفهرست، ص ١.

الأكبر»<sup>(١)</sup> وهو في الكلام أيضاً وعلى نسبته إليه صاحب كشف الظنون<sup>(٢)</sup> والذي في شذرات الذهب أنه لأبي مطيع الحكم ابن عبد الله البلخي صاحب أبي حنيفة (ت سنة ١٩٩هـ). وبالنسبة الأولى ظهرت النسخة المطبوعة وهي على طريقة أهل الإرجاء كما هو ظاهر في الكلام على الإيمان. ولكثير من مسائل الخلاف بين هذه الفرق مواضع تتسع لها من الباب الرابع إن شاء الله.

### الفقه:

قال الغزالي في بيان تبديل أسامي العلوم: إن الناس تصرفوا في اسم الفقه فخصوه بعلم الفتاوى والوقوف على دقائقها وعللها، واسم الفقه في العصر الأول كان يطلق على علم الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس والاطلاع على عظم الآخرة وحقارة الدنيا. قال تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا﴾ والانذار بهذا النوع من العلم دون تفاريع الفقه كالسلم والإجارة<sup>(٣)</sup>. ونبه ابن خلدون إلى أن الفقهاء تميزوا بهذا الاسم في عصر مالك وأبي حنيفة وكانوا قبل ذلك يعرفون بالقراء<sup>(٤)</sup>. وقد رأينا في الكلام على الحديث أنه كان شاملاً على أحد قولين لآثار الصحابة والتابعين وفتاواهم، وكما تميز جماعة من الصحابة والتابعين بسعة الرواية أو التفسير تميز جماعة بالفتوى. ذكر ابن القيم أن الفتوى حفظت عن أكثر من مائة وثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر<sup>(٥)</sup>. وبعد هؤلاء تميز من التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد وغيرهم. وأعلم هؤلاء

(١) الفهرست، ص ٢٨٥.

(٢) كشف الظنون، ج ٢ ص ٩١.

(٣) كشف الظنون، ج ٢ ص ٩١.

(٤) المقدمة لابن خلدون، ص ٤٤٦.

(٥) الفقه على المذاهب الأربعة، ص ١٣.

سعيد بن المسيب وكان تلميذ زيد بن ثابت . وعن هذه الطبقة أخذ كثيرون من فقهاء المدينة، ومن أشهرهم: أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، ومحمد بن شهاب الزهري . وبين هؤلاء تخرج مالك بن أنس فكان إمام دار الهجرة<sup>(١)</sup>.

ومن أصحاب المذاهب المعروفة غير مالك الحسن البصري وابن أبي ليلى والأوزاعي والثوري والليث وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل<sup>(٢)</sup> وأشد هذه المذاهب اتصالاً بالدولة مذهب أبي حنيفة ومالك لصيرورة منصب قاضي القضاة لصاحبه أبي يوسف في عهد الرشيد ولما سيأتي من عناية أبي جعفر والمهدي والرشيد بمذهب مالك . وأولهما عند السيوطي تأليفاً للإمام أبو حنيفة رحمه الله<sup>(٣)</sup> . والظاهر أن الأمر ملتبس على السيوطي وليس لأبي حنيفة كتاب معروف في الفقه . أما الذي سلف بهذا الاسم وهو الفقه الأكبر فهو في الكلام . وفقه أبي حنيفة إنما دونه تلميذه محمد بن الحسن في المبسوط وغيره<sup>(٤)</sup> . ولصاحبه القاضي أبي يوسف كتب كثيرة في أبواب من الفقه كالصلاة والصيام وغيرها<sup>(٥)</sup> ، وللإمام مالك كتاب الموطأ في الحديث والفقه أمره المنصور بكتابته للناس على أن يتجنب فيه رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر<sup>(٦)</sup> . ولما جاء المهدي حاجاً سمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار؛ ثم رحل إليه الرشيد مع أولاده وسمعه منه وأغدق عليه الخير الكثير . وبلغ من عناية أبي جعفر بالموطأ أنه أراد أن يحمل الناس عليه وروي مثله عن الرشيد وأنه أراد أن يعلقه في الكعبة وأن مالكا نهاهما<sup>(٧)</sup> . وفي كتاب الفهرست لابن النديم أسماء كتب كثيرة لعلماء من الشيعة قبل هذه الفترة

---

(١) نفس المصدر، ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) محاضرة الأوائل للشيخ علاء الدين، ص ١٠٤ .

(٤) انظر تاريخ القضاء، ص ٤٢ ، ٤٣ ؛ والفقه على المذاهب الأربعة، قسم العبادات، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) الفهرست، لابن النديم، ص ٢٨٦ .

(٦) مقدمة ابن خلدون، ص ١٧ ، ١٨ ؛ وتاريخ القضاء، ص ٣٩ .

(٧) الفقه على المذاهب الأربعة، ص ٢٦ .

أوفيهما وأول كتبهم، كما قال ابن النديم، كتاب سليم بن أبي قيس الهلالي رواه إبان بن أبي عياش لم يروه غيره<sup>(١)</sup>.

### علم التصوف:

قال ابن خلدون: هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة<sup>(٢)</sup>. ويشتمل كلام المتصوفة على ثلاثة أنواع: فأولها: إشاراتهم إلى التوحيد؛ والثاني: كلامهم في المراد ومراتبه؛ والثالث: في المريد وأحواله<sup>(٣)</sup>.

واشتقاق اسم المتصوفة من الصفاء أو الصوف لأنه كان ملبس الزهاد في القديم لخشونته؛ أو الصفة، أي صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنها كانت مثابة الفقراء كأبي هريرة أو الصنف أي الأول كأنهم فيه من حيث المحاضرة بقلوبهم أو غير ذلك موضوع خلاف، لأن من هذه الاشتقاقات والنسب ما تأباه العربية، ومنها وهو الذي لا تأباه، ما يأباه بعض الصوفية لأنهم لا يرضون الانتساب إلى الصوف مع أنه مظهر الزهد في القديم لخشونته. وهذه النسب وغيرها مبسوسة في الرسالة القشيرية<sup>(٤)</sup>، والحية لأبي نعيم<sup>(٥)</sup>، وتلبس إبليس لابن الجوزي<sup>(٦)</sup>، فلا نطيل بذكرها. وقد داخل هؤلاء الصادقين طوائف

(١) الفهرست، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

(٢) المقدمة، ص ٤٦٧.

(٣) الحلية، لأبي نعيم، ج ١ ص ٢٣.

(٤) الرسالة القشيرية، ص ١٢٦.

(٥) الحلية، ج ١ ص ٢٠ وما حوفا.

(٦) التلبس، ص ١٦١ وما بعدها.

من الباطنية والزنادقة والفلاسفة فشوهوا مذهبهم بالقول بالحلول ووحددة الوجود وترك الأخذ بالأسباب إلى أمور من اللهو والإباحة تهدم الزهد من أصله، وقد تكفل ابن الجوزي في كتابه النفيس «تلبس إبليس» بتفنيدها والتشنيع عليهم بها. وقد تبرأ من هؤلاء الدخلاء أبو نعيم في الحلية فذكر أنه إنما يعنى بالمتحققين والمتصوفة وأئمتهم ممن عرف الأدلة والحقائق وياشر الأحوال والطرائق وفارق العوارض والعلائق، وتبرأ من الكسالى والمثبطين المتشبهين بهم في اللباس والمقال والمخالفين لهم في العقيدة والفعال، ثم ذكرهم بوصف الفسقة والفجار والمباحية والحلولية وذكر أن الوقعة فيهم لا تقدر في منقبة البررة الأخيار، بل في إظهار البراءة منهم نزاهة للصادقين ورفعة للمتحققين<sup>(١)</sup>.

### النحو:

تعريفه الشامل للتصريف لعدم افتراقهما في هذا العهد هو علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم أفراداً وتركيباً، والذي أفرد علم التصريف عنه هو أبو عثمان المازني (ت سنة ٢٤٧). وقد تعرض للكلام عن أسباب وضع النحو أبو سعيد السيرافي في أخبار النحويين البصريين<sup>(٢)</sup>، وابن النديم في الفهرست<sup>(٣)</sup>، والأنباري في نزهة الألبا<sup>(٤)</sup>، والسيوطي في سبب وضع علم العربية<sup>(٥)</sup>، وفي غيرها، وأبو الفرج في الأغاني<sup>(٦)</sup>، وابن خلكان<sup>(٧)</sup>، وياقوت<sup>(٨)</sup>. والروايات في أسباب الوضع مضطربة ومرجعها في الجملة إلى طروء اللحن بسبب مخالطة العرب بالعجم. والأقوال في واضعه: أهو علي كرم الله وجهه

(١) الحلية، ج ١ ص ٤.

(٢) أخبار النحويين البصريين، ص ١٣ وما بعدها.

(٣) الفهرست، ص ٥٩ وما بعدها.

(٤) ص ٣ وما بعدها.

(٥) مجموعة التحفة البهية، ص ٤٩ وما بعدها.

(٦) الأغاني، ج ١١ ص ١٠١ وما بعدها.

(٧) وفيات، ج أول ص ٣٠١.

(٨) معجم الأدباء، ج ١٢ ص ٣٥.



وأخذه عنه أبو الأسود الدؤلي أم أنه أبو الأسود بادئ بدء — مضطربة أيضاً، إلا أنها مجمعة على أن أبا الأسود إن لم يكن واضع النحو كله فهو واضع أكثره، وهو يعد أستاذ النحويين أجمعين. وأخذ عن أبي الأسود عنبة الفيل وميمون الأقرن ونصر بن عاصم وعبدالرحمن بن هرمز ويحيى بن يعمر<sup>(١)</sup>. وذكر محمد بن سلام قال: كان بعد عنبة وميمون الأقرن عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي وكان في زمن ابن أبي إسحاق عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء<sup>(٢)</sup>، وعن أبي عمرو أخذ يونس بن حبيب<sup>(٣)</sup> والخليل بن أحمد. وأخذ الخليل أيضاً عن عيسى بن عمر<sup>(٤)</sup>، ولعيسى كتابان في النحو سمي أحدهما الجامع والآخر المكمل فقال الخليل بن أحمد:

بطل النحو جميعاً كله      غير ما أحدث عيسى بن عمر  
ذاك إكمال وهذا جامع      فهما للناس شمس وقمر

والخليل أستاذ سيبويه وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل. وكل ما قال سيبويه وسأل أوقال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل. وعن يونس روى سيبويه أيضاً وأكثر. وقد سمع من يونس الكسائي والفراء. وأخذ سيبويه أيضاً عن عيسى بن عمر وإلى سيبويه انتهت رئاسة النحويين البصريين وإلى الكسائي انتهت رئاسة الكوفيين. وقال ابن النديم: قدم سيبويه أيام الرشيد إلى العراق قاصداً يحيى بن خالد، فجمع بينه وبين الكسائي والأخفش فناظراه وخاطباه في مسائل سألاه عنها، وحاكماه إلى فصحاء الأعراب، وكانوا قد وفدوا على السلطان، وهم أبو فقحس وأبودينار وأبو الجراح وأبو ثروان فكان الكسائي على الصواب. وكلم الكسائي يحيى بن خالد فأجازه بعشرة آلاف درهم فأخذها وعاد إلى البصرة ومنها إلى فارس ومات بها سنة سبع وسبعين ومائة<sup>(٥)</sup>. ونقل

(١) النزعة، ص ١٤، ١٥.

(٢) أخبار النحويين، ص ٢٥.

(٣) أخبار النحويين، ص ٢٨.

(٤) أخبار النحويين، ص ٣١، ٣٢.

(٥) الفهرست، ص ٧٦، ٧٧.

ياقوت أن البغداديين تعصبوا على سيبويه وجعلوا للعرب جعلاً حتى وافقوا الكسائي<sup>(١)</sup>. والمناظرة التي كانت بينها هي المعروفة بالقنبرية ذكرها ياقوت في ترجمته لسيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر<sup>(٢)</sup>، وفي ترجمته للكسائي علي بن حمزة<sup>(٣)</sup>. وذكرها ابن هشام في المغني في مبحث إذا، وللکسائي كتاب مختصر في النحو، وكتاب في العدد، وكتاب في المصادر، وكتاب في الحروف<sup>(٤)</sup>، وله كتاب ما يلحن فيه العامة<sup>(٥)</sup>. وأشهر كتب النحو في هذا العصر، بل أشهرها في جميع العصور، هو «الكتاب» لسيبويه. وقال ابن النديم: قرأت بخط أبي العباس ثعلب اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنساناً منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل<sup>(٦)</sup>.

هذا وبين المذهبين الكوفي والبصري من مسائل الخلاف ما يتجاوز المائة، وسردها الأستاذ محمد الطنطاوي نقلاً عن كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» للأنباري، وكتاب «التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين» للعكبري<sup>(٧)</sup>. وقد انتهى الأستاذ إلى ترجيح المذهب البصري لأمر، أهمها تقديم البصريين للسمع على القياس بخلاف الكوفيين<sup>(٨)</sup>. وبهذا التقديم مدح أبو محمد اليزيدي اخوانه البصريين وهجا الكسائي والكوفيين. واليزيدي من نحاة البصرة ومن الآخذين عن أبي عمرو بن العلاء ومن قوله في ذلك:

كنا نقيس النحو فيما مضى      على لسان العرب الأول  
فجاءنا قوم يقيسونه      على لغى أشياخ قطر بل

(١) معجم الأدباء، ج ١٦، ص ١١٦؛ وانظر ابن خلكان، ج ١ ص ٤٨٧.

(٢) معجم الأدباء، ج ١٦ ص ١١٩.

(٣) ج ١٣ ص ١٨٦ إلى ١٨٧.

(٤) ج ١٣ ص ٢٠٢ إلى ٢٠٣.

(٥) أمالي الأستاذ حامد مصطفى.

(٦) الفهرست، ص ٧٦.

(٧) نشأة النحو، ص ٨٠ وما بعدها.

(٨) نفس المصدر، ص ٨٦ وما بعدها.

ثم قال:

إن الكسائي وأشياعه يرقون في النحو إلى أسفل<sup>(١)</sup>

### اللغة:

قال أبو الفتح بن جني في الخصائص: حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم<sup>(٢)</sup>. وعرف ابن خلدون بعلم اللغة فقال: هو بيان الموضوعات اللغوية؛ ويّسن سبب وضع هذا العلم بأنه: لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها، ثم استمر ذلك الفساد بملاسة العجم ومخالطتهم حتى تأذى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه، احتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين؛ فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد، ألف فيها كتاب «العين» فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي ا. هـ. باختصار<sup>(٣)</sup>. وطريقة الخليل التي حصر بها اللغة أن تأخذ كل حرف من حروف المعجم مع سائرهما مع قلب الكلمة على جميع وجوهها. وحول نسبة الكتاب إلى الخليل شكوك ذكرها ابن النديم<sup>(٤)</sup>، وأبو أحمد العسكري في كتابه «التصحيف والتحريف»<sup>(٥)</sup>، وياقوت<sup>(٦)</sup>. وأقوى هذه الشكوك ما ذكر أبو أحمد مما يوجد في الكتاب من أشعار المحدثين، وبعضهم بعد الخليل، مثل صالح بن عبد القدوس وأبي دلالة وأبي نواس ووجود تصحيفات لا يذهب مثلها على الخليل. ومما

(١) أخبار النحويين البصريين، ص ٤٥، ٤٦.

(٢) الخصائص، ج ١ ص ٣١.

(٣) المقدمة، ص ٥٤٨.

(٤) الفهرست، ص ٦٤، ٦٥.

(٥) التصحيف والتحريف، ج ١ ص ٣٦ وما بعدها.

(٦) معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٤٤ وما بعدها.

ذكره ابن النديم رواية عن ابن دريد أن هذا الكتاب لم ير بالبصرة وهي بلد الخليل إلا سنة ثمان وأربعين ومائتين، قدم به وراق من خراسان. وقد يكون الفاصل في ذلك قول أبي الطيب اللغوي مصنف كتاب «العين» الليث ابن المظفر بن نصر بن سيار من أصحاب الخليل ومن كتاب البرامكة<sup>(١)</sup> ويؤيده ما روي عن تلميذه النضر بن شميل إذ سئل عنه فأنكره، فقليل له: لعله ألفه بعدك. فقال: ما خرجت من البصرة حتى دفنت الخليل؟!<sup>(٢)</sup>. والترتيب الطبيعي في رواية اللغة وتدوينها يقتضي أن يكون هذا التأليف الشامل لجميع الموضوعات اللغوية متأخراً عن ظهور التدوين في الموضوعات الخاصة وفي آمالي الأستاذ حامد مصطفى، قطع تأليف المعاجم مراحل ثلاثاً:

#### □ المرحلة الأولى:

أخذ اللغة من أهل البادية بالرحلة إليها أو تلقي الأعراب بالحواضر وأخذ المعلومات منهم.

#### □ المرحلة الثانية:

جمع المعلومات اللغوية المتعلقة بموضوع واحد في رسالة أو كتاب ككتاب الخيل وخلق الإنسان والنبات والشجر والمطر واللبن وما إلى ذلك.

#### □ المرحلة الثالثة:

تأليف المعاجم اللغوية الجامعة لما تفرّق في هذه الرسائل الخاصة وغيرها. والتأليف في النوع الثالث غير معروف في الفترة التي نصفها إلا لكتاب العين على ما فيه. أما النوع الثاني ويسميه الأستاذ بفقّه اللغة الخاص ويشبهه التأليف في نوع من الكلام كالغريب والنادر، فهو المعروف في هذا العصر ككتاب الخيل وغيره مما سبق. ومن المؤلفين في هذا النوع في هذا العصر أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت سنة ٢٠٩) ويحيى بن زياد الفراء الكوفي النحوي (ت سنة ٢٠٧) له كتاب الأيام والليالي وأبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني الكوفي (ت

(١) نفس المصدر، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٥١.

سنة ٢٠٦)، له كتاب خلق الإنسان وغيره. ومن له مؤلفات من هذا النوع الأصمعي عبد الملك بن قُريب (ت سنة ٢١٦ أو ٢١٧) وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت سنة ٢١٤ أو ٢١٦). وما ألف في الغريب والنادر غريب الحديث لأبي عبيدة معمر بن المثنى ومثله للنضر بن شميل (ت سنة ٢٠٩)<sup>(١)</sup>. وذكر ابن النديم من هذا النوع كتاب «النوادر الكبير» وكتاب «النوادر الصغير» ليونس بن حبيب (ت سنة ١٨٣)<sup>(٢)</sup>، ولمؤرّج السدوسي ويكنى أبا فيد (ت سنة ١٩٥) كتاب «غريب القرآن»<sup>(٣)</sup>.

### العروض والقافية:

العروض علم بأصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر وفاسدها وما يعتريها من الزحافات والعلل. وعلم القافية علم يعرف به أحوال نهايات الشعر من حركة وسكون ولزوم وجواز وفصيح. وواضع العروض هو الخليل بن أحمد. قال ابن النديم: وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب<sup>(٤)</sup>. وقال الدمهوري: وقد حصر الخليل الشعر في خمسة عشر بجزاً بالاستقراء من كلام العرب، الذين خصهم الله تعالى به فكان سرّاً مكتوماً في طباعهم، أطلع الله الخليل عليه واختصه بإلهامه ذلك، وإن لم يشعروا بذلك ولا نووه كما لم يشعروا بقواعد النحو والصرف<sup>(٥)</sup>، وإنما ذلك مما فطرهم الله عليه<sup>(٦)</sup>. ونبه العروضيون إلى أن الخليل ند عنه بحر استدركه عليه الأخفش الأوسط وهو سعيد بن مسعدة تلميذ سيويه وكان أسنّ منه. وواضع علم القافية هو الخليل أيضاً لما ذكره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى من أن اسمه يذكر

(١) من أمالي الأستاذ حامد مصطفى.

(٢) الفهرست، ص ٦٣.

(٣) الفهرست، ص ٧١.

(٤) الفهرست، ص ٦٤.

(٥) حاشية الدمهوري، ص ١٣.

(٦) مذكرة المادة للأستاذ محمود مصطفى ص ١.

كثيراً في الخلاف الذي يرد في مسائله، قال: ومن الغريب أن نرى المؤلفين القدماء يقولون عن واضح علم القافية إنه مهلهل بن ربيعة كما ورد ذلك في حاشية الدمنهوري وغيرها<sup>(١)</sup>. والتزام القافية شرط في الشعر العربي فيما عدا الأراجيز، إذ أن لكل شطر منها قافية وبها يسمى الشطر بيتاً. وأشهر من عرف بها العجاج وابنه روبة. وما استحدث فيها في هذا العصر جعل كل شطرين على روي واحد ويسمى المزدوج. قال الاسكندري: وأول من نظم فيه بشار ثم إبان بن عبد الحميد اللاحقي وبشر بن المعتمر. وقد نسي الأستاذ أبا العتاهية وسيأتي الكلام على مزدوجته ذات الأمثال؛ ولأبي العتاهية أيضاً تجديد في العروض ستأتي الإشارة إليه في باب الشاعرية إن شاء الله.

### علوم البلاغة

(المعاني، والبيان، والبديع):

□ المعاني:

علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.

□ البيان:

علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

□ البديع:

علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.

وأول من صنف في الثاني وهو البيان أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت سنة ٢٠٩ أو سنة ٢١٠) ألف فيه كتاب «مجاز القرآن»، وسبب تأليفه إياه كما ذكر أبو الفلاح في شذرات الذهب، وابن خلكان في الوفيات أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿طلعتها كأنه رؤوس الشياطين﴾ قيل له: إن الوعد والإيعاد لا يكونان

---

(١) مذكرة الاسكندري، ص ٨٤.

إلا بما عرف وهذا لم يعرف. فقال: خوطب العرب بقدر كلامهم كقول امرئ القيس:

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ  
وَالغُولِ لَمْ يَرَوْهَا قَطُّ وَلَكِنَهَا مِمَّا يَهْوِلُهُمْ<sup>(١)</sup>.

وأول من ألف في البديع عبدالله بن المعتز الخليفة العباسي في سنة ٢٩٦هـ، ولكن هذا الفن قد عرف وسمي باسمه في البرهة التي نصفها. فقد نبه هو في أول كتابه «البديع» إلى أن سبب تسميته بهذا الاسم في زمان بشار ومسلم وأبي نواس ومن قبلهم وسلك سبيلهم والإعراب عنه والدلالة عليه به ليس أنهم سبقوا به ولكنهم استكثروا منه في أشعارهم<sup>(٢)</sup>. وروى أبو الفرج أن مسلماً هو الذي لقب هذا الجنس البديع واللطيف<sup>(٣)</sup> فهذان النقلان يدلان على معرفة الناس بهذا الفن في عهد هؤلاء الشعراء.

وأول من ألف في المعاني الإمام عبدالقاهر الجرجاني في سنة ٤٧١هـ. هذا هو المشهور، ولكنه ينبغي أن يحمل على أحد معنيين أوهما معاً: أولهما: إفراده عن النحو؛ وثانيهما: استيفاء مباحثه: إذ لا ينبغي اعتقاد أنه مبتدع هذا الفن كابتداع أرسطو للمنطق أو الخليل للعروض، فإنه يمنع من ذلك قوله في دلائل الإعجاز: اعلم أنك لن ترى عجباً أعجب من الذي عليه الناس في أمر النظم، وذلك أنه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن ها هنا نظماً أحسن من نظم، ثم تراهم إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك تسدر أعينهم وتضلّ عنهم أفهامهم، وسبب ذلك أنهم أول شيء عدموا العلم به نفسه من حيث حسبه شيئاً غير توخي معاني النحو<sup>(٤)</sup>. وقوله: فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مرية في أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، ثبت من ذلك أن

(١) شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٤، ٢٥؛ وفي ترجمته في ابن خلكان.

(٢) البديع، ص ١.

(٣) مهذب الأغاني، ج ٨ ص ٢.

(٤) الدلائل، ص ٤١٨، ٤١٩.

طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن - إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنها معدنه ومعانه وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها وأن لا وجه لطلبه في ما عداها - غارَّ نفسه بالكاذب من الطمع ومسلم لها إلى الخدع؛ وأنه إن أبى أن يكون فيها كان قد أبى أن يكون القرآن معجزاً بنظمه ولزمه أن يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به، وأن يلحق بأصحاب الصرفة فيدفع الإعجاز من أصله: وهذا تقرير لا يدفعه إلا معاند يعد الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزاً، والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلدأ، ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الإنسانية، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق<sup>(١)</sup>.

والنحو الذي يعنيه عبدالقاهر ليس نحو المتأخرين، وهو علم بأصول يعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء<sup>(٢)</sup>، فإن هذا العلم يمكن استنباطه من كلام باقل كما يمكن من كلام سحبان وائل لاجتماعهما على البراءة من اللحن؛ وهذا لا يمكن به معرفة فضل نظم عربي على مثله، فلا يمكن به معرفة فضل القرآن من جهة نظمه على ما سواه، بل مراد عبدالقاهر نحو سيبويه وما على شاكلته؛ وهو كما يقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة في كتابه «النحو والنحاة»: عام شامل للإعراب والبناء وخصائص العربية، ولكل حالة تكون عليها الكلمة في الجملة، ولكل حالة تكون عليها الجملة في الجمل... إلى أن قال بعد أن أشار إلى أن نحو المتقدمين كان يشمل الصرف أيضاً كما أسلفت: وأنت ترى سيبويه جمع في كتابه بين كل ذلك وكذلك بقية المتقدمين<sup>(٣)</sup>. ثم قال الأستاذ: إن مراد عبدالقاهر أن يبين أن البلاغة مرجعها إلى المعنى، وأن النظم الذي وصفه الناس بأنه معجب ومطرب ليس هو إلا توخي معاني النحو في الكلمات، وهو في كثير من أبوابه يجعل نصوص سيبويه هي الأصل الذي يبنى عليه ويفرع عنه<sup>(٤)</sup>. وما ذكره

(١) الدلائل، ص ٤٠٤، ٤٠٥.

(٢) حاشية العطار على الأزهرية، ص ٨.

(٣) النحو والنحاة، ص ٦٧.

(٤) النحو والنحاة، ص ٦٨.



الأستاذ ظاهر جداً في دلائل الإعجاز وفي بابي التقديم والتأخير والحذف والذكر خاصة، كقوله في باب التقديم: واعلم أنا لم نجدهم - ومراده النحويون بلا ريب - اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام؛ قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعاً يهمنهم ويعنيانهم<sup>(١)</sup>. وقد صدر باب الحذف بنقول صريحة من الكتاب مع شواهد كقوله بعد نقلين منه: وكما يضمرون المبتدأ فيرفعون فقد يضمرون الفعل فينصبون كبيت الكتاب أيضاً:

ديار مية إذ ميّ تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب<sup>(٢)</sup>

ورواية الكتاب - مساعفة - كما سيأتي. وما لنا لا ننتهي إلى ذلك وسيبويه نفسه يصف لنا كل ما يعني البلاغي من المقامات ومقتضياتها، وما يطابق هذه المقتضيات من الكلام وكيف تتم هذه المطابقة فتتم البلاغة وكيف تنقص فتتنقص كالذي يتضمنه النقل الأنف في التقديم؛ فإن كون الفاعل أو المفعول أهم وأعني حال تقتضي تقديمه، وإيراده مقدماً هو المطابقة لمقتضى الحال وبه يكون للكلام الفضل عليه إذا لم يجيء على هذا التقديم، وما هو ذا يعقد باباً عنوانه (هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل). قال سيبويه: وذلك قولك زيداً وعمراً ورأسه - وذلك أنك رأيت رجلاً يضرب أو يشتم أو يقتل فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت: زيداً! أي أوقع عملك بزيد. ثم نبه إلى أن الأمر استحسان بأن للمتكلم أن يظهر ما أضمر من الفعل وصرح بكونه استحساناً السيرافي<sup>(٣)</sup>. وقال في البيت الأنف: ديار مية إذ ميّ مساعفة - كأنه قال: أذكر ديار مية ولكنه لا يذكر (أذكر) لكثرة ذلك في كلامهم واستعمالهم

(١) الدلائل، ص ٨٤.

(٢) الدلائل، ص ١١١، ١١٢.

(٣) الكتاب، ج أول ص ١٢٨.

إياه<sup>(١)</sup>؛ فكترة حذف اللفظ من الكلام أمانة على حال هي قيامه في الذهن وهي تقتضي حذفه فيما ينشئ المتكلم من نظائره، ومحجيء كلامه على هذا مطابقة لمقتضى الحال. والفرق بين الحذف والذكر هنا وفي الأنف ليس الفرق بين العربي والعجمي بل بين البليغ والعيي، ولا ينبغي أن يقع ذلك منا موقع العجب، فالخليل وهو أستاذ سيبويه، يعرف البلاغة فيقول: كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقاً وتلك الحال وفقاً، وآخر كلامك لأوله مشابهاً ومورده لمصدره موازناً، فافعل واحرص أن تكون لكلامك متهاً وإن ظرف، ولنظامك مسترياً وإن لطف، بمواتاة آلتك لك وتصرف إرادتك معك<sup>(٢)</sup>. وأنا أعجب كيف يستقر في الأذهان أن واضع علم المعاني، وهو أصل البلاغة، عبد القاهر مع قيام النزاع بين السلف والنظام (ت سنة ٢١٣) على سبب الإعجاز ومنشئه، أهو نظم القرآن وتأليفه، كما يقولون، أم الصرف عن الإتيان بمثله، كما يقول؟ فإن تصور ذلك يؤدي إلى أن القوم كانوا يتنازعون على أمر غير معروف ولا موصوف، وهو من العجب بمكان. وقد دلتنا صحيفة بشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد (ت سنة ٢١٠) التي ضمّنها كثيراً من أصول البلاغة، إذ حذر فيها من التوعر والتعقيد، وحضّ فيها على مشاكلة الألفاظ لمعانيها وموافقتها للأحوال، وتخصيص كل مقام بمقال وكل طبقة من الناس بملائمها من الكلام<sup>(٣)</sup>.

كما دلتنا هذه الصلة الوثيقة التي بين المتكلمين وبين البلاغة، قبل بشر وفي عصره وبعده، على أن القوم ما كانوا غافلين عما هو أصل من أصول الدين وهو منشأ إعجاز القرآن الكريم، وهو فرع عن معرفة بلاغته. فقد قيل لعمر بن عبيد (ت سنة ١٤٤) وهو من الطبقة الأولى من المعتزلة ومن أضراب واصل بن عطاء: ما البلاغة؟ فأجاب جواباً ليس ببعيد عن الصواب، وانظره

(١) الكتاب، ج أول ص ١٤١.

(٢) الرسالة العذراء، لابن المدبر، ص ٤٢.

(٣) الصحيفة في البيان والتبيين، ج ١ ص ١٢٦، ١٢٧.

إن شئت في البيان والتبيين<sup>(١)</sup>. ووصف ثمامة بلاغة جعفر بن يحيى ونقل عنه تعريفاً حسناً للبيان يرجع إلى مساوقة الطبع والوضوح وقرب الدلالة فقال الجاحظ: إن هذه الصفات كانت قد انتظمها ثمامة لنفسه<sup>(٢)</sup>. وبعد هؤلاء يأتي الجاحظ بكتابه البيان والتبيين. والجاحظ رئيس فرقة من المعتزلة تسمى الجاحظية، ثم يأتي من أهل السنة رجلان: الباقلائي (ت سنة ٤٠٣) بكتابه إعجاز القرآن، وعبدالقاهر، بكتابه «دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة». ثم يأتي من المعتزلة الزمخشري (ت سنة ٥٣٨) بتفسيره الكشف فيدلنا على أن الخلاف في القدر كان يستتبع حمل كثير من حقائق القرآن على المجاز، وبه تظهر صلة أخرى بين علوم البلاغة وبين الكلام. ولم يكن الكتاب أيضاً - وهم الذين خصصوا مواضع للإيجاز وأخرى للإطناب وجعلوا لكل طبقة من طبقات الخاصة عبارات ومخاطبات - بعيدين عن البلاغة ولا جاهلين بها. وانظر إن شئت تعريفاتهم لها ووصفهم لبعض أصولها في «البيان والتبيين» للجاحظ، و«الصناعتين» لأبي هلال، و«الرسالة العذراء» لابن المدبر، و«زهر الآداب» للحصري في بعض أبوابه لترى كيف كان أمثال ابن المقفع وجعفر بن يحيى وسهل بن هارون خبراء بمنازل القول ووجوه الكلام.

وبعد، فأنا لا أريد أيضاً أن أقف بدء البيان على مجاز القرآن لأبي عبيدة، وإن كان أول من ألف فيه، ولا أقف بفن البديع واللطيف عند استعماله كثيراً في شعر المحدثين وإطلاق اسم البديع عليه فإنه يمنعني من الثاني ما ذكره الباقلائي من خلاف بين كثرة منها: الخليل بن أحمد والأصمعي وعبدالله بن المعتز من المتأخرين، وبين قلة منها: قدامة بن جعفر صاحب «نقد الشعر» في تعريف المطابقة، إذ جعلها الخليل ومن معه: أن يذكر الشيء وضده كالليل والنهار والسواد والبياض، وجعلها قدامة: أن يشترك معنيان بلفظة واحدة<sup>(٣)</sup>،

(١) البيان والتبيين، ج ١ ص ١٠٧.

(٢) البيان، ج ١ ص ١٠٠. (وُثَّامَةُ هُوَ ثَمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ (ت ٢١٣هـ) مِنْ كِبَارِ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَحَدِ الْفَصَحَاءِ الْبُلْغَاءِ الْمُقَدِّمِينَ).

(٣) إعجاز القرآن، ص ٧٩.

وهو ما اشتهر تسميته بالجناس التام؛ ويمعني أيضاً قوله في الجناس وباب آخر - أي من البديع - وهو التجنيس ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين فمعه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها، وإليه ذهب الخليل، والقول المقابل الاشتراك على جهة الاشتقاق<sup>(١)</sup>، فإن فيه دليلاً على تجاوزه دائرة الشعراء؛ ويمعني عن الأول تعرض سيبويه لما هو من صميم البيان، كقوله في قول الراجز:

اطربا وأنت قنسرِي قد علمت أنه قد طرب

ولكن قلت لتوبخه أو تقرره<sup>(٢)</sup>، فإن التجوز بالاستفهام عن مثل التوبيخ والتقرير من صميم الإنشاء البياني. ويمعني أيضاً قول الأصمعي لإسحاق بن إبراهيم: أتعرف التفاتات جرير؟ قال: لا، قال:

أتسى إذ تودعنا سليمي يعود بشامة سقي البشام<sup>(٣)</sup>

### علم الأدب:

في اللسان: الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس؛ سمي أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب الدعاء ومنه قبل للصنيع يدعي إليه الناس مدعاة ومأدبة، وفيه عن بعض علماء اللغة ما يتضمن أن الأدب أدبان: أدب النفس وأدب الدرس.

والظاهر أنه من قول ابن قتيبة في أدب الكاتب: ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ويهذب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب، ويحانب قبل مجانبة اللحن وخطل القول شنع الكلام ورفث المزح<sup>(٤)</sup>. وفي كشف الظنون أن أقسام علم

(١) إعجاز القرآن، ص ٨١.

(٢) الكتاب، ج ١ ص ٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) إعجاز القرآن، ص ٨٩، ٩٠.

(٤) أدب الكاتب على هامش المثل السائر، ج ١ ص ٩.

الأدب عند ابن الأنباري كما ذكر في بعض تصانيفه ثمانية، وعند الزمخشري في القسطاس إثنا عشر قسمًا وعليها الجرجاني في شرح المفتاح: وأنها تسمى أدباً لتوقف أدب الدرس عليها بالذات وأدب النفس بالواسطة<sup>(١)</sup>.

أما هذه العلوم الإثنا عشر فهي: علم اللغة وعلم الصرف وعلم الاشتقاق وعلم النحو وعلم المعاني وعلم البيان وعلم العروض وعلم القافية وعلم قرض الشعر وعلم الخط وعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب وعلم المحاضرات ومنه التواريخ. وأما علم البديع فقد جعلوه ذيلًا لعلمي البلاغة لا قسمًا برأسه: كذا يستفاد من شرح السيد الشريف على المفتاح، ١. هـ. دمنهوري<sup>(٢)</sup>. والظاهر أنه لا خلاف في الحقيقة بين ابن الأنباري وبين الزمخشري، فكثيراً ما يطلق على علوم البلاغة اسم واحد هو علم البيان<sup>(٣)</sup>، وهو الذي جرى عليه ابن خلدون كما سبق. والنحو عند القدماء شامل للصرف والاشتقاق، والظاهر أنه لا يعد قرض الشعر مع علمي العروض والقافية وبهذا تكون علوم الأدب ثمانية ويكون الخلاف لفظياً لا ثمرة له. ولعل ابن الأنباري هذا هو أبو بكر محمد ابن القاسم (ت سنة ٣٢٨) لا كمال الدين عبدالرحمن صاحب نزهة الألبا (ت سنة ٥٧٧) فإن الثاني متأخر عن الزمخشري والظن به أن لا يحدث خلافاً بينه وبين إمام سابق لا ثمرة له، كما هو الظاهر. ويؤيد أنه الأول أن علم المعاني لم يعرف إلا بعده إذ أفرد عبد القاهر بالتأليف، وأن كثرة التفريع في العلوم أشبه بالمتأخرين. بقي أن أدب النفس متوقف على العلوم الشرعية كالحديث والتفسير أكثر من توقفه على هذه العلوم اللسانية وإن كانت تؤدي إلى مكارم الأخلاق وأن أدب الدرس محتاج بجانب هذين النوعين من العلوم إلى الإلمام بغيرهما كالعلوم الفلسفية، فلا مناص لنا من أن نفصح مجال القول لابن خلدون فقد وصف علم الأدب فقال: هذا العلم لا موضوع له

(١) كشف الظنون، ج ١ ص ٥٧.

(٢) حاشية الدمنهوري، ص ١١، ١٢.

(٣) الإيضاح، ج ١ ص ٣٢.

ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإغما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها؛ وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه. ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون: من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها<sup>(١)</sup>.

وفي حصر العلوم المأخوذ بأطرافها في اللسانية والشرعية قبل تورية المتأخرين بالمصطلحات العلمية شيء من القصور، ففي صدر الدولة العباسية - قبل أن يعنى الشعراء والمترسلون بهذا الفن البديهي وجد في شعرهم من المعاني الفلسفية والألفاظ الأعجمية ما لا يسع الأديب معه أن يهمل هذه الناحية الأعجمية البحتة التي ليست داخلية تحت العلوم اللسانية والشرعية، وسنجد بعض ذلك في الباب الرابع، إن شاء الله، فلا مناص لنا إذن من أن نعنى بالكلام على أمور: الأول: رواية الشعر لما ذكره ابن خلدون آنفاً، الثاني: رواية الأخبار والسير لأنها أخص فنون التاريخ بهذا البحث، الثالث: ترجمة العلوم الفلسفية وهي القسم الطبيعي الذي يهتدي الإنسان إليه بفكره كما سلف عنه، الرابع: ما هو ثمره لذلك من جيد المنثور والمنظوم في عصر الشاعر.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٣.

## رواية الشعر :

قال ابن سلام : كان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم - يعني العرب - ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون . قال ابن عون عن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يأتلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره . وقال يونس بن حبيب : قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير<sup>(١)</sup> . ويصور لنا هذه الكثرة الذاهبة ما ذكر ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » قال : حدثني سهل بن محمد عن الأصمعي عن كِرْدَيْن بن مسمع قال : جاء فتیان إلى ابن ضمضم فقال لهم : ما جاء بكم يا خبثاء ؟ قالوا : جئناك نتحدث . قال : كذبتُم ، بل قلتُم كبر الشيخ وعسى أن نأخذ عليه سقطه : فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو . قال الأصمعي : فعددت وخلف الأحمر فلم نقدر على أكثر من ثلاثين . قال ابن قتيبة : ولم يكن أبو ضمضم بأروى الناس<sup>(٢)</sup> .

ويلاحظ أن الرواة المشهورين لبقية هذا الشعر إما من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وإما من العباسيين كأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وأبي سعيد الأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى وخلف الأحمر من البصريين وحامد الرواية وجناد بن واصل والمفضل الضبي وأبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام من الكوفيين : فلعل سر ذلك هو حاجة علماء اللغة والنحو إلى رواية أشعار العرب لمعرفة موضوعات الألفاظ وأحكام النحو ، وما انضم إلى ذلك من عناية بني مروان برواية الشعر ونقده ، كعبد الملك وابنه هشام ، ولعلها متصلة بعصبيتهم لقومهم

(١) طبقات الشعراء ، لابن سلام ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) الشعر والشعراء ، ص ٦ .

من العرب. ولعل من أسباب العناية برواية الشعر في صدر الدولة العباسية انقسام الناس إلى طائفتين: متعصبة للعرب، أو شعوبية متعصبة للعجم؛ فإن عصبية الفريقين مما يجمعهم على التماس ما يجبون إذاعته في الناس من محاسن العرب وفضائلهم أو مساوئهم ومثالبهم. فإنه لا يعقل أن مثل أبي عبيدة - وشعوبيته مشهورة وتأليفه في مثالب العرب معروف - يروي الشعر العربي لغير هذا الغرض الثاني. وأخص هؤلاء الرواة برواية الشعر أربعة: حماد الراوية والمفضل الضبي وهما كوفيان، وأبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر وهما بصريان، أما حماد (ت سنة ١٥٥) فقد كان، كما يقول ابن سلام، أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها<sup>(١)</sup>. وهو الذي جمع السبع الطوال<sup>(٢)</sup>. وقد وصف لنا سعة روايته وبصره بالشعر أبو الفرج بسنده إلى عدة رواة قالوا: قال الوليد بن يزيد لحماة الراوية: بما استحققت هذا اللقب فقل لك الراوية؟ فقال: بآني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث. فقال: إن هذا العلم وأبيك كبير، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثير، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام. قال: سأمتحنك في هذا؛ وأمره بالإنشاد فأنشد الوليد حتى ضجر، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم. وفي رواية أخرى أنه قال له: احفظ سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها (بانت سعاد)<sup>(٣)</sup>. وقال الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء<sup>(٤)</sup>. وقال ابن النديم: لم يرو لحماة كتاب،

(١) طبقات الشعراء، ص ٢٤.

(٢) شذرات، ج ١ ص ٢٣٩.

(٣) الأغاني، ج ٥ ص ١٥٦.

(٤) المزهر، ج ٢ ص ٢٥٣.



وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده<sup>(١)</sup>.  
وأما المفضل الضبي (ت سنة ١٦٨) فهو الذي جمع للمهدي الأشعار المختارة المسماة المفضليات<sup>(٢)</sup> وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين ولم يكن أعلمهم باللغة والنحو إنما كان يختص بالشعر، وروى عنه أبو زيد شعراً كثيراً<sup>(٣)</sup>.  
وهو عند ابن سلام أعلم من ورد البصرة من غير أهلها<sup>(٤)</sup>. وروى أبو الفرج عن جماعة من الرواة قالوا: جمع المهدي عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها فخرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضل الضبي الراوية فدخل فمكث ملياً ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم وفي وجه المفضل السرور والنشاط. ثم خرج حسين الخادم معهما فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل. وروى أيضاً قصة امتحانها وظهور تزايد حماد في شعر زهير بالأبيات التي منها:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين مذ حجج ومذ دهر<sup>(٥)</sup>  
ويمثل هذا ويمثل قول ابن سلام في حماد الراوية: وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار كما أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة، فقال: ما أطرفني شيئاً. فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الخطيئة مديح أبي موسى فقال: ويحك! مديح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروي للخطيئة، ولكن دعها تذهب في الناس. وما رواه عن يونس من قوله: العجب لمن يأخذ عن حماد؛ كان يكذب

(١) الفهرست، لابن النديم، ص ١٣٥.

(٢) نزهة الألباء، ص ٦٨.

(٣) المزهري، ج ٢ ص ٢٥٣.

(٤) طبقات الشعراء، ص ١٦.

(٥) الأغاني، ج ٥ ص ١٦٤.

ويلحن ويكسر<sup>(١)</sup>. ويمثل قول أبي الطيب اللغوي: والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين في دواوينهم؛ وقول أبي حاتم: كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره، وكانوا يصنعون الشعر وينسبونه إلى غير أهله<sup>(٢)</sup>. يمكن دفع هذه المناقضة الظاهرة بين ما سلف عن أبي عمرو بن العلاء وأيده ابن سلام بقلة ما بأيدي الرواة لطرفة وعبيد من الشعر الصحيح<sup>(٣)</sup> وبين إنشاد حماد لألفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهليين.

وأما أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هجرية) فقد قال فيه أبو عبيدة: كان أعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر وأيام العرب. وقال: وكانت دفاتره ملء بيت إلى السقف ثم تنسك وحرقتها<sup>(٤)</sup>. ومن محاسن الآداب ما رواه أبو عمرو الشيباني قال: ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الراوية إلا قدمه على نفسه، ولا سألت حماداً عن أبي عمرو إلا قدمه على نفسه<sup>(٥)</sup>.

وأما خلف الأحمر (ت سنة ١٨٠) فهو أول من أحدث السماع بالبصرة، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه وكان ضنيناً بأدبه. وعن أبي عبيدة: خلف معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة<sup>(٦)</sup>. والكلام في صدقه مضطرب، فقد قال ابن سلام: أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لساناً. كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه<sup>(٧)</sup>. وروى أبو حاتم عن الأصمعي قال: كان خلف أعلم الناس بالشعر، وكان شاعراً، ووضع على شعراء عبد القيس شعراً مصنوعاً كثيراً وعلى غيرهم، وأخذ

---

(١) طبقات الشعراء، ص ٢٤.

(٢) المزهري، ج ٢ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٣) طبقات الشعراء، لابن سلام، ص ١٧.

(٤) شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٣٧.

(٥) الأغاني، ج ٥ ص ١٥٧.

(٦) نزهة الألباء، ص ٧٠.

(٧) طبقات الشعراء، ص ١٦.

ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة<sup>(١)</sup>. وعن أبي عبيدة قال: قال خلف كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعارها<sup>(٢)</sup>. وإن صح هذا فهو عجيب مع ما سلف من زعم حماد للوليد أنه لا ينشد شعراً إلا ميز القديم من المحدث. وعن محمد بن يزيد أنه كان يعمل الشعر على ألسنة الناس فيشتبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه، ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة، ثم قال: وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه، وبلغ مبلغاً لم يقل به حماد، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له: أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة. فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم<sup>(٣)</sup>.

ولعل هذا يصلح دفعاً لما بين رواية ابن سلام في صدقه وبين الروايات عن غيره من التناقض، بأن يكون وصف ابن سلام له في حال نسكه وهو لا يخلو من بعد، لأن الظن بالناسك الذي يختم القرآن كله كل يوم وليلة أن ينصرف عن الشعر والأخبار جملة فلعلها عصبية بصري هو ابن سلام لبصري هو خلف.

أما دواوين الشعر في هذه الفترة فأسبقها وجوداً ديوان جمع في الجاهلية كان عند النعمان بن المنذر، فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان أو ما صار منه<sup>(٤)</sup>. وسبق عن ابن سلام أن حماداً أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها؛ وعن أبي الفلاح: أنه الذي جمع السبع الطوال؛ وعن ابن النديم ما يناقضهما أن أريد بالجمع التدوين، وهو الظاهر، إذ قال: لم يرو لحماذ كتاب، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده. وسبق جمع المفضل للمفضليات ولبعض المشهورين بالأخبار كتب في الشعر والشعراء

(١) الزهر، ج ٢ ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٢) الأغاني، ج ٥ ص ١٦٥.

(٣) الزهر، ج ٢ ص ٢٥١.

(٤) طبقات الشعراء، ص ١٧.

ككتاب الديباج في أخبار الشعراء لهشام الكلبي<sup>(١)</sup>. وقد نبه ابن سلام إلى وقوع أشعار موضوعة كثيرة في سيرة ابن إسحاق التي سيأتي ذكرها وأدلتها على الوضع لا تقبل الرد<sup>(٢)</sup>.

### رواية الأخبار والسير:

عن الهمداني قال: ليس يوصل خبر من أخبار العرب والعجم إلا بالعرب، وذلك أن من سكن مكة المكرمة أحاطوا بعلم العرب العارية وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير ومسيرها في البلاد، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان، ومن وقع في البحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند والهند وفارس ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً<sup>(٣)</sup>. ولا يقل عما ذكره الهمداني نزول اليهود يثرب وتعلمهم العربية وما ينشأ عن ذلك من نشر أخبار بني إسرائيل، وفي شعر الجاهلية مصداق لما ذكره الهمداني، وقد ذهب به العرب مذهب الوعظ والاعتبار لضخامة ما كان حولهم من الممالك وما نزل بها من الأحداث، وسنلم، إن شاء الله، بطرف منه للمعنى الذي وصفت في تاريخ شعر الزهد والحكمة. ورواية أيام العرب ووقائعهم المشهورة تابعة لرواية الشعر لأنه ديوان أخبارهم ومآثرهم كما سلف؛ ومن صور روايتهم لأخبار العجم ما ذكره أصحاب السير والمفسرون في سبب نزول بعض الآيات قال ابن إسحاق: وممن كان يؤذي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة النضر بن الحارث، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مجلساً فذكر بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم

(١) الفهرست، ص ١٤٢.

(٢) طبقات الشعراء، لابن سلام، ص ٧ إلى ٩.

(٣) كشف الظنون، ج ١ ص ٢٠، ٢١.

من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلهم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس وروستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟

قال ابن هشام: وهو الذي قال فيما بلغني: «سأنزل مثل ما أنزل الله». قال ابن إسحاق: وكان ابن عباس، رضي الله عنهما، يقول: فيما بلغني نزل فيه ثمان آيات من القرآن قول الله عز وجل: ﴿إِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن<sup>(١)</sup>.

وذكر صاحب الكشاف عند الكلام على قوله تعالى من سورة لقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ قولاً بنزولها في النضر بن الحارث قال: وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة<sup>(٢)</sup>. ولما انتشر الإسلام ودخل بعض أهل الكتاب في الدين أخذوا ينشرون في الناس أخبار بني إسرائيل؛ وكان من أعيانهم في صدر الإسلام عبدالله بن سلام وكعب الأخبار ثم وهب بن منبه وغيرهم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مبحث التفسير عن ابن خلدون؛ ويظهر أن أكثر الصحابة أخذاً عنهم هو أبو هريرة، رضي الله عنه، فقد روى الذهبي بسند إليه أنه لقي كعباً فجعل يحدثه ويسأله فقال كعب: ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة<sup>(٣)</sup>. وأشهر أهل الكتاب برواية الإسرائيليات وهب بن منبه من التابعين. قال الذهبي فيه: وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ، وكان ثقة واسع العلم ينظر بكعب الأخبار في زمانه، وعنه

---

(١) سيرة ابن هشام، هامش الروض الأنف، ج ٣ ص ١٨٨؛ الهمداني: أبو العلاء الحسن بن أحمد/٥٦٩؛ الزركلي.

(٢) الكشاف، ج ٣ ص ٢١٠.

(٣) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٦.

قال: يقولون عبدالله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ - يعني نفسه - (وتوفي وهب سنة ١١٤)<sup>(١)</sup>.

وفي الدولة العباسية، في عهد الرشيد، اتصل المسلمون بالإسرائيليات اتصالاً أوثق، فترجمت لهم الصحف والتوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والتلمود من العبرانية واليونانية وغيرهما، وذكر صاحب الفهرست أنه رأى هذه الترجمة في كتاب قديم النسخ يشبه أن يكون من خزانة المأمون، ومن لفظه أن المترجم: أحمد بن عبدالله بن سلام مولى أمير المؤمنين هارون، وأنه أدخل فيه ما يحتاج إليه من الحجة من القرآن والآثار التي جاءت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن أسلم من أهل الكتاب؛ منهم: عبدالله بن سلام ويامين بن يامين وهب بن منبه وكعب الأحبار وابن التيهان وبحيرا الراهب<sup>(٢)</sup>. وأثر هذه الترجمة ظاهر في الرسالة التي صنعها أبو الربيع محمد بن الليث وبعث بها الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم يدعو فيه إلى الإسلام، ويقيم عليه الحجة بما ينقل من آيات الانجيل. وهي مطبوعة متداولة؛ ومحمد بن الليث هو الذي سبق ذكره في وعاظ الرشيد. ويدل على بدء تدوين الأخبار في أيام معاوية ما رواه المسعودي في وصف شأن معاوية أنه كان يقوم بعد الثلث الثاني من الليل فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب ومكائدها فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها<sup>(٣)</sup>.

وذكر ابن النديم أن عبيد بن شرية الجرهمي وفد عليه<sup>(٤)</sup> فسأله عن الأخبار المتقدمة، وكان استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما أمر، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد. وعاش عبيد إلى أيام عبدالملك وله كتاب «الأمثال» وكتاب «الملوك» وكتاب «أخبار الماضين». ومن أخذ عنه علاقة بن كرسم الكلابي من بني عامر بن كلاب، عارف بأيام العرب وأحاديثها، وأحد من أخذت

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٩٥.

(٢) الفهرست، ص ٥٣٢، ٥٣٣.

(٣) مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٣٢.

(٤) على معاوية.

عنه المآثر وله كتاب «الأمثال» نحو خمسين ورقة رآه صاحب الفهرست<sup>(١)</sup>. وكان هشام بن عبد الملك مشغولاً بالسير والأخبار فنقل له جلبة بعض الكتب عن سير الفرس من الفارسية إلى العربية. وأمر هشام النقلة فنقلوا له كتاب «تاريخ ملوك الفرس وقوانين دولتهم وتراجم رجالهم»<sup>(٢)</sup>. وفي مفتتح الدولة العباسية عني أبو جعفر بمثل هذه الأخبار. قال الجاحظ: وكان المنصور مكثراً من كتب الآثار ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم<sup>(٣)</sup>. ومن النقلة في هذه الدولة عبدالله بن المقفع؛ ترجم من كتب الفرس كتاباً في السير وآخر في سيرة أنوشروان ومنهم إبان اللاحقي ترجم كتاب سيرة أردشير وكتاب سيرة أنوشروان وغيرهما<sup>(٤)</sup>.

وفي هذه الدولة أو في الأموية بدأت كتابة المغازي والفتوح. ففي كشف الظنون في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم: جمعها محمد بن إسحاق (ت سنة ١٥١) أولاً. ويقال: أول من صنف فيها عروة بن الزبير. وجمعها أيضاً وهب بن منبه وذكر فيهم موسى بن عقبة ومحمد بن مسلم الزهري وأبا محمد يحيى بن سعيد الأموي الكوفي النحوي (ت سنة ١٩١)<sup>(٥)</sup>. ويظهر أنه لم يسبق ابن إسحاق بالتصنيف إلا موسى بن عقبة (ت سنة ١٤١). ففي تذكرة الحفاظ عن أحمد بن حنبل، رضي الله عنه: عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة<sup>(٦)</sup>. ونقل ابن العماد الحنبلي، صاحب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» عن بعض من يأخذ عنه أنها وصلت إليه بالإسناد<sup>(٧)</sup>. ويظهر أنه لم يسبق موسى وابن إسحاق في التأليف فيها أحد من هؤلاء، وأن مصدر اللبس في

(١) الفهرست، ص ١٣٢؛ ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ١٩٠.

(٢) إنقاذ تاريخ التمدن الإسلامي، ص ٤٨، ٤٩.

(٣) البيان والتبيين، ج ١ ص ١٤٠.

(٤) الفهرست، ص ١٧٢.

(٥) كشف الظنون، ج ٢ ص ٢٩٤.

(٦) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ١٤٠.

(٧) شذرات، ج ١ ص ٢٠٩، ٢١٠.

الزهري محمد بن مسلم خاصة اشتهار عبدالله بن سعد الزهري برواية المغازي، فقد مر عليه ابن عمر وهو يحدث بالمغازي فقال: شهدت القوم ولهذا احفظ لها واعلم بها مني<sup>(١)</sup>. ولعبدالله هذا كتب في فتوح خالد بن الوليد، رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>.

وأشهر الإخباريين في غير ما سلف من المغازي والسير وأخبار العجم طائفة هم أبو مخنف لوط ابن يحيى (ت سنة ١٥٧) ومن طبقته محمد بن السائب الكلبي من علماء الكوفة (ت سنة ١٤٦) والواقدي أبو عبدالله محمد بن عمر (ت سنة ٢٠٧) والهيثم بن عدي (ت سنة ٢٠٧) ونظيرهم في الشهرة وكثرة الآثار أبو الحسن المدائني علي بن محمد المولود سنة خمس وثلاثين ومائة ووفاته سنة خمس عشرة أو خمس وعشرين ومائتين. ومن يذكر معهم أبو عبيدة النحوي والمفضل الضبي، ويغلب على أخبارهم الاختصاص ببعض الموضوعات (كما هي القضية في مبدأ تدوين اللغة) ككتاب «الجمال» وكتاب «صفين» وكتاب «الخوارج» وغيرها لأبي مخنف، وكتاب «ملوك اليمن من التبابعة» وكتاب «طسم وجديس» وكتاب «أصحاب الكهف» وغيرها لهشام الكلبي وكتاب «سيرة أبي بكر» وكتاب «فتوح الشام» وكتاب «فتوح العراق» وكتاب «تاريخ الفقهاء» للواقدي وكتاب «الوفود» وكتاب «ولاة الكوفة» للهيثم بن عدي<sup>(٣)</sup>. وذكر الطبري أن المفضل قال: قال لي المهدي: اجمع لي الأمثال مما سمعته من البدو وما صح عندك. فكتبت له الأمثال وحروب العرب مما كان فيها<sup>(٤)</sup>. والناظر في مؤلفات هؤلاء القوم نظر استقصاء يرى أنها قد جمعت من أخبار الجاهلية والإسلام والعرب والعجم والخلفاء والولاة والشيعة والخوارج والفقهاء والمحدثين ما جعلها مدداً لا ينضب لكتب المؤرخين الجامعة فيما بعد، كتاريخ

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٧٧.

(٢) الفهرست، ص ١٣٩.

(٣) الفهرست، ص ١٣٦ إلى ص ١٤٥.

(٤) الطبري، ج ٦ ص ٤٠٠.



الأمم والملوك لابن جرير. هذا، وفي أيدي الناس كتاب باسم «فتوح الشام» للواقدي رحمه الله وفيه أيضاً فتوح افريقية والعراق والعجم، فيه من المبالغات ودلائل الوضع في الشعر ما من أشنعه أن يفتخر مسلم بكافر، كهذا البيت المنسوب للفضل بن أبي لهب في وصف حسامه:

يطير شرار النار من لمعانه بيد شجاع الخيل ابن أبي لهب<sup>(١)</sup>

وانظر إلى تشديد الدال من يد وقطع همزة ابن. وفي سائر الأشعار ما هو أشنع من هذا مما لا يسعه المقام وقد اضطر مثل هذا صاحب كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» إلى أن يحكم على كتب الواقدي بأنها محشوة بالمبالغات لا يعول عليها<sup>(٢)</sup>. وقد رد عليه الإسكندري، رحمه الله، بنفي أن يكون فتوح الشام للواقدي وأحاله إلى بعض كتبه الصحيحة النسبة إليه كفتح افريقية وفتح العجم ليميز بين الصحيح والمنحول<sup>(٣)</sup>. والحق أن الاسكندري واهم أيضاً فإن الأمر في كل ذلك سواء، والمثال الأنف شاهد على ذلك فهو في فتوح البهنسا ومن دلائل الوضع الظاهرة في فتوح العراق قتل النعمان بن المنذر<sup>(٤)</sup> فإن النعمان قد داسته أرجل الفيلة عند كسرى قبل الإسلام.

### ترجمة العلوم الفلسفية:

نقل ابن النديم أن خالد بن يزيد بن معاوية، وكان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمدينة مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسانين اليوناني والقبطي إلى العربي وقال: وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة<sup>(٥)</sup>. وقد أنكر

(١) فتوح الشام، ج ٢ ص ٢٧٨.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، لزيدان، ج ٢ ص ١٤٧.

(٣) انتقاد تاريخ آداب اللغة العربية بقلم الاسكندري، ص ١١٤.

(٤) فتوح الشام، ج ٢ ص ١٨١.

(٥) الفهرست، ص ٣٣٨.

ابن خلدون نسبة الاشتغال بمثل هذا إلى خالد بقربه من البداوة المبعدة من العلوم والصنائع بالجملة، وذهب إلى أن كتب الطبيعيات والطب لم تكن ظهرت بعد<sup>(١)</sup>. ويظهر أن الترجمة قبل العصر العباسي لم يكن لها شأن يذكر، ولعله لكون الدولة عربية تحتقر العجم ولا تظن خيراً ولا فضلاً لغير العرب حتى ساغ لمحمد بن علي الأخباري أن يقول: إن المصنور أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية، منها كتاب «كليلة ودمنة» وكتاب «السند هند» وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتب المجسطي (في الفلك) لبطليموس والارثماتيقي (في العدد) وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلقوا بعلمها<sup>(٢)</sup>.

وقد علل المرحوم الأستاذ محمود مصطفى توقف حركة الترجمة في عصر المهدي والهادي باشتغالها باستئصال شأفة الزنادقة، ونشاطها في عصر الرشيد بما كان من همة البرامكة وجودهم على المترجمين برسمهم، وجعل من أثر ذلك ومن أثر العناية بالعلم في عصر الرشيد إنشاء دار الحكمة ببغداد، تلك الدار التي حوت كل ما عثر عليه في ذلك الحين من كتب هندية وفارسية ويونانية<sup>(٣)</sup>. وقد استمرت دار الحكمة قائمة وحركة النقل فيها مستمرة في عصر المأمون، كما سبق ما يتضمن ذلك. ويظهر أن الفلسفة إلى عهد المأمون لم تكن قد بلغت هذا الشأن العظيم الذي صارت إليه في عهده، فقد كان — كما يقول الدينوري — نجم ولد العباس في العلم والحكمة، وهو الذي عقد المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات<sup>(٤)</sup>.

وذكر ابن النديم أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات؛ وقد استظهر عليه المأمون فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ من يختار (له) من العلوم

(١) المقدمة، ص ٥٥٥.

(٢) مروج الذهب للمسعودي، ج ٤ ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٣) مذكرة العصر العباسي للمرحوم الأستاذ محمود مصطفى، ص ٢٣٠.

(٤) الأخبار الطوال، ص ٣٧٨.

القديمة المدخرة المكنوزة ببلاده؛ فأجاب إلى ذلك بعد امتناع؛ وأخرج المأمون لذلك جماعة: منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل<sup>(١)</sup>. وفي كشف الظنون أنه داخل ملوك الروم وسألهم وصله ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه من كتب أفلاطون وأرسطو وبقرات وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم، وأنه كلف الناس بقراءتها ورغبتهم في تعلمها<sup>(٢)</sup>. وقد توسع ابن النديم في الكلام على أخبار الفلاسفة وأسماء كتبهم ونقلتها إلى اللسان العربي توسعاً لم يظفر به منه الكلام على غير الفلسفة من العلوم<sup>(٣)</sup>.

### ثمرة الأدب - النثر والنظم:

لقد كان للانقلاب العباسي وما صحبه من نفوذ الفرس وتحضر الدولة وترجمة الفلسفة واتساع الرواية والتدوين آثار ظاهرة فيما يؤثر من المنشور بنوعيه: الخطابة والكتابة الإنشائية، وما يؤثر من الشعر في أغراضها ومعانيها وأساليبها مما تتميز به وتظهر في طابع خاص.

### الخطابة:

رأيت من خطبتي السفاح وعمه داود بن علي كيف كانت أغراض الخطابة في مبدأ هذه الدولة منصبة على ذم بني أمية وبني مروان وإظهار الشماتة بهم ووصف نقمة الله فيهم والطعن في سياستهم وأخلاقهم، والشكر لأعوان الدولة وشيعتها من أهل الكوفة وجند خراسان وتبشيرهم بدولتهم، والظهور أمام الملأ بمظهر الزاهدين الغيورين على حرمان الدين الغاضبين لبني عمهم العلويين، وكيف حول المنصور هذه الأغراض إلى أضدادها من ذم الكوفة وأهلها والنيل من بني عمه العلويين دون استثناء ولا استبقاء، وأدّعاء أنه هو وأهل بيته خير

(١) الفهرست، ٣٣٩.

(٢) كشف الظنون، ج ١ ص ٢٢.

(٣) الفهرست، من ص ٣٣١ إلى ص ٤٢٢.

وأولى بالأمر منهم. ولكن مظهر الزهد لزم خطب الجمع والأعياد لأمرين: أولهما: غرق كثير من الناس في حياة الترف والمجون؛ والثاني: كف غرب خصومهم السياسيين وهم آئذ كثيرون. ويلاحظ بإزاء ذلك أنها فقدت مواقفها الحماسية الحاضرة على الجهاد وفتح البلاد لغلبة العجمة على الجنود والقواد، وحلت محلها في هذا الغرض الرسائل والمنشورات.

هذه أوصافها من حيث الأغراض.. أما من حيث المعاني والأساليب فقد امتازت بكثرة الاستشهاد والاقتباس من آيات القرآن الكريم وبجزالة ومثانة عبارة في أول العصر لقرب العهد بالبداءة وعناية هؤلاء المنافسين باسم الدين بما يعين على البلاغة من حكم القرآن الكريم وأسلوبه المتين. والمشهورون بالخطابة منهم كثيرون وصفهم الجاحظ فقال: وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلالة وفي العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة، مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يجلبون عن هذه الأسماء، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك: منهم عبدالملك بن صالح والعباس بن محمد وغيرهما. وقال الجاحظ في عبدالله وداود ابن علي عمي أبي جعفر: كانا يعدلان بأمة من الأمم وذكر غيرهم من مواليتهم ومن سائر الناس<sup>(١)</sup>.

### الكتابة:

كانت صورة الكتابة في صدر الإسلام وأكثر العصر الأموي تتلخص في البدء بالبسملة وإتباعها بذكر صاحب الكتاب والمكتوب إليه ثم الحمد لله ثم الموضوع والختام بالسلام على المكتوب إليه إن كان مسلماً أو على من اتبع الهدى إن لم يكنه، كرسالته صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي، أو بالفصل بين المكتوب إليه وبين الموضوع بالسلام وتركه آخره ككتابه إلى كسرى. وقد يفصل بين

(١) البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٦٥، ٢٦٦. (ج ١ ص ١٢٨ ط. العلمية، سنة ١٣١١هـ).

السلام على هذه الصورة وبين الموضوع بلفظ (أما بعد) ككتابه لقيصر والمقوقس .  
وقد يقدم السلام على الحمدلة ككتابه صلى الله عليه وسلم إلى عمير ذي مران  
وإلى من أسلم من همدان . وقد تقتصر الرسالة على البسملة وذكر صاحب  
الكتاب دون المكتوب إليه لذكره في صلب الرسالة ككتابه صلى الله عليه وسلم  
إلى أهل خير، وقد تخلو من البعدية والحمدلة جميعاً ككتابه صلى الله عليه وسلم  
إلى الحارث بن شمر الغساني وإلى هودة بن علي الحنفي . وقد تخلو من ذكر  
صاحب الكتاب والمكتوب إليه جميعاً إن كانت رداً على رسالة، كرده صلى الله  
عليه وسلم على مسيلمة الكذاب . وقد يعاد لفظ السلام بعد ذكره في الختام  
ككتابه صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه إذ كتب له  
بإسلام بني الحارث بن كعب<sup>(١)</sup> .

وكان الغالب على هذه الرسائل التوسط بين الإيجاز والإطناب، وكانت  
أغراضها الدعوة إلى الإسلام وتعليم فرائضه، ككتاب عمر إلى أبي موسى في  
القضاء أو العهد إلى خليفة كعهد أبي بكر لعمر رضي الله عنهما أو عزل قائد كخالد  
وتولية غيره كأبي عبيدة، أو ما أشبه ذلك من الموضوعات الجسام . وحين صارت  
الكتابة إلى الموالي كسالم مولى هشام وتلميذه عبد الحميد بن يحيى كاتب  
مروان بن محمد وضريبه ابن المقفع وتلميذه يحيى أبي عبيد الله وزير المهدي ثم  
وزراء الرشيد من البرامكة ووزراء المأمون وكتابه كالحسن بن سهل وعمرو بن  
مسعدة وأخيه مجاشع وأحمد بن يوسف والحسن بن سهل جدت للرسائل أمور  
منها ما يرجع إلى الأسلوب، والبدء فيه لعبد الحميد بن يحيى، فهو أول من  
أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب<sup>(٢)</sup> . وعنه أخذ المترسلون  
ولطريقه لزموا<sup>(٣)</sup>؛ ومجموع رسائله ألف ورقة<sup>(٤)</sup> . وفي سرح العيون أن عبد الحميد  
استعمل في بعض كتبه الإيجاز البليغ وفي بعضها الإسهاب المفرط على ما اقتضاه

(١) انظرها كلها في كتاب أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين .

(٢) مروج الذهب، ج ٣ ص ١٧٨ .

(٣) الفهرست، ص ١٧٠ .

(٤) الفهرست، ص ١٧٠؛ ووفيات الأعيان، ج ١ ص ٣٨٦ .

الحال<sup>(١)</sup>، ويشهد للأول بعض كتبه في المجموع المنشور باسم رسائل البلغاء، ومن شواهد الثاني ومثل به ابن نباتة له كتابه إلى مسلم صاحب الدعوة يستميله إلى مروان قال: وكان من كبر حجمه يحمل على جمل. وقد وصف أبو هلال في كتابه «الصناعتين» مقامات إطناب الرسائل وإيجازها وتنوع عبارات الخطاب بحسب المکتوب إليه بما يصلح وصفاً لحالها في هذه الفترة<sup>(٢)</sup>. وقد أجمل هذه المقامات وأنواع الخطاب الحسن بن وهب وزير المأمون في قوله: كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك<sup>(٣)</sup>. وقد كان الإيجاز أحب إلى بعض الكتاب، فقد قال جعفر بن يحيى لكتابه: إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا. قال الصولي: يريد بذلك الإيجاز والاختصار<sup>(٤)</sup>. والتوقيع هو الكلمة التي يكتبها الخليفة أو الوزير أو الرئيس على هامش رسالة يحمل فيه رده عليها أو رأيه فيها؛ ومعانيه اللغوية تناسب هذا المعنى الاصطلاحي، وأشهرها أنه التأثير القليل الخفيف. وقد أولع الناس في هذا العصر بالتوقيعات، فقد ذكر ابن خلدون أن توقيعات جعفر بن يحيى كانت تباع كل توقيع بدينار<sup>(٥)</sup>.

ومما جد على أسلوب الرسائل ما ذكره الصولي قال: كان التصدير ينتهي إلى قوله — يعني الكاتب — : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. . إلى أن أفضت الخلافة إلى الرشيد فأمر أن يزداد فيه: وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، فكتب بذلك إلى هذا الوقت؛ فكانت هذه من أفضل مناقب الرشيد<sup>(٦)</sup>. ومما ظهر فيها كثرة الدعاء للمكتوب إليه، وقد يكون بعض ذلك في رسائل الخلفاء إذا كان لأبنائهم أو إخوانهم، ومن شواهد ذلك

(١) سرح العيون، ص ١٦٢.

(٢) الصناعتين، ص ١٤٦.

(٣) أدب الكتاب، ص ٢٣٦.

(٤) أدب الكتاب للصولي، ص ١٣٤.

(٥) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٧.

(٦) أدب الكتاب، ص ٤٠.

ما رواه الطبري من رسائل الأمين لأخويه المأمون وصالح عند موت الرشيد. وقد اتسعت أغراض الرسائل في هذا العصر فتناولت مع ما سلف من الأمور الجسام أغراضاً كثيرة سياسية تتمثل في رسالة الصحابة، أي صحابة أبي جعفر، وحكمية تتمثل في الأدبين: الصغير والكبير والثلاثة لابن المقفع. ومن مستحدث أغراضها من عهد عبد الحميد بن يحيى القول في الإخوانيات، كالشوق والتهنئة والاعتذار والاستعطاف ووصف الإخاء والتوصية وغيرها، ومثلها ظاهرة في رسائل عبد الحميد<sup>(١)</sup>؛ إلى بعض الأغراض العلمية، كرسالته إلى الكتاب في تعليم صنعة الكتابة، وسنعود إليها؛ إلى أغراض أخرى أدبية لا يراد بها إلا إظهار البراعة والمقدرة على البيان كرسالة سهل بن هارون في تفضيل الزجاج على الذهب والاحتجاج للبخل<sup>(٢)</sup>. وقد كان لتحضر الدولة وثقافة الكتاب أثر في تهذيب ألفاظهم وفصاحتها مما جعل الجاحظ يقدمهم على سائر الأدباء بقوله: ما رأيت قوماً أمثل طريقة من هؤلاء الكتاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً<sup>(٣)</sup>.

أما معاني هذه الرسائل فليس أدل عليها من وصف عبد الحميد بن يحيى لما يحتاجه الكتاب من أنواع العلوم. قال من رسالته إليهم: فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض والعربية فإنها ثفاف ألسنتكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم<sup>(٤)</sup>. وقد كانت رسائل هؤلاء الكتاب من الموالي مما تفخر به الشعوبية على العرب فأنكر عليهم الجاحظ ذلك بما يتضمن أن معانيها ليست كلها أعجمية. وسرى إن شاء الله في باب المعاني أن كثيراً من معاني ابن المقفع إسلامية لا أعجمية. قال الجاحظ: ونحن لانعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس

(١) انظر المجموعة التي نشرها الجزائري باسم رسائل البلغاء.

(٢) سرح العيون، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٣) الرسالة العذراء، ص ٣٥.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٨ الرسالة بطولها وص ٢٤٩.

للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة؛ إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنفوا تلك السير<sup>(١)</sup>. ولم يعرفنا الجاحظ من هو غيلان الذي ذكره. وذكر مخرج كتابه أنه غيلان الدمشقي القدري الذي قتله هشام بن عبد الملك وهو فارسي أيضاً؛ فإن صح أنه هو، كان له السبق على عبد الحميد في عمل الرسائل؛ ويدل على أن رسائله من النوع الحكمي كالأدبين الصغير والكبير ما نقله الجاحظ في مقام آخر عن أبي الحسن المدائني قال: كان عبيد الله بن الحسن حيث وفد على المهدي معزياً أعد له كلاماً فبلغه أن الناس أعجبهم كلامه فقال لشبيب بن شيبه: إني والله ما التفت إلى هؤلاء ولكن سألني عنها أبا عبيد الله الكاتب. فسأله فقال: ما أحسن ما تكلم به لولا أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقح بينهما كلاماً. فأخبره بذلك شبيب فقال عبيد الله: لا والله إن أخطأ حرفاً واحداً<sup>(٢)</sup>.

### الشعر:

#### □ أغراضه:

قد رأيت في وصف أحوال المجتمع العباسي كيف جدت فيه أمور سيئة مرجعها إلى الزندقة والترف والمجون. وقد كان من تأثير هذه الأحوال في الشعر أن ذهبت به مذاهبها من الإكثار من وصف الخمر — وقد كان من ذلك قليل في العصر الأموي، والإكثار من الوصف الصريح للقيان، إلى هذه الوصمة التي يندى لها جبين الشعر العربي خجلاً، وهي تلك التي حرّفت الغزل عن موضعه وذهبت به مذهبها الخراساني المشهور. وأشهر من عرف بالقول فيها أبو نواس ونداماه وأستاذه المشبه بالعجم والبة بن الحباب. ومما جد للشعر من الأغراض الرمي بالزندقة والتبرؤ منها، كما مضى من شأن بشار وحامد. ويقابل هذه الأغراض ما يضافها من شعر الزهد والحكمة والعلم فيهما أبو العتاهية، وفي الحكمة إبان بن عبد الحميد اللاحقي وصالح بن عبد القدوس مع شوب حكمياته بشيء من

(١) البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢١، ٢٢.



التزهد. ومما جد من أغراض الشعر السياسي في صدر هذه الدولة الاحتجاج لاستحقاق بني العباس للأمر دون العلويين، أو عكسه؛ والعلم في الأول مروان بن أبي حفصة وابن المولى وفي الثاني دعلج بن علي الخزاعي. ومن مقتضيات الاستقرار والدعة، وهما من مقتضيات الحضارة، ما شاع في شعر الشعراء من القول في الإخوانيات كالاستنجاز والاقتضاء والعتاب والاهداء. ومن مقتضيات التدوين والترجمة ما جد في هذا العصر من نظم القصص كما فعل إبان اللاحقي من نظمه كتاب «كليلة ودمنة» وغيره من كتب الحكمة كما سيأتي في الخاتمة<sup>(١)</sup>. وله قصيدة في أحكام الصوم والزكاة<sup>(٢)</sup>، وعمل أيضاً القصيدة التي يذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق وسماها ذات الحلل، ومن الناس من ينسبها لأبي العتاهية والصحيح أنها لإبان<sup>(٣)</sup>.

□ معانيه وأخيلته :

الشعر صورة البيئة ومظهر المجتمع ومرآته التي تتجلى فيها صورة كل شيء جليل أو حقير. فالشعر العباسي مظهر لهذه الرياض الأريضة والمياه الجارية والمحاسن الكثيرة التي تفيض بها منابع الخصب والرخاء في العراق وبغداد، وهي منتجع الشعراء وإلفهم في ذلك الحين، وهو أيضاً مظهر صادق لهذه الثقافات الإسلامية والعربية والأعجمية التي التقت في هذه الدولة أتم التقاء وساعد على انتشارها ثم الاقتباس والأخذ منها ما كان من عناية خلفاء بني العباس بالعلوم والآداب.

□ لفظ الشعر وأسلوبه :

نقل ابن قتيبة عن بعض أهل العلم تعليلاً حسناً لأسلوب المديح في شعر القدماء وتبعه فيه ابن رشيق ثم ابن خلدون مع زيادة وتصرف يسيرين منها.

---

(١) وانظر الأغاني، ج ٢٠ ص ٧٣؛ والفهرست لابن النديم.

(٢) انظر بعضهما في تاريخ الأدب العربي للسنتين الثالثة والرابعة من المدارس الثانوية لاسكندري وغيره ص ٣٧.

(٣) الأغاني، ج ٢٠ ص ٧٣.

وملخص هذا التعليل أن مقصد القصيد إنما بدأ بذكر الديار وما يناسبها والظاعنين عنها. ثم وصل ذلك بالنسيب، ثم بالرحلة وتعب السهر والسرى وإنشاء الرحلة، لأن شأن العرب الظعن لانتجاع الكلاء والماء ولأن النسيب يميل القلوب والأسماع إليه ولأن الرحلة توجب له حق الرجاء والتأمل، فإذا بدأ بعد ذلك في المديح بعث الممدوح على المكافأة وهزه على السماح. وزاد ابن رشيق على ما سلف ما رواه من أن أول من ترك هذا البسط أمام الغرض هو أبو نواس في قوله:

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند  
واشرب على الورد من حمراء كالورد  
وقوله:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم  
ومال ابن رشيق إلى اطراح المذهب القديم إذ جعل من الكذب وصف الحضري لما ليس عنده<sup>(١)</sup>، وهذا الأسلوب قد يأتي في غير المديح كالهجاء والفخر والوصف والتهنئة وغيرها<sup>(٢)</sup>. ومن خصائص الشعر في هذه الفترة الإكثار من البديع كما سبق وصفه عن ابن المعتز وغيره؛ ومن خصائصه اللفظية ظهور بعض الألفاظ الكلامية والفلسفية والأعجمية فيه<sup>(٣)</sup>.

### شعراء العصر:

قال ابن رشيق: طبقات الشعراء أربع: جاهلي قديم، ومخضرم - وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي، ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى

---

(١) انظر الشعر والشعراء، ص ١٤، ١٥؛ ومثله زهر الآداب للحصري، ج ٣ ص ١٩، ٢٠؛ وانظر مقدمة ابن خلدون من ص ٥٦٩ إلى ص ٥٧٢؛ والعمدة لابن رشيق، ج ١ من ص ١٥٠ إلى ص ١٥٥.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي الأنف، ص ٣٨، ١٤٥.

(٣) انظر بعض الأمثلة في البيان، ج ١ ص ١٣١، ١٣٢.

وثانية على التدرج ، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا<sup>(١)</sup>. وهذا التقسيم جار على أحد معنيي الطبقة، وهو الجماعة المتعاصرة؛ ولها معنى آخر بحسب الإجابة وهو الجماعة المتناظرة، وهو مستوفى في البيان والتبيين<sup>(٢)</sup>، وفي هذا الباب من العمدة<sup>(٣)</sup>. ويجمع المعنيين مذهب ابن سلام في طبقات الشعراء.

والطبقة الأولى من المحدثين هم مخضرمو الدولتين الذين أدركوا شطراً من عصر بني أمية ثم أظلتهم الدولة العباسية. ومن هؤلاء إبراهيم بن هرمة وبشار بن برد توفي ١٦٧هـ، والحسين بن مطير وأبوحية النميري وابن الخياط المكي وسديف بن ميمون وأبو الهندي وحماد عجرد سنة ١٦١ ومطيع بن إياس سنة ١٦٩ وصالح بن عبد القدوس سنة ١٦٠ وأبودلامة سنة ١٦١ والسيد الحميري سنة ١٧٣ ومروان بن أبي حفصة سنة ١٨١. ومن رجّاز هذه الطبقة أبو نخيلة السعدي ورؤبة بن العجاج سنة ١٤٥<sup>(٤)</sup>. ومن رجال هذه الطبقة ابن المولى محمد بن عبدالله بن مسلم<sup>(٥)</sup>.

والطبقة الثانية نشأت في صدر الدولة؛ ومن رجالها والبة بن الحباب وأبو العتاهية وأبونواس ١٩٨ ومسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ والحكم بن قنبر وسلم بن عمرو الخاسر سنة ١٨٦ والفضل بن عبدالصمد الرقاشي سنة ٢٠٠ والعباس بن الأحنف سنة ١٩٢ وأبو الشيص ١٩٦ وأشجع السلمي وكلثوم بن عمر العتابي سنة ٢٢٠ ومنصور النمري وربيعه الرقي وإبان بن عبد الحميد والعكوك (علي بن جبلة) سنة ٢١٣ وعوف بن محلم الخزاعي ومحمد بن يسير الرياشي وبكر بن النطاح<sup>(٦)</sup>. ومن رجال هذه الطبقة: علي بن الخليل صاحب صالح ابن عبد القدوس<sup>(٧)</sup>.

(١) العمدة، ج ١ ص ٧٢.

(٢) البيان والتبيين، ج ٢ من ص ٧ إلى ص ١٠.

(٣) العمدة، ج ١ من ص ٧٣ إلى ص ٧٥.

(٤) مذكرة أدب محمود مصطفى، ج ٢ ص ٤٠٢.

(٥) انظر الأغاني، ج ٣ ص ٨٥.

(٦) المذكرة الأنفة.

(٧) انظر الأغاني، ج ١٣ ص ١٣ وما بعدها.

وأستاذ المحدثين بشار، فعنه أخذوا ومن بحره اغترفوا<sup>(١)</sup>. هذا هو القول الكثير ولكن الحق أن المفاضلة بين مشاهير الشعراء مما لم يقر له قرار ولم ينته إلى يقين، سواء في شعراء هذه الطبقة أم في ما قبلها من الطبقات. قال الأمدى: إن الناس لم يتفقوا على أي الأربعة أشهر: في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى، ولا في جرير والفرزدق والأخطل، ولا في بشار ومروان، ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم: لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه<sup>(٢)</sup>. وسأشبع القول في المفاضلة بين أبي العتاهية وأبي نواس لتضاد مذهبيهما وعناية القدماء بالمفاضلة بينهما في باب الشاعرية إن شاء الله.



---

(١) الموشح، ص ٢٥٠؛ وانظر العمدة، ج ١ ص ٨٥؛ وخاص الخاص؛ ص ٨٤؛ والأغاني، ج ٣

ص ٢٠؛ وزهر الآداب ج ٢ ص ١٣٦.

(٢) الموازنة، ص ٣.

## في بيئة أبي العتاهية

وفيه فصول:

الفصل الأول: في مولده ومنشئه.

الفصل الثاني: في مقامه.

الفصل الثالث: في متقلبه.

الفصل الرابع: في إقليمه.

ووجه الحاجة إلى الكلام على البيئة ما هو مشهور من أن لكل مكان من هذه الأرض تحت هذه الشمس من المقومات والصفات اللازمة لكل ما يحويه من حيوان ونبات وجماد ما يجعل له من الخصائص والمزايا والآثار ما ليس لمكان آخر لا يشبهه في موقعه؛ مع ما يضم إلى ذلك من مظهر المكان وأحواله: بما يحيط به من جبال وبحار أو يهب عليه من رياح، وما يتصل به من أمم أو يطراً عليه من أجناس، مما يجعل لدراسة البيئة مدخلاً أي مدخل في دراسة كل ما تحويه من الكائنات. ولهذا كان على الدارس لسيرة رجل من الرجال أو لأثر من آثاره أن يلم بالحديث عن بيئته — إن لم يستطع أن يلم بها نفسها — ليشركه في بعض ما أحس ورأى، وما خالج فؤاده من الخطرات والأفكار.

\* \* \*



في  
مولده ومنشئه

قال ابن خلكان في تعريفه به : مولده بعين التمر وهي بليدة بالحجاز قرب المدينة ، وقيل انها من أعمال سقي الفرات ؛ وقال ياقوت الحموي في كتابه المشترك : إنها قرب الأنبار والله أعلم<sup>(١)</sup> ؛ أما صاحب شذرات الذهب فقد اقتصر على الأول فجعل مولده عين التمر التي بالحجاز<sup>(٢)</sup> ؛ وضبط ابن خلكان لفظ العيني فقال : بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ، ثم قال : هذه النسبة إلى عين التمر البلدة المذكورة . والظاهر أن الاشتباه ليس قاصراً على مدلول عين التمر : أهو البلدة التي قرب المدينة أم غيرها ؛ وصنيع ابن خلكان ، إذ قدمه وروى مقابله بصيغة التضعيف يدل على ترجيحه له ، بل يتجاوز به إلى الاشتباه في ذات المولود فيه ؛ لأن المشهور الذي لا يعارضه نص تاريخي أن عين التمر مولد جده كيسان ، وهو يتضمن أيضاً أنه ليس البلدة التي بالحجاز ، بل هي التي من أعمال الفرات ، فعن محمد بن سلام قال : وكان محمد بن أبي العتاهية يذكر أن أصلهم من عنزة ، وأن جدهم كيسان كان من أهل عين التمر ، فلما غزاها خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، كان كيسان جدهم هذا يتيماً صغيراً يكفله قرابة له من عنزة فسباه خالد مع جماعة صبيان من أهلها فوجه بهم إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، فوصلوا إليه وبحضرته عباد بن رفاعة العنزي بن

(١) وفيات الأعيان ، ج أول ص ٨٩ .

(٢) شذرات الذهب ، ج ٢ ص ٢٥ .

أسد بن ربيعة بن نزار، فجعل أبوبكر، رضي الله عنه، يسأل الصبيان عن أنسابهم فيخبره كل واحد بمبلغ معرفته، حتى سأل كيسان فذكر له أنه من عنزة. فلما سمعه عباد يقول ذلك استوهبه من أبي بكر، رضي الله عنه، وقد كان خالصاً له فوهبه له فأعتقه فتولى عنزة<sup>(١)</sup>.

وقد صرح بذلك الإمام ابن عبد البر أيضاً فقال: وكان جد أبي العتاهية كيسان من سبي عين التمر، وهو أول سبي دخل المدينة زمن أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، سباهم خالد بن الوليد وقدم بهم على أبي بكر<sup>(٢)</sup>. وليست قصة فتح خالد لعين التمر، وسببه من سبي من أهلها مما يحتاج إلى تحقيق، فهي مذكورة في كتب التاريخ كالأخبار الطوال للدينوري<sup>(٣)</sup>، وفتوح البلدان للبلاذري<sup>(٤)</sup>، وتاريخ الأمم والملوك للطبري<sup>(٥)</sup>؛ ومن تعرض لذلك أيضاً القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج<sup>(٦)</sup>. وكان ذلك الفتح في سنة اثني عشرة. وقد نص المؤرخون على أن خالداً سبى من بعض بيع عين التمر أربعين غلاماً كانوا يتعلمون الإنجيل، منهم آباء طائفة من أعيان المسلمين: كسيرين أبي محمد ويحيى وأنس ومعبد أبناء سيرين ويسار جد محمد بن إسحاق صاحب السيرة؛ وقد سبق من رواية ابن سلام عن محمد بن أبي العتاهية ما ظاهره أن جده كيسان من هؤلاء الغلمان. وقد كاد ابن خلكان يفصح عن هذه الصلة التي بين يسار جد محمد بن أسحق وكيسان جد أبي العتاهية، إذ قال في ترجمة محمد بن أسحق بعد أن ذكر سبي خالد لجده يسار من عين التمر: وقد تقدم الكلام على عين التمر في ترجمة أبي العتاهية<sup>(٧)</sup>. وإذ قد نفينا أن تكون عين التمر مولده فقد حق علينا أن

---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٣.

(٢) الديوان المخطوط.

(٣) الأخبار الطوال، ص ١١٢.

(٤) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٥٦.

(٥) الطبري، ج ٢ ص ٥٧٦.

(٦) كتاب الخراج، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٧) وفيات الأعيان، ج أول ص ٦١٢.



نُشِبَ له مولداً، وإن كان لا يخلو هو الآخر من بعض اضطراب. فقد روى أبو الفرج ببعض طرقه إلى بعض الرواة، قال: وبلده الكوفة وبلد آبائه وبها مولده ومنشؤه وباديته. وعن راو آخر إن أبا العتاهية وإبراهيم الموصلي من أهل المذار جميعاً وأنها قدما إلى بغداد ثم افترقا، فنزل إبراهيم الموصلي ببغداد ونزل أبو العتاهية الحيرة. وعن راوي هذا الخبر نفسه عن الرياشي أنه قال مثله، وأن أبا أبي العتاهية نقله إلى الكوفة؛ فأما الآن له مولدان هما الكوفة أو المذار، ومنشآن هما الكوفة أو الحيرة أوهما جميعاً. ويلاحظ أن أحداً ممن ترجم لأبي العتاهية لم يذكر ما يؤيد أن مولده المذار أو أنه نشأ في غير الكوفة. والظاهر من اقتصار ابن نباتة في سرح العيون<sup>(١)</sup> والعباسي في معاهد التنصيص<sup>(٢)</sup> على التصريح بأن منشأ الكوفة انهما يريدان بالمنشأ ما يعم المولد؛ وقد آن أن نعرف بهذه البلاد.

### المذار:

قال ياقوت في معجم البلدان في الكلام على المذار: في ميسان بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام<sup>(٣)</sup>. وقال ابن خلكان في ترجمة الحسن البصري، رحمه الله: وكان أبوه من سبي ميسان وميسان صقع بالعراق<sup>(٤)</sup>.

### الحيرة:

قال ياقوت: مدينة على خمسة أميال من الكوفة على النجف وعلى ميل من الخورنق (قصر النعمان بن المنذر) والسدير (قصر آخر في وسط البرية التي بينها وبين الشام) كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية، النعمان وآبائه<sup>(٥)</sup>. وفي فتوح

(١) سرح العيون، ص ٣٢٠.

(٢) معاهد التنصيص، ج أول ص ٢٣٦.

(٣) معجم البلدان، لياقوت، ج ٧ ص ٤٣٣.

(٤) وفيات الأعيان، ج أول ص ١٦٠.

(٥) معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٧٦ وما بعدها.

البلدان انها فتحت صلحاً، فتحها خالد بن الوليد، رضي الله عنه<sup>(١)</sup>. وقال  
الآلوسي: الحيرة أرض في العراق فيها بلدة كانت قريبة من الكوفة، أو هي بلدة  
على حافة البادية وحافة سواد العراق، وبعد أن مصر سعد بن أبي وقاص الكوفة  
نقل إليها أهل الحيرة فخربت<sup>(٢)</sup>؛ والظاهر أنها لم تخرب للسبب الذي ذكره، فقد  
ذكر الطبري في أحداث سنة ثمانين ومائة أن الرشيد شخص إليها فسكنها وابتنى  
بها المنازل وأقطع من معه الخطط وأقام بها نحواً من أربعين يوماً<sup>(٣)</sup>؛ فلعل  
الصواب قول ابن حوقل: خف أهلها بعمارة الكوفة<sup>(٤)</sup>؛ ويؤيده ما تفيض به  
أخبار الشعراء العباسيين من أخبار رهبان الحيرة وراهباتها ومنتزهاتها وحاناتها،  
وسيأتي إن شاء الله ذكر بعض ذلك في شعر صاحبي.

### الكوفة:

قال ياقوت: المصر المشهورة بأرض بابل من سواد العراق<sup>(٥)</sup>. وفي الأخبار  
الطوال: أن عمر، رضي الله عنه، كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يضع  
لن معه من العرب دار هجرة، وأن يجعل ذلك بمكان لا يكون بين عمر وبينهم  
بحر فخط الكوفة<sup>(٦)</sup>. وفي مروج الذهب: أن سعداً مصرها سنة خمس عشرة  
ودلهم على موضعها بقبيلة الغساني وقال لسعد: أدلك على أرض ارتفعت عن  
البر وانحدرت عن الفلاة - فدلّه على موضع الكوفة<sup>(٧)</sup>. وروى البلاذري روايتين  
في تاريخ تصديرها غير السالفة: أحدهما أنه سنة سبع عشرة والثانية أنه سنة ثمان  
عشرة<sup>(٨)</sup>، وأن الدال عبدالمسيح بن بقبيلة. وفي كتاب الخراج نحوه عن رجل

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٥٤.

(٢) بلوغ الأرب، للآلوسي، ج ١ ص ٢١٣.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٤٧٠.

(٤) قاموس الأمكنة والباق، لعلي بهجت، ص ١٠٠.

(٥) معجم البلدان، ج ٧ ص ٢٩٤ وما بعدها.

(٦) الأخبار الطوال، ص ١٢٤.

(٧) مروج، ج ١ ص ٢١١، ٢١٢.

(٨) فتوح البلدان، ص ٢٨٤، ٢٨٦.

عباديّ، وزاد في صفتها: وتوسّطت الريف وطمعت في أنف البرية؛ فقليل له: هات. فقال: أرض بين الحيرة والفرات فاخترت الناس الكوفة ونزلوها<sup>(١)</sup>. وفي رواية البلاذري أنهم ارتادوا موضعاً سماه فلم يعجبهم فخرجوا حتى أتوا موضع الكوفة اليوم فانتهوا إلى الظهر وكان يدعى - خد العذراء - بنبت الخزامى والأقحوان والشيخ والقيصوم والشقائق، يعني شقائق النعمان فاخترطوها<sup>(٢)</sup>. وفي شذرات الذهب أن الحجاج سأل ابن القرية عن البلدان والقبائل فوصفها وصفاً رواه أبو الفلاح ومنه قوله في الكوفة: ارتفعت عن حر البحر (ين) وسفلت عن برد الشام وطاب ليلها وكثر خيرها<sup>(٣)</sup>. وروى البلاذري أن سعداً أسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين، على أنه من خرج سهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما؛ فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي<sup>(٤)</sup>، فنستطيع إذاً أن نعين أن منازل عنزة قوم أبي العتاهية في الجانب الغربي من الكوفة لما سيأتي إن شاء الله أن عنزة من نزار؛ وأما كثرة اليمنيين بالنسبة إلى النزاريين فروى البلاذري تحديداً لها عن الشعبي قال: كنا - يعني أهل اليمن، اثني عشر ألفاً وكانت نزار ثمانية آلاف: ألا ترى أنا أكثر أهل الكوفة؟ وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي<sup>(٥)</sup>. وينبغي أن يحمل هذا الإحصاء على نازليها الأوائل لا لقاطنيها في عهد الشعبي، فقد روى البلاذري إحصاء آخر لسكانها العرب أيام زياد بن أبيه وهو معاصر للشعبي بل أقدم منه فكانت المقاتلة ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً<sup>(٦)</sup>. ولهذه الكثرة اليمانية على النزارية أثر في نظرة النحاة إلى الكوفة؛ لأن فصاحة اليمنيين ليست كفصاحة النزاريين. وتبلغ هذه المدينة قمة المجد

(١) كتاب الخراج.

(٢) فتوح البلدان، ص ٢٨٦.

(٣) شذرات الذهب، ج ١ ص ٩٤.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٨٥.

(٥) نفس المصدر.

(٦) البلاذري، ص ٣٥٨.

الشامخ بما رواه البلاذري بعدة طرق: أن عمر، رضي الله عنه، كتب إلى أهل الكوفة، رأس العرب وقال: بالكوفة وجوه الناس. وكتب، إلى أهل الكوفة رأس الإسلام وقال: هم رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار<sup>(١)</sup>. ونسب ياقوت مثل آخر الكلمات لعلي، كرم الله وجهه، فيها وأنه قال: والذي نفسي بيده لينصرون الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما نصر بالحجاز<sup>(٢)</sup>. وقد اتخذها علي، كرم الله وجهه، مقر خلافته، وحين قتل دفن فيها على أرجح الأقوال<sup>(٣)</sup>. وحب أهلها للشيعة وعصيتهم لهم مشهور من قديم؛ وحين تحولت الخلافة عن بني مروان إلى بني العباس كانت فيها البيعة للسفاح وكانت مقر الخلافة الهاشمية لمدة عامين، إذ تحول عنها إلى مدينة الهاشمية التي بناها بضواحي الأنبار وهي غير هاشمية.

وللكوفة من الشهرة العلمية في الفقه والحديث والنحو والقراءة ورواية الشعر والأخبار ما هو قليل المثال؛ وقد أُلّف في تاريخها عدة من المؤلفين ذكرهم السخاوي في كتابه الذي أرخ فيه التاريخ<sup>(٤)</sup>. ومن أنجبتهم الكوفة في الفقه الإمام أبو حنيفة، وفي القراءات والنحو الإمام أبو الحسن الكسائي أحد القراء السبعة، وفي الزهد داود الطائي، وفي الوعظ ابن السماك، وفي الحديث الأعمش، وفي الفقه سفيان الثوري وفي رواية الشعر والأخبار حماد الرواية والمفضل الضبي ومحمد بن السائب الكلبي، ومن شعرائها والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس الشاعر البصري ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني.



(١) البلاذري، ص ٢٩٧.

(٢) معجم الأدباء، ج ٧ ص ٢٩٨.

(٣) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٤٩.

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي، ص ١٢٨.

في  
مقام أبي العتاهية

تحول أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد لمثل ما يرغب فيه الشعراء من جوائز الخلفاء والرؤساء، وكان هذا التحول في خلافة المهدي، ويظهر أنه كان في مبدئها؛ والمهدي تولى الخلافة في سنة ثمان وخمسين ومائة فأبو العتاهية في تحوله هذا يناهز الثلاثين. ويدل على قرب تحوله إليها من تاريخ ولاية المهدي تهنته إياه بالخلافة وتعريضه بولي العهد المخلوع عيسى بن موسى الذي أخره المنصور عن ابنه المهدي قسراً. قال أبو العتاهية:

أنته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها  
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها  
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

ويدل أيضاً عليه ما سيأتي تفصيله من شفاعته للوزير أبي عبيد الله ومبدأ تغير المهدي عليه، كما ذكره الطبري في سنة إحدى وستين ومائة أو قبلها<sup>(١)</sup>.

بغداد:

بغداد اسم قرية فارسية قديمة في الجانب الغربي من دجلة وقع اختيار أبي جعفر المنصور عليها بعد فتنة فتنة من الملاحدة يسمون الراوندية، أتباع أبي مسلم الخرساني، وقد قاتلوا المنصور في الهاشمية قتالاً شديداً فخشي على

(١) الطبري، ج ٦ ص ٣٦٩.

نفسه منها فتحول عنها. وبدأ المنصور في بناء بغداد سنة خمس وأربعين ومائة، وأتمها في سنة ست وأربعين. ومن قول اليعقوبي في وصف بناء المنصور إياها: فوجه في إحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء وقسمة الأرضين حتى اختط المدينة، وأحضر البنائين والفعلة والتجارين والحدادين وكتب إلى كل بلد في حمل من يفهم شيئاً في البناء فحضره مائة ألف من أرباب المهن والصناعات<sup>(١)</sup>؛ ونحوه في تاريخ بغداد وفيه أن المنصور سماها مدينة السلام<sup>(٢)</sup>.

وقال الخطيب: لم يكن لبغداد نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها؛ ثم عد من خصائصها طيب الهواء وعذوبة الماء وبرد الظلال والأفياء واعتدال الصيف والشتاء، وذكر أنها كانت أكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارة المضاجع، دارة المراضع، خصيبة المراتع، مورودة المشارع<sup>(٣)</sup>.

وروي أن محمد بن سلام قال: قال لي شعبة: أدخلت بغداد؟ قلت: لا. فقال: كأنك لم تر الدنيا. وعن آخر، أن محمد بن إدريس سأل بمثله فلما أجابه بأنه لم ير بغداد قال: ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس. وعن آخر وقد سئل عنها: الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها<sup>(٤)</sup>. وروي أن زبيدة قالت لمنصور النعماني: قل شعراً تحب فيه بغداد إلى أمير المؤمنين الرشيد فقد اختار عليها الرفيقة فقال:

ماذا ببغداد من طيب الأفانين      ومن منازل للدنيا وللدين  
تحيي الرياح بها المرضى إذا نسمت  
وجوّشت بين أغصان الرياحين<sup>(٥)</sup>

(١) قاموس الأمكنة، والبقاع الواردة في كتب الفتوح، ص ٥٧.

(٢) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٦٦، ٦٧.

(٣) تاريخ بغداد، ج ١ ص ١١٩.

(٤) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٤٥.

(٥) نفس المصدر، ص ٥١، ٥٢.

ومن ضواحي بغداد المشهورة الرصافة، بناها المنصور المهدي وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً واستتم المهدي بناءها سنة تسع وخمسين ومائة<sup>(١)</sup>. وقد اجتمع على هذه المدينة العظيمة الذكر والأثر في تاريخ الإسلام، والتي اجتمع لها من محاسن الدين ومفاتيح الدنيا - ما لم يجتمع لغيرها من البلدان من المحن والفتن المدمرة ما كان خاتمة هذه الكارثة التتيرية التي أنزلت بأهلها وبآخر خلفاء بني العباس فيها ما يزلزل رواسي الجبال ويفجر صلد الصخور. وقد ألف في تاريخها جماعة من المؤرخين أحصاهم السخاوي، وهم يبلغون أربعة عشر مؤلفاً بعض كتبهم تذييل لبعض<sup>(٢)</sup>. وأعظم هذه المؤلفات وأجمعها تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي. ونظراً لتأخر بناء بغداد إلى سنة خمس وأربعين ومائة فإن المشهورين من علمائها في الفترة التي نصفها يغلب عليهم أنهم طارئون من الأمصار المشهورة كالبصرة والكوفة ومكة والمدينة والفسطاط ودمشق؛ وجميع من سبق ذكره من الأعلام في فصل العلوم والآداب ممن تأخرت وفياتهم عن بنائها قد نزلوها، إلا قليلاً منهم، ففي ذكرهم هناك ما يغني عن ذكرهم هنا إن شاء الله. وقال السخاوي: أول من بث ببغداد الحديث هشام بن عروة وبعده شعبة وهشيم، وكثر بها هذا الشأن فلم تزل معمورة بالأثر والخبر إلى زمن الإمام أحمد وأصحابه<sup>(٣)</sup>.



(١) نفس المصدر، ص ٨٢.

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) الإعلان، للسخاوي، ص ١٣٩.





## في متقلب أبي العتاهية

لما كانت رغبات الشعراء لا تلتزم موضعاً خاصاً كالمنشأ والمقام، وكانت حياتهم تقتضيهم التبعية لبعض الخلفاء أو الرؤساء في الحل والترحال، وكان من شأن مثل هذه الصلات أن تربط الشاعر بروابط من الصداقة الباعثة على التزاور والمودة، إلى أسباب آخر يبعث عليها شغف النفوس ببعض المغاني في بعض البلدان فقد تقلب الشاعر في بلاد عبر ماسلف، على احتمال في بعضها، كما تدل على ذلك أخباره وأشعاره، أما هذه البلاد فهي:

البصرة، والرقعة، وعبادان، وسندان، وواسط.

### البصرة:

البصرة هي أحد المصرين العظيمين اللذين تنتسب إليهما علوم العربية وإليهما تنتهي. وقد سبق من ذكر رواتها وعلمائها ما يدل على هذه المكانة وما يدل على فضلها على الكوفة من جهتي السبق إلى وضع النحو واعتمادها على السماع أكثر من القياس. وقد كان لقربها من البادية عون لها على انتقاء الشواهد وتخير الفصيح. وقد كان فيها المربد، وهو في الإسلام كعكاظ في الجاهلية، تتناقض فيه الشعراء وتخطب الخطباء. ولم تكن البصرة أيام العجم وإنما اختطها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فعن أبي عبيدة: لما نزل عتبة بن غزوان الخيرية كتب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعلمه نزوله إياها وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيه إذا

انصرفوا من غزوهم فكتب إليه أن اجمع أصحابك في مكان واحد، وليكن قريباً من الماء والمرعى، فكتب إليه بصفة أرضها. ومنها: أنها في طرف البر إلى الريف ودونها منافع ماء فيها قصباء. فكتب إليه: أن أنزلها الناس، وذلك في سنة أربع عشرة<sup>(١)</sup>. وقال صاحب القاموس الجغرافي: إن عتبة بعد أن بناها أباح سكانها للعرب فأتوها من كل حذب حتى بلغ عدد الأشراف بها في قليل من الزمن سبعين ألفاً<sup>(٢)</sup>. ومن أئمتها في القراءة أبو عمرو بن العلاء من القراء السبعة، ومن أئمتها في اللغة والنحو والعروض الخليل بن أحمد وفي النحو خاصة سيويه، ومن رواة الشعر خلف الأحمر ومن محدثيها في هذه الفترة حماد بن زيد وحماد بن سلمة ومن شعرائها بشار بن برد وسلم الخاسر وأبو نواس. وقد قصد أبو العتاهية إلى البصرة زائراً لعيسى بن جعفر بن أبي جعفر؛ ويدل على أن ذلك القصد كان من بغداد قوله وقد اعتل بعد إقامة أشهر:

أصبحت بالبصرة ذا غربة      أدفع من هم إلى كربة  
أصلب عتبي من حبيب نأى      وليس لي عتبي ولا عتبة<sup>(٣)</sup>

فإن عتبة هذه جارية المهدي التي ذهبت بشعره كل مذهب في بغداد. وقصدها أيضاً لقثم بن جعفر بن سليمان أمير البصرة يومئذ؛ ويدل على أن القصد كان من الرقة أو من بغداد أيضاً أنه كان ينشده شعره في الزهد<sup>(٤)</sup> وإنما عَرَفَ الزهد في الرقة ثم في بغداد.

### الرقة:

قال ياقوت: الرقة بفتح أوله وثانيه وتشديده، مدينة مشهورة على الفرات من جانبها الشرقي من بلاد الجزيرة، وكان بالجانب الغربي مدينة أخرى تعرف برقة واسط بها قصران لهشام بن عبد الملك على طريق رصافة هشام وأسفل من

(١) فتوح البلدان، ص ٣٥٤ باختصار.

(٢) قاموس الأمكنة والبقاع، ص ٥٣.

(٣) انظر ديوان المعاني، ج ٢ ص ٢٢٧.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٨؛ ومعاهد التنصيص، ج ٢ ص ١٢٤.

الرقعة بفرسخ<sup>(١)</sup>. وهل الرقة هي الرفقة التي تقدم ذكرها؟ هو الذي في القاموس، ولكن ذكر ياقوت أنها بلد متصل البناء بالرقعة وهما على ضفة الفرات بينهما مقدار ثلاثمائة ذراع ثم قال: وقد خربت الرقة وصارت الرفقة هي المدينة التي تسمى الرقة وخلت بعد أيام التتر إلى الآن<sup>(٢)</sup>. ويدل على أن خراب الرقة كان في عهد المنصور ما رواه الطبري في أحداث سنة أربع وخمسين ومائة، قال: في هذه السنة عزم المنصور على بناء مدينة الرفقة، فلما أراد بناءها امتنع أهل الرقة وقالوا: تعطل علينا أسواقنا وتذهب بمعايشنا وتضيّق منازلنا. ثم نزلوا على أمره فوجه ابنه المهدي لبنائها فبناها على بناء مدينة بغداد في سنة خمس وخمسين ومائة<sup>(٣)</sup>. والظاهر مما سلف من قول زبيدة للنمري: قل شعراً تحبب فيه بغداد إلى الرشيد فقد اختار عليها الرفقة، مع ما يذكره المؤرخون كالدينوري<sup>(٤)</sup> وصاحب الشذرات<sup>(٥)</sup> وغيرهما من إثبات الرشيد للرقعة، أن اسم الرقة كان يطلق على الرفقة، فتكون الرفقة ضاحية من ضواحيها كرصافة بغداد وهاشمية الكوفة. ويعني من هذا البلد كل العناية أنّ به كان مبدأ زهد أبي العتاهية في سنة اثنتين وثمانين ومائة على أشهر الأقوال.

### عبّادان:

قال ياقوت: إن دجلة إذا قاربت البحر انفرت فرقتين: فرقة نحو بر العرب، وفرقة نحو سيرا. وعبادان الجزيرة التي بينهما فيها مشاهد ورباطات فيها قوم منقطعون، وذكر ياقوت أسماء طائفة من الزهاد المنسوبين إليها<sup>(٦)</sup>. ويؤخذ من البلاذري أن أول من رابط فيها من المسلمين عبّاد بن الحصين في زمن الحجاج ونسبت إليه، والنسبة هكذا كثيرة بدليل ما ذكره البلاذري في هذا

(١) قاموس الأمكنة والبقاع، ص ١٢٠.

(٢) قاموس الأمكنة، ص ١١٨.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٦ ص ٢٩٧.

(٤) الأخبار الطوال، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٥) شذرات، ج ١ ص ٢٩٣.

(٦) معجم البلدان، ج ٦ ص ٢.

الموضع من أساء الأمكنة وغيرها المضافة إلى أصحابها<sup>(١)</sup>، ونص ياقوت على أن هذه النسبة متعارفة عند أهل البصرة. وفي الديوان: أن بين عبادان والبصرة مرحلة ونصف؛ مما يرجح أن يكون الشاعر قد قصد إليها منها، وقد أثني على أهلها ودعا لهم ووصف حسن حالهم بقوله:

سقى الله عبادان غيثاً مجللاً      فإن لها فضلاً جديداً وأولاً  
وثبت من فيها مقيماً مرابطاً      فما أن أرى عنه لها متحولاً  
إذا جئتها لم تلق إلا مكبراً      تخلى عن الدنيا وإلا مهللاً  
فأكرم بمن فيها على الله نازلاً      وأكرم بعبادان داراً ومنزلاً<sup>(٢)</sup>

سندان:

قال ياقوت: سندان بكسر السين واد في شعر أبي دؤاد الإيادي، وقال: وسندان بفتح أوله وآخره نون مدينة في ملاصقة السند<sup>(٣)</sup>، وفي شعر المتنازع بين أبي العتاهية والعتابي ذكر سندان. وانظاهر أنها هذا الوادي الذي في العراق. قال الحصري: في زهر الآداب وقعت في عسكر المأمون رقعة فيها بيتان لأبي العتاهية:

ما على ذا كنا افترقنا بسندا      ن وما هكذا عهدنا الإخاء  
تضرب الناس بالمهندة البيض      على غدرهم وتنسى الوفاء<sup>(٤)</sup>

واسط:

كان عمرو بن مسعدة صديقاً لأبي العتاهية، فلما بلغ في عهد المأمون إلى رتبة الوزارة سأله أبو العتاهية حاجة فتأخر عنه، فانحدر أبو العتاهية، إلى واسط ولم يعد حتى تغير حال عمرو؛ وسيأتي<sup>(٥)</sup> تفصيل هذه القصة إن شاء الله.

(١) فتوح البلدان، ص ٣٧٦.

(٢) الديوان، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٣) معجم البلدان، ج ٥ ص ١٥٠.

(٤) زهر الآداب، ج ٣ ص ٤٠.

(٥) ذيل زهر الآداب، ص ١٩٢.

قال ياقوت: في عدة مواضع منها واسط الحجاج لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، شرع الحجاج في عمارتها سنة أربع وثمانين وفرغ منها في سنة ست وثمانين. وقال ابن حوقل: تشقها دجلة نصفين وهي أصح هواء من البصرة<sup>(١)</sup>. والظاهر أن هذه هي التي انحدر إليها أبو العتاهية لأنها أشهر ما يطلق عليه اسم واسط.



---

(١) قاموس الأمكنة، ص ٢١٣.



في  
إقليم أبي العتاهية

يقسم القدماء الأرض إلى سبعة أقاليم ويجعلون العراق وجزيرة العرب من الإقليم الرابع<sup>(١)</sup>. ومن خصائص العراق ما يروون أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كتب إلى كعب الأحبار أن يختار له المنازل، فكان في جوابه الذي قسم فيه الأحوال جميعها، خيرها وشرها، على الأقاليم: وقال العلم: أريد العراق فقال العقل: وأنا معك. فقال عمر: فالعراق إذن، فالعراق إذن<sup>(٢)</sup>.

وذكر المسعودي أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار فصنف (لنا) المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها. ثم ذكر المسعودي جواب الحكيم جامعاً لما أراد عمر، رضي الله عنه، من أوصاف البلاد المفتوحة وغيرها مما لم يفتح، ويعيننا ما قاله في وصف العراق قال: وأما العراق فمنار الشرق وصرة الأرض وقلبها، إليه تحادرت المياه وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله، ولطفت أذهانهم، واحتدّت خواطرهم، واتصلت مسراتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم وثبتت بصائرهم؛ وقلب الأرض العراق، وهو المجتبى

(١) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٢٣.

(٢) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٢٥.

من قديم الزمان، وهو مفتاح الشرق، ومسلك النور، ومسرح العينين، ومدنه المدائن وما والاها؛ وأهله أعدل الألوان، وأفضل الأمزجة، وأطوع القرائح، وفيهم جوامع الفضائل؛ وفضائله كثيرة لصفاء جوهره، وطيب نسيمه، واعتدال تربته، وإغداق الماء عليه، ورفاهية العيش به<sup>(١)</sup>. وروى الخطيب لهذا الإقليم الرابع - وذكر أنه يسمى إقليم بابل - طائفة من الأوصاف الراجعة إلى الاعتدال الجسمي لسكانه بالقياس إلى سكان غيره، وذكر أنه اجتمعت فيه محاسن جميع أهل الأقطار، وأضاف إليه أنهم كما اعتدلوا في الخلقة لطفوا في الفطنة والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور<sup>(٢)</sup>.

وأنا لا أعتقد صحة جميع ما ذكره المسعودي في فضل العراق في حقيقته وروايته، ومراجعة جواب الحكيم بطوله فيه تنبؤ عن بعض التزيد والوضع فيه، ففيه ألفاظ فلسفية ليست من ألفاظ صدر الإسلام كالنارية ومناسبة الاعتدال وصفاء الجوهر وغيرها، والمسعودي مغربي لا يتهم بالعصبية للعراق فليكن التزيد في بعض مصادره، وأياً ما كان فأكثر هذه الأوصاف وأشرفها ليست بعيدة عن هذا الإقليم. وقد كان أبو العتاهية أيضاً يعتقد ذلك كالذي رواه المرزباني في الموشح بسنده إلى محمد بن أبي العتاهية أنه قال: أنشدت أبي شعراً من شعري فقال: أخرج إلى الشام. قلت: لم؟ قال: لأنك لست من شعراء العراق، أنت ثقیل الظل، مظلم الهواء، جامد النسيم<sup>(٣)</sup>.



(١) مروج الذهب، ج ١ ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) تاريخ بغداد، ج ١ ص ٢٣.

(٣) الموشح، للمرزباني، ص ٣٧٥.



## في التعريف بأبي العتاهية

وفيه فصول:

الفصل الأول: في جنس أبي العتاهية.

الفصل الثاني: في أسرته وآله.

الفصل الثالث: في اسمه وكنيته ولقبه.

الفصل الرابع: في هيئته وأوصافه وأخلاقه.

الفصل الخامس: في حرفته.

الفصل السادس: في ثقافته وأدبه.

الفصل السابع: في حياته وموته ومدفنه.



في  
جنس أبي العتاهية

سبق في الكلام عن مولده من رواية ابن سلام عن محمد بن أبي العتاهية أن جدهم كيسان كان من أهل عين التمر، فلما غزاها خالد بن الوليد، رضي الله عنه، كان كيسان جدهم هذا يتيمًا صغيراً يكفله قرابة له من عترة، فسباه خالد مع جماعة صبيان من أهلها، فوجه بهم إلى أبي بكر، رضي الله عنه، فوصلوا إليه وبحضرته عباد بن رفاعة العنزي بن أسد بن ربيعة بن نزار، فجعل أبو بكر، رضي الله عنه، يسأل الصبيان عن أنسابهم فيخبره كل واحد بمبلغ معرفته، حتى سأل كيسان فذكر له أنه من عترة، فلما سمعه عباد يقول ذلك استوهبه من أبي بكر، رضي الله عنه، وقد كان خالصاً له، فوهبه له فأعتقه، فتولى عترة<sup>(١)</sup>. ويؤيده ما رواه أبو الفرج بطريق آخر إلى مصعب بن دؤيل: لم أر قط مندل بن علي العنزي وأخاه حيان بن علي غضباً من شيء قط إلا يوماً واحداً دخل عليهما أبو العتاهية وهو مضمخ بالدماء، فقالا له: ويحك ما بالك؟ فقال لهما: من أنا؟ فقالا له: أنت أخونا وابن عمنا ومولانا، فقال: إن فلاناً الجزار قتلني وضربني وزعم أنني نبطي، فإن كنت نبطياً هربت على وجهي وإلا فقوموا فخذوا لي بحقي. فقام معه مندل بن علي وما تعلق نعله غضباً وقال له: والله لو كان حقك على عيسى بن موسى<sup>(٢)</sup> لأخذته لك منه. ومر معه حافياً

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٣.

(٢) ولي العهد ووالي الكوفة آنذ.

حتى أخذ له بحقه<sup>(١)</sup>. ولا تناقض بين هذا الولاء لعنزة وبين قول ابن الأعرابي - حين هجا أبو العتاهية عبد الله بن معن بن زائدة الشيباني -: اعجبوا لعبد يهجو مولاه، وقول راوي الخبر: وكان أبو العتاهية مولى بني شيبان<sup>(٢)</sup> -: فإن شيبان بطن من بطون بكر بن وائل أخي النمر بن قاسط، جد العنزيين، والنمر قبيلة من قبائل ربيعة بن نزار والنمر أخو بكر وتغلب ابني وائل بن قاسط وتنتهي كلها إلى أسد بن ربيعة بن نزار<sup>(٣)</sup>. ويؤيد ما سلف في الروايتين من اجتماع وصفي العربية والولاء لأبي العتاهية وجود هؤلاء العنزيين الذين ينتسب إليهم بعين التمر حين غزاها خالد، فقد روى الطبري أنه حين قصد إلى عين التمر كان فيها جمع عظيم من العرب مع جمع عظيم من العجم، وأن هؤلاء العرب سألو العجم أن يدعوهم لقتال خالد محتجين بأن العرب أعلم بقتال العرب؛ ونص أيضاً على أن هؤلاء العرب هم النمر وتغلب وإياد<sup>(٤)</sup>. وروى البلاذري أن عقة بن قيس بن البشر النمري كان على النمر بن قاسط بعين التمر فجمع لخالد وقاتله فظفر به، فقتله وصلبه<sup>(٥)</sup>. وذكر الطبري نحوها وأضاف إليه ما سلف من أنه كان من سبيه أربعون غلاماً وجدهم في بعض بيعهم يتعلمون الإنجيل<sup>(٦)</sup> وظاهر أن كيسان أحد هؤلاء الغلمان، أما متى رجع آباء أبي العتاهية ومواليه إلى العراق (ليولد فيه) فهذا ما لم أجد نصاً عليه، فقد يكون رجوعهم عند تخطيط الكوفة وإنزال العرب من اليمن ونزار منازلهم فيها في عهد عمر، رضي الله عنه، كما سبق وصفه في الكلام على الكوفة، ولا يعارض عربية أبي العتاهية إلا ما رواه أبو الفرج في ترجمة والبة بن الحباب الشاعر الكوفي وهو عربي صليبة من بني أسد، فقد روي أنه قدم من الكوفة

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٣.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٤.

(٣) نسب عدنان وقحطان للمبرد، من ص ١٥ إلى ١٨.

(٤) الطبري، ج ١ ص ٥٧٠ باختصار.

(٥) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٥٧.

(٦) الطبري، ج ١ ص ٥٧٧.

إلى بغداد فهاجى بشاراً وأبا العتاهية، فهجواه، ففضحاه، حتى هرب إلى الكوفة. وروي من هجاء أبي العتاهية له من قصيدة طويلة:

|                       |                     |
|-----------------------|---------------------|
| أوالب أنت في العرب    | كمثل الشيص في الرطب |
| هلم إلي الموالي الصي  | د في سعة وفي رجب    |
| فأنت بنا لعمر الله    | ه أشبه منك بالعرب   |
| غضبت عليك ثم رأيت     | ت وجهك فانجلي غضبي  |
| لما ذكرتني من لون أجد | دادي ولون أبي       |

وبقية القصيدة في هذا المعنى، وهذا القدر الذي رويته منها رواه الخطيب البغدادي، ثم عقبه بقول راوي الخبر: وكان والبة أشقر اللون، والشعر، أبيض فأخرجه أبو العتاهية بلونه من العرب وأضافه إلى الموالي وعيره بالشقرة، إذ كانت من ألوان العجم دون العرب<sup>(١)</sup>. فدلالة هذا الشعر ظاهرة في أن قائله غير عربي وهو نقيض ما سلف من قول محمد بن أبي العتاهية في نسب أبيه ومن تقرير أبي العتاهية لمدل وحيان العنزيين بنسبه فيهم ليغضبا له، فالظاهر أن هذا الشعر ليس لأبي العتاهية، لأنه إن كان عربياً فلا يزعم أنه أعجمي وإن كان أعجمياً ولا دليل عليه، فليس هو بالذي يصم نفسه بغير ما يجب. ويدل عدم ورود شعر لبشار في هذا المقام، ورواية غير هذا الشعر لأبي العتاهية معه، على أن هذه القصيدة لبشار ويقويه أنه أعجمي بلا ريب وأنه كان يفخر بذلك ولا يدعي أنه من العرب بمثل قوله:

|                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| ألا أيها السائلي جاهداً | ليعرفني أنا أنف الكرم  |
| نمت في الكرام بني عامر  | فروعي وأصلي قريش العجم |

ولا يضعفه نسبة الرؤية إليه، فإنه مجاز أوزعم لا يبعد على مثل بشار، وسنجد، إن شاء الله في الباب التالي، أن بين أبي العتاهية والبة صحبة كوفية

(١) تاريخ بغداد، ج ١٣ ص ٤٨٩.

سابقة ترجع إلى الاشتراك في المنشأ لا يتأتى معها حدوث هذه الرؤية التي جلت ما كان من غضبه .

هذا، والكتاب المعاصرون ليسوا فيه على رأي سواء، فقد جزم المرحوم الأستاذ محمود مصطفى، استناداً إلى ما سبق من رواية الأغاني، بعربيته وبنى عليها بعضاً من دراسته له<sup>(١)</sup>. أما الأستاذ أحمد أمين فقد جزم في كتابه ضحى الإسلام بفارسيته، إذ عده من الفرس الذين أثروا أثراً كبيراً في الثقافة العربية<sup>(٢)</sup>، ومثله فقيد الأدب جرجي زيدان إذ عده من الشعراء الموالي، ثم أشار إليهم بالأعاجم<sup>(٣)</sup> وظاهر صنيع أصحاب المجمل في تاريخ الأدب العربي أنه أعجمي لا عربي، فقد قالوا في ترجمته: ونشأ نشأة عباسية في أسرة من الموالي فقيرة بالكوفة<sup>(٤)</sup>. وقد جرت عادة الأدباء المعاصرين حين يطلقون على الرجل لفظ مولى أو أنه من الموالي أن يريدوا أنه أعجمي لا عربي، فكأن لفظ المولى صار في اصطلاحهم مرادفاً للفظ الأعجمي ومقابلاً للفظ العربي، مع أن معنى لفظ مولى غير خاص بالعجم، فإن سبي الجيوش الإسلامية لنساء المقاتلين من العرب وذرائعهم كثير مستفيض، كما تدل عليه روايات مؤرخي الغزوات والفتوح، وبه يجتمع على المولى وصفاً العربية والولاء أونحو ما سبق من قول مندل لأبي العتاهية: أنت أخونا وابن عمنا ومولانا. كالذي رواه البلاذري من أن خالد بن الوليد وجه وهوبعين التمر النسير بن ديسم بن ثور إلى ماء لبني تغلب فطرقهم ليلاً فقتل وأسر، فسأله رجل من الأسرى أن يطلقه على أن يده له على حي من ربيعة، ففعل، فأقن النسير ذلك الحي، فبيتهم، فغنم وسبى. وكالذي رواه عن ابن الكلبي قال: كان أبو فروة عبدالرحمن بن الأسود ونصير أبو موسى بن نصير عربيين من بلي سببا أيام أبي بكر، رضي الله عنه، من جبل الخليل بالشام، وقال أيضاً: وقد قيل إنها أخوان من سبي

(١) مذكرة العصر العباسي، ص ٤٣٢.

(٢) ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٩٢.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية، لزيدان، ج ٢، ص ٥١، ٦٧.

(٤) المجمل، ص ١٠٠، ط. سنة ٩٣٠.

عين التمر وإن ولاءهما لبني ضبة<sup>(١)</sup>. ومما يدل على وقوع هذا الاجتماع لوصفي العربية والولاء ما رواه القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج في فصل عنوانه: الحكم في المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار. قال: ولو أن المرتدين منعوا الدار وحاربوا سبي نساؤهم وذرايعهم وأجبروا على الإسلام كما سبي أبو بكر، رضي الله عنه، ذراري من ارتد من العرب من بني حنيفة وغيرهم. وكما سبي علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، بني ناجية موافقة لأبي بكر<sup>(٢)</sup>، رضي الله عنه.

أما الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في كتابه (أبو العتاهية، الشاعر العالمي) فقد استظهر ما فر منه أبو العتاهية وكاد يهيم على وجهه لولا أخذ مندل له بحقه، فقال بعد أن ذكر قصة السبي على وجهها المقتضى: إنه عربي من عترة. وكان بنوه يذكرون أنهم منها، يعني عترة، ويكرهون من ينسبهم إلى النبط الذين كانوا يسكنون عين التمر. والظاهر أنهم من النبط لأنهم كانوا يحترفون في الكوفة صنعة الجرار وطبيعة العرب تأبى الاحتراف بمثل هذا<sup>(٣)</sup>. وقد بحث جهدي عن نص يدل على رمي الناس لبني أبي العتاهية أنفسهم بهذا النسب النبطي مع كراحتهم له، فلم أجد، ونقبت أيضاً ما وسعني التنقيب عن نص يدل على أنه كان في مقاتلة عين التمر أوسكانها أو سبيها نبط، فلم أجد. والمشهور في النبط أنهم فلاحو السواد على أن القول بأن العرب ليسوا أهل صناعة خاص بعرب البادية. أما الحضريون كعرب العراق والشام، فليسوا كذلك، إذ لا بد لهم من الخضوع لمقتضيات البيئات التي ينزلونها، وهذا الخضوع مما لا صلاح لهم في خلافه ولا حيلة لهم فيه، واحتلال العرب لكثير من أنحاء العراق وإنشاؤهم ممالك فيه مشهور في كتب التاريخ. وقرأ إن شئت في تاريخ الطبري اجتماع جماعات من قبائلهم بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم أزمان ملوك الطوائف الذين

(١) فتوح البلدان، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) كتاب الخراج، ص ٦٧.

(٣) أبو العتاهية، الشاعر العالمي، ص ٢٩، ٣٠.

فرق الاسكندر بينهم مملكة فارس على غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب من ريف العراق أو مشاركتهم فيه إلى أن تم لهم ذلك، وذكر الطبري أسماء ملوكهم في زمن ملوك الطوائف ومنهم جذيمة الأبرش - صاحب الزباء - قال: وكانت منازلهم في ما بين الحيرة والأنبار وبقعة وهيت وعين التمر وأطراف البر إلى الغمير والقطقطانة وخفية وما والاها<sup>(١)</sup>. ونص ياقوت في نحو هذا النقل عن أبي الكلبى على أن دار مملكة جذيمة الحيرة والأنبار وبقعة وهيت وعين التمر<sup>(٢)</sup>. وذكر الاسكندري أن العرب احتلوا جميع الأراضي التي بين دجلة والفرات حتى سميت العراق العربي<sup>(٣)</sup>، فهل كان هؤلاء جميعاً أهل رحلة في هذا الحل وانتجاع للماء والكلاء في هذا الماء والخصب، أم أن سواد العراق يَسَّر لهم من سبل القرار وأسباب الصناعة ما يباين بينهم وبين إخوانهم من أهل الصحراء وفقاً لأحوال البيئة ومقتضيات الإقليم وإن كان هذا التحول ليس باليسير في أول الأمر كالذي وصفه الطبري مع النقل الأنف من أنهم حين نزلوا العراق نزلوا في المظال والأخبية لا يسكنون بيوت المدر ولا يجامعون أهلها فيها.

وبعد، فإن أشد ما يرمى به أبو العتاهية أن يكون نبطياً؛ وانظر في ذلك وصف مثالب النبط ونظرة العرب إليهم في مثل محاضرات الراغب للأصفهاني<sup>(٤)</sup> وهو كذلك مما لا سند له ولا دليل عليه، والعجب أن يتلمس له هذا النسب مع ما سبق وصفه من غضبه وغضب مندل له وقسمه أن يأخذ له بحقه ولو كان على عيسى بن موسى أمير الكوفة وولي العهد.



(١) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

(٢) معجم البلدان، ج ٤ ص ٣٧٩ في الكلام على الحيرة.

(٣) انتقاد تاريخ آداب اللغة العربية، بقلم الاسكندري، ص ١٥٦.

(٤) محاضرات الأدباء، ج ١ ص ١٩٦.



في  
أسرته وآله

سبق أن أباه القاسم بن سويد بن كيسان، وأن كيسان هو أحد الغلمان الذين سباهم خالد بن الوليد، رضي الله عنه، وأعتقه عباد بن رفاعه العنزي بعد أن استوهبه من أبي بكر، رضي الله عنه، ولا خلاف في اسم أبيه إلا فيما رواه ابن عبد البر من قول بأنه إسحاق أو إبراهيم<sup>(١)</sup>. وروى أبو الفرج بسنده إلى الخليل بن أسد أن أباه كان حجاماً من أهل ورجة، قال: ولذلك يقول أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هو العز والكرم

وحبك للدينا هو الفقر والعدم

وليس على عبد تقي نقيصة

إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم<sup>(٢)</sup>

ويأتي إن شاء الله في الكلام على حرفة أبي العتاهية استظهار أن مثل هذا الوصف لا يقصد به إلا تحقير أبي العتاهية وهو أيسر ما لقيه من الناس. وقد ألزمني نهجي في البحث أن أعرف بورجة الواردة في هذه الرواية على أنها بلدة أبيه فلم أجد لها ذكراً في المعاجم ولا كتب الفتوح وأقرب ما وجدته صالحاً لأن تكون الكلمة محرفة عنه هو الولجة والولجة: كما ذكر ياقوت بأرض كسكر

(١) الديوان المخطوط.

(٢) الأغاني، ج ٢ ص ١٢٤.

موضع ممالي البر واقع فيه خالد بن الوليد جيش الفرس فهزمهم في صفر سنة اثنتي عشرة؛ ثم عرف بها ثانية فقال: والولجة موضع بأرض العراق عن يسار القاصد إلى مكة من القادسية<sup>(١)</sup> وفي تاريخ ابن جرير قصة فتحها بعد فتح المذار<sup>(٢)</sup>.

أمه:

روى أبو الفرج أنها أم زيد بنت زياد المحاربي مولى بني زهرة وروى أبياتاً لأبي قابوس النصراني يشتم فيها أبا العتاهية ويذكر أم زيد وسيأتي إن شاء الله بعض هذه الأبيات في كنيته ولقبه. وسيأتي أيضاً إن شاء الله أن لأبي العتاهية أخاً يسمى زيداً، فالظاهر أن أم زيد ليس اسم أمه بل كنيته بأخيه زيد، وأنا أرجو أن يفتح الله بعض مغالقات هذا البحث بأن تكون أم زيد هذه أخت الخليل بن زياد المحاربي الخواصي الكوفي ثم الدمشقي<sup>(٣)</sup> وعمّة أبي محمد الكوفي عبدالرحمن بن محمد بن زياد المحاربي<sup>(٤)</sup>؛ ومحارب كما في القاموس قبيلة. وروى أبو الفرج عن محمد بن موسى قال: .. فولد أبي العتاهية من قبل أبيه لعنزة ومن قبل أمه لبني زهرة ثم لمحمد بن هشام بن عتبة بن أبي وقاص وكانت أمه مولاة لهم<sup>(٥)</sup>. والظاهر أن هذا الولاء قد انتقل إلى بني زهرة من محارب وبنو زهرة على ما في «الإنباه على قبائل الرواة» لابن عبدالبر هم بنو زهرة بن كلاب فصيلة من قريش منهم سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف، رضي الله عنهما<sup>(٦)</sup>.

(١) معجم البلدان، ج ١ ص ٤٣٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٥٥٨.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج ٥ ص ١٧٤؛ وتهذيب التهذيب، لابن حجر، ج ٣ ص ١٦٧.

(٤) تهذيب التهذيب، ج ٦ ص ٢٦٥/٢٦٦؛ وخلاصة تهذيب الكمال، للخزرجي، ص ٩١؛ والخلاصة، ص ١٩٨.

(٥) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٤.

(٦) الإنباه على قبائل الرواة، لابن عبدالبر، ص ٧١.

## أخوه:

لم أجد ذكراً لإخوة له إلا ما رواه أبو الفرج في أمر حرفته من أن له أخاً يسمى زيداً<sup>(١)</sup> ويظهر أنه أكبر منه لتكنية أمه به.

## زوجه:

روى الخطيب البغدادي في ترجمته لمحمد بن أبي العتاهية أن أمه هاشمية بنت عمرو اليماني مولى لمعن بن زائدة.

## آل أبي العتاهية:

بهذا العنوان عنون ابن النديم في الفهرست للشعراء من ولد أبي العتاهية فقال: وقد تقدم ذكر أبي العتاهية ونحن نذكر هنا من كان من ولده وولد ولده شاعراً. فمنهم محمد بن أبي العتاهية ويكنى أبا عبدالله وكان ناسكاً ويلقب بعتاهية<sup>(٢)</sup>.

ومما يثير الأسف انقطاع الكلام في الفهرست عند هذا الحد بما صنعت به يد الأيام، ويعيننا من هذه البقية ما تضمنته من مغزى عظيم إذ نهتنا إلى عراقه بني أبي العتاهية في الشعر؛ وقد جمعت من متفرقات الأخبار ما تيسر من أسماء أولاده مع ما وجدته لبعضهم من ترجمة وهو محمد بن أبي العتاهية.

## محمد بن أبي العتاهية:

قال ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء في ترجمة أبي العتاهية: وكان له ابن شاعر ناسك<sup>(٣)</sup>؛ وذكره أبو الفرج في الأغاني فقال: وكان له ابن يقال له محمد وكان شاعراً<sup>(٤)</sup>؛ وترجم له المرباني في معجم الشعراء<sup>(٥)</sup> والخطيب البغدادي عن

---

(١) الأغاني، ص ٣، ١٢٥.

(٢) الفهرست، ص ٢٣٠.

(٣) الشعر والشعراء، ص ٣٠٩.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٣، ١٦٤.

(٥) معجم الشعراء للمرباني، ص ٤٣٢، ٤٣٣.

المرزباني وغيره بوفاء قال الخطيب في ترجمة له: كنية محمد أبو عبدالله ويلقب عتاهية، وكان شاعراً أيضاً حذا طريقة أبيه في القول في الزهد وحدث عن هشام بن محمد الكلبي، روى عنه أحمد بن أبي خيثمة، وأبو بكر بن أبي الدنيا، وأبو العباس المبرد، وإبراهيم بن إسحاق الحربي؛ ثم روى له من قوله:

قد أفلح الساكت الصموت      كلام راعي الكلام قوت  
ما كل نطق له جواب      جواب ما يكره السكوت  
يا عجباً لامرئ ظلوم      مستيقن أنه يموت

وروى له بسنده إلى ابن أبي الدنيا، قال: أنشدني ابن أبي العتاهية:  
لربما غوفص ذو شره      أصح ما كان ولم يسقم  
يا واضع الميت في قبره      خاطبك اللحد فلم تفهم  
وبسنده إلى المبرد قال، أنشدنا عتاهية ابن أبي العتاهية:

يا لاهياً مقبلاً على أمله      وطرفه للفناء في عمله  
كم لذة لامرئ يسر بها      لعلها منه منتهى أجله

وبسنده إلى إبراهيم الحربي أنه أنشد له:

علل المريض من المنية      لا يعالجها الطبيب  
إن الذي ذهب أهله      وبقي لها هو الغريب<sup>(١)</sup>

وسنوي له قريباً مرثية له في أبيه ثم تذكره في الخاتمة في الكلام على الزهد والحكمة إن شاء الله؛ وقد سبق في الكلام على العراق ما كان من أمره مع أبيه إذ أمره بأن يخرج إلى الشام لأنه ليس من شعراء العراق، إلى آخر ما نقده به؛ ونظيره ما رواه الحصري في زهر الآداب قال: دخل أبو العتاهية على ابنه محمد وقد تصوف فقال: ألم أكن قد نهيتك عن هذا؟ فقال: وما عليك أن أتعود

(١) تاريخ بغداد، ج ٢ ص ٣٤ إلى ص ٣٦.

الحير، وأنشأ عليه؟ فقال: يا بني يحتاج التصوف إلى رقة حال وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقیل الظل مظلم الهواء، راكد النسيم، جامد العينين، فأقبل على سوقك فإنها أعود عليك<sup>(١)</sup>. وكان محمد بزازاً.

### بعض أولاده:

ذكر ابن عبد ربه في العقد أن أبا العتاهية قال عند دفنه ولدأ له:

كفى حزناً بدفنك ثم أني  
نفضت تراب قبرك من يديا  
وكانت في حياتك لي عظات  
فأنت اليوم أوعظ منك حيا<sup>(٢)</sup>

وهو دليل على أن لأبي العتاهية ولدأ آخر غير محمد، فإن محمداً عاش بعد أبيه وراثه كما سيأتي، ويلاحظ أن جميع رواة هذا الشعر لا يذكرون إلا أنه في صديقه علي بن ثابت، وسيأتي تفصيله في باب المعاني إن شاء الله؛ لكن طابع الديوان يقول: عند راوية الأبيات التي منها البيتان (قلنا، وقد روى كثيرون هذه الأبيات له في رثاء صغير له) والعجب له أنه يروي مع البيتين ما يعين أنها في صديقه علي كقوله في مطلعها:

ألا من لن يأنسك يا أخيا  
ومن لي أن أبثك ما لديا

وفي ختامها:

بكيترك يا علي بدمع عيني  
فلم يغن البكاء عليك شيئاً<sup>(٣)</sup>

(١) زهر الآداب، ج ٣ ص ٢٣٧.

(٢) العقد، ج ٣ ص ١٩٦.

(٣) الديوان، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

## بناته:

لله وبالله ورقية... قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء: وحدثني شيخ من قدماء الكتاب أنه كان له ابنتان، يقال لإحدهما: لله. وللأخرى: بالله. ورأيته يستعظم ذلك<sup>(١)</sup>. وروى أبو الفرج نحوه مسنداً إلى عمر بن شبة ثم قال: فخطب منصور بن المهدي لله فلم يزوجه وقال: إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية، وكأني به قد ملها فلم يكن لي إلى الانتصاف منه سبيل، وما كنت لأزوجها إلى بائع خزف وجرار ولكني أختاره لها موسراً<sup>(٢)</sup>. والسر أنه كان جراراً كما سيأتي في حرفته. أما رقية فقد ورد ذكرها فيما رواه أبو الفرج قال: قال أبو العتاهية لابنته رقية في علته التي مات فيها: قومي يا بنية فاندبي أباك بهذه الأبيات فقامت فندبته<sup>(٣)</sup>. وسنذكر هذا الشعر في وفاته إن شاء الله.

## حفيده:

هو أبو سويد عبدالقوي بن محمد بن أبي العتاهية فمن يذكره في الرواية عن أبيه عن جده.



---

(١) الشعر والشعراء، ص ٣٠٩.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٣.

(٣) نفس المصدر، ص ١٧٥.

في  
اسمه وكنيته ولقبه

اسمه:

المشهور في اسمه هو ما سلف عن غير مصدر من أنه إسماعيل ولا خلاف فيه إلا ما ذكره ابن عبد البر من قوله بعد أن ذكر اسمه وأسماء آبائه على الوجه المشهور: هذا هو الأكثر في اسمه واسم أبيه، وقد قيل: اسمه إبراهيم ابن إسحاق.

كنيته ولقبه:

لإسماعيل بن القاسم كنيان ولقب: الكنية الأولى: أبو إسحاق. وقد تدل على أن له ابناً يسمى إسحاق وقد لا تدل؛ فإن من عادة العرب أن يكنوا أبناءهم وبناتهم تفاؤلاً أن يكون لهم أولاد، كقول الأول غزلاً فيمن اسمها أم عمرو:

لها كنية عمرو وليس لها عمرو

الكنية الثانية: أبو العتاهية. ويظهر أنها حدثت له بولادة ابنه محمد لتلقيه بعتاهية كما سبق عن المرزباني والخطيب؛ ومن الدلائل عليه ما رواه أبو الفرج من أنه يقال: أبو عتاهية - بإسقاط الألف واللام<sup>(١)</sup>؛ ويدل على حدوثه له ما رواه لأبي قابوس النصراني وقد بلغه أن أبا العتاهية فضل عليه العتابي:

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٣.

قل للمكني نفسه متخيراً بعتاهيه  
والمرسل الكلم القبيح وعته أذن واعيه

وذكر أمه زيد في سائر الأبيات كما سلفت الإشارة إليه<sup>(١)</sup>. وما رواه  
لؤالبه بن الحباب فيه وكان يهاجيه كما سبق في الكلام على جنسه:

كان فينا يكنى أبا اسحق وبها الركب سار في الآفاق  
فتكنى مُعْتَوْتَهَا بعتاه يا لها كنية أتت باتفاق

وقد وصفه خزيمة - وسيأتي أنه من أمراء الدولة لهجائه إياه بما يستحقه،  
وسيأتي خبره في الباب الرابع - بالعتة، فالهجاء هو الذي حمل والبة على أن يأخذ  
من عتاهية وصفاً من العتة يهجو به صاحبه، كما هي عادة كثير من الشعراء في  
استنباط أوصاف الذم وتلمس معاني الهجاء. ومثله من صنع غير الشعراء نثر  
خزيمة له بالعتة إذ هجاه، وبصنع والبة وخزيمة اجتمع لهذا اللفظ أنه كنية ولقب.  
أما أنه كنية فلتصدره بلفظ أب وأما أنه لقب فلتضمنه معنى الذم، ثم أخذت  
الروايات تؤيده فقال الخطيب البغدادي: وأبو العتاهية لقب لُقِّبَ به لاضطراب  
كان فيه. وقيل بل كان يحب المجون والخلاعة فكني لعتاه أبا العتاهية<sup>(٢)</sup>. وفسره  
ابن جني في المبهج فقال: العتاهية من التعتة وهو التحسن والتزين. قال رؤية:  
بعد لجاج ما يكاد ينتهي عن التصابي وعن التعتة

ثم قال: وكأن العتاهية مصدر كالكراهية وأجازوا فيه العتاهية  
كالكراهية<sup>(٣)</sup>. وقال صاحب القاموس: وأبو العتاهية لقب أبي إسحاق  
إسماعيل بن أبي القاسم (كذا) بن سويد لا كنيته ووهم الجوهري.

فقد صار بنا والبة وخزيمة إلى ما ترى من مزاحمة الكنية باللقب ثم توهيم  
الجوهري مع أن في شعر أبي قابوس جعلها كنية فحسب ولا ينفى فيها شعر والبة،

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٢.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٠.

(٣) المبهج، ص ٦٠، ٦١.



فالظاهر أن الواهم صاحب القاموس وأنه لا يعرف أبا العتاهية كما يعرفه الجوهري وكيف لا وهو ابن القاسم لا ابن أبي القاسم كما ذكر. والظاهر أيضاً أنه مغتر بظاهر قول الحصري في كتابه «الجواهر في الملح والنوادر» عند الكلام على نسبة بيت ذكره:

هذا البيت لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم ويكنى بأبي إسحاق وأبو العتاهية لقب<sup>(١)</sup> - مع أنه قد يكون من باب الاكتفاء بأحد وصفي اللفظ؛ والعجب من الخطيب - وهو الذي وفي ترجمة محمد بن أبي العتاهية وذكر أن لقبه عتاهية - أن ينسى كنية أبيه به وينساق إلى ما انساق إليه.

وقال أبو عبيد البكري في كتابه «سمط اللآلي على آمالي القالي»: لقب أبا العتاهية، لأن المهدي قال له يوماً: أنت إنسان متحذلق متعته، فاشتقت له من ذلك كنية غلبت عليه<sup>(٢)</sup>، وهو من رواية لابن عبد البر<sup>(٣)</sup>، ورواها أبو الفرج<sup>(٤)</sup>. والظاهر أنها لا أصل لها وأن الأمر لا يعدو التكنية بابنه وتأويل مثل والبة لها بمعنى اللقب. والتسمية بعتاهية دون ملاحظة لهذا المعنى معروفة، فمن ولادة بني مروان على مصر حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية الكندي<sup>(٥)</sup>؛ ومن سمي بهذا الاسم جد أبي بكر بن دريد فهو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية<sup>(٦)</sup>.

هذا وقد روي لأبي نواس وإبراهيم بن المهدي شعر يسميان فيه أبا العتاهية عتاهية بلا إضافة لفظ أب إليه، فالظاهر أنه من إطلاق أخص جزأي الكنية عليها، كالذي سبق من قول الأول:

لها كنية عمرو وليس لها عمرو

(١) ذيل زهر الآداب، ص ١٩٠.

(٢) سمط اللآلي، النصف الأول، ص ٥٥١.

(٣) في الديوان المخطوط.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٣.

(٥) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٣ ص ١٤١.

(٦) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٦٢٩.

إن قرئت كنية بالرفع، قال أبو نواس:  
أتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي<sup>(١)</sup>  
وقال ابن المهدي في مطلع قصيدة:  
إن المنية أمهلتك عتاهي...<sup>(٢)</sup>



---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٠.  
(٢) القصيدة في الأوراق للصولي، ص ٤٧، ٤٨؛ والأغاني، ج ٣ ص ١٧٠، ١٧١.

في  
هيئته وأوصافه وأخلاقه

هيئته وأوصافه :

روى أبو الفرج بطريقه إلى محمد بن موسى قال: كان أبو العتاهية نظيفاً أبيض اللون أسود الشعر، له وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة<sup>(١)</sup>. ونقل من كتاب هارون بن علي مسنداً إلى شبيب بن منصور أنه كان واقفاً في الموقف على باب الرشيد فإذا رجل بشع الهيئة على بغل قد جاء؛ فسأل عنه، فقيل: أبو العتاهية<sup>(٢)</sup>. ويؤيده ما رواه المبرد في الكامل أن المهدي حين أراد أن يدفع عتبة إلى أبي العتاهية - وسيأتي قصصهما - جزعت وقالت: يا أمير المؤمنين أتدفعني إلى رجل قبيح المنظر؟ - مع كلام سيأتي في حرفته<sup>(٣)</sup>. ويؤيده أيضاً ما رواه المسعودي في مروج الذهب قال:

وكان أبو العتاهية قبيح الوجه مليح الحركات حلو الإنشاد شديد الطرب<sup>(٤)</sup>. فالأخبار متظاهرة كما ترى على خلاف الأول. وروى أبو الفرج لنا بسنده إلى المعلي بن أيوب هيئة أبي العتاهية وهو شيخ هرم في عهد المأمون قال: دخلت على المأمون يوماً وهو مقبل على شيخ حسن اللحية خضيب شديد

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٥.

(٢) نفس المصدر، ص ١٥٧.

(٣) الكامل للمبرد، ج ٢ ص ١١.

(٤) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٦٠.

بياض الثياب على رأسه لاطئة، فقلت للحسن بن أبي سعيد، كاتب المأمون على العامة: من هذا؟ فقال: هذا أبو العتاهية<sup>(١)</sup>. وسيأتي أن المأمون كان يستنشده في هذه الجلسة أحسن ما قال في الموت وهو القصيدة التي مطلعها:

أنساك محياك المماتا فطلبت في الدنيا الثباتا

### أخلاقه:

ليس من الميسور وصف أخلاق أبي العتاهية على وجه التفصيل لأنه من الشعراء الذين لا تعرف حقائقهم إلا بما يعرضون في أشعارهم من صور نفوسهم، وليس هذا مقام دراسة هذا الشعر، بل مقامه الباب التالي، إن شاء الله، ولكن لهذه الدراسة خلاصة مجملة تصور لنا أخلاق الرجل صورة مقارنة وهي أنه نشأ نشأة أمثاله من شعراء عصره، حريصاً على الدنيا شديد الرغبة فيها، ثم انتهى إلى ما لم ينته إليه إلا القليل من أمثاله من قناعة عظيمة وترفع شريف. ولما كانت الرغبة أصلاً لكثير من مساوئ الأخلاق فنستطيع أن نقول إنه كان في طوره الأول شاباً ماجناً مسرفاً على نفسه متبعاً لهواه، نكد الأخلاق كدر الطباع؛ ولما كانت القناعة أصلاً لكثير من مكارم الأخلاق فقل ما شئت: في جد بعد هزل، واستقامة غب عوج، وصفاء مشارب ونقي موارد وشريف مقاصد ومذاهب وطهارة سجايا ونبل غايات؛ وبين يديك من هذه الأوصاف في القسم الثاني من الباب التالي ما هو الحبيب إليك والأثير عندك إن شاء الله.



---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٦.

في  
حرفته

حرفته :

قال ابن قتيبة: كان جرّاراً<sup>(١)</sup>. وقال المسعودي: وكان بائع جرار<sup>(٢)</sup>. وقال الخطيب في ترجمته: الجرّار<sup>(٣)</sup>. وروى أبو الفرج بسنده إلى الخليل بن أسد أنه كان يأتي إليهم فيستأذن ويقول: أبو إسحاق الخزاف<sup>(٤)</sup>. وعن خيار الكاتب: كان أبو العتاهية وأهله يعملون الجرّار الخزف<sup>(٥)</sup>. وعن النوشجاني قال: أتاني البواب يوماً فقال أبو إسحاق الخزاف بالباب فقلت: إئذن له، فإذا أبو العتاهية قد دخل<sup>(٦)</sup>. ومما رواه المبرد من قول عتبة حين أراد المهدي أن يدفعها إليه: أتدفعني إلى رجل قبيح المنظر بائع جرار<sup>(٧)</sup>. وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن موسى أنه كان له عبيد من السودان ولأخيه زيد أيضاً عبيد منهم يعملون الخزف في أتون لهم، فإذا اجتمع منه شيء ألقوه إلى أجير لهم يقال له أبو عباد البيزدي من أهل طاق الجرّار بالكوفة فيبيعه ويرد فضله إليهم.

(١) الشعر والشعراء، ص ٣٠٩.

(٢) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٤٠.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٦٠.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٤.

(٥) نفس المصدر، ص ١٢٣.

(٦) نفس المصدر، ص ١٢٦.

(٧) الكامل، للمبرد، ج ٢ ص ١١.

وقيل، : بل كان يفعل ذلك أخوه زيد لاهو، وسئل عن ذلك فقال: أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة — وبطريقه إلى عبد الحميد بن سريع قال: أنا رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتي إليه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها<sup>(١)</sup>. ويسنده إلى محمد بن عبد الجبار الفزاري قال: اجتاز أبو العتاهية في أول أمره وعليه قفص فخار يدور به في الكوفة ويبيع منه، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع القفص عن ظهره ثم قال: يا فتيان أراكم تتذاكرون الشعر فأقول شيئاً منه فتجيزونه، فإن فعلتم فلکم عشرة دراهم وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم، فhezثوا منه وسخروا به وقالوا: نعم، قال: لا بد أن يشتري بأحد القمرين رطب يؤكل فإنه قمر حاصل، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ففعلوا فقال: أجزوا: ساكني الأحداث أنتم.. وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع، إذا بلغته الشمس ولم يجيزوا البيت غرموا الخطر.. وجعل يهزأ بهم وغمه:

مثلنا بالأمس كنتم...  
ليت شعري ما صنعتم...  
أربحتم أم خسرتم...

قال أبو الفرج: وهي قصيدة طويلة في شعره<sup>(٢)</sup>. ومجمل هذه الأنباء أنه صانع جرار أو بائعها أو أنها يصنعها عبيد له ولأخيه زيد ويبيعها أجير لهم اسمه أبو عباد؛ أو أن الجرار أخوه زيد لاهو؛ وهذا كله على تفاوته يكاد ينبىء عن عمل أهله في الجملة.

وروى أبو الفرج بطريق الصولي مسنداً إلى العباس بن رستم قال: كان حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففرع من ذلك وقعد حجاً<sup>(٣)</sup> — وهو مردود بهذه المخالطة التي تكاد تكون تامة بخلفاء بني العباس، من

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٥.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٤؛ الديوان، ص ٢٤٦.

(٣) نفس المصدر.

المهدي إلى المأمون، فكيف يمكن معها ومع منزلته الملحوظة عندهم ذلك التخفي؟  
على أن الكلام في زندقته مردود من أصله وموعدنا به الباب الرابع إن شاء الله .  
وكما تفرع على نيز والبة وخزيمة له بالعتة تفسيرات وأخبار فكذلك بُني  
على مثل هذا الخبر قصص وأخبار يذهب بها واضعوها مذهب التندر والسخرية  
به . روى الخطيب بسنده إلى الرياشي قال : أقبل أبو العتاهية ومعه سلة محاجم  
فجلس إلينا وقال : لست أبرح أو تأتوني بمن أحجمه . فجئنا ببعض عبيدنا  
فحجمه ثم أنشأ يقول :

ألا إنما التقوى هي العز والكرم  
وحبك للدنيا هو الذل والعدم  
وليس على عبد تقي نقيصة  
إذا صحَّح التقوى وإن حاك أو حجم<sup>(١)</sup>

ويروى مكان العدم السقم . وانظر مع هذا الخبر ما رواه أبو الفرج بسنده  
عن الخليل بن أسد في حرفة أبيه مع الاستظهار بنفس البيتين . وروى أبو الفرج  
بسنده إلى أبي دعامة علي بن يزيد قال : أخبر يحيى بن خالد أن أبا العتاهية قد  
نسك وأنه جلس يحجم الناس للأجر تواضعاً بذلك فقال : ألم يكن يبيع الجرار  
قبل ذلك؟ فقيل له : بلى ، فقال : أما في بيع الجرار من الذل ما يكفيه ويستغني  
به عن الحجامة؟<sup>(٢)</sup> . وظاهر من هذا الخبر أن المراد الاستهزاء بنسكه ، كما كان  
ظاهراً مما قبله الطعن في دينه ، وقد تجرَّ إلى ذلك خصومة مذهبية بينه وبين المعتزلة  
سيأتي بعض خبرها في الباب الرابع في حوار بينه وبين ثمامة بن أشرس إن شاء  
الله . فقد روى أبو الفرج ببعض طرقه أن بشر بن المعتمر قال يوماً  
لأبي العتاهية : بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ،  
أ كذلك كان؟ قال : نعم ، قال له : فما أردت بذلك؟ قال : أردت أن أضع من

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٥ .

نفسى حسبما رفعتني الدنيا، وأضع منها ليسقط عنها الكبر وأكتسب بما فعلته الثواب، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة. فقال له بشر: دعني من تذليلك نفسك بالحجامة فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك. ثم أخذ يستخبره عن أمور من قوانين هذه الحرفة تدل على أنه إن ساغ أن يكون أحد الرجلين حجاماً فهو بشر لا أبو العتاهية، أو هو أحد هؤلاء الذين ينتظمهم سند أبي الفرج إلى بشر<sup>(١)</sup>. ولا ينبغي أن أنتهي من هذا المبحث حتى أبين سر تمثيل أبي العتاهية في بيتيه بالحياكة والحجامة فإنه راجع إلى أن التقوى لا يضر معها شيء مهما بلغ من الضعة وسوء المنزلة: وقد دل على ضعة الحجامة قول أبي هلال العسكري يذم أهل زمانه ويشكو سوء حاله:

إذا كان مالي مال من يلقط العجم  
وحالي فيكم حال من حاك أو حجم  
فأين انتفاعي بالأصالة والحجا  
وما ربحت كفي على العلم والحكم  
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي  
فلا يلعن القرطاس والجبر والقلم

ودلّ على ضعة الحرفتين معاً قول كعب الأشقري للحجاج يصف له شدة محاربة الخوارج للمهلب: والله لقد وددت في بعض ما شهدته في تلك الحروب وأزماتها أن أنجو منها وأكون حجاماً أو حائكاً<sup>(٢)</sup>. أما حقارة الحياكة خاصة فقد روى فيها صاحب «شذرات الذهب» ما يبلغ بها مبلغ العدم؛ قال: كان الأعمش المحدث مزاحاً فقال له حائك: ما تقول في شهادة الحائك؟ فقال: تقبل مع عدلين<sup>(٣)</sup>. حتى إذا ما انتهى أمر الحاكة إلى الجاحظ — وهو كما وصفه ابن قتيبة

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٨.

(٣) شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٢١.



أشد المتكلمين تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر<sup>(١)</sup> — سلك بهم هذا المسلك فقال: والحاقة أقل وأسقط من أن يقال لهم حمقى؛ لأن الأحق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطأ فاحش، والحائك ليس عنده صواب جيد في فعال ولا مقال<sup>(٢)</sup>. ومرادي من هذا النقل والذي قبله تصوير أمرين:

#### □ الأمر الأول:

هذه الهوة السحيقة التي أراد أعداء أبي العتاهية أن يهوا بها فيها إذ جعلوا الحجامة حرفة له أولأبيه أو لكليهما.

#### □ الأمر الثاني:

بيان مراد الشاعر في البيتين وهو أنه لا نقص مع التقوى، وأنها الكرم التام والعز الكامل. واقرأ إن شئت بيتيه لترى ثباتهما في هذا المقام واطمئنانهما فيه بمقدار ما كانا، على ما يقولون، في مقام ليس فيه من اطمئنان ولا قرار:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم

وحبك للدنيا هو الذل والعدم

وليس على عبد تقي نقيصة

إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

□ □ □

---

(١) تأويل مختلف الحديث، ص ٧١.

(٢) البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٠٩.



## في ثقافته وأدبه

### ثقافته :

يدل شعر أبي العتاهية على ثقافة جامعة لصنوف الحكم وضروب الآداب، فهو كثير الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهو كثير الأخذ من الآثار والأخبار لا يقتصر على نوع منها بل يعم كل ما يصلح للأخذ من المواعظ الدينية، إسلامية أو غير إسلامية، وما يسلسل لذلك من الحكمة العربية والأعجمية، فارسية أو هندية أو يونانية. ويجهد المطلع نفسه ليجد لهذا الرجل نظيراً في كثرة الاقتباس والأخذ فلا يجده، فيعتقد اعتقاداً جازماً أنه أمام علم مفرد ونسيج أوحده، أمام عالم الشعراء وشاعر العلماء؛ ويدهي أن يكون كذلك، فإن الزهد والحكمة - وهو أخص الشعراء بهما وهما أخص أنواع الشعر به - أمسُّ الفنون بالعلم، بل لا قوام لهما إلا به ولا يستطيعان بسواه.

ويدلنا على أنه كان حافظاً للقرآن الكريم هذا الخبر الذي ورد في الأغاني عن مخارق قال: لما تنسك أبو العتاهية ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعراً في الغزل؛ فلما رفعت المقارع عنه قال أبو العتاهية: كل مملوك له حر وامراته طالق ان تكلم سنة إلا بالقرآن أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله<sup>(١)</sup>. ويدلنا على صلته بأهل الحديث علمه بما يعجبهم من أنواع الشعر وعبارته إذ يقول: إن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٥.

وهو مذهب أشغف الناس به، الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء والعامة،  
وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه<sup>(١)</sup> وينبىء عن مجالسته الشيوخ وسماعه منهم  
قوله:

قد سمعنا الوعظ لو ينفعنا      وقرأنا جل آيات الكتب<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

مالي رأيت بني الدنيا وإخوتها      كأنهم لكلام الله ما درسوا<sup>(٣)</sup>  
ويدل على صلته الوثيقة بمواعظ الوعاظ في عصره وهم كثيرون ما روي  
من أن منصور بن عمار لما قص على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية:  
إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي<sup>(٤)</sup>. وسيأتي في الباب الرابع ما يتعلق  
بهذه القصة ومن مظاهر تأثره بالروح العلمي قوله:

وإن لكل تلخيص لوجها      وإن لكل مسألة جوابا<sup>(٥)</sup>  
وقوله للرشييد:

لك اسمان شقا من رشاد ومن هدى

فأنت الذي تدعى رشيداً ومهدياً

ومن أدلة علمه واشتغاره به ما رواه أبو الفرج ببعض طرقه أنه لما مات  
أبو عيسى بن الرشييد وجد عليه المأمون وجداً شديداً حتى امتنع من النوم  
ولم يطعم شيئاً، فدخل عليه أبو العتاهية فقال له المأمون: حدثني يا أبا إسحاق  
بحديث بعض الملوك ممن كان في مثل حالنا وفارقها. فقال: يا أمير المؤمنين، لبس  
سليمان بن عبد الملك أفخر ثيابه ومس أفخر طيبه وركب أفخر خيله، وتقدم إلى

---

(١) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٥٥.

(٢) الديوان، ص ٢١.

(٣) الديوان، ص ٢٩.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٨.

(٥) الديوان، ص ١٤.

جميع من معه أن يركب في مثل زيه؛ وأكمل سلاحه، ونظر في مرآته فأعجبته  
هيئته وحسنه فقال: أنا الملك الشاب، ثم قال لجاريته: كيف ترين؟ فقالت:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى

غير أن لا بقاء للإنسان

أنت خلو من العيوب ومما

يكره الناس غير أنك فاني

فأعرض بوجهه، فلم تدر عليه الجمعة إلا وهو في قبره. فبكى المأمون  
والناس<sup>(١)</sup>؛ وما رواه بسنده إلى أحمد بن عبيد بن ناصح قال: كنت أمشي مع  
أبي العتاهية، يده في يدي وهو متكئ علي ينظر إلى الناس يذهبون ويجيئون،  
فقال: أما تراهم: هذا يتيه فلا يتكلم وهذا يتكلم بصلف، ثم قال لي: مرّ  
بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يخطر فقال: يا بني، لو خفضت بعض  
هذه الخيلاء، ألم يكن أحسن بك من هذه الشهرة التي قد اشتهرت بها نفسك؟  
فقال له الفتى: أو ما تعرف من أنا؟ فقال له: بلى والله أعرفك معرفة جيدة: أولك  
نطفة مذرة وآخرك جيفة قدرة وأنت بين ذينك حامل عذرة. قال: فأرخى الفتى  
أذنيه وكف عما كان يفعل وطأطأ رأسه ومشى مسترسلاً<sup>(٢)</sup>. ويتضمن أنه عالم  
مارواه الخطيب بطريقه إلى أحمد بن علي بن مرزوق - ولعله صاحب الثوري  
الذي سبقت الإشارة إليه في الحالة الاجتماعية -: دخلت على أبي العتاهية في  
مرضه الذي مات فيه - قال الخطيب: وكان له صديقاً - وكان أبو العتاهية قد  
أغمض عينيه، قال: فقالوا لي: قل كلمة. فقلت: يا أبا إسحاق. فلما سمع صوتي  
فتح عينيه، فقلت له: أعزز على العلماء بمصرعك<sup>(٣)</sup>. وسيأتي شعر له في هذه  
الحال. ومما يتضمن نظر الرجل إلى نفسه مع نظر الناس إليه أنه عالم وإن كان  
شاعراً ما رواه أبو الفرج عن النوشجاني، أن أبا العتاهية استأذن عليه فأذن له

(١) الأغاني، ج ٩ ص ٩٤.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٠.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٩.

فدخل، قال: فوضعت بين يديه قَنَومَوز. فقال: قد صرت تقتل العلماء بالمولز. قتلت أبا عبيدة بالمولز وتريد أن تقتلني به؟ لا والله لا أذوقه! وذكر راوية موت أبي عبيدة بسبب إفراطه في أكل مولز النوشجاني<sup>(١)</sup>.

### وسائله إلى العلم:

للعلماء والأدباء إلى العلم وسيلتان: القراءة والسماع. ولئن كانت القراءة صالحة وحدها لتحصيل العلم كله فإن السنة في أخذ القرآن والحديث التلقي عن الشيوخ، لكن «عالم» الشعراء لا شيوخ له عند رواة أخباره كابن قتيبة والمرزباني وأبي الفرج والخطيب البغدادي والمسعودي والحصري ومن جرى على آثارهم، كابن خلكان وابن الفلاح وابن نباتة والعباسي وغيرهم، ولا يزيد عندهم عن كونه خزافاً أو حجاماً. وإن كان لشاعر المجون أبي نواس شيوخ أجلاء ذكرهم أبو الفرج وسلفت الإشارة إلى طائفة منهم، قَبْلُ، أخذ عنهم الحديث واللغة والشعر. وقد جلي لنا هذه العماية الإمام ابن عبد البر فذكر أنه داخل العلماء والصالحين ونظم ما استفاده من أهل العلم من السنن وسير السلف الصالح. وقد نبه أثناء ديوانه على بعض شواهد للأخذ سنذكرها في باب المعاني منسوبة إليه إن شاء الله. والظن بمثل الإمام أنه لم يعلم له اسم شيخ فيذكره ومطلق ملابسة أبي العتاهية للعلماء والصالحين لا عجب فيها فمنشؤه الكوفي ومقامه البغدادي حاشدان بهم، ولكن الظن بمثل هذه الملابس أن لا تخرج عالماً لا يكاد يفوته شيء من عيون المواعظ والحكم إلى قول ابن عبد البر فيه: وأشعاره في الزهد والمواعظ والحكم لا مثل لها، كأنها مأخوذة من الكتاب والسنة وما جرى من الحكمة على ألسنة هذه الأمة<sup>(٢)</sup>. وأنا أزيد عليه ما سبقت الإشارة إليه من الحكم الدينية غير الإسلامية أو الحكم الفلسفية، وقد سبق إلى نحو ما ذكره ابن عبد البر مع بعض التفصيل والتعميم أبو العباس المبرّد في الكامل فقال: وكان

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٦.

(٢) الديوان المخطوط.

إسماعيل بن القاسم لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الأخبار والآثار فينظم ذلك الكلام المشهور ويتناوله أقرب تناول ويسرقه أخفى سرقة فقوله:

وأنت اليوم أوعظ منك حيا

يريد البيت الذي رواه في مريثة له في صديقه علي بن ثابت وهو:

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

إنما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حيث مات فإنه قال في ذلك الوقت:

كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس. وأخذ قوله:

قد لعمري حكيث لي غصص المو

ت وحركتني لها وسكنتا

من قول نادب الاسكندر؛ فإنه لما مات بكى من بحضرته فقال نادبه:

حركنا بسكونه. — والبيت أيضاً من قطعة في علي بن ثابت كما يصرّح به أول

الشعر — قال المبرد: وقال إسماعيل بن القاسم: وروى له قصيدة منها:

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

ونبه على أنه مأخوذ من قولهم: الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك.

ومن قول لقمان لابنه: يا بني لا ينبغي لعاقل أن يخلي نفسه من أربعة أوقات:

فوقت منها ينجي فيه ربه، ووقت يحاسب فيه نفسه، ووقت يكسب فيه

لمعاشه، ووقت يخلي فيه بين نفسه وبين لذاتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات.

وبعده:

وعبروا الدنيا إلى غيرها فلإنما الدنيا لهم معبر

ونبه على أنه مأخوذ من قول الحسن: اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها

ولا تعمرها. وبعده:

الخير مما ليس يخفي هو المع — روف والشر هو المنكر

ونبه على أنه مأخوذ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «قال

رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا عبدالله! كيف بك إذا بقيت في حثالة من

الناس مرجت عهودهم وأماناتهم، وصار الناس هكذا: وشبك بين أصابعه؟

فقلت: مرني يا رسول الله. فقال: خذ ما عرفت ودع ما أنكرت وعليك بخويصة نفسك وإياك وعوامها». ومنها:

ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يدّخر

ونبه على أنه مأخوذ من قول أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: إذا حشر الناس في صعيد واحد نادى مناد من قبل العرش: ليعلمن أهل الموقف من أهل الكرم اليوم، ليقم المتقون. ثم تلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ثم قال: ولو قال قائل: إن أقرب ما أخذ منه أبو العتاهية قول الخليل بن أحمد:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال  
لكان قد قال قولاً. ومنها:

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

ونبه على أنه مأخوذ من قول علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «وما ابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه»<sup>(١)</sup>.

فلا بد لأبي العتاهية إذن من شيخ بل شيخ أدبوه وأعدوه لحمل هذا اللواء الخفاق، لواء الدعوة إلى الزهد والحكمة ومكارم الأخلاق، ولا بد لمثلي ليصل إلى جلية هذا الغيب الذي جفت أقلامه وطويت صحائفه أن يستمد من فضل الله وحده مدداً يمده بالحق وينشر له إن شاء الله صحائف اليقين.

### شيوخ أبي العتاهية:

سبق أن مندل بن علي العنزي وأخاه حيان بن علي لم يغضبا من شيء قط كغضبهما لأبي العتاهية لما سبق في القصة، وسيأتي إن شاء الله في الباب التالي

---

(١) الكامل للمبرد، ج ١ من ص ٢٣٨ إلى ص ٢٤١.



في هجاء أبي العتاهية لبني معن بن زائدة أنهم مضوا إلى مندل وحيان ابني علي  
العنزيين الفقيهين وشكوه إليهما فأحضراه، ولم يكن يمكنه الخلاف عليهما فأصلحا  
بينه وبينهم. وضمننا عنه خلوص النية إلى ما سلف مما بين أبي العتاهية وبينهما من  
القربة والولاء فهذه صلات تنبىء عما وراءها من صلات العلم والأدب؛ وليس  
مندل وأخوه بنكرتين في الرجال فقد ذكر ابن سعد في الطبقات أن المهدي أحب  
أن يراها فكتب إلى الكوفة في إشخاصهما إليه<sup>(١)</sup>. ويدل على جلالة مندل خاصة  
سؤال المهدي حين دخولهما عليه بقوله: أيكما مندل؟ فقال مندل: هذا حيان  
يا أمير المؤمنين؛ وما رواه البلاذري قال: غزا الحسن بن قحطبة الطائي بلاد  
الروم سنة اثنين وستين ومائة وكان معه في غزاته مندل العنزي المحدث الكوفي  
ومعتمر بن سليمان البصري<sup>(٢)</sup>. فتنويه بهذين الرجلين وحدهما دون مطوعة  
العراق والحجاز مع عددهما في الطوائف الغازية مع الحسن يدل على أن مندلاً  
كان علم الكوفة كما كان معتمر علم البصرة، أو كانا علمي الغزاة منها آنذا؛ وقد  
أعاد البلاذري ذكرهما باسميهما وهو يصف جلالة هذه الغزاة واحتفال المهدي  
لها<sup>(٣)</sup>. وقد أطال ابن حجر في تهذيب التهذيب الكلام على مندل وأخيه وذكر أن  
كنيته أبو عبدالله الكوفي وقال: يقال اسمه عمرو ومندل لقبه؛ وذكر له شيوخاً  
وتلامذة كثيرين. وروي عن معاذ بن معاذ العنبري قال: دخلت الكوفة فلم أر  
أحداً أروع من مندل. وقال ابن حجر: وكان يتشيع، وولد سنة ثلاث ومائة  
ومات سنة سبع أو ثمان وستين ومائة قبل أخيه وكان أصغر منه<sup>(٤)</sup>.

#### □ الخليل بن زياد المحاربي:

سبق أن أم أبي العتاهية هي أم زيد بنت زياد المحاربي، وقد رجوت  
هناك أن تكون أخت الخليل بن زياد المحاربي الخواص الكوفي ثم الدمشقي،  
ورجائي مبني على المشاركة في اسم الأب والنسبة إلى محارب وكوفية الخليل قبل

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٦ ص ٢٦٥.

(٢) فتوح البلدان، ص ١٧٦.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٨.

(٤) تهذيب التهذيب، ج ١٠ ص ٢٩٨، ٢٩٩.

دمشقيته والمعاصرة، لأن الخليل ممن أخذ عن علي بن مسهر الكوفي المتوفى (سنة ١٨٩) وأبي بكر بن عياش (ت سنة ١٩٣)<sup>(١)</sup>.

□ أبو محمد الكوفي عبدالرحمن بن محمد بن زياد المحاربي:

ذكره ابن حجر وذكر شيوخه ومنهم الأعمش أبو محمد سليمان بن مهران (ت سنة ١٤٨)<sup>(٢)</sup>. وفي ميزان الاعتدال أن للذهبي ما ينسب عن صلة أشد بين أبي العتاهية وبين هذا الذي رجوت أن يكون ابن خاله لنحو ما أسلفت من قرائن القرابة في الخليل بن زياد وهي ما نقله من قول أبي نعيم: كنا نكون عند سفیان فإذا مرّ حديث من أحاديث الزهد قال لابن المحاربي: خذ إليك هذا من بابتك<sup>(٣)</sup>.

قراءته:

روى المسعودي أن الرشيد أمر ذات يوم بحمل أبي العتاهية، وأمر أن لا يكلم في طريقه ولا يعلم ما يراد منه؛ فلما صار في بعض الطريق كتب بعض من معه في الطريق: إنما يراد قتلك. فقال أبو العتاهية:

ولعل ما تخشاه ليس بكائن      ولعل ما ترجوه سوف يكون  
ولعل ما هونت ليس بهين      ولعل ما شددت سوف يهون<sup>(٤)</sup>

وفي الديوان أنه جلس في دكان وراق فأخذ كتاباً وكتب على ظهره على البديهة:

إلا أننا كلنا بائد      وأي بني آدم خالد<sup>(٥)</sup>

الأبيات وستأتي إن شاء الله، فدل هذان الخبران على أنه قارئ كاتب، فتم له ما أسلفت من وسيلتي العلماء إلى العلم.

(١) تهذيب التهذيب، ج ٣ ص ١٦٧، والخلاصة ص ٩١.

(٢) تهذيب التهذيب، ج ٦ ص ٢٦٥.

(٣) ميزان الاعتدال، للذهبي، ج ٢ ص ١١٥.

(٤) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٨.

(٥) الديوان، ص ٦٩.

## أدبه:

لم يكن نبوغ أبي العتاهية الأدبي خاصاً بالشعر فإنه كان إلى جانب ذلك خطيباً مفوهاً وكاتباً بليغاً؛ واجتماع هذه الملكات الأدبية الثلاث مع بلوغ الكمال ومشاركته من صفات الأفضاذ من أولي البراعة والنبوغ.

## خطابته:

تهياً لأبي العتاهية من مقامات الخطابة السياسية الحرجة ومواقفها المشهودة الضيقة العسيرة والتي لا يغني فيها إلا أولو الحكمة وفصل الخطاب ما كان فيه عند قول أخي جعفر بن كلاب:

ومقام ضيق فرجته بياني ولساني وجدل<sup>(٦)</sup>

فقد وجد المهدي على وزيره أبي عبيد الله في أمر بلغه عنه فدخل عليه وأبو العتاهية حاضر المجلس، فجعل المهدي يشتم أبا عبيد ويتغيط عليه؛ ثم أمر به فجر برجله وحبس. ثم أطرق المهدي طويلاً فلما سكن أنشده أبو العتاهية:

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كثرت لديه

تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه

إذا استغثت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسّم المهدي وقال لأبي العتاهية: أحسنت. فقام أبو العتاهية ثم قال: والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحداً أشد إكراماً للدنيا، ولا أصون لها، ولا أشح عليها من هذا الذي جر برجله الساعة؛ ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين، ودخل هو وهو أعز الناس، فما برحت حتى رأيته أذل الناس، ولورضي من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت. فتبسّم المهدي ودعا بأبي عبيد الله فرضي عنه فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبي العتاهية<sup>(٢)</sup>.

(١) البيت في الطبري، ج ٦ ص ٤٩٨؛ وهو للبيد بن ربيعة العامري بتغيير يسير في حماسة البحري، ص ٣٦٢.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٨؛ والديوان ص ٢٨٨.

## كتابه الإنشائية:

لقد كان لاتساع نطاق هذه الرواية ونشاط حركة التدوين وتلقيح الآداب العربية بثمرات الحكمة الفارسية والهندية ثم اليونانية بالترجمة والامتزاج أثره العظيم في تجويد فنون الآداب المختلفة، كما سبق قبل؛ وكان من أثر ذلك ظهور طائفة من الكتاب في صدر هذا العصر بلغوا بهذا الفن مبلغاً تتناول إليه أعناق الكتاب ولا تبلغه في شتى العصور. وإليك مثالين لأبي العتاهية في العتاب والهجاء وهما شاهدان على هذا المبلغ الذي بلغه في هذا المضممار:

روى الحصري في زهر الآداب أن عمر بن العلاء<sup>(١)</sup> بلغه أن أبا العتاهية عليه عاتب في هناة نالها منه في مجلس، وكان كثير الانقطاع إليه فتخلف عنه، فساء ذلك عمر فكتب إليه كتاباً ذكر الحصري منه بعد أن ذكر له أن تجنبه ليس عن علم بحقيقة ما تجنبه لأجله؛ ومنه:

فصرت متردداً من العمى في بلاميع الشبهة، ولو كان معك من علمك  
داع إلى لقائي لكشفت لك مورد الأمر ومصدره لترجع إلى الصلة فتقال، أو تأبى  
إلا الصريمة فتصرم، وقد قال الأول:

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| وأخرج منه المحفظات غليل   | ومستعتب أبدى على الظن عتبه |
| فعاد إلى الإنصاف وهو ذليل | كشفت له عذراً فأبصر وجهه   |

فأجابه أبو العتاهية:

لم أجز بعثبي الحقيقة إلى الشبهة، ولم أجد سعة مع عظيم قدرتك إلى  
حمل اللائمة، فقصر بي الخوف من سخطك على ترك معاتبتك، لأن المعاتبة  
لا تجنبني إلا من المساوىء، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك  
عن طول الصحبة وسالف المدة وأنا أقول:

|                               |                         |
|-------------------------------|-------------------------|
| ورضيت ببعض الذل خوف جميعه     | وليس لمثلي بالملوك يدان |
| وكنتم أمراً أحشى العقاب وأتقي | مغبة ما تجني يدي ولساني |

---

(١) أحد أمراء الدولة.

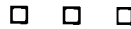
فهل من شفيع منك يضمن توبيتي      فإني امروء أوفي بكل ضمان<sup>(١)</sup>

ويلاحظ أن عمر بن العلاء كان في هذه الحالة في أوج مجده إذ كان من ولاية الدولة وأمراء الجيوش للمهدي بعد المنصور، والظاهر أن أبا العتاهية كان لا يزال في أول درجات مجده فهو بخيفه سخط مثله ويؤمنه رضاه.

وروى ابن عبد ربه في العقد أنه كتب إلى أبي الفضل<sup>(٢)</sup> بن معن بن زائدة: أما بعد فإني توسلت إليك بطلب نائك بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر، ورجاء للغنى فازددت بها بعداً مما فيه تقرب وقرباً مما فيه تبعيد، وقد قسمت اللائمة بيني وبينك لأنني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعي، أمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم، ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم، وفي ذلك أقول:

|                             |                                       |
|-----------------------------|---------------------------------------|
| فررت من الفقر الذي هو مدركي | إلى بخل محظور النوال ممنوع            |
| فأعقبني الحرمان غب مطامعي   | كذلك من يلقاه غير قنوع                |
| وغير بديع منع ذي البخل ماله | كما بذل أهل الفضل غير بديع            |
| إذا أنت كشفت الرجال وجدتهم  | لأعراضهم من حافظ ومذيع <sup>(٣)</sup> |

وسنرى، إن شاء الله، أن صلته بآل معن صلة كوفية تتفق مع هذه الرغبة النهمة وهذا الحرص الشديد.



---

(١) زهر الآداب للحصري، ج ٢ ص ٤٧، ٤٨؛ والديوان، ص ٣٢٣، ٣٢٤.  
(٢) في الأصل الفضل، وهو خطأ؛ فأبو الفضل كنية عبدالله بن معن وهذا الشأن معه كما سيأتي في شعر  
النشأة من الباب التالي إن شاء الله.  
(٣) العقد، لابن عبد ربه، ج ٤ ص ٣٢٦، ٣٢٧.



في  
حياته وموته ومدفنه

بعد نيف وثمانين عاماً بلغ فيها أبو العتاهية ما بلغ امرؤ بشبابه، وأدرك ما أدرك منيب ببنابته ومتابه، ونال من المكانة عند الخلفاء والأمراء ما تشرّب إليه أعناق أضرابه، ولقي من إعنتهم ما لقي من شقاء العيش وعذابه؛ ونال ما نال من حلو العيش ومره ونفع الزمان وضره وخيره وشره، وبعد حياة ذات وجهين: باسم وباسر، وشعر ذي روحين هادئ وثائر، اعتل أبو العتاهية علته التي مات فيها فلما أحس دنو الأجل قال لابنته رقية: قومي يا بنية فاندبي أباك بهذه الأبيات. فقامت فندبته بقوله:

لعب البلى بمعالمي ورسومي      وقبرت حياً تحت ردم هدومي  
لزم البلى جسمي فأوهن قوتي      إن البلى لموكل بلزومي<sup>(١)</sup>  
وقيل له عند الموت: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن يجيء مخارق فيضع  
فمه على أذني ثم يغنّيني:

سيعرض عن ذكرري وتنسى مودتي  
ويحدث بعدي للخليل خليل  
إذا ما انقضت عني من الدهر مدّتي  
فإن غناء الباقيات قليل<sup>(٢)</sup>

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٥.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٤.

وقال وهو يكيد بنفسه:

يا نفس قد مثلت حا لي هذه لك منذ حين  
وشككت أني ناصح لك فاستملت إلى الظنون  
فتألمي ضعف الحرا ك وكله بعد السكون  
وتيقني أن الذي بك من علامات المنون<sup>(١)</sup>

وعن أحمد بن أبي مرزوق قال: دخلت على أبي العتاهية في مرضه الذي مات فيه - وكان له صديقاً - وكان أبو العتاهية قد أغمض عينيه قال: فقالوا لي: قل كلمة. فقلت: أبا إسحاق. فلما سمع صوتي فتح عينيه فقلت له: أعزز على العلماء بمصرعك. قال: فقال أبو العتاهية:

ستمضي مع الأيام كل مصيبة  
ثم أغمض عينيه وخَفَّت<sup>(٢)</sup>:

ولما مات رثاه ابنه محمد بقوله:

يا أبي ضمك الثرى وطوى الموت أجمعك  
ليتني يوم مت صر ت في حفرة معك  
رحم الله مصرعك برد الله مضجعك<sup>(٣)</sup>

وفي تاريخ وفاته خلاف على أربعة أنحاء: فقد روى أبو الفرج بسنده إلى مخارق المغني قال: توفي أبو العتاهية وإبراهيم الموصلي وأبو عمرو الشيباني في يوم واحد في خلافة المأمون وذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين<sup>(٤)</sup>. ومثل هذه الرواية في الفهرست في ترجمة الشيباني عن القاضي أحمد بن كامل<sup>(٥)</sup>. وروى أبو الفرج

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٦٠.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٩.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٥، ١٧٦.

(٤) نفس المصدر، ص ١٧٥.

(٥) الفهرست، ص ١٠٢.



بسنده إلى محمد بن سعد كاتب الواقدي أنه مات في يوم الاثنين لثمان خلون من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة ومائتين<sup>(١)</sup>؛ وعلى وفاته في هذه السنة دون ذكر اليوم والشهر الطبري في تاريخه<sup>(٢)</sup> والمسعودي في مروج الذهب<sup>(٣)</sup> وأبو الفلاح في شذرات الذهب<sup>(٤)</sup>؛ وجمع الروايتين الخطيب البغدادي عن محمد بن سعد والقاضي أحمد بن كامل<sup>(٥)</sup>، وجمعها أيضاً ابن خلكان<sup>(٦)</sup>. وروى أبو الفرج ببعض طرقه عن محمد بن أبي العتاهية أن أباه توفي سنة عشرة ومائتين وبسنده عن إسماعيل بن أبي قتيبة أنه توفي سنة تسع ومائتين<sup>(٧)</sup>. والظاهر أن الصحيح من هذه الروايات هو الأول لأنها رواية صديقه مخارق؛ والظاهر أنه غناه بالبيتين السابقين في حال الموت، وقد أيدها القاضي أحمد بن كامل واقتصر عليها ابن النديم؛ وقد يكون من مرجحاتها ما سنذكره بالباب الرابع إن شاء الله من أبياته في لوم من يقول بخلق القرآن، فإن ظهور ذلك على صورة ادعى إلى اللوم إنما كان في سنة اثنتي عشرة حيث أظهر فيها المأمون كما في الطبري<sup>(٨)</sup> والشذرات<sup>(٩)</sup> القول بخلق القرآن؛ ولا تعارض بالرواية عن ابنه لأنها لا تقوى أمام هذه إذ لم ترو إلا بطريق واحد هو ما سلف عن أبي الفرج، والظاهر أنه ما كان يتعرض لذكر هذا التاريخ ولا يستحب أحد أن يسأله عنه لما سلف في أبياته من بلوغ مصرع أبيه من نفسه هذا المبلغ الذي يصفه قوله:

ليتني يوم مت صر      ت في حفرة معك

- 
- (١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٥.  
(٢) الطبري، ج ٧ ص ١٨٧.  
(٣) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٨.  
(٤) شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٥.  
(٥) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٦٠.  
(٦) وفيات، ج ١ ص ٩٠.  
(٧) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٥.  
(٨) الطبري، ج ٧ ص ١٨٨.  
(٩) شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٧.

ولو أن هذه الرواية مشهورة عنه لانحسم الخلاف من قديم، ولتضمنتها رواية الخطيب بسنده إليه لمولده ومدفنه مع رواية الوفاة بطريقين عن غيره، كما سلف، وهذه الروايات في مقام واحد<sup>(١)</sup>. أما الروايتان الثانية والرابعة فليس لراويهما من الصلة بأبي العتاهية ما يدل على علمهما باليقين من خبره؛ ويظهر أن منشأ هذا الاختلاف انقطاع أخباره في آخر حياته: إما لإيثاره الوحدة كما سيأتي في مذاهب زهده، أو لثقل الثمانين عليه. وقد رأيت أن أقصى هذه الروايات لا تتجاوز بسنه الثالثة والثمانين، لكن الجاحظ في البيان والتبيين روى له شعراً يصل به إلى التسعين وهو:

|                     |                                |
|---------------------|--------------------------------|
| أذن حي تسمعي        | اسمعي ثم عي وعي                |
| أنا رهن بمضجعي      | فاحذري مثل مصرعي               |
| عشت تسعين حجة       | أسلمتني لمضجعي                 |
| كم ترى الحي ثابِتاً | في ديار التزعزع                |
| ليس زاد سوى التقى   | فخذي منه أو دعي <sup>(٢)</sup> |

وروى له أبو الفرج الأبيات بزيادة أنه أمر أن تكتب على قبره<sup>(٣)</sup>، ثم عاد فروى أن محمد بن أبي العتاهية كان ينكر وصية أبيه بكتابة شعر على قبره<sup>(٤)</sup>، وفي رواية له أن الأبيات قرئت على قبره<sup>(٥)</sup>. وعلى فرض أن الأبيات له كما ذكر الجاحظ وكما هي إحدى روايات أبي الفرج وكما يؤيدها رواية قراءتها على قبره وأنها فيما أعلم لم تنسب لشاعر غيره نكون أمام تناقض لا حيلة لنا فيه إلا برد مولده إلى ما قبل سنة ثلاثين ومائة أو بحمل التسعين على المجاز مما يقاربها مما جاوز الثمانين. ولعل الحمل على المجاز أيسر من رد مولده إلى ما قبل سنة ثلاثين

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٦٠.

(٢) البيان والتبيين، ج ٣ ص ١٢٠.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٥.

(٤) نفس المصدر، ص ١٧٦.

(٥) نفس المصدر، ص ١٧٦.

ومائة لأنها الرواية عن ابنه ولا معارض لها. قال الخطيب: ذكر محمد بن أبي العتاهية أن أبا العتاهية ولد في سنة ثلاثين ومائة وأنه مات ببغداد وقبره على نهر عيسى قبالة قنطرة الزياتين<sup>(١)</sup>.

وقد روى ابن خلكان أن أبا العتاهية أوصى أن يكتب على قبره:

إن عيشاً يكون آخره الموت لعيش معجل التنغيص<sup>(٢)</sup>



---

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٦٠.

(٢) وفیات الأعيان، ج ١ ص ٩٠.



الباب الثالث

في  
دواعي شعره وأغراضه

## القسم الأول من الباب الثالث

### في شعر المجنون والرغبة

وفيه فصول:

- الفصل الأول: في شعر النشأة الكوفية.
- الفصل الثاني: في شعره في عهد المهدي.
- الفصل الثالث: في شعره في عهد الهادي.
- الفصل الرابع: في شعره في عهد الرشيد.
- الفصل الخامس: في شعره في عهد الأمين.
- الفصل السادس: في شعره في عهد المأمون.

في  
شعر النشأة الكوفية

وفيه فنون:

المديح، والغزل، والمبادرة إلى اللذات، والهجاء، والاعتذار، والثناء:

كان لنشأة الشاعر في الكوفة - ولها ما رأيت قبل من بهجة المكان وطيبه ونضرتة، بما يكسوه من حلل النبات البرية وحلى الأزهار والرياحين الأرجة الشذية، كالخزامى والأقحوان والشيخ والقيصوم وشقائق النعمان، إلى هذه المواهب الطبيعية التي وهبها الله إياها من، اعتدال جوها وطيب ليلها وغدق مائها وكثرة خيرها، وما أضافته إلى جارتها الحيرة يد الحضارة الفارسية الصناع، من مظاهر للجمال ومباعت للمسرات وأسباب للمتعة واللذات، وما أنشأه ملوك العرب من المناذرة وغيرهم، من قصور وبساتين تتحدث عن الفن العربي الجميل أطيب الحديث - ما أثر في نفس هذا الشاب ومشاعره أبلغ الأثر، وما جاوز به أحاديث الآمال وخواطر المنى التي يصفها قول أبي بكر عبد الرحمن الزهري<sup>(١)</sup>:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى      أنيقاً وبستاناً من النور حالياً  
أجد لنا طيب المكان وحسنه      منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وها هو ذا أبو العتاهية يصل هذا المنشأ بفنون من شعره ما منها إلا ما ينبىء عن افتتان بالحسن وإقبال على اللذات واستجابة لسورة الشباب وثورة

(١) شاعر إسلامي من شعراء الحماسة، ج ٢ ص ١١٥.

الحياة، فيجره ذلك إلى ركوب وسائل الثراء والجاء من مديح وهجاء، وما لا يكاد ينفك عنها من الاعتذار وبعض أنواع الرثاء لما سبسطه من تبعية هذه الفنون لمثل هذه النشأة الراغبة الطامحة، وتبعية بعضها لبعض. ولم تكن طبقة أبي العتاهية أول من استغل هذا الجمال أسوأ استغلال، أو استعان به على أقبح المآرب والخصال، فكم طوى الدهر من بسط قبل بساطهم، وكم أراق من شراب قبل شراهم، وكم عطل قبلهم من دار ندامى فمحا الجديد والدارس من آثارهم، وكم فرقت يد البلى في مثل هذا الموطن من مواطن اللهو والغرور من جمع منتظم وشمل ملتئم:

رب قوم قد أقاموا برهة      في ذرا مجدهم حين بسق  
سكت الدهر طويلاً عنهم      ثم أبكاهم دماً حين نطق

وقد كانت الكوفة ككل هذه المدن العربية الناشئة في أراضي الفرس من أسرع المدن العربية لنشر ما طواه الإسلام من حياة أعجمية مترفة وأخلاق لينة ومذاهب مسرفة، فأعادت من صور الحياة الفارسية المفرطة ما ساعد عليه استقرار خلافة الأموية في الشام، وجمعها حولها أشياءها من وجوه العرب وجنودهم وذوي الرأي والدين فيهم، إلا قليلاً من هؤلاء الذين أذهم أو كبتهم عمال بني أمية من أمثال خجاج وزباد. وقد حفظ لنا التاريخ من مظاهر الترف وصوره في الكوفة ما كان معبراً لما ردته السيوف العربية عن هذه المواطن، ومبعثاً لما أزهرته من الفتن في هذه البقاع، حتى إذا ما تحولت الخلافة من الشام إلى العراق على يد بني عباس وبسيوف جند خراسان كان ذلك تمكيناً لعوائد العجم وأخلاقهم، وإعلاء لأخص أحوالهم. إلى أن صارت هذه الشؤون أجل أوصاف العصر وأكثرها فيما أثر عنه من مستفيض الأخبار والأشعار.

روى أبو الفرج في ترجمة شاعر عربي أموي هو عمار بن عمرو الكوفي همداني صليبة الملقب ذا كناز قال: كان لين الشعر ماجناً خميراً معاقراً شرباً. وقد حد فيه مرات؛ وكان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويختمعون على شأهم لا يفترقون، وكان متهماً بالزندقة. وقال: وعمار ممن نشأ في



دولة بني أمية ولم أسمع له بخبر في الدولة العباسية<sup>(١)</sup>. حتى إذا ما أفل نجم بني أمية وبزغت شمس بني العباس أخذ مخضرمو الدولتين على مؤازرة من مكانة العجم وعلوهم في البلاد يستنون لناشئة الدولة من غواة المترفين والشعراء والأدباء ما كان ينبغي أن لا يستنوه في دولة بني العباس.

روى أبو الفرج في ترجمة حماد عجرد وهو حماد بن يحيى: أصله ومنشؤه الكوفة، وهو من مخضرمي الدولتين إلا أنه لم يشتهر إلا في الدولة العباسية، وكان خليعاً ماجناً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة؛ وكان هو وحماد الراوية، وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون معاشرة جميلة، وكانوا كأنهم نفس واحدة يرمون بالزندقة جميعاً، وأشهرهم بها حماد عجرد<sup>(٢)</sup>. ونحو من هذه المجالس الماجنة ما رواه في مطيع بن إياس قال: مولده ومنشؤه الكوفة، وكان ماجناً متهماً في دينه بالزندقة، من مخضرمي الدولتين. كان هو ويحيى بن زياد الحارثي وابن المقفع ووالبة بن الحباب يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحد منهم على صاحبه بمال ولا ملك، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة<sup>(٣)</sup>. ويكفي من سوء أثر هذه المجالس وما سنته للناس عامة وللشعراء خاصة من قبيح السيئات تخريج أحد أركانها، وهو والبة بن الحباب الناقل الغزل العربي من صورته الحسان إلى أسوأ صورة وأقبحها، مما لم يرتسم في ذهن عربي قط ولم يستحسنه إلا هؤلاء المتغلبون المترفون من جند خراسان، أبي نواس. وها هي ذي غرة الشباب وأحوال البيئة وعدوية الشعر وحضور البديهة وسهولة النظم وتدفق الطبع تعد لهذا الشاب مكاناً من هذه المجالس اللاهية الطروب.

قال أبو الفرج في ترجمة إسماعيل القراضيسي الكوفي: كان مألماً للشعراء، وكان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزله ويجمعون عنده ويقصفون؛ وذكر من دعوته هم، وتيسيره من مآربهم مسعدة على شؤونهم

(١) مهذب، ج ٣ ص ١٢٧.

(٢) مهذب، ج ٨ ص ٢٥٧.

(٣) مهذب، ج ٦ ص ٧٤، ٧٥.

ما لا يرحب به المقام. وروى لأبي العتاهية بيتاً يصف القراطيبي بما يجب من كونه رأساً في تلك الحال. ثم روى نحوه من هذا الشأن لأبي العتاهية وحسين الخليل وأبي نواس، ودعوة القراطيبي لهم شعراً بما يتضمن ما يعجبهم من شهوات ولذات<sup>(١)</sup>. وتلك السبيل التي سلكها الشاعر لا يعين عليها موارد الناضبة الغائضة، ولا تستطيع إلا بما لا ينفد من الثراء، وليس له مسعد من حاله ولا وسيلة من مواهبه إلا ما رزق من صولة لسان وبراعة مقال، وأيسر فنون القول آتذ إلى النوال المديح المضرع فإن لم يثمر فالهجاء المقذع؛ وها هم أولاء وجوه قومه من بني شيبان، وها هي ذي أسرة جواد العرب الذي قال فيه مروان بن أبي حفصة:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان

وقد احتلت في هذه الدولة من المكانة مثل ما كان لها في الأموية لما كان من نكاية معن في الراوندية أصحاب أبي مسلم في يوم الهاشمية المشهور. ولئن كان معن قد قضى بسيف الخوارج فقد كان كما قيل فيه:

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان منه البر والبحر مترعاً

وها هو ذا عميد بني شيبان بعده، يزيد بن يزيد بن أخيه وخليفته فيما كان يليه، يولد له ولد فيهنه علي بن الخليل بثمانية أبيات فيعطيه عن كل بيت ألف دينار<sup>(٢)</sup> (ومديح الشعراء له ولأبنائه كثير مشهور). أخبر أبو العتاهية عن نفسه قال: دخلت على يزيد بن يزيد فأنشدته قصيدي التي أقول فيها:

كأنك في صدري إذا جئت زائراً تقدر فيه حاجتي بابتدائك

وإن أمير المؤمنين وغيره ليعلم في الهيجاء فضل غنائكا

كأنك عند الكفر في الحرب إنما تفر من الصف الذي من ورائكا

فما آفة الأبطال غيرك في الوغى وما آفة الأموال غير حبايكا

(١) الأغاني، ج ٢٠، ص ٨٨.

(٢) مذهب الأغاني، ج ٨ ص ١١٥، ١١٦.

قال: فأعطاني عشرة آلاف درهم ودابة بسرجهما ولجامهما<sup>(١)</sup>.

وإنما وضعت هذا الخبر في هذا الفصل لأن مثل هذا العطاء الذي يتحدث به لم يكن عطاء مثله إلا قبل اتصاله بالمهدي؛ فسيأتي أن عمر بن العلاء أعطاه سبعين ألفاً واعتذر إليه؛ وسيأتي في عصر الرشيد عطاء يزيد لمسلم بن الوليد خمسين ألفاً على قصيدة، ووصله إياه مع توليته جرجان على أخرى. وليس أبو العتاهية عند أمراء زمنه بعد صلته بالخلفاء دون مسلم، بل إنه قد بلغ عندهم من المنزلة ما لم يبلغه غيره من الشعراء؛ فهذا إذن هو عطاء النشأة وشعرها، وبمثل عطاء يزيد لهذا الشاعر الناشئ يستطيع أن يمضي في غرته ويبحث السير في مذهبه الذي يصفه قوله:

بادر إلى اللذات يوماً أمكنت      بحلولهن بوادر الآفات  
كم من مؤخر لذة قد أمكنت      لغدٍ وليس عدله بمواتي  
حتى إذا فاتت وفات طلابها      ذهبت عليها نفسه حشرات  
تأتي المكاره حين تأتي جملة

وأرى السرور يجيء في الفلتات<sup>(٢)</sup>

ويستطيع أن ينال من أسباب لهوه ما يصفه في قوله:

عاذلي في المدام غير نصيح      ولا تلمني على شقيقة روحي  
لا تلمني على التي فتتني      وأرتني القبيح غير قبيح  
إن بذلي لها لبذل جواد      واقتنائي لها اقتناء شحيح<sup>(٣)</sup>

وأن يفرغ لمثل قوله:

قل لذي الوجه الطرير      ولذي الردف الوثير  
ولمغلاق همومي      ولمفتاح سروري

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٠؛ الديوان، ص ٣١٧.

(٢) معاهد التنصيص، ج ١ ص ٢٤٢.

(٣) البديع لابن المعتز، ص ٤٤.

يا قليلاً في التلاقي وكثيراً في ضميري<sup>(١)</sup>

وخصال الشر يؤيد بعضها بعضاً، وتدعو الخصلة الواحدة منها إلى كثير من الخصال، فقد روينا في الباب الأنف رسالة منه إلى أبي الفضل عبدالله بن معن بن زائدة تتضمن هجاء إياه بالأبيات التي منها:

فررت من الفقر الذي هو مدركي إلى بخل محظور النوال منوع

لما ذكره هناك من قوله: أما بعد، فإني توسلت إليك بطلب نائلتك بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاء للغنى.

ولا ينبغي أن يظن بالهجاء أنه مظهر من مظاهر عزوف النفس وكفها عن مطامعها، فإنه إنما ينبعث عن إحدى حالتين: خليقة سيئة تؤثر الأذى - ومثلها يتنافى مع شيم الخير، أو نهم إلى ما في أيدي الناس ومنازعة لهم عليه. أما أول الأمرين فظاهر؛ وأما الثاني فيحتاج إلى بعض بيان؛ وبيانه في ما رواه أبو الفرج، قال: لما هجا مسلم بن الوليد خزيمة بن خازم لأمه على ذلك إبراهيم الموصلي بقوله: أما تستحي من الناس؟ فقال: لغيرك الجهل يا أبا إسحاق! أما تعلم أن الهجاء الموجه أخذ بضبع الشاعر وأجدى عليه من المديح المضرة<sup>(٢)</sup>؟ ونحوه مع مزيد بيان ما رواه من قول أبي خالد الخزازي لدعبل: ويحك! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف، فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك. فقال: ويحك! إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه، ثم قال له: ويحك يا أبا خالد، إن الهجاء المقذع أخذ بضبع الشاعر من المديح المضرة<sup>(٣)</sup>.

(١) نفس المصدر.

(٢) مهذب، ج ٨ ص ٢١.

(٣) مهذب، ج ٧ ص ٢٥٣.

فالهجاء إذن أدل على الرغبة والنهم من المديح ولكن الأصل في المديح أن يتقدمه، كفعل أبي العتاهية الذي ينسب عنه كتابه إلى أبي الفضل. ويقع في الرتبة الرابعة بعد الحث على اللذات والمديح والهجاء الاعتذار، فإنه وإن كان خيراً لا يكون إلا عن شر، ومن الحكم العوالي: إياك وما يعتذر منه<sup>(١)</sup>. وليس أدعى إلى الاعتذار من سوء القول. أما صلته بالرغبة فلأنه إنما يؤمه الشاعر ليحني به ما طلب بالهجاء من الثمر أو ليمحو ما يعوق الثمر من سوء الأثر.

وسياتي في هذا الفصل نوع من الرثاء. وظاهر الرثاء يتنافى الرغبة ولكن الحق أنه أخو المديح، فشأنه شأنه؛ لأن المديح ذكر مآثر الحي والرثاء ذكر مآثر الميت. وكما يكون المديح زلفى إلى الحي يكون الرثاء زلفى إلى أهله. وقال أشجع السلمي:

لئن حسنت فيك المراثي وذكرها      لقد حسنت من قبل فيك المدائح

ويدل على سبق هجاء أبي العتاهية لأبي الفضل بالمديح غير ما تضمنه كتابه إليه بيتان رواهما أبو الفرج، فيهما من بث الخليل وإفضائه بدخيلة نفسه لخليله ما لا يحتاج إلى دليل، وهما:

يا خليلي من بني شيان      أنا لا شك ميت فابكياني  
إن روحي لم يبق منها سوى شي      ء يسير معلق بلساني

قال: الشعر لأبي العتاهية يخاطب به عبدالله وزائدة ابني معن بن زائدة الشيباني وكان صديقاً وخاصاً بهما، وقال عقيبه: ثم إن يزيد بن معن غضب لمولاه لهم يقال لها سعدى وكان أبو العتاهية يشببها فضر به مائة سوط، فهجاه وهجا إخوته، ثم أصلح بينهم مندل بن علي العنزي، وهو مولى أبي العتاهية فعاد إلى ما كان عليه لهم؛ ثم روى بسنده إلى محمد بن أبي العتاهية أن أباه كان يهوى في حديثه امرأة من أهل الحيرة، وكان ممن يهواها أيضاً عبدالله بن

---

(١) في معناه بعض حديث في الحلية، ج ١ ص ٣٦٢ لفظه (ولا تكلمن بكلام تعتذر منه) وهو بلفظه بعض حديث في المستدرک، ج ٤ ص ٣٢٦.

معن بن زائدة أبو الفضل وكانت مولاة لهم يقال لها سعدى، ووصف أبا العتاهية بكلفه بمثل هذه الحال، وروى له أبياتاً فيها يرميها بالنساء. قال أبو الفرج: فغضب عبدالله بن معن لها فضرب أبا العتاهية مائة ضرباً غير مبرح لكثرة من يعنى به، ثم روى له فيه أربعة أهاج تجتمع كلها في وصفه بنعوت النساء وأفحش في إحداها، فرماه بما لم يرم به الرجال قبل هذه النابذة المسرفة من شعراء العصر، ومن هذه الأهاجي قوله فيه:

|                        |                     |
|------------------------|---------------------|
| ألا قل لابن معن ذا الـ | لذي في الود قد حالا |
| لقد بلغت ما قال        | فما باليت ما قالاً  |
| ولو كان من الأسد       | لما راع ولا هالا    |
| فصغ ما كنت حليت        | به سيفك خلخالاً     |
| فما تصنع بالسيف        | إذا لم تك قتلاً     |
| ولو مد إلى أذنيـ       | ه كفيه لما نالا     |
| قصير الطول والطيلـ     | ة لا شب ولا طالا    |
| أرى قومك أبطالاً       | وقد أصبحت بطلا      |

وفي سوق القصة على هذا الوجه ما ينافي ما سبق من أن الضارب يزيد بن معن، والحق أنه ليس إلا عبدالله، وقد يتعارض ترتيب غضب عبدالله على التشبيب مع ما سبق في رسالته إليه من هجائه لحرمانه إياه، ويمكن دفع هذا التعارض بإمكان اجتماع مثل هذين السبين:

أما الترتيب الطبيعي بين أهاجيه الأربع لعبدالله فيدل على أن أولاهما هي التي رويتها، ويؤيده تقديمه لها بما رواه من أن عبدالله تهدد أبا العتاهية وخوفه ونهاه أن يعرض لمولاته سعدى، فقال القصيدة الآنفه. وأما القطعة التي مطلعها:

جلدتني بكفها بنت معن بن زائده

والنتفة التي منها:

ضربتني بكفها بنت معن أوجعت كفها وما أوجعتني

فليس من قرينة على تقدم إحداها على الأخرى؛ على أن إحداها لا تقع قبل السابقة ولا تأتي بعد التالية، فهما بحسب الظاهر في مرتبة واحدة هي الثانية للإيقاع به بعد ما كان من التخويف والهجاء بعده. ويحيى في المرتبة الثالثة شر ما قال، وهي التي مطلعها:

لا تكثرا يا صاحبي رحلي في شتم عبدالله من عدلي

ومن أيسر ما فيها قوله:

يكنى أبا الفضل فيا من رأى جارية تكنى أبا الفضل

ويعين وقوع هذه القصيدة في أخرى المراتب ما رواه أبو الفرج في ترجمته لأبي العتاهية من وقوع الصلح عقيبها، ولكن في سوق قصة الصلح على الوجه الذي ذكره في إحدى روايات أربع من أدلة الوضع والبهتان العظيم ما ينبىء عنه الحال ولا يحتاج إلى دليل من مقال، فقد ذكر في إحداها أن ابن معن بعث إليه فأتى، فأمر غلمانته بالنيل منه مشاكلة لأفحش ما قال في هجائه إياه، ثم قال له: قد جزيتك عن قولك في، فهل لك في الصلح ومعه مركب وعشرة آلاف درهم أو تقيم على الحرب؟ قال: بل الصلح، قال: فأسمعي ما تقوله في الصلح، فقال:

|                    |                   |
|--------------------|-------------------|
| ما لعدالي وما لي   | أمروني بالضلال    |
| عذلوني في اغتفاري  | لابن معن واحتمالي |
| إن يكن ما كان منه  | فبجرمي وفعالي     |
| أنا منه كنت أسوأ   | عشرة في كل حال    |
| قل لمن يعجب من حسـ | ن رجوعي ومقالي    |
| رب ود بعد صد       | وهوى بعد تقالي    |

قد رأينا ذا كثيراً جاريماً بين الرجال  
إنما كانت يميني لطمت مني شمالي<sup>(١)</sup>

أما أدلة وضع القصة، فأولها هذا الشعر نفسه، فإن عليه من الماء والروث ما ينبىء عن صدوره عن أشرف خصال الرجل وأكرم نواحيه. وإنما تفيض النواحي الكريمة بمثل هذه المعاني وتنطلق الخصال الشريفة إلى مثل هذا المقصد الكريم ببواعث طيبة وأحوال شريفة ومكارم سنية يلقاها المعتذر من المعتذر إليه، ولا شيء أقوى على الذهاب بهذه البواعث الطيبة وأبعث لأضدادها مما رواه أبو الفرج في هذه الرواية المفردة من العقوبة المنكرة.

وثانيها: أنه ما كان لأبي العتاهية وقد قال في ابن معن ما قال، أن يأمنه على نفسه فيستجيب لدعوته إياه سيما وقد ضربه مائة سوط، كما سلف.

وثالثها: أن ما سبق من ضربه ضرباً غير مبرح لكثرة من يعنى به يحول بينه وبين مثل هذه العقوبة المنكرة.

ورابعها: أنه ليس من خلق العربي أن يعاقب من نزل به في منزله، سيما وأنه هو الذي دعاه.

وخامسها: أن عبدالله وهو من بيت عربي كريم ما كان لينزل في خصومته إلى هذا الدرك الأسفل من العقوبة التي يأنف العرب من السكوت على مثلها، فضلاً عن أن يأمر بعض أمثالهم بها.

وسادسها: هذه الروايات الثلاث المتشابهة في قصة الصلح ومؤداها كما هي رواية الصولي أن بني معن مضوا إلى مندل وحيان ابني علي العنزيين الفقيهين وهما من بني عمرو بن عامر بطن من يقدم بن عترة، وكانا من سادات أهل الكوفة، فقالوا لهما: نحن أهل بيت واحد ولا فرق بيننا، وقد أتاننا من مولاكم هذا ما أتاننا من بعيد الولاء لوجب أن تردعاه؛ فأحضرا أبا العتاهية ولم يكن يمكنه الخلاف عليهما، فأصلحا بينه وبين عبدالله ويزيد ابني معن وضمنا عنه

---

(١) الأغاني، ج ٣ من ص ١٣١ إلى ١٣٣؛ وج ١٤ من ص ٥٣ إلى ٥٥.



خلوص النية، وعنهما أن لا يتبعاه بسوء، وكانا ممن لا يمكن خلافهما، فرجعت الحال إلى المودة والصفاء، فجعل الناس يعذلون أبا العتاهية على ما فرط منه، ولامه آخرون في صلحه لهما، فقال:

ما لعذالي وما لي      أمروني بالضلال... (القصيدة)

ويرجح حصول هذا السعي إلى الصلح ما عرف عن أمثال بني معن من ذوي البيوتات العربية المجيدة من اتقائهم الهجاء واشترائهم الحمد بأغلى الأثمان، وبذلهم أموالهم في حماية ما يعتزون به من أثيل المجد وكريم الأعراض.

وسابعتها: ما صنعه المنفرد بذكر هذا الخبر المنفرد وهو أبو الفرج نفسه، إذ أعاد شأنه مع بني معن جميعاً في غير مظنته في الجزء الرابع عشر بعد ذكره إياه في موضعه من الترجمة الواقعة في الجزء الثالث لمناسبة صوت غني في:

يا خليلي من بني شيبان  
... البيتين، وقد سبقا.

وقد كان يكفيه كما هي عادته أن يوردهما وحدهما أو مع الإلماع إلى مناسبتها وحدها، لكنه، رحمه الله، ليمحو ما خبط يمينه، أعاد القصة كلها والشعر جميعه على النحو الخالي من الخبر الشنيع.

وثامنها: أن هذا النوع من الهجاء المقذع الذي هجا به أبو العتاهية عبدالله بن معن لم يكن هو الذي يؤلم العربي حقاً، بل إنما يؤلمه منه، مثل قوله:

أرى قومك أبطالاً      وقد أصبحت بطلا  
أو قوله:

وما تصنع بالسيف      إذا لم تك قتالا

لأنه مما تستسيغه العقول وتتوهم الصدق فيه وهو الذي أثر في نفس معن أثرة الثابت، إذ يقول: ما لبست السيف قط، فلمحني إنسان إلا قلت إنه يحفظ

شعر أبي العتاهية في فينظر إلي بسببه؛ وقد أحسن ابن بسام في الذخيرة<sup>(١)</sup> تبعاً لابن رشيق في العمدة<sup>(٢)</sup> الفرق بين نوعي الهجاء، وخص الأثر البليغ بهذا النوع القريب، فقال: والهجاء ينقسم إلى قسمين: قسم يسمونه هجو الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سبباً مقذعاً، ولا هجراً مستبشعاً وهو طأطأ قديماً من الأوائل، وثل عرش القبائل، إنما هو توبيخ وتعيير، وتقديم وتأخير، ومن أمثلتهما لذلك قول الأعشى الذي أبكى به الرجل الجليلد علقمة بن علاثة:

تبتون في المشتى ملاءً أبطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وقول جرير يهجو الراعي:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا  
فقد فضحه وفضح قومه معه.

وقول النابغة في عامر بن الطفيل:

فكن كأبيك أو كأبي براء

تصاحبك<sup>(٣)</sup> الحكومة والصواب

قال ابن بسام: والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته، وكان يقول: إذا هجوتهم فأضحكوا. وهذا النوع لم يهدم قط بيتاً، ولا عيرت به قبيلة.

فابن معن لا يعنيه إذن هذا النوع وإنما عناه ما بقي أثره في نفسه، كما سلف، ومثله لا يتقى إلا بالإحسان والإفضال، فالظاهر أنه لم يضربه إلا لتشبيهه بسعدى.

ومما رواه ابن رشيق في معرض الدلالة على بلاغة النوع الأول وقوته، قول يونس بن حبيب: أشد الهجاء، الهجاء بالفضيل؛ وقول خلف الأحمر: أشد

(١) الذخيرة، ج ٢ من ص ٦١ إلى ٦٣.

(٢) العمدة، ج ٢ من ص ١٣٨ إلى ١٤٠.

(٣) في الأصل: تصادفك.

الهجاء أعفه وأصدقه؛ وقول صاحب الوساطة: فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج  
التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض.

ويؤدي هذا إلى سقوط أكثر أهاجي أبي العتاهية في عبدالله وذهاب  
قيمتها الأدبية، وهذا هو الحق، فإنها من أضعف شعره وأركه. ومن حق  
أبي العتاهية أن ننبه إلى أنه ليس أول من هجا بأوصاف النساء، فقد سبقه به  
زهير على عفته، فقال:

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء  
إلا أنه ملحق بهجاء الأشراف لتشككه وتجاهله فيما يعلم، ولهذا كان عند  
صاحب العمدة من أشد الهجاء وأمضه؛ وروى أبو الفرج: أنه لما قتل الحسين،  
صلوات الله عليه، قال الفرزدق: إن غضبت العرب لابن سيدها وخيرها،  
فاعلموا أنه سيدوم عزها وتبقى هيبتها، وإن صبرت عليه ولم تتغير لم يزلها الله  
إلا ذلاً إلى آخر الدهر، وأنشد في ذلك:

فإن أنتمو لم تثاروا لابن خيركم

فألقوا السلاح واغزلوا بالمغازل<sup>(١)</sup>

والغزل كان حرفة نساء العرب دون رجالهم فكفى به عن صيورتهم نساء  
إن لم يثاروا للحسين، ولعل تقييد الوصف بالأنوثة بشرط عدم الثأر والكناية عنه  
بأمر ممكن الانفكاك لجواز أن يغزل الرجال مما يبعده عن القسم الثاني  
وهو السباب، ويلحقه بالأول الذي هو هجو الأشراف، أما الذي لا حيلة لنا  
فيه وما هو أشبه صنفاً بأبي العتاهية لإفحاشه فهو قول ابن الخياط<sup>(٢)</sup> من  
مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية:

عجب الناس للعجيب المحال حاض موسى بن طلحة بن بلال  
زعموه يحيض في كل شهر ويرى صفرة لكل هلال

(١) الأغاني، ج ١٩ ص ٣٤.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٣.

ومن حق أبي العتاهية أيضاً أن نروي له من هجائه الملحق بهجو  
الأشراف مع ما سلف من التبیین وهو ما رواه أبو الفرج بطريق الصولي عن  
راويتين قالاً: لما اتصل هجاء أبي العتاهية بعبد الله بن معن وكثر غضب أخوه  
يزيد بن معن من ذلك وتوعد أبا العتاهية، فقال فيه قصيدته التي أولها:

بَنَى معن ويهدمه يزيد      كذاك الله يفعل ما يريد  
فمعن كان للحساد غمماً      وهذا قد يُسر به الحسود  
يزيد يزيد في منع وبخل      وينقص في العطاء ولا يزيد

فإن فيه تقديم معن على ابنه وتأخير ابنه عنه، وهو على الحد السالف في هجو  
الأشراف. ومن حق أبي العتاهية علينا أيضاً — بعد أن انتهينا من الفنون  
السالفة في هذا الطور: من حث على اللذات ومديح وهجاء منشئهما المطامع  
والرغبات، ونكد الطبع، واعتذار ينسب مع ما فيه من خير، عن فعل ما يعتذر  
منه من الشر — أن نتحدث عن ناحية وفاء وصفاء في صلته ببني معن تخالف تمام  
المخالفة أكرار السباب والهجاء، وإن كانت لا تتنافى مع هذه النشأة الراغبة  
الظمأى إلى المال، لأنها قد تنبني على الاستجابة والمواتاة. روى أبو الفرج بطريق  
الصولي: أن زائدة بن معن كان صديقاً لأبي العتاهية ولم يُعن أخويه عليه،  
فمات، فقال أبو العتاهية يرثيه:

حزنت لموت زائدة بن معن      حقيق أن يطول عليه حزني  
فتى الفتیان زائدة المصطفى      أبو العباس كان أخي وخدني  
فتى قوم وأي فتى توارت      به الأكفان تحت ثرى ولبن  
ألا يا قبر زائدة بن معن      دعوتك كي تجيب فلم تجبني  
سل الأيام عن أركان قومي      أصبن بها ركناً بعد ركن<sup>(١)</sup>



(١)، الأغاني، ج ١٤ ص ٥٦.

في  
شعره في عهد المهدي

وفيه فنون:

الغزل، والمديح، وحسن التلطف، والشكوى، والشكر، والعتاب،  
والاقتضاء، والاستبطاء، والاعتذار من الدمع، والهجاء، والثناء:

ولي أبو عبدالله المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور الخلافة عقب وفاة  
أبيه في ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي في المحرم من سنة تسع  
وستين ومائة، وقد كانت ولايته فتحاً على الشعراء، فقد كان المنصور بخيلاً  
أومقتصدًا، بل كان يلوم على السخاء كقصته مع معن بن زائدة أحد عماله  
إذ أعطى مروان بن أبي حفصة على مدحته له التي منها:

معن بن زائدة الذي زيدت به      شرفاً على شرف بنو شيبان

مائة ألف درهم<sup>(١)</sup>.

وقد سخط عليه أبو جعفر بعد أن ولاه اليمن لكرمه فأوفد إليه معن من  
استرضاه عليه<sup>(٢)</sup>. وله نوادر مشهورة في البخل ذكرها ابن جرير<sup>(٣)</sup>. وفي  
الشذرات أنه لم يل الخلافة أحد أكرم من المهدي ولا أبخل من أبيه<sup>(٤)</sup>. وروى

(١) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢١٣؛ والأغاني، ج ٩ ص ٤٤.

(٢) انظر الطبري، ج ٦ ص ٣١١.

(٣) انظر الطبري، ج ٦ من ص ٣١٧ إلى ص ٣٢٠.

(٤) شذرات، ج ١ ص ٢٦٧.

الطبري أن المؤمل بن أميل مدح المهدي ولي عهد فأعطاه عشرين ألف درهم، فبلغ ذلك أبا جعفر فلم يزل في طلبه حتى ظفر به فأخذ منه ستة عشر ألفاً وترك له أربعة آلاف. وقال للمهدي: إنما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم بيابك سنة أربعة آلاف درهم<sup>(١)</sup>. وفي الأغاني والشذرات أن مروان بن أبي حفصة لما مدحه بقصيدته التي يقول فيها:

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالتها

أعطاه مائة ألف درهم وهي أول إجازة بمائة ألف درهم أعطيتها شاعر في خلافة العباسيين<sup>(٢)</sup>؛ والظاهر أن ذلك كان بعد أن أعطاه سبعين ألفاً وأن السبعين لم يعطها شاعر قبله كذلك. فقد روى الطبري أن مروان دخل على المهدي فأنشده شعره الذي يقول فيه:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثته الأعمام

فأجازه بسبعين ألف درهم فقال مروان:

بسبعين ألفاً راشني من حبائه

وما نالها في الناس من شاعر قبلي<sup>(٣)</sup>

وذكر ابن خلكان أن سلماً لما مدح المهدي بقصيدته التي منها:

حضر الرحيل وشدت الأحداج وحدا المجد مشمر مزعاج

شربت بمكة في ذرا بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج

فأراد أن ينقصه عن جائزة مروان حلف سلم أن لا يأخذ إلا مائة ألف وألف درهم فأنفذها له المهدي<sup>(٤)</sup>. وفي الشذرات: ويقال إنه أعطى شاعراً مرة خمسين ألف دينار<sup>(٥)</sup>.

(١) الطبري، ج ٦ ص ٣١٨، ٣١٩.

(٢) الأغاني، ج ٩ ص ٤٢؛ والشذرات، ج ١ ص ٢٦٧.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٤٠٢.

(٤) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٤٨.

(٥) الشذرات، ج ١ ص ٢٦٧.

فقد كان في هذا الكرم الموفي على الآمال ما صرف همه أبي العتاهية ورغبته إلى الوفود على بغداد. ولم يكن يدور بخلده أو يخطر بباله أنه سيحمل بهذه الرحلة من أعباء الهوى ما يغلبه على مشاعره ويستبد بجميع خواطره فإذا بأكثر شعره في هذا العهد ينصرف إلى النسيب الذي يمتد إلى عهد الرشيد متنقلاً في أربعة أطوار: فهو طوراً مشرق باسم يفتقر عن بروق الآمال اللوامع، وطوراً يثن أنين الشوق الباخع والجوى اللاذع، وطوراً ينتهي إلى يأس مريح لتجاوزه حدود العناء وفواته غايات الشقاء، وطوراً يحشمه من عناء الذكرى ما يهز نياط القلوب.

ولا حيلة لي في فصل مديحه عن نسيبه في هذا الفصل لقوة ارتباطه به وبنائه عليه. ومن العجيب أن كثيراً من صلاته بالمهدي قد استقرت على هذا الهوى واصطبغت به، ومن الطريف أن هذا النسيب بدأ مزحاً متكلفاً ليتوسل به إلى المهدي، فلم يزل يمجّد حتى صار مديح المهدي وسيلة إليه.

أما قصة رحلته وبدء أمره فهي كما رواها الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي شعيب أحمد بن يزيد قال: قلت لأبي العتاهية: يا أبا إسحاق، حدثني بقصتك مع عتبة. فقال لي: أحدثك. قدمنا من الكوفة ثلاثة فتیان شاباً أدباء، وليس لنا ببغداد من نقصده. فنزلنا غرفة بالقرب من الجسر، فكنا نبكر فنجلس في المسجد الذي بباب الجسر في كل غداة، فمرت بنا يوماً امرأة راكبة معها خدم سودان، فقلنا: من هذه؟ قالوا: خالصة. فقال أحدهما: قد عشقت خالصة، وعمل فيها شعراً فأعناه عليه؛ ثم لم نلبث أن مرت أخرى راكبة معها خدم بيضان، فقلنا: من هذه؟ فقالوا: عتبة. فقلت: قد عشقت عتبة، فلم نزل كذلك في كل يوم إلى أن التأمت لنا أشعار كثيرة، فدفع صاحبي بشعره إلى خالصة، ودفعت أنا بشعري إلى عتبة.

ويظهر أن أبا العتاهية كان أدهى من صاحبه، فقد قص ما كان من امتحان الجاريتين لهما فإن كانا مستأكلين عوقبا، وإن كانا صادقين عفي عنهما. وفي القصة أن عتبة عرضت على أبي العتاهية خمسمائة دينار على أن يخرج من بغداد

أوتنهى أمره إلى مولاها أمير المؤمنين، فأبى، حتى جعلتها له ألفاً وهو أبى ويجاذبها مجاذبة شديدة، حتى أظهر لها أن كل ما يملك الخليفة لا يفي بانقطاعه عن رؤيتها؛ ثم قص من اغترار صاحبه بالمال وانخداعه بقول خالصة ووقوع العقوبة والتنكيل به، واستشارته إياه في المقام والخروج وإشارته عليه بالخروج من بغداد خوفاً من قدرة الجارية عليه — ما دل على أن أبا العتاهية كان حولاً قلباً أخا كيد ودهاء. وروى الخطيب أيضاً في هذه الرواية — مما يدل على مرح أبي العتاهية وفكاهته وحسن تطفه وحيلته — أنه تظاهر مرة بأنه راهب يريد أن يسلم على يد هذه السيدة فحظي بشفاعة الناس إليها، ولم يزل في تطفه وتدبيره حتى أهم هذه الجارية شأنه واغتمت لراثته هيئته وسوء حاله وأقسمت عليه بحياتها إلا أن يأخذ ثلثمائة دينار ليصلح بها من شأنه<sup>(١)</sup>.

وستحدث الأيام أن كيد عتبة كان أعظم من كيده، وأنها نسجت حبائل دهائها من دهائه. فقد اتخذته شاعراً يذيع محاسنها، حتى إذا ما جد به الهوى تركته يقاسي ما قاساه من لواعج الأشواق والأحزان. وسيأتي تفصيله. وروى صاحب مصارع العشاق بسنده إلى محمد بن سلام، ونحوه إلا أنه أوضح منه — ما رواه الخطيب بسنده إلى عتاهية بن أبي عتاهية ما يدل على أن أول غرض الشاعر من غزله بعتبة كان الوصول إلى المهدي، قال: أقبل أبي يمدح المهدي ويجتهد في الوصول إليه، فلما تناولت أيامه أحب أن يشهر نفسه بأمر يصل به إليه؛ فلما بصر بعتبة راكبة في جمع من الخدم تتصرف في حوائج الخلافة تعرض لها وأمل أن يكون تولعه بها هو السبب الموصل إلى حاجته. وانهمك في التشبيب والتعرض في كل مكان لها والتفرد بذكرها وإظهار شدة عشقه لها. وروى له قصيدة قال إنها أول شعر قاله فيها، وقد ضمنها ذكر سعدى الحيرية التي سبقت الإشارة إلى تشبيهه بها وهي:

راعني يا زيد صوت الغراب      بحذاري للبين من أحبابي  
يا بلائي ويا تقلقل أحشا      ئي وتعسي لطائر نعاب

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ من ص ٢٥٤ إلى ص ٢٥٧.



أفصح البين بالنعيب وما أفصح لي في نعبه بالإياب  
 فاستهلت مدامعي جزعاً مند به بدمع ينهل بالتسكاب  
 ومُنعت الرقّاد حتى كأني أرمد العين أو كُجِلت بصباب  
 قلت للقب إذ طوى وصل سعدى لهواء البعيدة الأنساب  
 أنتَ مثل الذي يفر من القطر سر حذار الندى إلى الميزاب

وتضمن القصيدة لإفصاح الغراب بالبين وعدم الإياب من أول يوم مع ما سلف من أنه قال شعراً فيها قبل أن يصل إليها مما يثير الشك في أولية هذه القصيدة؛ وما أظن تشبيهه شأنه في هواء لعتبة بعد سعدى بالفار من القطر إلى الميزاب إلا من قبح التشبيه، على أن التكلف باد على هذه القصيدة من أول ندائه لزيد إلى فواره إلى الميزاب، وهل زيد هذا أخوه الكوفي فيكون هو المخاطب بالشعر أم أنه الشاب الثالث الذي شبب صاحبه دونه بعتبة وخالصة فلم يبق من شأنه إلا أن يصيخ لمثل هذا النداء من صاحبه، وما أظنه صاحب خالصة فقد أشار عليه بالخروج من بغداد وما أظنه خالفه، فأقام بعد ما لقي من خالصة ما لقي. وبعد، فما هو أول شعر قاله فيها على التحقيق؟ أهو ما رواه صاحب مصارع العشاق بطريق محمد بن سلام — بعدما ذكر تطلبه لسبب يشتهر به فيصل به إلى المهدي — من قوله: فاجتازت به يوماً عتبة راكبة مع عدة من جوارها وحشمها، فكلمها واستوقفها فلم تكلمه ولم تقف عليه وأمرت غلمانها بتنحيته، فأنشأ يقول القصيدة التي مطلعها:

يا عتب ما شاني وما شانك...

ومنها:

الله في قتل فتى مسلم ما نقض العهد وما خانك  
 حرمتني منك دنواً فيا ويلي ما لي ولحرمانك

ولكن ما سبق من شروعه هو وصاحب خالصة في قول الشعر الأول عندما رأياهما ودفعهما الشعر لهما ينافي أن تكون هذه القصيدة أول ما قال، فنحن نحاول إذن ما لا قدرة لنا عليه ولا حيلة لنا فيه. قال الخطيب: وقال في عتبة:  
 ولقد طربت إليك حتى صرت من ألم التصابي

يجد الجليس إذا دنا ربح الصبابة من ثيابي

وفي ربح الصبابة من قبح الاستعارة ما في ماء الملام وريح صوت المالم  
وغيرهما، وليس هذا موضعه، ولكني أرى أن العبارات بحسنها وقبحها وضعفها  
وقوتها مقاييس لأحوال النفوس، فكأن هذا الحب لا يزال متكلفاً لغرض الشهرة  
والوصول إلى المهدي. وروى له أيضاً هذه القصيدة:

وإنني لمعذور على فرط<sup>(١)</sup> حبها لأن لها وجهاً يدل على عذري  
إذا ما بدت والبدر ليلة تمه رأيت لها فضلاً مبيناً على البدر  
وتهتز من تحت الثياب كأنها

قضيب من الريحان في ورق خضر  
أبى الله إلا أن أموت صبابة بساحرة العينين طيبة النشر  
وتبسم عن ثغر نقيّ كأنه

من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر  
يخبرني عنه السواك بطيبه ولست به لولا السواك بذئ خبر

وهو شعر لا يكاد بحسب ظاهره يحمل مغزى معيناً لأنه وصف للجمال  
على نحو ما يصفه الشعراء صدقاً وكذباً. أما الموت صبابة فهو من المعاني التي  
يستعينون بها على إيهام الصدق فيما يقولون، والميت صبابة حقاً لا يتعلق بمثل  
ما ذكر من المحاسن الظاهرة، لأنه يجد في نفسه معاني أعمق من هذه تنسيه هذه  
الأسباب الخارجية وتطويه على نفسه طياً لا يحسّ معه بغير ما في نفسه من آمال  
وآلام؛ والظاهر أنه إنما يصف هذه المحاسن بهذه الجرأة الظاهرة عن  
اقتراح منها، وهو مغزى تقريها له بعد امتحانه وإغداقها عليه آنئذ كما سبق له  
مثال، وسيأتي في شعره حين استقر هواها في نفسه وكانت هي الحاسمة لرجائه  
وحسن ظنه هذا البيت:

ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي وبنات وعدك يعتلجن ببالي

---

(١) فيه على طول والذي كتبه هو المشهور.

فهذا البيت يدل على أن تقريبها له جاوز حد المؤانسة والإحسان إلى  
الوعود، وليست عتبة بأول من أغرى شاعراً بوصف محاسنها ترويحاً لها وتشهيراً  
لجمالها. فقد روى أبو الفرج أن أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك حجت  
فأرسلت إلى كثير وإلى وضاح اليمن أن انسبا بي، فهاب ذلك كثير ونسب  
بجاريتهما غاضرة، وأما وضاح فنسب بها فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله<sup>(١)</sup>.  
ونستقبل من بلوغ الهوى بأبي العتاهية مداه ووصله به إلى ما لم يكن ينويه  
وتلهي عتبة عنه وزهدا فيه ما يكاد يذيب الأكباد ويقطع نياط القلوب. ورحم  
الله مسلم بن الوليد إذ يقول:

هوى يجد وحبيب يلعب وأنت ما بينهما لقي معذب<sup>(٢)</sup>  
وإن شئت أن تعرف كيف صار المزح جداً والتكلف طبعاً فاقراً من شعره  
الذي يهز القلوب هزاً:

أخلاي بي شجو وليس بكم شجو  
وكل امرئ عن شجو صاحبه خلو  
بليت وكان المزح بدء بليتي فأحببت حقاً والبلاء له بدو<sup>(٣)</sup>

وإنه لما استوقف النظر حقاً بدء هذا الجدل بالمزح وانتهاء هذا المزح إليه،  
ولكن المتأمل في أحوال الناس فيما يحبون ويكرهون يجد أن للألف والعادة  
مدخلاً أي مدخل في اصطباغ النفوس بما لها من مشاعر وميول وأخلاق، وهذه  
هي قصة الحياة الدنيا كلها منذ نزلها الإنسان كارهاً لها مستوحشاً منها، فلم تنزل  
به حتى ألفها ولم تنزل هذه الألفة به حتى آثرها ولم يزل هذا الإيثار به حتى كاد  
يختلجه عن سعادته التي فقدوها، ويحرمه حياة العزة والكرامة والخلود.  
فأبو العتاهية كان مازحاً ولم يكن ليرضى بحياة السلامة والدعة بديلاً، ولكنه  
لم يزل يتلمس السبل إلى لقاء عتبة والتشبيب بها ليصل بذلك إلى المهدي حتى

(١) مذهب الأغاني، ج ٣ ص ٣٠، ٣١.

(٢) مذهب الأغاني، ج ٨ ص ٤.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٤١.

ألفها، ولم تنزل هذه الألفة به حتى أحبها، ولم ينزل هذا الحب به حتى صار به إلى ما يقول:

|                             |                                   |
|-----------------------------|-----------------------------------|
| سبحان جبار السماء           | إن المحب لفي عناء                 |
| من لم يذق حرق الهوى         | لم يدر ما جهد البلاء              |
| يا عتب من لم ييك لي         | مما لقيت من الشقاء                |
| بكت الوحوش لرحمتي           | والطير في جو السماء               |
| ومنها في الاعتذار من الدمع: |                                   |
| كم من صديق لي أسا           | رقه البكاء من الحياء              |
| فإذا تأمل لأمني             | فأقول ما بي من بكاء               |
| لكن ذهب لأرتدي              | فطرفت عيني بالرداء <sup>(١)</sup> |

واقراً له إن شئت قوله الذي يشكو فيه شك الناس في حبه:

|                                                  |                                           |
|--------------------------------------------------|-------------------------------------------|
| قال لي أحمد ولم يدر ما بي                        | أثجب الغداة عتبة حقا                      |
| فتنفست ثم قلت نعم حباً جرى في العروق عرقاً فعرقا |                                           |
| أنا عبد لها مقر وما يم                           | لك لي غيرها من الناس رقا                  |
| ناصر مشفق وإن كنت ما أر                          | زق منها والحمد لله عتقا                   |
| ومن الحين والشقاء تعلق                           | ت مليكاً مستكبراً حين يلقي <sup>(٢)</sup> |

هذا بعض حديث عتبة مع أبي العتاهية ولقد كاد ينسينا حديث المهدي معه، بل إنني حين أريد الخلوص منه إلى حديثه مع المهدي لا أخلص منه إلا إليه؛ وكيف لا، وأنا لا أتحدث إلا عن أحوال نفس كان هذا شأنها. وأبو العتاهية منذ أحب عتبة لم يستطع أن يحرر نفسه وشعره من حبها؛ فأنا كذلك لا أستطيع أن أتحرر في الحديث عن شعره كل التحرر من حديثه معها لشدة

(١) القصيدة بطولها إلا قليلاً حذفه المؤلف كما قال في كتاب «مصارع العشاق»، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) أغاني، ج ٣ ص ١٥٨، وج ١٧ ص ١٣٤؛ ومروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٨، ٣٥٩ بإدماج.

ملاسته لجميع شأنه، كما ذكرت، ولأنه مما يمتلك أزمة النفوس وقياد القلوب  
ويتمثل للعين في كل حال:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

ونعود إلى أول باعث للشاعر على الرحلة إلى بغداد، بل إلى ما لم يبعثه  
على المرحلة إليها غيره، وهو الوصول إلى المهدي والتوسل إليه بما يمكن من  
الوسائل فنقول: لم يجد الشاعر طريقه إلى المهدي معبداً، ولم يكن توسله إليه بغزله  
في جاريته كما ذكر ابن خلكان<sup>(١)</sup> أو جارية زوجه ربطة بنت أبي العباس السفاح  
كما ذكر ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»<sup>(٢)</sup>، والحصري في «زهر الآداب»<sup>(٣)</sup> -  
وقال المسعودي: وكانت لها ثم صارت للخيزران بعدها، وسيأتي ما يؤيد أنها  
ليست له، نقول، لم يكن هذا التوسل بالغزل بعتبة مما يستسيغه المهدي  
وهو المشهور بشدة غيرته فيحتمله لأبي العتاهية قبل أن يذوق ما في أعقابه من  
حلاوة المديح. قال الحصري: وضرب المهدي أبا العتاهية مائة سوط لقوله:

ألا أن ظبياً للخليفة صادني

ومالي على ظبي الخليفة من عدوى

وقال: أبي يتمرس ولحرمي يتعرض وينسائي يعبث؟.. ونفاه إلى الكوفة<sup>(٤)</sup>.  
ورواية المسعودي على أن القاتل الرشيد وأنه أمر بحبسه<sup>(٥)</sup>؛ وسيأتي ما يدل على  
أن حبسه في عهد الرشيد لم يكن لغزله بل لتركه الغزل. وروى أبو الفرج  
وابن خلكان<sup>(٦)</sup>، وصاحب «الشذرات»<sup>(٧)</sup> أن المهدي حبسه لامتناعه عن قول  
الشعر وهو عكس القضية، لأنه إنما حبسه لقوله في الغزل، وسيأتي مصداق ذلك

(١) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٨٩.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٣١٠.

(٣) زهر الآداب، ج ٢ ص ٤٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٤٣.

(٥) المروج، ج ٣ ص ٢٧٥.

(٦) الوفيات، ج ١ ص ٩٢.

(٧) الشذرات، ج ٢ ص ٢٥.

من كلمة للرشيد وقد حبسه لامتناعه عن القول في الغزل في الكلام على أسباب الزهد. وقال الحصري وأبو الفرج: وفي ضرب المهدي إياه يقول أبو دهمان الغلابي:

لولا الذي أحدث الخليفة للعش      لاق من ضربهم إذا عشقوا  
لبحثُ باسم الذي أحب ولكنني امرؤ قد ثناني الفرق  
وقال الحصري: وكان أبو العتاهية بالكوفة ثم نفى يذكر عتبة ويكني باسمها، فمن ذلك قوله:

|                    |                                  |
|--------------------|----------------------------------|
| قل لمن لست أسمي    | بأبي أنت وأمي                    |
| بأبي أنت لقد أصـ   | بحت من أكبر همي                  |
| ولقد قلت لأهلي     | إذ أذاب الحب لحمي                |
| وأرادوا لي طبيباً  | فاكتفوا مني بعلمي                |
| من يكن يجهل ما ألـ | قى فإن الحب سقمي                 |
| إن روحي لبغدا      | د وفي الكوفة جسمي <sup>(١)</sup> |

وقوله:

|                               |                                            |
|-------------------------------|--------------------------------------------|
| أمسى ببغداد ظبي لست أذكره     | إلا بكيت إذا ما ذكره خطراً                 |
| إن المحب إذا شطت منازلـه      | عن الحبيب بكى أو حن أو ذكراً               |
| يا رب ليل طويل بت أرقبه       | حتى أضاء عمود الصبح فانفجراً               |
| ما كنت أحسب إلا مذعرفتكم      | أن المضاجع مما يثبت الإبراً                |
| والليل أطول من يوم الحساب على | عين الشجي إذا ما نومه نفراً <sup>(٢)</sup> |

وفي الديوان المطبوع، بعنوان: «وله إلى صديق يصف آلام الفراق»  
وظاهر أنه من في منفاه إلى عتبة:

ما أغفل الناس عن بلائي      وعن عنائي وعن شقائي

(١) الزهر، ج ٢ ص ٤٤.

(٢) نفس المصدر.

يلومني الناس في صديق      والناس لا يعرفون دائي  
يا لهف نفسي على خليل      أصبح في بعده شقائي  
صيرني نأيه غريباً      في غير أرضي ولا سمائي  
قد بلغ الحزن بي مداه      فما اضطباري وما عزائي  
أنت بلائي وأنت دائي      وأنت تدرين ما دوائي  
وأنتم الهم في صباحي      وأنتم الهم في مسائي<sup>(١)</sup>

ويظهر أن حبس المهدي له كان قبل نفيه لما سيأتي من توصله إليه من منفاه بابنه الرشيد. وقال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» في شأنه مع عتبة: فلما بلغ المهدي إكثاره في وصفها غضب، فأمر بحبسه ثم شفع له يزيد بن منصور الحميري خال المهدي فأطلقه<sup>(٢)</sup>. ويؤيد أن الحبس كان قبل النفي أنه كان في منفاه يكتني ويتقي، كما رأيت، حتى سماها صديقاً وخليلاً، مما جعل جامع الديوان لا يدرك ما يريد. ومن قوله من بعد ما خرج من الحبس وهو كما ترى في أعلى طبقات البث والشكوى:

أيا ويح قلبي من نجي البلابل  
ويا ويح ساقِي من قروح السلاسل  
ويا ويح نفسي ويحها ثم ويحها  
فلم تنج يوماً من شباك الجبال  
ويا ويح عيني قد أضر بها البكا  
فلم يغن عنها طب ما في المكاحل<sup>(٣)</sup>

وروى أبو الفرج عن طريق الصولي أن جبلة بن محمد حدثه عن أبيه

(١) الديوان، ص ٣٤٣.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٣١٠.

(٣) الأغاني، ج ٥ ص ٥.

قال: رأيت أبا العتاهية بعد ما تخلص من حبس المهدي وهو يلزم طبيباً على بابنا ليكمل عينه فقليل له: قد طال وجع عينك... فأنشأ يقول:  
أيا ويح نفسي... الأبيات<sup>(١)</sup>

وروى أبو الفرج من قوله في شكر يزيد بن منصور إذ سعى في إطلاقه من الحبس:

ما قلت في فضله شيئاً لأمدحه  
إلا وفضل يزيد فوق ما قلت  
ما زلت من ريب دهري خائفاً وجللاً  
فقد كفاني بعد الله ما خفت<sup>(٢)</sup>  
وله يمدح قوم يزيد اليمينيين في ضمن مدحة له في المهدي:

سقيت الغيث يا قصر السلام      فنعم محلّة الملك الهمام  
لقد نشر الإله عليك نوراً      وحفك بالملائكة الكرام  
سأشكر نعمة المهدي حتى      تدور عليّ دائرة الحمام  
له بيتان بيت تبعي      وبيت حل بالبلد الحرام<sup>(٣)</sup>

وذكر الحصري في مجيئه من منفاه إلى بغداد أنه كان يتلطفه إلى الرشيد ليشفع له حتى اتصل به وتمكن منه، وأنه بلغ المهدي خبره فأحضره فقال له:  
يا بائس أنت مستقل. وسأله عن حاله فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

أنت المقابل والمداد      بر في المناسب والعديد  
بين العمومة والخؤو      لة والأبوة والجدود  
فإذا انتميت إلى أبيك      فأنت في المجد المشيد

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٠.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٠.

(٣) الديوان، ص ٣٢٤.



وإذا انتمى خال فما خال بأكرم من يزيد<sup>(١)</sup>

قال الحصري: يريد يزيد بن منصور، وكانت أم المهدي أم موسى بنت منصور الحميري، وأنشده:

علم العالم أن المنايا سامعات لك فيمن عصاكا  
فلذا وجهتها نحو طاغ رجعت ترعف منه قناكا  
ولو أن الرياح بارتك يوماً في سماح قصرت عن نداكا<sup>(٢)</sup>

وقال الحصري: وأنشده:

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها<sup>(٣)</sup>

فقال المهدي: إن شئت أدبناك بضرب وجيع لإقدامك على ما نهيت عنه وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزة على مدحك لنا، وإن شئت عفونا عنك فقط. فقال: بل يضيف أمير المؤمنين إلى كريم عفوه جميل معروفه، ومكرمتان أكثر من واحدة، وأمير المؤمنين أولى من شفع نعمته وأتم كرمه. فأمر له بثلاثين ألف درهم وعفا عنه.

هذا، وفي رواية الحصري للآمية نقص ظاهر ينسب عن سهوبين؛ فإن داعية التأديب وموضع الإقدام على ما نهى عنه ليس هو المديح ولكنه ما بدئت به هذه القصيدة من التشبيب بعتبة. وقد ذكر المسعودي ضربه له من أجله<sup>(٤)</sup>، ورواية المسعودي تتنافى مع ما سيأتي من إنشاده إياه على رؤوس الأشهاد، وفي هذا الإنشاد ما يدل على أن حلاوة هذا المديح أنست المهدي ما كرهه من التشبيب. وذكر أبو الفرج في ترجمة مروان بن أبي حفصة وابن خلكان في ترجمته لمعن بن زائدة أن مجلس الإنشاد كان يعقد كل سنة<sup>(٥)</sup>، وها هو ذا مجلس الإنشاد يعقد

(١) زهر الآداب، ج ٢ ص ٤٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٤، ٤٥.

(٣) زهر الآداب، ج ٢ ص ٤٥.

(٤) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٣٩.

(٥) الأغاني، ج ٩ ص ٤٤؛ والوفيات، ج ٢ ص ١٤٧.

ويجلس المهدي للشعراء فيأذن لهم وفيهم بشار وأشجع - وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه - وغير هذين، وكان في القوم أبو العتاهية. قال أشجع: فلما سمع بشار كلامه قال: يا أخا سليم، أهذا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت: نعم، قال: لا جزى الله خيراً من جمعنا معه. ثم قال له المهدي: أنشد. فقال: ويحك، أوبداً فيستنشد أيضاً قبلنا؟ فقلت: قد ترى، فأنشد:

ألا ما لسيدتي مالها      أدلاً فأحمل ادلالها  
ألا أن جارية للإمام      م قد أسكن الحسن سربالها  
مشت بين حور قصار الخطا      تجاذب في المشي أكفالها  
وقد أتعب الله نفسي بها      وأتعب باللوم عدالها

قال أشجع: فقال لي بشار: ويحك يا أخا سليم. ما أدري من أي أمره أعجب: أمن ضعف شعره أم من تشبيهه بجارية الخليفة يسمع ذلك بإذنه؟ حتى أتى على قوله:

أنته الخلافة منقادة      إليه تجرّر أذيالها  
ولم تلك تصلح إلا له      ولم يك يصلح إلا لها  
ولو رامها أحد غيره      لزلزلت الأرض زلزالها  
ولو لم تطعه بنات القلو      ب لما قبل الله أعمالها  
وإن الخليفة من بغض «لا»      إليه ليغضض من قالها

قال أشجع: فقال لي بشار وقد اهتز طرباً: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر عن فرشه طرباً لما يأتي به هذا الكوفي؟<sup>(١)</sup> فقد صار أبو العتاهية إذن إلى ما أحب أو إلى أكثر منه عند المهدي بعدما لقي منه ما لقي. وله في المهدي مدحة أخرى تائية بدأها أيضاً بذكر عتبة، وهي بطولها في الأغاني ومن عيونها قوله فيها:

لا تغفر الذنب إن أسأت ولا      تقبل عذري ولا مواتاتي

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٧؛ ومقدمة الديوان المخطوط بتغيير يسير.

منحتها مهجتي وخالصتي      فكان هجرانها مكافاتي  
ومنها في المهدي:

عليه تاجان فوق مفرقه      تاج جلال وتاج اخبات  
يقول للريح كلما عصفت:      هل لك يا ريح في مباراتي  
من مثل من عمه الرسول ومن      أخواله أكرم الخؤولات؟<sup>(١)</sup>

وقال ابن رشيقي في العمدة: ومن مليح ما لأبي العتاهية في المدح قوله:  
فتى ما استفاد المال إلا أفاده      سواء كأن المال في كفه حلم  
إذا ابتسم المهدي نادى يمينه      إلا من أتانا زائراً فله الحكم  
وقال ابن عبد البر: وروينا أن أبا العتاهية حج في زمن المهدي وضربت  
بعده السكة فلما انصرف كتب إلى المهدي:

خبروني أن من ضرب السنه      جدداً بيضاً وحمراً حسنه  
لم أكن أعهد لها فيما مضى      مثلما كنت أرى كل سنه

فبعث إليه المهدي بألف دينار جدد وبعشرة آلاف درهم جدد<sup>(٢)</sup>. وفي  
الأغاني روايتان أخريان لنحو القصص والبيتين مع المأمون وزبيدة<sup>(٣)</sup>. ورواية  
ابن عبد البر أوثق والشعر بعهد المهدي أشبه. هذا وتأبى لاجحة الهوى إلا أن  
تتوسل بهذه المنزلة الشريفة عند المهدي إلى ما غفره له من ذكر عتبة، لا بل إلى  
سؤاله إياها. فقد روى الحصري وأبو الفرج أن يزيد حوراء المغني - وكان  
صديقاً لأبي العتاهية - قال: كلمني أبو العتاهية في أن أكلم له المهدي في  
عتبة؛ فقلت له: إن الكلام لا يمكنني ولكن قل شعراً أغنه به فقال:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة      الله والقائم المهدي يكفيها  
إني لأياس منها ثم يطمعني      فيها احتقارك للدنيا وما فيها

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٩.

(٢) الديوان المخطوط والمطبوع، ص ٣١٨.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٧، وج ٢١ ص ١١، ١٢.

قال: فعملت فيه لحناً وغنيته به فقال: ما هذا؟ فأخبرته خبر أبي العتاهية. فقال: ننظر فيها سأل. فأخبرت أبا العتاهية. ثم مضى شهر فجاءني وقال: حدث خبر؟ فقلت: لا. قال: فاذكرني للمهدي، قلت: إن أحببت ذلك فقل شعراً تحركه وتذكره وعدّه حتى أغنيه به. فقال:

ليت شعري ما عندكم ليت شعري      فلقد أخرج الجواب لأمر  
ما جواب أولى بكل جميل      من جواب يردّ من بعد شهر

قال يزيد: فغنيته به المهدي فقال: عليّ بعتبة؛ فأحضرت. فقال: إن أبا العتاهية كلمني فيك فما تقولين؟ ولك وله عندي ما تحبان مما لا تبلغه أمانيكما. فقالت له: قد يعلم أمير المؤمنين ما أوجب الله عليّ من حق مولاتي، وأريد أن أذكر لها هذا. قال: فافعلي. قال: وأعلمت أبا العتاهية، ومضت أيام فسألني معاودة المهدي فقلت: قد عرفت الطريق فقل ما شئت حتى أغنيه فقال:

أشربت قلبي من رجائك ما له      عَنق يخب إليك بي ورسيم  
وأملت نحو سماء جودك ناظري      أرعى مخايل برقها وأشيم  
ولربما استيأست ثم أقول لا      إن الذي ضمن النجاح كريم

قال يزيد: فغنيته المهدي فقال: عليّ بعتبة، فجاءت. فقال: ما صنعت؟ فقالت: ذكرت ذلك لمولاتي فكرهته وأبته، فليفعل أمير المؤمنين ما يريد. فقال: ما كنت لأفعل شيئاً تكرهه. فأعلمت أبا العتاهية بذلك فقال:

قطعت منك حبال الآمال      وأرحت من حل ومن ترحال  
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي      وبنات وعدك يعتلجن ببالي  
ولئن طمعت لرب برقة خلب      مالت بذني طمع ولمعة آل<sup>(١)</sup>

ويناسب هذا المقام قوله من قصيدة رواها المسعودي له:

يالهف نفسي على التي اجتنبت      بأي جرم ترونها عتبت  
تبارك الله بشئ ما صنعت      بي في هواها وبئس ما ارتكبت

(١) زهر الأداب، ج ٢ ص ٤٢، ٤٣؛ والأغاني، ج ٣ ص ٧١، ٧٢.

ومنها:

الله بيني وبين ظالمتي طلبت منها وصالها فأبت

ومنها:

رغبت في وصلها وقد زهدت عتبة في وصلنا وما رغبت<sup>(١)</sup>

هذا، وقد روى المبرد في الكامل والمسعودي في «المروج» عنه في البيتين الأولين أن أبا العتاهية كتبها على أطراف ثوب ممسك أهداه إلى المهدي فهم بأن يدفع إليه عتبة فأبت وقالت: مع حرمتي وخدمتي تدفعني إلى جرار متكسب بالعشق أو بالشعر - روايتان - فأعفاها. وذكر أنه أمر له بمال فاختلف مع الكتاب، هؤلاء يقولون: أمر بدراهم، ويقول هو: أمر بدنانير، فاتهمته عتبة بهذا التمييز للمال في حبه<sup>(٢)</sup>، وهذا مناف لما سلف من احتماله في سبيلها قبل تمكنه عند المهدي ما لقي من الضرب والنفي والحبس، وعبرة المسعودي في ضربه وفيها وصف نظرة أبي العتاهية إلى العوض المالي عنها: جلد المهدي أبا العتاهية نحواً من حد لما شكت عتبة إليه ذكره لها في شعره، فلقية عتبة وهو على تلك الحال فقال:

بخ بخ يا عُتْب من مثلكم فقد قتل المهدي فيكم قليلاً

وظاهر من أول قصصهما أنها لم تكن بالتّي تشكو من غزله وهي التي بعثته على التماذي فيه، فلعلها خشيت سوء ظن المهدي بها فصرفت عنها بهذه الشكوى؛ وفيه أنها لما رآته على تلك الحال تغرغرت عيناها بالدموع وبلغ المهدي بكاؤها فأعطاهما خمسين ألف درهم ففرقها على من بالباب وقال: ما كنت لأكل ثمن من أحبيت<sup>(٣)</sup>.

وظاهر أن أبا العتاهية ما كان ليتعفف عن المال وهو في أول سعيه إليه ثم

(١) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) الكامل، للمبرد، ج ٢ ص ١١؛ ومروج الذهب، ج ٣ ص ٢٤٠.

(٣) مروج، ج ٣ ص ٢٣٩، ٢٤٠.

تشره نفسه إليه بعد ما نال من منزلة وجاه. وظاهر من بكاء عتبة أنه ليس سوى ندم الجاني على ما جناه. وقال الحصري في قصة أغاني يزيد حوراء الأنفة: وقد نُقلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه والله أعلم بالحق في ذلك. والظاهر أنه يشير إلى ما رواه المبرد والمسعودي آنفاً في بيتي الإهداء، وما رواه المسعودي أيضاً من إهدائه للرشييد ثلاث مراوح على كل واحدة منها بيت من القطعة الميمية ورواية البيت الأول من أبيات اليأس في عهد الرشيد<sup>(١)</sup>. والحق إن أخباره مع عتبة لا تكاد تتميز في العهدين، إلا أن القرائن الحالية دالة على أن أبا العتاهية لم يقطع أمله منها تمام القطع إلا في عهد الرشيد لما اقترن بذلك من زهده وتغير حياته وشعره، كما سيأتي إن شاء الله. على أن محاولة أو أكثر من هذا النوع قد بذلت بلاريب في عهد المهدي، ويشهد بذلك ما ذكره الحصري في «زهر الآداب» عن بعض الرواة قال: خرج المهدي متصيداً فسمع رجلاً يتغنى من القصيدة التي مرت منها الأبيات — يريد الحصري مدحة له في عمر بن العلاء أحد القواد والولاة للمهدي وأبيه — :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| يا من تفرد بالجمال فما ترى  | عيني على أحد سواه جمالا    |
| أكثرت في قلبي عليك من الرقى | وضربت في شعري لك الأمثالا  |
| فأبيت إلا جفوة وقطيعة       | وأبيت إلا نخوة ودلالا      |
| بالله قلبي إن سألتك واصدقي  | أوجدت قتلي في الكتاب حلالا |
| أم لا — فقيم جفوتي وظلمتي   | وجعلتني للعالمين نكالا     |
| كم لائم لو كنت أسمع قوله    | قد لامني ونهى وعد وقالا    |

فقال المهدي: عليّ به، فجاءه. فقال: لمن هذا الشعر؟ قال: لإسماعيل بن القاسم أبي العتاهية؛ قال: لمن يقوله؟ قال: لعتبة جارية المهدي، قال: كذبت لو كانت جاريتي لوهبتها له<sup>(٢)</sup>.

(١) مروج، ج ٣ ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) زهر الآداب، ج ٢ ص ٤١، ٤٢.

أما مدحته في عمر فهي كما رواها الحصري وغيره:

إنِّي أمنت من الزمان وربيهِ      لما علقت من الأمير حبلاً  
لو يستطيع الناس من إجلاله      لحدوا له حر الوجوه نعلاً  
ما كان هذا الجود حتى كنت يا      عمر ولو يوماً تزول لزالاً  
إن المطايا تشتكيك لأنها      قطعت إليك سباسباً ورمالاً  
فإذا وردن بنا وردن مخفة      وإذا صدرن بنا صدرن ثقلاً<sup>(١)</sup>

أما داعي هذا المديح فهو ما اشتهر من كرم عمر وكان جواداً ممدحاً. قال الحصري: ولما مدحه أبو العتاهية بهذا الشعر تأخر عنه برّه قليلاً، وفي أمالي القالي: فقال له عمر حين مدحه: أقم حتى أنظر في أمرك، فأقام أياماً ولم ير شيئاً، وكان عمر ينتظر ما لا يجيء من وجه فأبطأ عليه، فكتب إليه أبو العتاهية:

يا ابن العلاء ويا ابن القرم مرداس  
إنِّي امتدحتك في صبحي وجلاسي  
أثني عليك ولي حال تكذبني  
فيما أقول فأستحيي من الناس  
حتى إذا قيل: ما أعطاك من صفد؟  
طأطأت من سوء حال عندها راسي

فقال عمر لحاجبه: اكفيه أياماً، فقال له الحاجب كلاماً دفعه به، وقال له: تنتظر. فكتب إليه أبو العتاهية:

أصابت علينا جودك العين يا عمر      فنحن لها نبغي التمام والنشر  
أصابتك عين في سخائك صلبة      ويارب عين صلبة تغلق الحجر  
سنريك بالأشعار حتى تملها      فإن لم تُفق منها رقيناك بالسور

(١) زهر الأداب، ج ٢ ص ٤٠، ٤١.

فضحك عمر وقال لصاحب بيت ماله: كم عندك؟ قال: سبعون ألف درهم. قال: ادفعها إليه، ويقال إنه قال له: اعذرني عنده ولا تدخله عليّ فأني أستحي منه<sup>(١)</sup>. وتمتة الحصري على هذا النحو فيما عدا ما قدمنا به للقطعتين من الأمالي<sup>(٢)</sup>. وفي «الأغاني»، قال قائل للمهدي: إن عمر بن العلاء خائن. فقال له: ومن أين علمت ذلك؟ قال: كلم في رجل كان أقصى أمله ألف درهم فوهب له مئة ألف درهم. فضحك المهدي ثم قال: قل كل يعمل على شاكلته، أما سمعت قول بشار - وروى له بيتين فيه - ثم قال: أما سمعت قول أبي العتاهية فيه، وروى البيتين الأخيرين من اللامية، والأول والثالث من السينية<sup>(٣)</sup>. وسبق له من رسالة إلى عمر بن العلاء في الباب السابق أبيات ذهبت به مذهب الاعتذار عن الجفاء وهي التي مطلعها:

رضيت ببعض الذل خوف جميعه وليس لمثلي بالملوك يدان<sup>(٤)</sup>

وروى الخطيب في «تايخ بغداد» بسنده إلى العتبي قال: رثي مروان بن أبي حفصة واقفاً بباب الجسر، كثيراً أسفاً، ينكت بسوطه في معرفة دابته فقيل له: يا أبا السمط، ما الذي نراه بك؟ قال: أخبركم بالعجب، مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتي من خطامها إلى خفيها ووصفت الفياقي من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ورملة رملة حتى إذا أشفيت منه على غناء الدهر جاء أبو العتاهية<sup>(٥)</sup> فأنشده بيتين فضضع بهما شعري، وسواه في الجائزة، فقيل له: وما البيتان؟ فأنشد:

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالا  
فإذا رحلن بنا رحلن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا<sup>(٦)</sup>

(١) أمالي القالي، ج ١ ص ٢٤٣.

(٢) زهر الأداب، ج ٢ ص ٤٠، ٤١.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ٤٥.

(٤) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٨.

(٥) في الأصل ابن بياضة الفخاخير.

(٦) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٨.



ورواية البيتين على هذا الوجه أي نسبتها إلى المهدي منافية لكل ما سلف، ولكن على القصة من مسحة الحق ولهجة الصدق ماترى، فلعل الراوي إنما أخطأ في إيراد البيتين.

ولأبي العتاهية غير هذه الفنون السابقة من الغزل بعتبة ومديح المهدي وحسن التلطف إليه في أمرها والشكوى من الحبس والقيود وشكر يزيد بن منصور ومدح قومه اليمانية ومدح عمر بن العلاء وعتابه واستنجاهه فنون كدرة من الهجاء وأخرى صافية من الرثاء؛ وينقسم هجاؤه في هذا العهد بحسب دواعيه إلى ثلاثة أقسام: قسم مقترح للمزاح، وهو من اقتراح المهدي عليه، وقد انتصف فيه لنفسه وهو في والبة بن الحباب؛ وقسم يجري على دواعي نشأته من النهم ونكد الطبع، وهو في صالح المسكين بن أبي جعفر المنصور، وفي علي بن يقطين، أحد من ولي ديوان زمام الأزمة للمهدي<sup>(١)</sup>، وابن قائد من قواد المنصور، وداع من دعاة الشيعة؛ وكان في علي تشيع الطالبين (ومات سنة ١٨٢)<sup>(٢)</sup>. أما الرثاء ففي والبة بن الحباب، ويزيد بن منصور الحميري.

#### □ النوع الأول من الهجاء:

##### هجاؤه للمهدي:

روى أبو الفرج بسنده إلى أبي العتاهية قال: أخرجني المهدي معه إلى الصيد فوقعنا منه على شيء كثير فتفرق أصحابه في طلبه وأخذ هو في طريق غير طريقهم فلم يلتفتوا، وعرض لنا واد وتغيمت السماء، وبدأت تمطر فتحيرنا وأشرفنا على الوادي فإذا فيه ملاح يعبر الناس فلجأنا إليه فسألناه عن الطريق فجعل يضعف رأينا، ويعجزنا في بذلنا أنفسنا في ذلك الغيم للصيد حتى أبعدنا، ثم أدخلنا كوخاً له، وكاد المهدي يموت برداً فقال له: أغطيك بجبتي هذه الصوف؟ فقال: نعم. فغطاه بها فتماسك قليلاً ونام. فافتقده غلماؤه،

(١) ولي ديوان الأزمة في سنة ١٦٨؛ الطبري، ج ٦ ص ٣٩١.

(٢) الفهرست، ص ٣١٤.

وتبعوا أثره حتى جاؤونا؛ فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب، وتبادر الغلمان فنحوا الجبة عنه وألقوا عليه الخنز والديباج؛ فلما انتبه قال لي: ويحك ما فعل الملاح، فقد والله وجب حقه علينا؟ فقلت: هرب والله من قبج ما خاطبنا به. قال: إنا لله، والله لقد أردت أن أغنيه، وبأي شيء خاطبنا، نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به، بحياتي عليك إلا ما هجوتني. فقلت: يا أمير المؤمنين، كيف تطيب نفسي بأن أهجوك؟ قال: والله لتفعلن، فإني ضعيف الرأي مغرم بالصيد، فقلت:

يا لابس الوشي على ثوبه      ما أقبح الأشيب في الراح  
فقال: زدني بحياتي، فقلت:

لو شئت أيضاً جلت في خامه      وفي وشاحين وأوضاع  
فقال: ويلك هذا معنى سوء يرويه عنك الناس وأنا أستاذل. زدني شيئاً آخر. فقلت: أخاف أن تغضب، قال: لا والله، فقلت:

كم من عظيم القدر في نفسه      قد نام في جبة ملاح  
فقال: معنى سوء. ولعنه. قال أبو العتاهية: وركبنا وانصرفنا<sup>(١)</sup>.

#### □ النوع الثاني من الهجاء:

روى أبو الفرج في ترجمة والبة بن الحباب بسنده إلى محمد بن عمر الجرجاني قال: رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبي فقال له: إن والبة بن الحباب قد هجاني ومن أنا منه. أنا جرار مسكين - وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه - فأحب أن تكلمه أن يمسك عني. قال: فكلّم أبي والبة وعرفه أن أبا العتاهية جاءه وسأله ذلك؛ فلم يقبل وجعل يشتم أبا العتاهية؛ فتركه ثم جاء أبو العتاهية فسأله عما عمل في حاجته فأخبره بما رد عليه والبة، فقال لأبي: لي الآن إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: لا تكلمني في أمره. قال: قلت له: هذا أول ما يجب لك. قال: فقال أبو العتاهية يهجو، وروى له البائية التي أسلفت منها

(١) الأغاني، ج ٣١ ص ١٤٤، ١٤٥.

طرفاً في باب التعريف واستظهرت أنها لبشار ثم قال: وقال في والبة أيضاً. .  
وروى له قصيدة منها في نفي عربيته بسبب بياض لونه ولون العرب السمرة:

وابن الحجاب صليبة زعموا      ومن المحال صليبة أشقر  
ما بال من آباؤه عرب الـ      ألوان يحسب من بني قيصر  
أترون أهل البدو قد مسخوا      شقراً أما هذا من المنكر

قال راوي الخبر: فبلغ الشعر والبة فجاء إلى أبي فقال: قد كلمتني في  
أبي العتاهية وقد رغبت في الصلح، فقال له أبي: هيهات إنه قد أكد عليّ  
أن لا يقبل ما تطلب وأن أخلي بينك وبينه وقد فعلت، فقال له والبة: وما الرأي  
عندك فقد فضحتني! قال: تنحدر إلى الكوفة؛ فركب زورقاً ومضى من بغداد إلى  
الكوفة<sup>(١)</sup>.

#### □ النوع الثالث من الهجاء:

روى أبو الفرج بسنده إلى أبي العتاهية قال: كنت منقطعاً إلى صالح  
المسكين وهو ابن أبي جعفر المنصور فأصبت في ناحيته مائة ألف درهم، وكان لي  
وداً وصديقاً فجثته يوماً وكان لي في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيري، فنظرت  
إليه قد قصر بي عنها، وعادته ثانياً فكانت حالته تلك. ورأيت نظره إليّ ثقیلاً  
فنهضت وقلت:

أراني صالح بغضا      فأظهرت له بغضا  
ولا والله لا ينق      ض إلا زده نقضا  
وإلا زده مقتا      وإلا زده رفضا  
ألا يا مفسد الود      وقد كان له محضا  
تغضبت من الريح      فما أطلب أن ترضى  
لئن كان لك المال الـ      مصفي إن لي عرضا

(١) الأغاني، ج ١٦، ص ١٤٣، ١٤٤.

قال: فمني الكلام إلى صالح فنادى بالعداوة فقلت فيه:  
مددت لمعرض حبلاً طويلاً كأطول ما يكون من الحبال  
حبال بالصريمة ليس تفنى موصلة على عدد الرمال  
فلا تنظر إليه ولا تردني ولا تقرب حبالك من حبالي  
فليت الردم من ياجوج بيني وبينك مُثَبِّتاً أخرى الليالي<sup>(١)</sup>  
وأنا لا أستطيع أن أفهم أنه يهجو أخا المهدي ويحتريء عليه كل هذه  
الجرأة إلا بقوة سياسية تدفعه إليه دفعاً. وكيف وهو يعمل الحيل في الزلفى إلى  
المهدي والتقرب إليه..

ونحو هذا الهجاء - إلا أنه مجرد لباعث الرغبة ونكد الطبع، ما رواه  
أبو الفرج من أن علي بن يقطين كان صديقاً لأبي العتاهية وكان يبره في كل  
سنة ببر واسع فأبطأ عليه سنة من السنين فقال فيه:

حتى متى ليت شعري يا ابن يقطين  
أثني عليك بما لا منك توليني  
إن السلام وإن البشر من رجل  
في مثل ما أنت فيه ليس يكفيني  
هذا زمان ألح الناس فيه علي  
فيه الملوك وأخلاق المساكين  
أما علمت جزاك الله سالحة  
وزادك الله فضلاً يا ابن يقطين  
أني أريدك للدنيا وعاجلها  
ولا أريدك يوم الدين للدين  
فقال علي بن يقطين، وكان استوقفه فأنشده إياها وهو راكب إلى دار

---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٣؛ والديوان، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

الخليفة: لست والله أبرح ولا تبرح من موضعنا هذا إلا راضياً. وأمر له بما كان يبعث به إليه في كل سنة فحمل من وقته وعلي واقف إلى أن تسلمه<sup>(١)</sup>.

### الرشاء:

□ رثاؤه لوالبة بن الحباب:

لأبي العتاهية ناحية خلقية تتجلى بتبع أخباره، وهي اطراح الخصومة ونسيان الأذى؛ وما هو ذا بعدما كان من مهاجاة والبة له يرثيه فيعلي من قدره بعد موته ويعلم عن عموم المصاب فيه:

بكت البرية قاطبة      جزعاً لمصرع والبه  
قامت لموت أبي إما      مة في الرفاق النادبه<sup>(٢)</sup>

□ رثاؤه ليزيد بن منصور الحميري:

سبق بعض شأنه معه إذ أطلقه من حبس المهدي فشكره ومدحه، وقال أبو الفرج: وكان يزيد بن منصور من أكرم الناس وأحفظهم لحرمة، وأرعاهم لعهد، وكان باراً بأبي العتاهية وكان منه في منعة وحصن حصين مع كثرة ما يدفعه إليه، ويمنعه منه من المكاره فلما مات قال أبو العتاهية يرثيه:

أنعى يزيد بن منصور إلى البشر  
أنعى يزيد لأهل البدو والحضر  
يا ساكن الحفرة المهجور ساكنها  
بعد المقاصر والأبواب والحجر  
وجدت فقدك في مالي وفي نشبي  
وجدت فقدك في شعري وفي نثري<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٥.

(٢) الأغاني، ج ١٦ ص ١٤٥.

(٣) في الأصل وفي بشري.

فلست أدري جزاك الله صالحة

أمنظري اليوم أسوا فيك أم خبري<sup>(١)</sup>

هذا ولأبي العتاهية في هذا العهد مرثية في البانوقه بنت المهدي أنشده  
إياها، إلا أنه ذهب بها مذهب التهيد في الدنيا والنهي عن الاغترار بها فأخبرتها  
للقسم التالي.

□ □ □

---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٧ باختصار.

في  
شعره في عهد الهادي

وفيه فنون:

الاستعطاف، والمديح، والتهنئة، والوصف، والغزل.

والاعتذار:

ولي موسى الهادي الخلافة عقب وفاة أبيه المهدي وذلك في سنة تسع وستين ومائة إلى أن توفي قبل سنة ١٧٠، فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وأقل، فلم تكن ذات أثر بارز في الحياة الأدبية أو غيرها، إلا أنه قد عرف عنه ولي عهد وخليفة من العناية بالأدباء والشعراء ما كان كفيلاً لوطالت به الأيام أن يجعل له في دولة بني العباس ما لعظمائهم من عظيم الآثار.

روى الطبري بسنده إلى معن السلمي، قال: دخلت على موسى، فأنشدته:

يا منزلي شجو الفؤاد تكلما      فلقد أرى بكما الرباب وكلثما

وأنشد بعض الأبيات، ثم قال: فلما بلغت:

سبط الأنامل بالفعال أحاله      أن ليس يترك في الخزائن درهما

التفت إلى أحمد الخازن فقال: ويحك يا أحمد، كأنه نظر إلينا البارحة. قال: وكان قد أخرج في تلك الليلة مالاً كثيراً ففرقه. وأرسل وهو ولي عهد إلى بعض الشعراء ليصنع له شعراً اقترحه في غناء استطابه، فصنع له ثلاثة أبيات أعجبه، فنظر فإذا بغير أمامه، فقال: أوقروا هذا دراهم ودنانير واذهبوا بها إليه<sup>(١)</sup>. فلا عجب إذن أن تطمح إليه آمال الشعراء وترى في خلافته رأيها في

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٣٨.

عهد أبيه لولا أن حال دون آمالهم قصر العهد ووشك الأجل . ولئن كان هم الشعراء همّاً واحداً هو جوائز السنية، فلقد كان لأبي العتاهية هتان كان هذا أيسرهما؛ فقد كان الهادي كما روى أبو الفرج واجداً عليه لملازمته أخاه هارون وانقطاعه إليه وتركه<sup>(١)</sup>. وكان بين الهادي والرشيد ما بين خلفاء هذا العصر وبين ولاة عهودهم من غير أبنائهم من المنصور إلى الأمين، حتى أراد الهادي - كما أراد من قبله ومن بعده منهم - أن يصرفها عن أخيه إلى ابنه جعفر، بل لقد هم، كما روى الطبري، أن يقتل الرشيد لولا أن عاجلته منيته في نفس الليلة التي حددها لقتله<sup>(٢)</sup>. وروى الطبري أيضاً عن بعض رواة أن قتله كان بتدبير من أمه الخيزران، إذ كان قد كف ما لها من نفوذ في عهد أبيه وأغلظ عليها أشد التغليظ؛ وكان في موسى قسوة وبطش شديد. وهذه الخصومة العنيفة بين الهادي والرشيد يظهر مبلغ سخط الهادي على أبي العتاهية المختص دونه بأخيه. وأضاف أبو الفرج، إلى ما سلف، أنه كان أمر أيضاً أن يخرج معه إلى الري فأبى ذلك. قال أبو الفرج، فخافه وقال يستعطفه:

ألا شافع عند الخليفة يشفع      فيدفع عنا شر ما يتوقع  
وإني على عظم الرجاء لخائف      كأنّ على رأسي الأسنة تشرع  
يروعني موسى على غير عشرة

وما لي أرى موسى من العفو أوسع؟

وما آمن يمسي ويصبح عائداً      بعفو أمير المؤمنين يروع<sup>(٣)</sup>

ويظهر أن هذا الخوف قد بلغ بأبي العتاهية مبلغين آخرين بعيدي المدى. أحدهما أمر عتبة، فإنه لم يجر لها في هذا العهد ذكراً ولا تشفع بموسى إليها كما تشفع بأبيه وكما سيأتي من شفاعته إليها بأخيه. ولعل دوام هذا الحال

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٧.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٤٤١.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٧، ١٥٠.



مع ما سنستقبله من رضاه عليه كان بسبب هذه الخصومة التي بينه وبين أمه الخيزران، فإن عتبة كانت قد صارت إليها. والآخر ضعف صلته بالرشيد، ففي قصيدتين من قصائده يستعين على مدح الهادي واسترضائه بالتعريض والمساس بالرشيد، إذ يقول له في الرائية التي مطلعها:

يضطرب الخوف والرجاء إذا      حرك موسى القضيبي أو فكر  
يثمر من مسه القضيبي ولو      يمسه غيره لما أثمر

فقد روى الطبري أن المهدي قال: رأيت في منامي كأي دفعت إلى موسى قضيياً وإلى هارون قضيياً، فأورق من قضيبي موسى أعلاه قليلاً، فأما هارون فأورق قضييه من أوله إلى آخره، فدعا المهدي من يعبرها له، فعبها بقوله: يملكان جميعاً، فأما موسى فقتل أيامه، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة<sup>(١)</sup>. وقد كان الهادي والرشيد يعلمان بهذه الرؤيا وتأويلها، ففي تاريخ الطبري ما يتضمن أن الهادي قال للرشيد في مجلس غضب عليه وإقصاء له: كأنك تحدث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرط القتاد - تؤمل الخلافة. وروى الطبري من حسن تلمظ الرشيد إليه وإظهاره الخضوع له والوعد الجميل بالإحسان إلى أولاده إن كان ذلك هو القضاء ما ترضاه به<sup>(٢)</sup>. وموضع التعريض في إثمار القضيبي في يده دون غيره، فإن الإثمار أعظم من الإبراق، ثم إن الغالب في الشجر الذي لا ثمر له كثرة الورق، كقول ابن الرومي:

فغدا كالخلاف يورق للعي -      من ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول ابن لشكك:

في شجر السرو منهم مثل      له رواء وما له ثمر<sup>(٣)</sup>

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٢٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) أسرار البلاغة، ص ٩٩.

وقد يتعين أن المراد بهذا الثمر الأولاد، فقد كان لموسى خمسة أولاد ذكور وابنتان غير من ولد بعد وفاته كما ذكر ذلك الطبري<sup>(١)</sup>. وأول من ولد للرشيد هو المأمون ولم يولد إلا ليلة خلافته، ويظهر هذا التعريض بل يتعين في هذه التهئة بمولود:

|                       |                       |
|-----------------------|-----------------------|
| أكثر موسى غيظ حساده   | وزين الأرض بأولاده    |
| وجاءنا من صلبه سيد    | أصيد في تقطيع أجداده  |
| فاكتست الأرض به بهجة  | واستبشر الملك بميلاده |
| وابتسم المنبر عن فرحة | علت بها ذروة أعواده   |
| كأنني بعد قليل به     | بين مواليه وقواده     |
| في محفل تخفق راياته   | قد طبق الأرض بأجناده  |

ولقد كان أبو العتاهية كعهدنا به عظيم الكيد والدهاء، حسن الثاني والتلطف إلى قلب الهادي، فقد رضي عنه إذ أنشده الرائية وضم إلى رضاه إذ أنشده هذه التهئة ألف دينار، ولعله أن يكون من عوامل إحسان الشاعر أن يجد من الرضا بعد الغضب ما يجعله ينطلق بمثل ما انطلق به أبو العتاهية في هذه القصيدة الجامعة لما جمعت من فنون الوصف والغزل والمديح، وها هي ذي مع حذف أبيات آثرت أن أتركها مع عذوبتها وحلاوتها لمثل ما سلف في مساجلة ابن الأنباري، قال أبو العتاهية:

|                       |                        |
|-----------------------|------------------------|
| لهفي على الزمن القصير | بين الخورنق والسدير    |
| إذ نحن في غرف الجنا   | ن نعيم في بحر السرور   |
| في فتية ملكوا عنا     | ن الدهر أمثال الصقور   |
| ما منهم إلا الجسو     | ر على الهوى غير الحصور |

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٢٨.

وقد أورد أبو الفرج ها هنا طائفة من الأبيات الواصفة لجسارة هؤلاء  
الفتيان على الهوى واللذات، ثم ذكر في وصف الحسان:

|                      |                                       |
|----------------------|---------------------------------------|
| ربا رواد فهن يلد     | بسبن الخواتم في الخصور                |
| غر الوجوه محجبا      | ت قاصرات الطرف حور                    |
| متنعمات في النعيم    | م مضمخات بالعبير                      |
| يرفلن في حلل المحا   | سن والمجاسد والحرير                   |
| ما إن يرين الشمس الـ | لا الفرط <sup>(١)</sup> من خلل الستور |

وما أبدع تخلصه بعد ما بسط من نفس صاحبه وشرح من صدره بهذا  
الوصف الجميل وما قبله من المديح، إذ يقول:

|                    |                                 |
|--------------------|---------------------------------|
| وإلى أمين الله مهـ | ربنا من الدهر العثور            |
| وإليه أتعبنا المطا | يا بالرواح وبالبكور             |
| صعر الخدود كأنما   | جنحن أجنحة النسور               |
| متسربلات بالظلا    | م على السهولة والوعور           |
| حتى وصلن بنا إلى   | رب المدائن والقصور              |
| ما زال قبل فطامه   | في سن مكتهل كبير <sup>(٢)</sup> |

ومطلع القصيدة يعين بالخورنق والسدير أن موضع هذه المتع واللذات  
هو الحيرة وليس من نبأ تاريخي يدل على سبق هذه المعاشرة الجميلة هناك،  
ولا ينفىها ما سبق من اختصاصه بأخيه لإمكان تأخر هذا الاختصاص عن مثل  
هذه الحال، على أنه سيأتي في بعض ما استعطفه به تذكير له بمدح كثير فيه. وإذا  
صح أن هذه القصيدة لأبي العتاهية في الهادي فهي تأييد لما رواه الطبري  
وأبو الفرج من ميل الهادي إلى اللهو والغناء في حياة أبيه، فقد ذكر الطبري أن

---

(١) في القاموس: إفراط الصباح، تباشيره.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٥١.

المهدي كان يضرب ندماء الهادي ومغنيه<sup>(١)</sup>. وروى أبو الفرج أن المهدي نهى إبراهيم الموصللي نهياً شديداً عن الدخول على موسى وهارون البتة، وأنه خالفه فضربه ثلاث مائة سوط<sup>(٢)</sup>. هذا وينبغي أن أنبه على ما يعقل من الترتيب الزمني لهذه القصائد، فالعينية ينبغي أن تكون أولها لأنها في الاستعطاف المناسب لمقام الغضب، وأما الرائية الأولى فثانيتها لأن مديحها مشوب بشيء من الخوف منه والتقرب إليه على النحو السابق، ثم تأتي الرائية الثانية بعدها لخلوها من شوائب الخوف وإن كانت تحتل الاستعطاف، ثم تأتي التهئة وإن كانت قد تقدمت على هذه لمقام التعريض. وإذا نظرنا إلى ما بعد هذه القصائد من الأحوال وجدناه يساعد أيضاً على هذا الترتيب، فقد رضي عقب الثانية ورضي وأذن بالدخول بعد الرائية الثانية وقرن الرضا بألف دينار عقب التهئة. ويدل ما ذكره أبو الفرج من أنه دخل عليه بعد مدحه بالثانية، فأنشده:

لهفي على الزمن القصير... (القصيدة)

على أنها واقعة، كما ذكرت، في المرتبة الثالثة، ولكننا لا نستطيع أن نطمئن إلى ما ذكره في التهئة، فإنه يجعلها في المرتبة الأولى، وهو غير طبعي، لما ذكرت من سابق الجفاء الذي وجه الشاعر أول الأمر إلى الاستعطاف والشكوى من الخوف وتوقع الشر. قال أبو الفرج، ببعض طرقه: ولد للهادي ولد في أول يوم ولي الخلافة، فدخل أبو العتاهية فأنشده:

أكثر موسى غيظ حساده...

... (القصيدة)<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ أيضاً أن خلو التهئة بالمولود من التهئة بالخلافة مما ينفي هذا النبأ، ولعل راوي الخبر ملبس عليه بما روى من ولادة خليفة وولاية خليفة وموت خليفة في ليلة واحدة، وقد كان الميت هو الهادي والمولود هو المأمون<sup>(٤)</sup>.

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٣٠.

(٢) الأغاني، ج ٥ ص ٤.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٨.

(٤) الطبري، ج ٦ ص ٤٢٧.

ومما ينفي أيضاً تقدم التهئة بالولد وجائزتها المنبئة عن عظيم الرضا ما رواه أبو الفرج، غير ما سلف، من قصة تدل على أن أبا العتاهية خاض إلى رضا الهادي بحوراً من الكدر العريض واحتمل ما أثقله من العبء العظيم. . . روى بسنده إلى محمد بن أبي العتاهية قال، دخل أبي الهادي فأنشده:

يا أمين الله ما لي      لست أدري اليوم ما لي  
لم أنل منك الذي قد      نال غيري من نوال  
تبذل الحق وتعطي      عن يمين وشمال  
وأنا البائس لا تن      ظر في رقة حالي

قال، فأمر المعلي الخازن أن يعطيه عشرة آلاف درهم. قال أبو العتاهية: فأتيته فأبى أن يعطيها، وذلك أن الهادي امتحنني في شيء من الشعر وكان مهيباً فكنت أخاف فلم يطعني طبعي، فأمر لي بهذا المال فخرجت، فلما منعه المعلي صرت إلى أبي الوليد أحمد بن عقال وكان يجالس الهادي، فقلت له:

أبلغ سلمت أبا الوليد سلامي      عني أمير المؤمنين إمامي  
وإذا فرغت من السلام فقل له      قد كان ما شاهدت من إفحامي  
وإذا حصرت فليس ذاك بمبطل      ما قد مضى من حرمتي وذمامي  
ولطالما وفدت إليك مدائحي      مخطوطة فليأت كل ملام  
أيام لي لسن ورقة جدة      والمرء قد يبلى مع الأيام

قال: فاستخرج الدراهم وأنفذها إلي<sup>(١)</sup>. ولا دلالة لما ذكر من المدائح السابقة فيه على سبقها في هذا العهد على الاستعطاف، فإنه قد قالها كما ذكر أيام اللسن والجدة والشباب قبل أن تبليه الأيام، فهي إذن قيلت فيه ولي عهد لأن عهد الهادي أقصر من أن يبلى أو يذهب بالجدة واللسن وظاهر أنها قبل اختصاصه بأخيه.

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٧، ١٤٨.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الانتهاء من هذا الفصل أن ننبه على أن  
أبا العتاهية كعهدنا به قد استطاع أن ينفذ إلى قلب الهادي فينال من إحسانه  
وتقريبه ما يجعل وفاته صارفة له عن قول الشعر في الغزل حتى حبسه الرشيد،  
فقاله كما هي رواية الأغاني<sup>(١)</sup>. وسيأتي أن هذا الحبس قد يكون تأديباً له على  
ما سبق من التعريض بالرشيد.



---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٧.

في  
شعره في عهد الرشيد

وفيه فنون:

الاستعطاف، والشكوى، والتفجع للصديق، والمديح، ووصف الجيوش وغيرها، والتبشير بالنصر، والتهنئة به، وبولايات العهود، واستنجاز أمر عتبة، ووصف راحة اليأس، وعناء الذكرى، والعتاب، والشكر، والهجاء:

ولي هارون الرشيد بن المهدي الخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي وذلك في سنة سبعين ومائة. وقد ظل خليفة إلى أن توفي في سنة ثلاث وتسعين ومائة وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة يصف التاريخ من بركتها على العلم والأدب ما لا نظير له في عهود غيره من الخلفاء العباسيين. ولئن كان المهدي قد سن للخلفاء الكرم والإغداق على الشعراء ثم انتهج الهادي نهجه لولا قرب الغاية وقصر السبيل. فقد جمع الرشيد إلى كرم أبيه وأخيه وعنايتهما بالشعر والأدب لوم من يغفل عن إجازة شاعر أو يعطيه عطاء زهيداً لوماً قد يبلغ الخط منه والإضرار به ولو كان من عليه قومه وعونه على العطاء ومكافأته عليه. ووصفه الطبري بمحامد، منها أنه كان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب ويحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالي<sup>(١)</sup>.

(١) الطبري، ج ٦ ص ٥٣٠.

وقال ياقوت: لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وأبي الشيص وابن أبي حفصة ومحمد بن منذر<sup>(١)</sup>. وإليك مثلاً من عنايته بالمديح ولوم الغافل عن المكافأة عليه والازدراء بمن لا يعرف للمديح قدره وعونه على العطاء ومكافأته عليه. روى الطبري أن مروان (ابن أبي حفصة) دخل عليه في سنة إحدى وثمانين ومائة فأنشده شعره الذي يقول فيه:

وسدّت بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر  
ومنها:

أمور بميراث النبي وليتها فأنت لها بالحزم طاو وناشر  
إليكم تناهت فاستقرت وإنما إلى أهلها صارت بهن المصائر  
خلفت لنا المهدي في العدل والندی

فلا العرف منزور ولا الحكم جائر

فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعة وأمر له بعشرة من رقيق الروم وحمله على برذون من خاص مراكبه. وروي أن إعرابياً من باهلة قصد إليه ليمدحه فاقترح عليه أن يقول وفي وليّ عهده الأمين والمأمون، فقال بيتين أحسن فيهما، وقد تركتهما اختصاراً فأمر له بمائة ألف درهم وسبع خلع.

وأما حضه عماله على حسن المكافأة ولومه من يغفل عنه فمثاله ما رواه أبو الفرج أن يزيد بن مزيد قال: أرسل إليّ الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي فأتيته لابساً سلاحي مستعداً لأمر إن أراده مني؛ فلما رأي ضحك إليّ ثم قال: يا يزيد، خبرني من الذي يقول فيك:

تراه في الأمن في درع مضاعفة

لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

(١) معجم الأدباء، ج ٦ ص ٢٨١.



صافي العيان طموح العين همته

فك العنة وأسر الفاتك الخطل

فقال: لا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال: سوء لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله. وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله وهو مسلم بن الوليد فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته<sup>(١)</sup>. ومن أمثلة كرم هذا الملموم في الكرم وعون الرشيد ومكافأته له عليه ما رواه أبو الفرج أيضاً أن مسلماً مدحه فحجبه حاجبه على بابه معتذراً بإقلال سيده، فأمره أن يأذن له فأنشده قصيدته التي مطلعها:

أجرت حبل خليع في الصباغزل وقصرت همم العذال عن عذلي

فرهن ضيعة له على مائة ألف درهم أعطاه منها خمسين ألفاً. وكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد فأمر ليزيد بمائتي ألف درهم وقال: اقض الخمسين الألف التي أخذها الشاعر وزده مثلها وخذ مائة ألف لنفقتك. فافتك ضيعته وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى. وأما ازدراؤه بمن لا يعبأ بالمديح فذكر ياقوت في «معجم الأدباء» في ترجمته لثابت الرقي الشاعر أنه مدح العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بقصيدته المشهورة، وروى منها أبياتاً مطلعها:

لو قيل للعباس يا ابن محمد قل لا وأنت مخلد ما قالها

ثم قال: فبعث إليه العباس بدينارين فقال:

مدحتك مدحة السيف المحلى لتجري في الكرام كما جريت

فهبها مدحة ذهبت ضياعاً كذبت عليك فيها وافترت

وروى ثالثاً: أفحش فيه الرقي<sup>(٢)</sup> والبيت الأول في ديوان «المعاني»:

هزرتك هزة السيف المحلى فلما أن ضربت بك انثيت

(١) مهذب، ج ٨ ص ٤.

(٢) معجم الأدباء، ج ١١ ص ١٣٤ إلى ١٣٦.

وهو أشعر، وجعل أبو هلال الشعر لأبي العتاهية مع إجمال في القصة<sup>(١)</sup>. ولعل الصحيح ما ذكره ياقوت لما أشار إليه من شهرتها، ولأنه ساقها في ترجمة مستقلة بالشاعر، لا كما صنع أبو هلال إذ ساقها في سلسلة من القصائد والأبيات المختلفة لبيان النسب والروابط بين المعاني. وقد نتعرض لهذا الشأن مرة أخرى في باب الرواية إن شاء الله.

قال ياقوت: فلما بلغت العباسي غضب وتوجه إلى الرشيد فقال: إن ربعة الرقي قد هجاني - وقص من أمر الرشيد أنه كاد يقتله إلى أن سمع مدحته فيه فغضب على العباس وأمر لثابت بثلاثين ألف درهم وخلع عليه. وكان قد هم أن يزوج العباس ابنته فغير عنه لأجل ذلك. هذا وقد كان الرشيد شاعراً وله ديوان شعر ذكره ابن النديم<sup>(٢)</sup>، وكان بجانبه وزراء تشبهوا بالملوك وباروا الخلفاء في الجود ونافسوا في اقتناء المحامد والمآثر حتى فاتوا الآمال، وسبقوا الظنون وعرفوا أن أيسر السبل إلى ما يحبون هو هذه المدائح الأخذة بالألباب الجامعة لمجامع القلوب: أولئك هم البرامكة، يحيى وابناه جعفر والفضل، وقد يأتي بعده منافسهم في الوزارة ورأس الكائدين لهم الفضل بن الربيع، والإتيان ببعض أخبارهم وسوق طائفة من مدائح الشعراء لهم - وصورة منها مراثيهم فيهم ووصف جزيل جوائزهم مما لا يحتمله المقام.

ويقوم بهذا كلمات جامعة كقول ابن خلكان: وقد مدح البرامكة جميع شعراء عصرهم<sup>(٣)</sup>. وانظر إن شئت مدائحهم في تراجم يحيى وجعفر والفضل في «وفيات الأعيان» وغيره، وانظر الطبري<sup>(٤)</sup>، و«مروج الذهب» للمسعودي<sup>(٥)</sup>، وكتاب «حضارة الإسلام في دار السلام»<sup>(٦)</sup>، وكتاب «عصر المأمون»<sup>(٧)</sup>؛ وقد

(١) ديوان المعاني، ج ١ ص ١٠٥.

(٢) الفهرست، ص ٢٣٣ وهو عشر ورقات.

(٣) وفيات الأعيان، ترجمة الفضل بن يحيى، ج ١ ص ٥٢٠.

(٤) الطبري، ج ٦ ص ٤٦٢ إلى ص ٤٦٦.

(٥) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٨٤ إلى ص ٢٩٧.

(٦) حضارة، من ص ١٢٧ إلى ص ١٣٥.

(٧) عصر المأمون، ج ١ من ص ١٤١ إلى ص ١٤٤.

اختص بهم من الشعراء إبان بن عبد الحميد اللاحقي والرقاشي وأشجع السلمي. ومن مادحيهم من سائر الشعراء المشهورين: مروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر ومسلم بن الوليد وابن منذر وأبو نواس.

وقد انضم إلى كرم الرشيد ووزرائه وعماله وعنايتهم بالشعر والأدب ولاة عهده في الخلافة كما وصفت أولاً، وهو مما يضاعف من رواج سوق الشعر والأدب والعلم.

### صلة أبي العتاهية بالرشيد:

عرفنا في عهد المهدي أن أبا العتاهية نال رضاه بصلته بالرشيد، وعرفنا في عهد الهادي أنه كان واجداً عليه لاختصاصه به، وهذا بحسب ظاهره ينبىء عن دولة تقبل لأبي العتاهية بإقبال عهد الرشيد، وعن شعر في التهئة بالخلافة وعن مدائح مبتدأة لا يسبقها مثل ما سبق في عهد أخيه من الاستعطاف والتماس الشفعاء، لكنك تطوف بجميع أخباره وأشعاره فلا تجد من بينها تهئة بخلافة الرشيد، وتنظر إلى مكان أبي العتاهية من مطلع هذا العهد فتجده شاكياً باكياً يستعطف صاحبه من السجن ويذكره بأيام الرضا والتقريب، وتسال المؤرخين: ما حدث؟ فلا تجد جواباً شافياً. وتسال شعره عن هذا النبأ العجيب بعد أن تؤم به سمته وتأخذ به في طريقه فيدلك على سر هذا الاستفتاح العجيب لهذا العهد الجديد. فقد حدثك في عهد الهادي أن الرجل تحت تأثير الخوف والرغبة في السلامة من بطشه لاختصاصه بأخيه قد نسي عهد صاحبه، ولعله قطعه وجفاه حتى نال من رضا الهادي وإحسانه إليه ما نال. وقد أريتك هناك دليلين من شعره على تعريضه ومساسه بالرشيد تقريباً إلى أخيه. واستمع إلى شعره وهو في حبس الرشيد لتعلم سر هذا النبأ العجيب. قال ابن قتيبة في «عيون الأخبار»: حبس الرشيد با العتاهية فكتب إليه من الحبس بأبيات منها:

تفديك نفسي من كل ما كرهت      نفسك إن كنت مذنباً فاغفر

يا ليت قلبي مصور لك ما      فيه لتستيقن الذي أضمر

فوقع الرشيد في رقعته: لا بأس عليك. فأعاد عليه رقعة أخرى فيها:  
كأن الخلق ركب فيه روح له جسد وأنت عليه راس  
أمين الله إن الحبس باس وقد وقعت: ليس عليك باس! (١)

وسأني إن شاء الله رواية البيتين في أبيات متنازعة بين أبي العتاهية  
وأبي نواس، فإنك واجد في البيتين الأولين تبرؤاً من ذنب وسؤالاً لمغفرة إن كان،  
وادعاء مودة كامنة في القلب ليست موضع استيقان. وقال في «الشعر والشعراء»  
بعد أن ذكر مثله: فأمر بإطلاقه. ثم قال: وكتب إليه من الحبس:

إنما أنت رحمة وسلامه زادك الله غبطة وكرامه  
قيل لي قد رضيت عني فمن لي أن أرى لي على رضاك علامة  
وحقيق أن لا يراعى بسوء من رآك ابتسمت منه ابتسامه  
لو توجعت لي فروحت عني روح الله عنك يوم القيامة (٢)

والأبيات تتضمن نفس المغزى السياسي السابق، والأبيات كلها تسايرنا  
على ما نريد ولا تنحرف بنا عن سواء السبيل. لكن أبا الفرج يروي ببعض  
طرقه ما لا يمكن قبوله بحال. قال: لما مات موسى الهادي قال الرشيد  
لأبي العتاهية: قل شعراً في الغزل، فقال: لا أقول شعراً بعد موسى أبداً،  
فحبسه وأمر إبراهيم الموصلي أن يغني، فقال: لا أغني بعد موسى أبداً، وكان  
محسناً إليهما. فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفرة واسعة وقطع بينهما بحائط  
وقال: كونا بهذا المكان لا تخرجان حتى تشعر أنت ويغني هذا. فصبرا على ذلك  
برهة وكان الرشيد يشرب ذات يوم وجعفر بن يحيى معه، فغنت جارية صوتاً  
فاستحسنه وطربا عليه طرباً شديداً وكان بيتاً واحداً فقال الرشيد: ما كان  
أحوجه إلى بيت ثان ليطول الغناء فيستمع به مدة طويلة. فقال له جعفر: قد  
أصبت، قال: من أين؟ قال: تبعث لأبي العتاهية فيلحقه به لقد رته على الشعر

(١) عيون الأخبار، ج ١ ص ٨٢.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٣١٠.

وسرعته . فقال : هو أنكد من ذلك . . لا يجيينا وهو محبوس ونحن في نعيم وطرب .  
قال : بل اكتب إليه حتى تعلم صحة ما قلت لك . فكتب إليه بالقصة وقال :  
الحق لنا بيتاً ثانياً . فكتب إليه أبو العتاهية :

شغل المسكين عن تلك المحن      فارق الروح وأخلي من بدن  
ولقد كلفت أمراً عجباً      أسأل التفريح من بيت الحزن

فلما وصلت قال الرشيد : قد عرفتك أنه لا يفعل . قال : فتخرجه حتى  
يفعل . قال : لا حتى يشعر ، فقد حلفت . فأقام أياماً لا يفعل ، قال : ثم قال  
أبو العتاهية لإبراهيم : إلى كم هذا تلاجّ الخلفاء؟! هلم أقل شعراً وتغني فيه!  
فقال أبو العتاهية :

بأبي من كان لي من قلبه      مرة حب قليل فسرق  
يا بني العباس فيكم ملك      شعب الإسلام منه تفترق  
إنما هارون خير كله      مات كل الشر مذ يوم خلق

قال أبو الفرج : وغنى فيه إبراهيم فدعا بهما الرشيد فأشده أبو العتاهية  
وغناه إبراهيم فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب . وروي بسند  
آخر أن الرشيد غضب على جارية له فحلف أن لا يدخل إليها أياماً ثم ندم  
فقال :

صدّ عني إذا رأيي مفتتن      وأطال الصد لما أن فطن  
كان مملوكي فأضحى مالكي      إن هذا من أعاجيب الزمن

وقال لجعفر بن يحيى : اطلب لي من يزيد على هذين البيتين . فقال له :  
ليس غير أبي العتاهية . فبعث إليه فأجاب الجواب المذكور فأمر بإطلاقه وصلته .  
فقال : الآن طاب القول . ثم قال :

عزة الحب أرته ذلتي      في هواه وله وجه حسن  
ولهذا صرت مملوكاً له      ولهذا شاع ما بي وعلن<sup>(١)</sup>

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٧ .

فقال: أحسنت والله، وأصبت ما في نفسي؛ وأضعف صلته. وأول أعاجيب أبي الفرج أن شخوص الرشيد إلى الرقة كما ورد في كتب التاريخ والتراجم أمثال «تاريخ الطبري»<sup>(١)</sup>، و«الأخبار الطوال»<sup>(٢)</sup> للدينوري، و«شذرات الذهب»<sup>(٣)</sup> لم يكن إلا في سنة ثمانين ومائة، أي بعد خلافة الرشيد بعشر سنين. فهل ظل أبو العتاهية والموصلي في حبسه لامتناعهما عما طلب منهما من الشعر والغناء عشر سنين إلى أن شخص إلى الرقة ففعل بهما ما وصف؟ وثاني أعاجيبه ما ذكر من امتناع أبي العتاهية من القول في الغزل حتى يطلقه من الحبس وقوله حين أطلق: الآن طاب القول.. فإن هذا مع ما سبق يتضمن أن حبس الرشيد له كان لامتناعه عن قول الغزل وأن امتناع أبي العتاهية عن القول في الغزل كان لحبسه.. وهو الدور المستحيل. ويلاحظ أن أبا الفرج روى الأبيات القافية السابقة عنه رواية أخرى بطريق الأخفش عن المبرد في ضمن قطعة وفي مقام لا يشبهان شيئاً مما نحن فيه، ومنها صححت بعض الأبيات<sup>(٤)</sup>.

والحق، أن حبس الرشيد لأبي العتاهية عند موت الهادي لم يكن إلا حبساً سياسياً كما أسلفت، وحين عاد فحبسه لزهده وامتناعه عن القول في الغزل — وكان ذلك في مدينة الرقة بعد موت الهادي بأكثر من عشر سنين كما سيأتي — اختلط أمر الحبسين وسباهما وما قيل فيهما من الشعر، كما اختلطت أخباره وأشعاره مع عتبة في عهدي المهدي والرشيد. وقد وصفت لك سر حبسه الأول وسأصف إن شاء الله في الكلام على أسباب زهده من القسم الثاني من هذا الباب سر حبسه الثاني. ولا بد لنا أن نرجع إلى القاعدة البلاغية الأصيلة: لكل مقام مقال، لنصطنع منها فارقاً بين شعري الحبسين: حبس السياسة وحبس الزهد، فكل ما تضمن الاستقالة من الذنب وإنكاره وسؤال الصفح والمغفرة

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٧٠.

(٢) الأخبار الطوال، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٣) الشذرات، ج ١ ص ٢٩٣.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٤.

فهو من سجنه السياسي ، وقد سبق بعضه ، وكل ما تضمن الرمي بالظلم فهو من  
سجنه الزهدي كالأشعار التي منها :

أنا اليوم لي والحمد لله أشهرُ يروح علي الهم منكم ويكر  
وقوله :

كفاك بحق الله ما قد ظلمتني فهذا مقام المستجير من الظلم  
وقوله :

أما والله إن الظلم شوم ولا زال المسيء هو الظلوم  
على ما هي رواية غير أبي الفرج إذ قد انفرد بإضافة أبيات إلى هذه  
القصيدة لا توافق المقام كما سيأتي في أسباب زهده ؛ وفي باب الرواية ، ويدل على  
أن حبسه عند موت الهادي هو الموصلية لم يكن غير سياسي ، قول المسعودي عند  
ذكره خبر إرسال أبي العتاهية من حبسه إلى الرشيد بالبيتين اللذين منها (إنما  
أنت رحمة وسلامة) أن الرشيد قال : لله أبوه ، لورأيته ماحبسته ، وإنما سمحت  
نفسي بحبسه لأنه كان غائباً عني . وأمر بإطلاقه ، فإن الحبس عن غير لقاء لا يظهر  
في امتناعه عن القول في الغزل بل في سلوكه مسلماً سياسياً يؤخذ به أخذ  
الفجاءة ، وستجد لذلك مؤيداً من شعر أبي العتاهية في حبس صاحبه الموصلية ، إذ  
يقول موجهاً شعره لسلم الخاسر وكان صديقاً لهما قبل أن يتخاصم  
هو وأبو العتاهية كما سيأتي نبؤه في الباب التالي ، إن شاء الله :

سلم يا سلم ليس دونك سر حبس الموصلية فالعيش مر  
ما استطاب اللذات مذ سكن المطـ

بق رأس اللذات في الأرض حر

حبس الله والسرور فما في الـ أرض شيء يلهي به ويسر<sup>(١)</sup>

وإن كان الخطيب البغدادي قد روى أنه حبس لشيء جرى بينه وبين

---

(١) الأغاني ، ج ٢١ ص ٧٣ .

ابن جامع المغني في مجلس الرشيد فأمر بحبسه فتاب من الغناء فأمر بحبسه حتى يغني<sup>(١)</sup>، فإن الحبس للتأديب على أمر غير خفي كخصومة مغنيين في مجلس خليفة ليس بالسر الذي يخص الأصدقاء، ولا مما يتر به عيشتهم أو تنغص به حياة الأحرار ويعلن به عن انقطاع اللهو والسرور عن أهل الأرض. إنما يكون الحبس سراً إذا كان لأمر سياسي تؤخذ فيه الحيطة من أن يفر المطلوب؛ والظاهر أن حبس الموصلين كان قبل حبس صاحبه. وقرأ له إن شئت قوله يتفجع لصاحبه ويتألم له:

أيا غمي لغمك يا خليلي      ويا ويلي عليك ويا عويلي  
يعز علي أنك لا تراني      وأني لا أراك ولا رسولي  
وأنت في محل أذى وضنك      وليس إلى لقائك من سبيل  
وأني لست أملك عنك دفعاً      وقد فوجئت بالخطب الجليل<sup>(٢)</sup>

وإن هذه المفاجأة وامتناع قدرة أبي العتاهية على الدفاع عن صاحبه ليحملان من معاني العقوبة السياسية التي ينتظر وقوع مثلها به ما يحملان؛ وقد أخذنا من شعر أبي العتاهية في هذا العهد والذي قبله ما يدل على سوء الحال في عهد الهادي بينه وبين الرشيد مما جعلنا نرى أن حبسه في أول هذا العهد ليس إلا حبساً سياسياً، ولم نسق دليلاً على مثل هذا الشأن لإبراهيم الموصلين، والظاهر أن ما كان يصنعه مثل أبي العتاهية من شعر يتعرض فيه للرشيد كان يغني به إبراهيم فيقوم مقام الراوي له؛ وهذا تأويل ما رواه أبو الفرج بسنده إلى حفيده حماد بن إسحاق—قال في وصف إحسان الهادي إلى جده إبراهيم: وبحسبك أنه أخذ منه في يوم واحد مائة وخمسين ألف دينار، ولو عاش لنا لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة<sup>(٣)</sup>؛ فإن مثل هذا الإسراف في العطاء لا يكون لمجرد الغناء ولكن لما يغني به من الشعر الذي يحب الهادي أن يشيع في الناس وتلقفه

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ١٧٧.

(٢) الديوان، ص ٣٤٠.

(٣) الأغاني، ج ٥ ص ٤.



الأسلنة وتلقاه الأذان، ينال به من ولي عهده الرشيد ويمهد به السبيل لصرف ولاية العهد إلى بعض بنيه. ونحن إذ ننكر ما سلف عن أبي الفرج من أن يكون الحبس الأول للامتناع عن القول في الغزل لا نستطيع أن ننكر أن رضا الرشيد عليه كان بنحو ما سلف له من الشعر. ولا عجب، فبمثله رضي الهادي عليه وقد كان أفظ وأغلظ من الرشيد؛ وسنستظهر في هذا الفصل إن شاء الله أن هذا الرضا قد استعين عليه بذى مكانة وطيدة عند الرشيد هو الفضل بن الربيع، وأنه قام لأبي العتاهية عنده مقام يزيد بن منصور عند المهدي. وسيأتي وصف صلته بالفضل بن الربيع إذ قد بلغ أبو العتاهية بشعره وبمعونة الفضل إلى رضا الرشيد، فقد اتسع أمامه مجال القول في المديح وغيره مما يعين عليه حسن الحال وصلاح البال؛ وقد تهيأ له بما كان للرشيد من نصر على الروم واستقبال لنصر مثله أن يقول في التهئة والتبشير به، بل تيسر له أن يستشفع به إلى عتبة كما استشفع بأبيه من قبل. وإليك ما بعث عليه رضا الرشيد من الفنون:

### المديح:

حدث ابن الأعرابي قال: اجتمعت الشعراء على باب الرشيد فأذن لهم فدخلوا وأنشدوا فأنشد أبو العتاهية:

يا من تبغي زمناً صالحاً      صلاح هارون صلاح الزمن  
كل لسان هو في ملكه      بالشكر في إحسانه مرتهن

فأدهش له الرشيد وقال له: لقد أحسنت. وما خرج في ذلك اليوم أحد من الشعراء بصلة غيره<sup>(١)</sup>. وعن أبي عكرمة قال: حُمَّ الرشيد فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة فيها:

لو علم الناس كيف أنت لهم      ماتوا إذا ما ألفت أجمعهم  
خليفة الله أنت ترجح بالناس      س إذا ما وزنت أنت وهم  
قد علم الناس أن وجهك يستغف      سني إذا ما رآه مُعدمهم

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٢؛ والديوان ص ٣١٣.

فأنشدتها الفضل بن الربيع الرشيد فأمر بإحضار أبي العتاهية فما زال يسايره ويحدثه إلى أن برىء<sup>(١)</sup>. وستأتي مدحة له فيه أخرى في صلته بالفضل بن الربيع لأمر اقتضاه وصف هذه الصلة.

### المديح والوصف والتهنئة والتبشير بالنصر:

روى الطبري في أحداث سنة سبع وثمانين ومائة أن نقفور ملك الروم نقض صلحاً كان بين الرشيد وبين ملكة الروم قبل نقفور وكتب إلى الرشيد بذلك، وطالبه بما كانت دفعت الملكة إليه من الأموال وغيرها، وأذنه بالحرب إن لم يفعل. فكتب إليه الرشيد الجواب: ما تراه دون ما تسمعه. ثم شخص من يومه حتى أناخ على باب هرقله ففتح وغنم وخرب وحرق، فطلب نقفور المودعة على خراج يؤديه في كل سنة، فأجابه إلى ذلك. فلما رجع وصار بالركة نقض نقفور العهد وخان الميثاق - وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه. وجاء الخبر بنقضه فما تهاى لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام، فاحتيل له بالتميمي الشاعر فقال:

نقض الذي أعطيته نقفور      وعليه دائرة البوار تدور  
القصيدة:

قال الطبري: وفي ذلك يقول إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية - ويظهر أن إشارة الطبري ليست إلى ما قبل هذا الخبر القريب وهورجوع نقفور، بل للذي قبله من النصر -:

إمام الهدى أصبحت بالدين معنياً  
وأصبحت تسقي كل مستمطر رياً  
لك اسمان شقا من رشاد ومن هدى  
فأنت الذي تدعى رشيدا ومهديا  
إذا ما سخطت الشيء كان مسخطا  
وإن ترض شيتا كان في الناس مرضيا

---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٧.

بسطت لنا شرقاً وغرباً يد العلا  
 فأوسعت شرقياً وأوسعت غربياً  
 ووشيت وجه الأرض بالجود والندى  
 فأصبح وجه الأرض بالجود موشياً  
 قضى الله أن صفى لهارون ملكه  
 وكان قضاء الله في الخلق مقضياً  
 تجلّبت الدنيا لهارون بالرضا  
 فأصبح نقفور لهارون ذمياً  
 وروى الطبري أن الرشيد رجع إلى نقفور في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى  
 أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد؛ فقال أبو العتاهية:  
 ألا نادت هرقله بالخراب من الملك الموفق للصواب  
 غدا هارون يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكرة القضاب  
 ورايات يحلّ النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب  
 أمير المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمة والإياب<sup>(١)</sup>  
 وظاهر أن هذه بعد النقض لتضمنها التبشير بالنصر.  
 ومن إنشاد ابن الأعرابي له في مدح هارون وفيه من وصف جيشه ما قد  
 يفضل كل وصف:  
 وهارون ماء المزن يشفي من الصدى  
 إذا ما الصدى بالريق غصّت حناجره  
 وأوسط بيت في قریش لبسته  
 وأول عز في قریش وآخره  
 وزحف له تحكي البروق سيوفه  
 وتحكي الرعود القاصفات حوافره

(١) الطبري، ج ٦ من ص ٥٠١ إلى ص ٥٠٧.

إذا حميت شمس النهار تضاحكت  
إلى الشمس فيه بيضه ومغافره  
إذا<sup>(١)</sup> نكب الإسلام يوماً بنكبة  
فهارون من بين البرية نائره  
ومن ذا يفوت الموت والموت مدرك  
كذا لم يفت هارون ضد ينافره<sup>(٢)</sup>  
وله قصيدة أخرى رواها أبو الفرج في خبر غناء ببعض أبياتها، وهي في  
تهنئة الرشيد بالنصر على بعض الخارجين عليه، منها:  
أبى الله أن يعصى لهارون أمره      وذلت له طوعاً يد المتعزز  
إذا الراية السوداء راحت أو اغتدت  
إلى هارب منها فليس بمعجز  
وفي الشعر تنازع أشار إليه أبو الفرج مع ترجيحه أنه له<sup>(٣)</sup>. هذا ولأبي  
العتاهية في الوصف غير ما سلف بيتان حاز بهما قصب السبق؛ فعن ابن  
الأعرابي قال: أجرى هارون الخيل فجاءه فرس يقال له المشمر سابقاً، وكان  
الرشيد معجباً بذلك الفرس فأمر الشعراء أن يقولوا فيه، فبدرهم أبو العتاهية فقال:  
جاء المشمر والأفراس يقدمها      هونا على رسله منها وما انبهرا  
وخلف الريح حسرى وهي جاهدة  
ومر<sup>(٤)</sup> يختطف الأبصار والنظرا  
فأجزل صلته وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً<sup>(٥)</sup>. وسيأتي في  
باب الشاعرية مبلغ إجادته في هذا الوصف إن شاء الله.

(١) لعلها وان.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٨.

(٣) الأغاني، ج ١٧ ص ٧٤.

(٤) في الأصل فر.

(٥) الأغاني، ج ٣ ص ١٤١، ١٤٢؛ والديوان، ص ٣٤٢.

## التهنئة بتولية العهود:

قال أبو الفرج: لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة، الأمين والمأمون والمؤمن قال أبو العتاهية:

|                             |                          |
|-----------------------------|--------------------------|
| رحلت عن الربع المحيل فعودي  | إلى ذي زحوف جمّة وجنود   |
| وراع يراعي الليل في حفظ أمة | يدافع عنها الشر غير رقود |
| بالوية جبريل يقدم أهلها     | ورايات نصر حوله وبنود    |
| تجافى عن الدنيا وأيقن انها  | مفارقة ليست بذات خلود    |
| وشد عرى الإسلام منه بفتية   | ثلاثة أملاك ولالة عهود   |
| همو خير أولاد لهم خير والد  | له خير آباء مضت وجدود    |
| بنوالمصطفى هارون حول سريره  | فخير قيام حوله وقعود     |
| تقلب ألحاظ المهابة بينهم    | عيون ظباء في قلوب أسود   |
| خدودهموشمس أتت في أهلة      | تبدت لراء في نجوم سعود   |

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط<sup>(١)</sup>.

## المديح، والاستنجاز،

### ووصف برد اليأس من عتبة، وعناء الذكرى:

لقد استطاع أبو العتاهية برضا الرشيد عليه وتقريبه إياه أن يعاود ما انقطع في عهد المهدي من أمله في عتبة. حدث أبو العباس أحمد بن ثعلب قال: كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد في عتبة حتى وعده بتزويجها وأنه يسألها في ذلك فإن أجابت جهزها وأعطاه مالا عظيماً، ثم إن الرشيد سنج له شغل استمر به فحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه فدفع إلى مسرور الكبير ثلاث مراوح فدخل بها على الرشيد وهو يبتسم، وكانت مجتمعة فقرأ على واحدة منهن مكتوباً:

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي      فإذا لها من راحتيه شميم

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٢.

فقال: أحسن. وإذا على الثانية:

أعلقت نفسي من رجائك ماله      عنق يخب إليك بي ورسيم

فقال: قد أجاد. وإذا على الثالثة:

ولربما استيأست ثم أقول لا      إن الذي ضمن النجاح كريم

فقال: قاتله الله ما أحسن ما قال. ثم دعا به وقال: ضمنت لك يا أبا العتاهية، وفي غد نقضي حاجتك، إن شاء الله. وبعث إلى عتبة أن لي إليك حاجة، فانتظريني الليلة في منزلك. فأكبرت ذلك وأعظمته، وصارت إليه تستعفيه، فحلف أن لا يذكر لها حاجته إلا في منزلها. فلما كان الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه فقال لها: لست أذكر حاجتي أو تضمني قضاءها. قالت: أنا أمتك وأمرك نافذ فيّ، ما خلا أمر أبي العتاهية، فإني حلفت لأبيك، رضي الله عنه، بكل يمين يحلف بها بر وفاجر والمشى إلى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عني حجة وجبت عليّ أخرى لا أقصر على الكفارة وكلما أفدت شيئاً تصدقت به إلا ما أصلي فيه. وبكت بين يديه فرق لها ورعها وانصرف عنها. وغدا عليه أبو العتاهية فقال له الرشيد: والله ما قصرت في أمرك، ومسروور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك؛ وشرح له الخبر. قال أبو العتاهية: فلما أخبرني بذلك مكثت ملياً لا أدري أين أنا، قائم أوقاعد، وقلت: الآن يئست منها إذ ردتك وعلمت أنها لا تحيب أحداً بعدك. فلبس أبو العتاهية الصوف وقال في ذلك من أبيات:

قطعت منك حباثل الآمال      وحططت عن ظهر المطي رحالي

ووجدت برد اليأس بين جوانحي      فغنيت عن حل وعن ترحال<sup>(١)</sup>

وقد سبقت الأبيات الميمية في عهد المهدي والبيت الأول من الأخيرين أيضاً مع بيتين آخرين، وهي شؤون مختلطة كما سلف، ولكن الظاهر أن اليأس لم يتم إلا في عهد الرشيد، وموعداً بذلك في الكلام على أسباب زهده من القسم

(١) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٧٤، ٢٧٥.

الثاني إن شاء الله . ويظهر أيضاً أن هذا اليأس منها لم تدم له راحته ، فقد روى أبو الفرج أن الرشيد لما أطلق أبا العتاهية من الحبس لزم بيته وقطع الناس ؛ ثم روى له من شعر كتب به للرشيد يصف له سبب عزله حين سأل عنه ، وسيأتي إن شاء الله في موضعه من أسباب الزهد :

عاد لي من ذكرها نصب      فدموع العين تنسكب  
وكذاك الحب صاحبه      يعتريه الهم والوصب  
خير من يرجى ومن يهب      ملك دانت له العرب  
وحقيق أن يدان له      من أبوه للنبي أب<sup>(١)</sup>

صلته بالبرامكة . . .

وأدواها إلى فنون من العتاب والشكر والهجاء :

نشأت دولة الرشيد برمكية لتربية الرشيد في حجر يحيى ورضاعه بلبان الفضل ، وكان الفضل أكبر منه بسبعة أيام ، ولكفالة يحيى له ومشاركته إياه فيما لقي من عنت الهادي وأذاه — كما هو مذكور في كتب التاريخ — ؛ فَرِضا البرامكة وغضبهم إذن من رضا الرشيد وغضبه ، كما كان كذلك غضبه ورضاه . وقد استقبل أبو العتاهية عهد الرشيد بما وصفته من غضبه فلا يعقل أن يستقبل دولة البرامكة بغير هذه الحال ولا يغلبنا على هذا الرأي ما رواه أبو الفرج سابقاً في قصة شرب جعفر والرشيد مما يدل على تلطف جعفر له ، فقد وصفنا هناك ما يدل على وضع القصة فلا نتعلق بشيء منها . على أن أخبار أبي العتاهية مع البرامكة على قلتها منبئة بنفسها عن هذه الحال ، فهو القائل في قصيدة زهدية ساقها مساق الاعتبار بمصرعهم :

كذاك من يُسخط الإله بما يُر      ضي به العبد يجزه الله

ولا يغلبنا على هذا الرأي أيضاً ما سيأتي في أسباب زهده مما يتضمن قصده إلى مجلس جعفر بن يحيى مستأذناً في استماع أبيات في النسب لمحمد بن

(١) الأغاني ، ج ٣ ص ١٧٣ .

أبي أمية الشاعر، فإنها رواية معارضة بروايتين. إن ذلك القصد كان إلى إبراهيم بن المهدي أو العباس بن الفضل بن الربيع، وها هو ذا يتوسل في حاجة له عند الفضل بن يحيى بشفيح من أصدقائه مع ما عرف عن البرامكة من تسهيل حجبهم وفتح أبوابهم لفحول الشعراء تثبيتاً لدولتهم واستظهاراً على خصومهم بالسنة المديح؛ بل انه يستعين على رضا الرشيد بعدوهم الساعي في هدم دولتهم ووارث مكانتهم عنده الفضل بن الربيع<sup>(١)</sup>. روى أبو الفرج بسنده إلى مولى لصالح الشهرزوري قال: كان أبو العتاهية صديقاً لصالح الشهرزوري وآنس الناس به فسأله أن يكلم الفضل بن يحيى في حاجة له، فقال له صالح: لست أكلمه في أشباه هذا ولكن حملني ماشئت في مالي. فانصرف عنه أبو العتاهية؛ وأقام أياماً لا يأتيه فكتب إليه أبو العتاهية:

|                              |                        |
|------------------------------|------------------------|
| أقلل زيارتك الصديق ولا تطل   | إتيانه فتلج في هجرانه  |
| إن الصديق يلج في غشيانه      | لصديقه فيمل من غشيانه  |
| حتى تراه بعد طول مسرة        | بمكانه متبرماً بمكانه  |
| وأقل ما يلقي الفتى ثقلاً على | إخوانه ما كف عن اخوانه |
| وإذا توانى عن صيانة نفسه     | رجل تنقص واستخف بشانه  |

فلما قرأ الأبيات قال: سبحان الله، أتهجري لمنعي إياك شيئاً تعلم أني ما ابتذلت نفسي له قط وتنسى مودتي وأخوتي ومن دون ما بيني وبينك ما أوجب عليك أن تعذرني؟ فكتب إليه:

|                              |                          |
|------------------------------|--------------------------|
| أهل التخلق لو يدوم تخلق      | لسكنت ظل جناح من يتخلق   |
| ما الناس في الإمساك إلا واحد | فبأيهم إن حصلوا أتعلق    |
| هذا زمان قد تعود أهله        | تبه الملوك وفعل من يتصدق |

فلما أصبح صالح غدا بالأبيات على الفضل بن يحيى وحدثه بالحديث فقال له: لا والله، ما على الأرض أبغض إلي من اسداء عارفة إلى أبي العتاهية

(١) انظر قصة العداوة في ابن خلكان، ج ١ ص ١٣٤.



لأنه ليس ممن يظهر عليه أثر صنعة وقد قضيت حاجته لك. فرجع وأرسلني إليه بقضاء حاجته فقال أبو العتاهية:

جزى الله عني صالحاً بوفائه      وأضعف أضعافاً له في جزائه  
بلوت رجالاً بعده في إخائهم      فما ازددت إلا رغبة في إخائه  
صديق إذا ما جئت أبغيه حاجة      رجعت بما أبغي ووجهي بمائه<sup>(١)</sup>

ففي هذا الخبر من الدلالة على اطراح البرامكة لأبي العتاهية وسوء رأيهم فيه ما رأيت وما كان أبو العتاهية بالذي يستطيع الصبر على هذه الحال دون أن يشكو منها. قال أبو الفرج: وكان سلم منقطعاً إلى البرامكة وإلى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم؛ وفيه يقول أبو العتاهية:

إنما الفضل لسلم وحده      ليس فيه لسوى سلم درك<sup>(٢)</sup>

وليس ببعيد أن تكون الأبيات الآتية هجاء للفضل بن يحيى قال:

رأيت الفضل متكئاً      يناجي البحر والسمكا  
فأرسل عينه لما      رأيته مقبلاً وبكى  
فلما أن حلفت له      بأني صائم ضحكا

أما عنوانها في الديوان المطبوع فهو مما يصلح أن يكون وسيلة من وسائل التسلية والتسرية عن النفس؛ قال جامعها: وقال يصف قلة فضل أهل زمانه<sup>(٣)</sup> وقد تكون هذه الأبيات التي ألفت للرشيد ليوقع بالبرامكة ففعل:

قل لأمين الله في أرضه      ومن إليه الحل والعقد  
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا      مثلك ما بينكما حد  
أمرك مردود إلى أمره      وأمره ليس له رد  
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ      ففرس لها مثلاً ولا الهند

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٨.

(٢) الأغاني، ج ٢١ ص ٧٣.

(٣) الديوان، ص ١٨١.

الدر والياقوت حصباؤها      وتربها العنبر والند  
ونحن نخشى أنه وارث      ملكك ان غيبك اللحد  
ولن يياهي العبد أربابه      إلا إذا ما بطر العبد

وقال ابن خلكان: انها لم يعرف رافعها<sup>(١)</sup> من صنع أبي العتاهية لأن فيها بعض خصائص شعره، كرد العجز على الصدر في آخر الأبيات كما سيأتي في باب العبارة، ولمشابهة البيت الثالث لقوله في قصيدة ستأتي له:

وكنت إذا جئت في حاجة      فأمرني يجوز على أمره

وفي أعلام الناس إشارة إلى قصة هذه الأبيات وان ذلك من صنع زبيدة<sup>(٢)</sup> وعداوتها لهم مشهورة<sup>(٣)</sup>. وستعرف منزلة أبي العتاهية عندها في هذا العهد وما بعده.

### صلته بالفضل بن الربيع

#### وأداؤها إلى فنون من العتاب والشكر والمديح:

سبق وصف طرف من صلته بالفضل في ضمن مدحة للرشيد، وروى أبو الفرج انه دخل على الرشيد فأنشده:

الله هون عندك الد      نيا وبغضها إليكا  
فأبيت إلا أن تصف      غر كل شيء في يديكا  
ما هانت الدنيا على      أحد كما هانت عليك

فقال له الفضل بن الربيع: يا أمير المؤمنين، ما مدحت الخلفاء بأصدق من هذا المدح. فقال: يا فضل، أعطه عشرين ألف درهم. فغدا عليه فأنشده:  
إذا ما كنت متخذاً خليلاً      فمثل الفضل فاتخذ الخليلاً

(١) وفیات الأعيان، ج ١ ص ١٣٤.

(٢) أعلام الناس، ص ٨٧.

(٣) وانظر نفس المصدر، ص ٨٣.

يرى الشكر القليل له عظيما      ويعطي من مواهبه الجزيلا  
أراني حيثما يمت طرفي      وجدت على مكارمه دليلا

فقال له الفضل: والله لولا أن أساوي أمير المؤمنين لأعطيتك مثلها، ولكن سأوصلها إليك في دفعات. ثم أعطاه ما أمر له به الرشيد وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده<sup>(١)</sup>. ومن مدائح فيه قوله من قصيدة مطلعها:

|                             |                                         |
|-----------------------------|-----------------------------------------|
| أشاقك من أرض العراق طول     | تحمل منها جيرة وحمول                    |
| قبائل من أقصى وأدنى تجمعت   | فهن على آل الربيع حلول                  |
| تمر ركاب السفر تشني عليهم   | عليها من الخير الكثير حمول              |
| إليك أبا العباس حنت بأهلها  | مغان وحتن السن وعقول                    |
| وأنت جبين الملك بل أنت سمعه | وأنت لسان الملك حين تقول                |
| وللملك ميزان يداك تقيمه     | يزول مع الإحسان حيث يزول <sup>(٢)</sup> |

ومطلع القصيدة ناطق بأنها مقولة في غير العراق، فهي إذن في مقام الرشيد بالركة لأنها ليست من أرض العراق بل هي من أرض الجزيرة. وما يدل على ما أسلفته أثناء هذا الفصل غير ما ذكرت على قيام الفضل بن الربيع بإزاء شعر أبي العتاهية بإصلاح الحال بينه وبين الرشيد ما رواه أبو الفرج من أن الرشيد وجد وهو بالركة علي أبي العتاهية وهو بمدينة السلام، فكان أبو العتاهية يرجو أن يتكلم الفضل بن الربيع في أمره فأبطأ عليه بذلك فكتب إليه أبو العتاهية:

|                     |                     |
|---------------------|---------------------|
| أجفوتني فيمن جفاني  | وجعلت شأنك غير شاني |
| ولطالما أمنتني      | مما أرى كل الأمان   |
| حتى إذا انقلب الزما | ن علي صرت مع الزمان |

فكلم الفضل فيه الرشيد فرضي، وأرسل إليه الفضل يأمره بالشخص

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٤.

(٢) الأغاني، ج ١٧ ص ٧٦.

ويذكر له أن أمير المؤمنين قد رضي عنه، فشخص إليه فلما دخل إلى الفضل أنشده قوله فيه:

قد دعوانه نائياً فوجدنا ه على نأيه قريباً سميعاً

فأدخله إلى الرشيد فرجع إلى حاله الأولى<sup>(١)</sup>. وليس مرادي من إيرادي لهذه القصة هذا الرضا فإن سكنى الرشيد الرقة واستطابته لها بدأت كما سلف من سنة ثمانين ومائة، ولا يعقل تأخر رضا الرشيد عليه عشر سنين، بل مرادي أمور: منها تذكيره للفضل بما كان من تأمينه إياه مما يخاف، ومنها رجاءه أن يدفع عنه وعتابه له على ما يشبه جفاء من جفاه فإنه مشعر بصلة حسنة تستوجب الرجاء والعتاب، ومنها حسن استجابة صاحبه له فإنها مشعرة بعظيم مكانته عنده وعنايته بشأنه. وروى أبو الفرج ما يدل على تغير حاله مع الفضل عقب وفاة الرشيد؛ فبسنده إلى أبي العتاهية قال: ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلي فلما رجع من خراسان بعد موت الرشيد دخلت إليه فاستنشدني فأنشدته:

أفنيتم عمرك إدباراً وإقبالاً

تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا

وهي قصيدة زهدية موضعها القسم التالي، قال: فاستحسنها؛ وذكر انه وعده يوماً يفرغ فيه لينشده من شعره؛ ثم ذكر انه صار إليه فما زال ينشده وهو مقبل عليه حتى قال:

ولى الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتي المشيب خمارة

أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

قال: فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ورأيت الكراهية في وجهه فما رأيت منه خيراً بعد ذلك<sup>(٢)</sup>. ولا ينبغي أن يفهم من هذا الخبر والشعر أن أبا العتاهية

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٦.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٤.

يريد ذكر البرامكة بالخبر فإنه لا يساعده ما سلف في شأنه معهم، ولا يساعده ما يقصد إليه من مؤانسة ابن الربيع. أما غضب الفضل فليس الا حسداً هؤلاء الذين تضرب بهم الأمثال لما كان لهم من مكانة وجاه، وبغضاً لمن يذكرهم بذلك. وسنعود إلى الكلام على صلته بالفضل في عهد الأمين بما يدل على عود حالهما إلى الصلاح على شك في ذلك، وفي عهد المأمون بما يدل على استمرار هذا الجفاء ومنشأ هذا الاضطراب كما ستراه اختلاف الروايات.





في  
شعره في عهد الأمين

وفيه فنون:

التهنئة، والمديح، والتبشير بالفرح، والثناء:

ولي الأمين محمد بن الرشيد الخلافة عقب وفاة الرشيد في جمادى الآخرة في سنة ثلاث وتسعين ومائة إلى أن قتل في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة؛ وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأياماً، صفا له منها نحو نصفها وكدر سائرها بالفتنة بينه وبين أخيه المأمون، إذ أراد أن يصرف ولاية العهد عنه إلى ابنه موسى ورأى المأمون أن في هذا النكس مسوغاً لخلعه من الخلافة فكانت الفتن والحروب التي أدت إلى قتله. وطعن المؤرخين في خلقه وسيرته أشد من مطاعنهم في غيره، ويبدو أنه لولا أفول نجمه وقصر مدته ما قيل فيه كل ما قيل:

والناس من يلقي خيراً قائلون له ما يشتهي، ولألم المخطيء الهبل

ولعل من أيسر ما قيل فيه ما سلف من أنه كان مبذراً للأموال لا يصلح للخلافة<sup>(١)</sup>. ويلاحظ أن هذا الوصف إن صح لا يمنع العناية ببعض أنواع الشعر المعينة على اللهو، كالمديح والغزل والحض على اتباع الشهوات، بل إن هذا الوصف يقتضي هذه العناية أشد الاقتضاء؛ ولكن من الإسراف في القول ومجانبة الصواب فيه ما في تاريخ بغداد رواية عن التيمي الشاعر، أنه دخل على الأمين أوّل

(١) شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٥٠.

ما ولي الخلافة فأنشده أبياتاً استحفل الخطيب روايتها فأمر له بمائتي ألف درهم، وما فيه أن التيمي هذا أجاز له بيتين فيمن يتشدد الأدباء والمؤرخون بذكر تعلقه به، فأقسم على وزيره الفضل بن الربيع أن ينظر: فإن كان الشاعر جاء على الظهر ملأً أحمال ظهره دراهم، وإن كان جاء في زورق ملأه له؛ فأوقر له ثلاثة أبغل دراهم<sup>(١)</sup>. فالظن بالأمين والله أعلم أنه لم يكن إلا شاباً غراً<sup>(٢)</sup> تستميله فنون الشعر اللاهية الخادعة من مثل أبي نواس والحسين بن الضحاك الخليع<sup>(٣)</sup>، ولا يعجبه شعر هذا الشيخ الجاد الزاهد الذي جاوزت سنة الستين وترك القول في أشهى الفنون إلى مثل الأمين، وهو الغزل كما سلف في عهد الرشيد. إلا أن لدولة الأمين دعائم أربع: أمه زبيدة ووزيره الفضل بن الربيع وكاتبه ومشيريه بكر بن المعتمر وقائده علي بن عيسى بن ماهان، ففي وصف صلات أبي العتاهية بهؤلاء وصف لصلته بالدولة. وأظهر هؤلاء عناية بالشعراء زبيدة ثانية الخيزران في تصريف أمور الخلافة والسيطرة على كثير من الشؤون، ومن مظاهر عنايتها بمدائح الشعراء للأمين ما روي أنها حشت فم سلم دراً باعه بعشرين ألف دينار لبيتين قالهما في مبايعة الرشيد له<sup>(٤)</sup>، فلا يسع أبا العتاهية وهو ذو المكانة المكيّة عندها كما ستراه في عهد المأمون وفي زهدياته الخاصة في عهد الرشيد أن يدع ما يجب على مثله من التهنئة والمدح.

### تهنئة الأمين ومدحه:

عن محمد بن أبي العتاهية، قال: لما جلس الأمين في الخلافة أنشده أبو العتاهية:

يا ابن عم النبي خير البريه      إنما أنت رحمة للرعيه  
يا إمام الهدى الأمين المصفي      من لباب الخلافة الهاشميه

(١) تاريخ بغداد، ج ٣ ص ٣٣٨؛ وانظر معجم الشعراء للمرزباني، ص ٤٢٣.

(٢) ولي الخلافة وهو في الثانية والعشرين.

(٣) انظر تاريخ بغداد، ج ٨ ص ٥٤؛ والطبري، ج ٧ ص ٩٦، ١٠٧.

(٤) انظر وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٤٨.



لك نفس أمانة لك بالخير      ر وكف بالمكرمات نديّه  
إن نفساً تحملت منك ما حمّلت للمسلمين نفس قويه

قال: ثم خرج إلى دار أم جعفر زبيدة فقالت له: أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين. فأنشدها فقالت: أين هذا من مدائحك في المهدي والرشيد. فغضب وقال: إنما أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه:

يا عمود الإسلام خير عمود      والذي صيغ من حياء وجود  
والذي فيه ما يسلي ذوي الأحـ      زان عن كل هالك مفقود  
والأمين المذهب الهاشمي الـ      قرم محض الآباء محض الجدود  
إن يوماً أراك فيه ليوم      طلعت شمسهُ بسعد السعود  
فقالت له: الآن وفيت المديح حقه. وأمرت له بعشرة آلاف درهم.

### مديح الفضل بن الربيع:

سبق ما كان من غضب الفضل على أبي العتاهية لشعر ذكر فيه البرامكة عقب وفاة الرشيد وإن أبا العتاهية ذكر أنه لم ير منه خيراً بعد ذلك<sup>(١)</sup>؛ لكن أبا الفرج روى بإزاء ذلك ما ينقضه، فبسندته إلى حبيب بن الجهم النمري قال: حضرت الفضل بن الربيع متجزاً جائزتي وفرضي فلم يدخل عليه أحد قبلي. فإذا عون حاجبه قد جاء فقال: أبو العتاهية يسلم عليك وقد قدم من مكة. فقال: اعفني منه الساعة يشغلني عن ركوبي. فخرج إليه عون فقال: إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين. فأخرج من كفه نعلًا عليها شرك فقال: قل له إن أبا العتاهية أهداها إليك جعلت فداءك. قال: فدخلت بها، فقال ما هذه؟ فقلت: نعل وعلى شركاها مكتوب كتاب، فقال: يا حبيب إقرأ ما عليها. فقرأته فإذا هو:

نعل بعثت بها ليلبسها      قرم بها يمشي إلى المجد  
لو كان يصلح أن أشركها      خدي جعلت شركاها خدي

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٤.

فقال لحاجبه عون: احملها معنا. فحملها فلما دخل على الأمين قال له: يا عباس ما هذه النعل؟ فقال: أهداها إلي أبو العتاهية وكتب عليها بيتين وكان أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لابسها. فقال: وما هما؟ فقرأهما فقال: أجاد والله وما سبقه إلى هذا المعنى أحد، هبوا له عشرة آلاف درهم<sup>(١)</sup>. وفي هذا الخبر مع ما سلف أنه لا يتسق وهو قادم عليه بنفسه أن يكتب له أنه بعث بها، فما كان قد علم أنه سيحجبه وإن هذا المديح أكبر من أن يقوله أبو العتاهية في الفضل بن الربيع. وقد أراحنا الجاحظ من عناء الشك فيه والتناقض مع ما تقدم، فقال وهو يذكر هدايا أبي العتاهية للمأمون: وبعث إليه مرة أخرى بنعل وكتب إليه بالبيتين ورواهما بتغيير يسير<sup>(٢)</sup>. وقد رأينا في باب التعريف كيف كان تقريب المأمون لأبي العتاهية، وسنجد بعد من جامعة التشيع بينهما مودة وثيقة تبعث على الإسراف في مثل هذا الإجلال والخضوع.

### صلة أبي العتاهية بيكر بن المعتمر وفيها التبشير بالفرج:

في تاريخ الطبري أن الأمين لما بلغه إن أباه قد اشتدت عليه علته، وأنه لمآبه، أرسل بيكر بن المعتمر إلى طوس ومعه كتب ليدفعها إلى رجال الدولة إذا مات الرشيد، وأوصاه أن يخفيها ولو قتل. فلما بلغ الرشيد قدومه دعا به فسأله: هل معك كتاب؟ فقال: لا. فحبسه ثم أمر بقتله إن لم يقر بما معه، لولا أن سبق الأجل إلى الرشيد<sup>(٣)</sup>. ويدل على أنه (؟) الأمين بعض الشعر<sup>(٤)</sup>، وعلى أنه كاتبه ما في هذه الكتب المرسلة من الأمين من قوله في عقب كل منها: وكتب بيكر بن المعتمر، فهذه الحال منبئة عن الباعث لما كتب به أبو العتاهية إلى بكر وقد كتب إليه يشكو غم القيد والحبس:

(١) نفس المصدر، ص ١٦٠.

(٢) البيان والبيان، ج ٣ ص ٨٢.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٥٤٥، وما بعدها.

(٤) نفس المصدر، ج ٧ ص ٢، ٧.

هي الأيام والعبر وأمر الله ينتظر  
أتىأس أن ترى فرجا فأين الله والقدر<sup>(١)</sup>

صلته بعلي بن عيسى بن ماهان وفيها الرثاء:

روى أبو علي القالي في أماليه قال: أملى علينا أبو سعيد السكري لأبي  
العتاهية في بعض إخوانه. . وروى القصيدة الآتية؛ وهي أيضاً في الديوانين  
المخطوط والمطبوع<sup>(٢)</sup> وروايتها أوفق لتقديم البيت الثاني في رواية الأمالي  
وهو معطوف على ما قبله:

|                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| أخ طالما سرنى ذكره      | فقد صرت أشجى لدى ذكره  |
| وكنـت أراني غنياً به    | عن الناس لو مد في عمره |
| وكنـت إذا جئت في حاجة   | فأمري يجوز على أمره    |
| فتى لم يمل الندى ساعة   | على عسره كان أو يسره   |
| تظل نهارك في خيرـه      | وتأمل من ليلك من شره   |
| فصار علياً إلى ربه      | وكان علي فتى دهره      |
| أتم وأكمل ما لم يزل     | وأعظم ما كان في قدره   |
| أتته المنية مغتالة      | رويداً تخلل من ستره    |
| فلم تغن أجنادـه حوله    | ولا المزمعون على نصره  |
| وخلى القصور التي شادها  | وحل من القبر في قعره   |
| وبدل بالفرش بـُسط الثرى | وطيب ندى الأرض من عطره |
| وأصبح يهدى إلى منزل     | عميق تؤنق في حفره      |

ومنها:

|                   |                      |
|-------------------|----------------------|
| فـلست مشيعه غازيا | أميراً يسير إلى ثغره |
| ولا متلقيه قافلا  | بقتل عدو إلى أسره    |

(١) الديوان، ص ٣٤٠، ٣٤١.

(٢) أمالي القالي، ج ١ ص ٢٧٦، ٢٧٧؛ والديوان المخطوط والمطبوع، ص ١٢٤.

## أسباب استظهار ان الشعر في علي بن عيسى :

قبل أن نفيض في ذكر هذه الأسباب نبه إلى أن القصيدة ليست في صديقه علي بن يقطين الذي أسلفنا بعض شأنه معه في عهد المهدي، لأنه لم يكن أمير جيوش كما تتضمن القصيدة بل كان على زمام الأزمة للمهدي، وهو من أعمال الكتاب لا القواد، ولا في صديقه علي بن ثابت الشاعر، لأنه لم يكن أميراً ولا قائداً وقد مات حتف، أنفه كما ستأتي الإشارة إليه؛ وأسباب الاستظهار ما يأتي:

أولاً: ما تضمنته القصيدة من انها في قائد عظيم من ذوي الجاه والمال.

ثانياً: كون ميتته في أتم أحواله وأعظم أقداره كما سنصفه من نبئه.

ثالثاً: موته وسط جنوده دون أن يغنوا عنه؛ فقد روى الطبري في أحداث سنة خمس وتسعين ومائة ان علي بن عيسى شخص إلى الري لحرب المأمون في أربعين أو خمسين ألفاً، وحمل معه قيد فضة أعطته زبيدة إياه ليقيد به المأمون، وأوصته به خيراً، فلقي طاهر بن الحسين وهو في أقل من أربعة آلاف، فقال طاهر حين رأى جيشه: هذا ما لا قبل لنا به، ولكن نجعلها خارجية؛ فبعد هزيمة ميمنة جيش طاهر وميسرته قصد بجنوده قصد القلب، فشد بعض جنوده على علي بن عيسى فقتله ثم انهزم جيشه<sup>(١)</sup>.

ولهذه الصلة التي نستنبطها مرشحات:

أولها: ما كان بين البرامكة وعلي بن عيسى من خصومة في عهد الرشيد؛ فقد روى الطبري في أحداث سنة تسع وثمانين ومائة أن الرشيد كان استشار يحيى بن خالد في تولية علي بن عيسى خراسان فأشار عليه أن لا يفعل، فخالفه الرشيد؛ وفي أحداث سنة سبع وثمانين ومائة ان علي بن عيسى اتهم موسى بن يحيى عند الرشيد بمكاتبتة أهل خراسان لإفسادهم عليه، فحبسه حتى ضمنه

(١) الطبري، ج ٧ من ص ١ إلى ص ٢٢ بتصرف واختصار.

أبوه<sup>(١)</sup>. وقد رأينا قبل أن مثل هذه الخصومة بين الفضل بن الربيع والبرامكة كانت عاملاً من عوامل حسن صلته به.

ثانيها: إن علياً كان يدفع عن نفسه كيد البرامكة بالإهداء إلى حاشية الرشيد وأبو العتاهية أحد هؤلاء<sup>(٢)</sup>.

ثالثها: هذه الصحبة القديمة في مجالس الخلفاء؛ فقد كان عليٌّ على حرس الهادي في عهد أبيه<sup>(٣)</sup> ثم صار والياً للرشيد على خراسان ثم قائداً للأمين.

رابعها: ما يدل على أن علياً كان من صنائع زبيدة لنفوذها في الدولة، ولما كان من بغضها للبرامكة أعداء علي، وأبو العتاهية من صنائعها كذلك، فقد روى الطبري أن علياً حين خرج لحرب المأمون ركب إلى باب أم جعفر فودعها فأوصته بالمأمون بوصايا أوردها الطبري فقال لها: سأقبل أمرك وأعمل في ذلك بطاعتك<sup>(٤)</sup>.



---

(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٨٩، ٥٠٥.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٥٠٦.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٤٠٨، وما حوفا.

(٤) نفس المصدر، ج ٧ ص ١٦.



في  
شعره في عهد المأمون

وفيه: الاستعطاف، والمديح، والمعاتبات:

دعي لعبدالله المأمون بن الرشيد بالخلافة في خراسان زهاء سنتين في حياة أخيه الأمين، وقدم إلى بغداد في رواية الطبري<sup>(١)</sup> في سنة أربع ومائتين بعد فتن كثيرة، كان منها خلعه من الخلافة وتولية عمه إبراهيم بن المهدي سبب ما أظهره المأمون من التشيع وتسليم أموره كلها إلى وزيره الفضل بن سهل. وقد انتهت هذه الفتن واستوثقت الممالك عند قدومه إلى بغداد وظل خليفة إلى وفاته في سنة ثمانى عشرة ومائتين، وكانت خلافته منذ مقتل أخيه عشرين سنة وخمسة أشهر وأياماً. وكان المأمون أديباً عالماً شاعراً وصفه عمارة بن عقيل الشاعر لمن أنكر بصره بالشعر فقال: ومن ذا يكون أعلم به منه! فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره<sup>(٢)</sup>. وقد اجتمع له من خصال العناية بالشعر والشعراء ما لم يجتمع لغيره من الخلفاء؛ فمنها ما ورد أنه كتب إلى عبدالله بن طاهر، واليه على مصر، في أسفل كتاب له ببعض شعره<sup>(٣)</sup>، ومنها حسن مكافاته من عرف ومن لم يعرف من الشعراء، فقد لقيه وهو متبد بالشام شاعر عراقي من بني تميم، فسأله عن مقصده فأنشده أرجوزة قصيرة ذكر له أنه أعدها لهذا الملك

(١) الطبري، ج ٧ ص ١٥٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٠.

(٣) القصة والشعر في نفس المصدر، ص ١٨٤، ١٨٥.

الذي ما سمع بمثله أشدّ رائحة ولا أوسع راحة، ولا أطول باعاً ولا أمد يفاعاً منه، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار<sup>(١)</sup>. وحين أنشده إبراهيم بن المهدي العينية المشهورة عاد له إلى أحسن ما يحب<sup>(٢)</sup>. وعفوه عن اليزيدي إذ أمر بحجبه لتطاوله عليه وعلى أخيه المعتصم بشعر أرسل به إليه في طلب الصفح وحسن ترحيبه به من مظاهر هذه العناية<sup>(٣)</sup>. ومن مظاهر علمه بجيد الشعر ورديته قضاؤه لبعض الشعراء في مجلس مناظرة في طائفة من أشعارهم، كما هو مذكور في ترجمة أبي الفرج لمسلم بن الوليد<sup>(٤)</sup>، وإصلاحه لمطلع قصيدة بما ذهب بعينه<sup>(٥)</sup>. وللمأمون شعر رقيق في الغزل يدل على طيب نفس ولطافة حس<sup>(٦)</sup>، فمثله إذن ممن تروج عنده سوق الشعر والشعراء، ومن يستحثون القرائح على النظم والتجويد فيه.

### شعر أبي العتاهية في عهده:

قدم المأمون إلى بغداد وقد بلغ أبو العتاهية في سنه وزهده وجده كل مبلغ صارف عن شعر الرغبة، إلا ما تدعو إليه ضرورات العيش وحاجات الحياة وواجبات الطاعة؛ ولئن كان له في الفصل الأنف تهنئة للأمين ومديح فيه، لعلها إنما صدرت عنه طاعة لأم جعفر أو تقية للفضل بن الربيع، فلن تجد له في هذا العهد شيئاً من هذين الفنين إلا البيتين المتنازعين بينه وبين الفضل بن الربيع، كما سبق، وإلا مطلع مدحة رواه أبو الفرج ولم أجد سائرهما. وليست مدحة حقيقية لأنها لم تصدر عن رغبة من ذات نفسه ولكنها صدرت عنه باسم زبيدة، دفعاً لما لعله قد بقي من غضب المأمون أو سوء ظنه عند مقدمه إلى

(١) القصة والشعر في نفس المصدر، ص ٢١٣ إلى ٢١٥.

(٢) القصة والشعر في نفس المصدر، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٣) انظر تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢١٠؛ ومعجم الأدباء، ج ٢، ص ١١٢، ١١٣.

(٤) مهذب الأغاني، ج ٨ ص ٤.

(٥) الطبري، ج ٧، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٦) الشعر في الطبري، ج ٧ ص ٢١٧.



بغداد، فشعره في هذا العهد لا يكاد ينبعث عن غير الرغبة في استبقاء المودات، أو كف حاجات شيخ ضعيف جاوزت سنه السبعين ولاقى ما لقي أهل بغداد من شظف العيش في هذه السنين التي قامت فيها الحروب بين المأمون والأمين. وقد تجره هذه الأحوال المحرجة للصدور الذاهبة بحلم أولي الحلم إلى أن يبلغ بعتاب أصدقائه إلى ما يشبه الهجاء.

### صلته بالمأمون:

روى أبو الفرج بسنده إلى جماعة من كتاب الحسن بن سهل قالوا: وقعت رقعة فيها بيتا شعر في عسكر المأمون، فجيء بها إلى مجاشع بن مسعدة، فقال: هذا كلام أبي العتاهية وهو صديقي، وليست الرقعة لي ولكنها للأمير الحسن بن سهل<sup>(١)</sup>؛ فذهبوا بها فقرأها وقال: ما أعرف هذه العلامة؛ فبلغ المأمون خبرها فقال: هذه لي، وأنا أعرف العلامة والبيتان:

ما على ذا كنا افترقنا بسندا      ن وما هكذا عهدنا الإخاء  
تضرب الناس بالمهنة البيـ  
ض على غدرهم وتنسى الوفاء<sup>(٢)</sup>

وسندان كما مضى واد في العراق وأنا لا أستطيع أن أعين متى لقيه فيه، وهل كان ذلك وهو ولي عهد أم عند مقدمه إلى بغداد من خراسان، وسيأتي ما أشرنا إليه قبل من التنازع في البيتين وسبق، مما يدل على لطف محله عند المأمون ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين من إهدائه هدايا كثيرة إليه وأنه أهدى إليه مرة نعلًا وكتب إليه:

نعل بعثت بها لتلبسها      تمشي بها قدم إلى المجد  
... البيتين، وسبق ترجيح كونها في المأمون لا في الفضل بن الربيع.

---

(١) في الأصل: الفضل بن سهل، وهو خطأ، لأنه قتل غيلة في خراسان في سنة اثنتين ومائتين قبل مقدم المأمون إلى بغداد.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٥.

وذكر المسعودي أن أبا العتاهية قال: وجه إلى المأمون يوماً فصرت إليه، فألفيته مطرقاً متفكراً مغموماً فأحجمت، فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه فقال: يا إسماعيل، شأن النفس الملل وحب الاستطراف والأنس بالوحدة كما تأنس بالإلف، قلت: أجل يا أمير المؤمنين ولي من هذا بيت شعر، قال: وما هو؟ قلت:

لا يصلح النفس إذ كانت مصرفة إلا التنقل من حال إلى حال<sup>(١)</sup>

فمثل هذه القصة منبئة عن مودة بالغة بين الشاعر وأمير المؤمنين، إذ يفضي إليه بدخيلة نفسه ويشركه في خاص أمره. وقد رأينا في باب التعريف - إذ مات أبو عيسى بن الرشيد، فوجد عليه المأمون وجداً شديداً حتى امتنع من النوم ولم يطعم شيئاً - كيف سأل المأمون أن يحدثه بحديث بعض الملوك ممن كان في مثل حاله وفارقها، فحدثه حديث سليمان بن عبد الملك.

#### استعطافه لزييدة:

ليس هذا المقام من مقامات الشعر بالهين اليسير على كل مقدم عليه إلا أن يكون مثل أبي العتاهية في منزلته الملحوظة عند المأمون، فما كان المأمون لينسى لها سعيها في تقديم الأمين عليه بالخلافة، وأنها شاركت في تدبير أمر الحرب بينهما، وأقل من هذين، يقطع السبيل على القائلين والمستعطفين، ولكن أبا العتاهية، وهو صاحب المقام المشهود عند المهدي في أمر وزيره أبي عبيد الله، كما سلف، يجري على سجيته وتؤتية الأيام ما يتسق مع كرامته. روى أبو الفرج أن زييدة أحست من المأمون بجفاء، فوجهت إلى أبي العتاهية تعلمه بذلك وتأمره أن يقول فيه أبياتاً تعطفه عليها، فقال:

|                               |                           |
|-------------------------------|---------------------------|
| ألا إن صرف الدهر يدني ويبعد   | ويؤنس بالآلاف طوراً ويفقد |
| أصاب برب الدهر مني يدي        | فسلمت للأقدار والله أحمد  |
| وقلت لرب الدهر إن ذهب يد      | فقد بقيت والحمد لله لي يد |
| إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي | ولي جعفر لم يفقداً ومحمد  |

(١) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٣٩.

فحسن موقع الأبيات منه وعاد لها المأمون إلى أكثر مما كان لها عليه<sup>(١)</sup>، ونحوه في أمالي القالي<sup>(٢)</sup>. وروى أبو الفرج أيضاً مع روايته السالفة أن أبا العتاهية عمل على لسانها شعراً للمأمون لما قدم بغداد، أوله:

لخير إمام قام من خير عنصر وأفضل راق فوق أعواد منبر  
وبدهي من مطلعها أنها في مدحه كفاً لنقمته وإطفاء لغضبه. وسائر القصيدة ليس فيما بين يدي من المراجع ولا أعلم له موضعاً.

### صلته بالحسن بن سهل:

قدم المأمون من خراسان إلى العراق بعد خمس سنوات من انتصار جيوشه على جيوش أخيه وقتل طاهرياه؛ وقد ناب عنه على العراق والحجاز واليمن وغيرها - من نصره إلى مقدمه - الحسن بن سهل، فبدهي أن تكون الرغبات إليه والصلات به من شعراء العراق سابقة على مثلها بالمأمون. ولم يكن غضب الفضل بن الربيع بركة على أبي العتاهية كما كان عند الحسن بن سهل. روى أبو الفرج أن أبا العتاهية كان يحدث الحسن بن سهل بحديثه مع الفضل بن الربيع الذي ذكر فيه البرامكة، فكان سبب سخط الفضل عليه، كما سلف، فقال له الحسن: لئن كان ذلك ضرك عند الفضل بن الربيع لقد نفعتك عندنا؛ وأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم<sup>(٣)</sup>. وروى الحصري له مما يدل على قيام أسباب شكر الحسن وتمثلها في نفسه أعظم تمثل قوله فيه: إنما خلف آدم في ولده، فهو ينقع غلتهم ويسد خلتهم، ولقد رفع الله للدنيا من شأنها إذ جعله من سكانها<sup>(٤)</sup>. ولئن كان الرواة لم يدونا بما ينبغي له في مثل هذا الغرض من شعر أبي العتاهية، فكلمته هذه تنبئ عنه.

(١) الأغاني، ج ٢١ ص ١٢.

(٢) أمالي القالي، ج ٢ ص ١٩١.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٤.

(٤) زهر الآداب، ج ٣ ص ٢٦٠.

صلته بمجاشع وعمرو، ابني مسعدة،

من كتاب المأمون، وفيها المعائب:

عن عمرو بن مسعدة قال: قال لي أخي مجاشع: بينما أنا في بيتي،  
إذ جاءتني رقعة من أبي العتاهية فيها:

خليل لي أكاتمه      أراني لا ألائمه  
خليل لا تهب الريد      ح إلا هب لائمه  
كذا من نال سلطاناً      ومن كثرت دراهمه

قال: فبعثت إليه فأق إلى، فقلت له: أما رعت حقاً ولا ذماماً ولا مودة؟..  
فقال لي: ما قلت سوءاً. قلت: فما حملك على هذا؟ قال: أغيب عنك عشرة  
أيام فلا تسأل عني ولا تبعث إلي رسولاً؟.. فقلت: يا أبا إسحاق، أنسيت قولك:

يأبى المعلق بالمنى      إلا رواجاً واذلاًجا  
أرفق فعمرك عود ذي      أود رأيت له اعوجاجا  
من عاج من شيء إلى      شيء أصاب له معاجا

فقال: حسبك حسبك.. أوسعتني عذراً<sup>(١)</sup>. ومبعث هذا العتاب كما هو ظاهر  
من قول أبي العتاهية هو المحافظة على حقوق الأخوة وموائيق الوداد. وقال  
أبو الفرج: كان مجاشع بن مسعدة أخو عمرو بن مسعدة صديقاً لأبي العتاهية،  
وكان يقوم بحوائجه كلها ويخلص مودته، فمات، وعرضت لأبي العتاهية  
حاجة إلى أخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها، فكتب إليه:

غنيت عن العهد القديم غنيता      وضيعت وداً بيننا ونسيتا  
ومن عجب الأيام أن مات مألفي      ومن كنت تغشاني به وبقيتا<sup>(٢)</sup>

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٠.

ورواية الحصري بعد البيت الأول:

وقد كنت في أيام ضعف من القوى

أبر وأوفى منك حين قويتا

تجاهلت عما كنت تحسن وصفه

ومت عن الإحسان حين حيثنا

وجعل الحصري هذه الحال بعد ارتفاع حال عمرو وعلو مرتبته مع المأمون<sup>(١)</sup>؛ وروي أنه كان صديقاً له قبل أن يبلغ مبلغ الوزارة في أيام المأمون، فلما بلغها سألها حاجة فلم يقضها، وحجبه، فكتب إليه:

بلوت إخاء الناس يا عمرو وكلهم وجربت حتى أحكمتني التجارب

فلم أرد ود الناس إلا رضاهم

فمن يزر أو يغضب فليس بصاحب

وانحدر إلى واسط فلم يعد حتى تغيرت حال عمرو<sup>(٢)</sup>. وحقق ياقوت أن تسمية عمرو وزيراً إنما كانت لعظم منزلته عند المأمون لا لأنه كان وزيراً<sup>(٣)</sup>، وكان إليه ديوان الرسائل، وديوان الخاتم، والتوقيع، والأزمة<sup>(٤)</sup>.

عتابه لصديقه أحمد بن يوسف،

من كتاب المأمون أو وزرائه:

شأن أبي العتاهية مع أحمد بن يوسف شبيه بشأنه مع عمرو بن مسعدة. روى أبو الفرج أنه لما خدم المأمون وخص به رأى أبو العتاهية منه جفوة، فكتب إليه:

أبا جعفر إن الشريف يشينه تتايهه على الأخلاء بالوفور

(١) زهر الأداب، ج ٣ ص ٢٥٧.

(٢) ذيل زهر الأداب، ص ١٩٢.

(٣) معجم الأدباء، ج ١٦ ص ١٢٩.

(٤) نفس المصدر، ج ٥ ص ١٦٣.

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر  
فإن نلت تيهاً بالذي نلت من غنى فإن غناي في التجميل والصبر

فوصله وكتب إليه يعتذر مما أنكره<sup>(١)</sup>. وروى الحصري في زهر الآداب  
وذيله نحوه مع تغيير يسير في ألفاظ الأبيات وترتيبها، وجعل خدمته للمأمون  
واختصاصه به وزارة<sup>(٢)</sup>. والظن به كالذي سبق في وزارة عمرو، قال ياقوت كان  
إليه عرض الكتب والتوقيع<sup>(٣)</sup>. وروى الحصري له معاتبات أخرى له لاحتجابه  
عنه منها:

لئن عدت بعد اليوم إني لظالم  
سأصرف وجهي حيث تبغي المكارم  
متى يظفر الغادي إليك بحاجة  
ونصفك محجوب ونصفك نائم

ونبه الحصري على مصدر هذه الرواية، وهو الجاحظ، ونحوها في الشعر  
والشعراء لابن قتيبة<sup>(٤)</sup> لكن الذي في الديوان المطبوع أن البيتين له في بعض  
الهاشميين<sup>(٥)</sup>.

### عتابه ليحيى بن خاقان:

هو من الرجال البارزين في دولة المأمون ومن ذوي المكانة عند الحسن بن  
سهل، فقد كان سبب يحيى بن أكثم قاضي القضاة في عهد المأمون إلى  
الحسن بن سهل الذي وصله إلى المأمون، فولاه القضاء ثم وزر له<sup>(٦)</sup>، وشأنه

---

(١) الأغاني.

(٢) زهر الآداب، ج ٢ ص ١٥٤ وذيله ص ١٩١.

(٣) معجم الأدباء، ج ٥ ص ١٦٣.

(٤) الشعر والشعراء.

(٥) الديوان، ص ٣٠٤ - ٣٣٣.

(٦) من عصر المأمون، ج ١ ص ٤٤٢ نقلاً عن ابن طيفور.

معه كشأنه مع عمرو وأحمد، وقد أدى صنعه به إلى مثل ما سلف من قوله لهما،  
فقد كتب إليه :

|                          |                                      |
|--------------------------|--------------------------------------|
| أراك تراعى حين ترى خيالي | فما هذا يروعك من خيالي               |
| لعلك خائف مني سؤلي       | ألا فلك الأمان من السؤال             |
| كفيتك أن حالك لم تمل بي  | لأطلب مثلها أبداً بحالي              |
| وإن اليسر مثل العسر عندي | بأيهما بليت فلا أبالي <sup>(١)</sup> |



---

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٣.

في  
شعر الزهد والحكمة

وفيه فصول:

الفصل الأول: في وصف زهده وما ذكره القدماء  
من سببه وبدئه.

الفصل الثاني: في أسباب زهده الدينية والعقلية  
وشواهدا من شعره.

الفصل الثالث: في زهدياته الاجتماعية والسياسية.

الفصل الرابع: في حكمته ومذاهبها في شعره.



### توطئة:

في «اللسان» يقال: زهد وزهد وهي أعلى يزهد فيهما زهداً وزهداً، الفتح عن سيبويه وزهاده فهو زاهد من قوم زهاد، وزاد ثعلب زهد بالضم والتزهد في الشيء وعن الشيء خلاف الترغيب فيه، وزهده في الأمر رغبه عنه أ. هـ.

والمأمل في معاني هذه المادة يجدها تدور حول قلة الشيء وتقليله وحقارته وتحقيره ورغبة النفس وترغيبها عنه. وقيل للزهري: ما الزهد في الدنيا؟ قال: أما أنه ليس بشعث اللمة ولا قشف الهيئة ولكنه ظلف النفس عن كل شهوة. وأجاب مرة أخرى بقوله: أن لا يغلب الحرام صبرك ولا الحلال شكرك<sup>(١)</sup>. وفي «اللسان» - في بيان مراده بالجواب الثاني - : أراد أن لا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ولا صبره عن ترك الحرام. وليس هذا التفسير بظاهر، بل الظاهر أنه يريد: أن لا يغلب الحرام صبرك فتقع فيه، ولا الحلال شكرك فلا تؤديه. وقال الثوري: ليس الزهد في الدنيا بلبس الخشن ولا أكل الجشب إنما الزهد في الدنيا قصر الأمل<sup>(٢)</sup>. وكتب إلى أخ له: واحذر حب المنزل فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا<sup>(٣)</sup>.

(١) البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) الحلية، ج ٦ ص ٣٨٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٨٧.

وعن سفيان بن عيينة: الزهد في الدنيا الصبر وارتقَاب الموت وقال: ليس من حب الدنيا طلبك ما لا بد منه<sup>(١)</sup>. وسئل عن الزهد: ما هو؟ فقال: الزهد فيما حرم الله، فأما ما أحل الله فقد أباحه الله، فإن النبيين قد نكحوا وركبوا وأكلوا، ولكن الله نهاهم عن شيء فانتهاوا عنه وكانوا به زهاداً<sup>(٢)</sup>. وعن وهيب بن الورد المكي: الزهد في الدنيا أن لا تأسى على ما فاتك منها ولا تفرح بما أتاك منها<sup>(٣)</sup>، ونحوه عن ابن السماك<sup>(٤)</sup>. وسئل الفضيل عنه فقال: القنع وهو الغنى<sup>(٥)</sup>. وعن إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض وزهد فضل وزهد سلامة: فالفرض الزهد في الحرام، والفضل الزهد في الحلال، والسلامة الزهد في الشبهات<sup>(٦)</sup>.

وعن أحمد بن حنبل، رضي الله عنه: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام، وهوزهد العوام؛ والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهوزهد الخواص؛ والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهوزهد العارفين<sup>(٧)</sup>.

وقد يسوقنا قول إبراهيم بن أدهم وأحمد إلى مأزق شديد. فأدنى المراتب عندهما وهو الزهد في الحرام هو كل الزهد عند الزهري وابن عيينة. وزاد ابن عيينة: أنه زهد الأنبياء عليهم السلام. . فلعله يصلح جواباً على ذلك أن الأنبياء عليهم السلام يرون حراماً عليهم ما كان من فضول الحلال أو كان فيه شبهة أو شغل عن الله تعالى. فقد رأينا في المقدمة كيف كان زهده، صلى الله عليه وسلم، وزهد صاحبيه ونحوه معروف عن الأنبياء عليهم السلام والصالحين<sup>(٨)</sup>.

(١) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) نفس المصدر، ج ٧ ص ٢٩٧.

(٣) نفس المصدر، ج ٨ ص ١٤٠.

(٤) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٠٤.

(٥) نفس المصدر، ج ٨ ص ٩١.

(٦) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٦.

(٧) الرسالة القشيرية، ص ٥٧.

(٨) انظر عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج ١ ص ١٩٩، ٢٦٩.

وورد عن ابن عيينة نفسه أنه أخرج من كفه رغيف شعير وقال الحرملة بن يحيى: دع يا حرملة ما يقول الناس. . هذا طعامي منذ ستين سنة. وعن آخر أنه دخل عليه وبين يديه قرصان من شعير فقال له: أما أنهما طعامي منذ أربعين سنة<sup>(١)</sup>. فهذا دليل على أن مثله حين يقصر الزهد على ترك الحرام إنما يضيق شقة الحلال. واستقصاء القول في ذلك مما لا يتسع له هذا المقام، وسنرى فيما نستقبل من أخبار أبي العتاهية وأشعاره أين يضع نفسه من منازل الزهد. ولعل مما يحتاج إلى التنبيه أن مصدر اللزوم، كالزهد والزهادة، لا يصلح أن يكون غرضاً من أغراض القائلين، وإنما الصالح لذلك وصفه أو وصف أسبابه وثمراته، فحين يعد الأدباء الزهد غرضاً شعرياً فكأنما يريدون هذا المحذوف، وهو وصفه أو وصف سببه وثمرته، أو يريدون بالزهد التزهيد. ووضع أحد المصدرين موضع الآخر سائغ لتلاقيهما في الاشتقاق كقوله تعالى: ﴿أثبتكم من الأرض نباتاً﴾ على وجه لأن الزهد بمعناه الحقيقي وهو العزوف عن الدنيا والإقبال على الآخرة ليس غرضاً بل داع وباعث على ما يؤم هذه الأغراض السابقة التي تراد به.



---

(١) الحلية، ج ٧ ص ٢٧٢، ٢٧٣.



في وصف زهده  
وما ذكره القدماء من سببه وبدئه

روى أبو الفرج بسنده إلى مخارق المغني قال: جاءني أبو العتاهية فقال: قد عزمت على أن أتزود منك يوماً تهبه لي، فمتى تنشط؟ فقلت: متى شئت. فقال: أخاف أن تقطع بي. فقلت: والله لا فعلت وإن طلبني الخليفة. فقال: يكون ذلك في غد. فقلت: أفعل. فلما كان من غد باكرني رسوله فجئته فأدخلني بيتاً له نظيفاً فيه فرش نظيف، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وخل وبقل وملح وجدي مشوي، فأكلنا منه، ثم دعا بسمك مشوي فأصبنا منه حتى اكفينا؛ ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا وجاؤونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة فقال: اختر ما يصلح لك منها؛ فاخترت وشربت وصب قدحاً ثم قال: غني في قولي:

أحمد قال لي ولم يدر ما بي أتحب الغداة عتبة حقاً

فغنيتة وهو يبكي وينشج؛ ثم شرب قدحاً آخر، ثم قال: غني فديتك في قولي:

خليلي ما لي لا تزال مضرتي تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فغنيتة إياه؛ وما زال يقترح عليّ كل صوت غني به في شعره فأغنيه ويشرب ويبكي، حتى صار العتمة فقال: أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع. فجلست، فأمر ابنه وغلامه فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهي، ثم أمر بإخراج كل ما في بيته من النبيذ وآلته فأخرج جميعه؛ فما زال يكسره ويصب النبيذ

وهويكي حتى لم يبق من ذلك شيء. ثم نزع ثيابه واغتسل ثم لبس ثياباً بيضاً من صوف ثم عانقني وبكى ثم قال: السلام عليك يا حبيبي وفرحى من الناس كلهم سلام الفراق الذي لا لقاء بعده. وجعل يبكي وقال: هذا آخر عهدي بك في حال تعاشر أهل الدنيا. ثم ذكر مخارق أنه ظن أنها بعض حماقاته إلى أن اشتاق إليه فزاره فوجد من إسرافه في زهده وتقشفه ما بلغ به أن يلبس قوصرتين مكان القميص والسرويل، قال: ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أغنيه، فأتيته عائداً فخرج إليّ رسوله يقول: إن دخلت إلي جددت لي حزناً وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه، وأنا استودعك الله وأعتذر إليك من ترك الالتقاء—ثم كان آخر عهدي به<sup>(١)</sup>. ونحو هذه الرواية بزيادة في ألوان الطعام في «معاهد التنصيص»<sup>(٢)</sup>. ويشكك في هذه الرواية مارواه أبو الفرج أيضاً عن خلف الشمري قال: كنت عند مخارق فجاء أبو العتاهية في يوم الجمعة فقال: لي حاجة وأريد الصلاة، فقال مخارق: لا أبرح حتى تعود؛ قال: فرجع وطرح ثيابه وهي صوف وغسل وجهه ثم قال له غني:

قال لي احمد ولم يدر ما بي أتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ثم قلت: نعم، حباً جرى في العروق عرقاً فعرقا

فجذب مخارق أداة<sup>(٣)</sup> كانت بين يديه فأوقع عليها ثم غناه، فاستعاده ثلاث مرات فأعاده عليه ثم قام وهو يقول: لا يسمع والله هذا الغناء أحد فيفلح<sup>(٤)</sup>، فإن هذه الرواية تتضمن أنه سمعه بعد زهده ولبسه الصوف، والأولى تتضمن أنه بعد أن سمعه خلع ثيابه ولبس الصوف، والأولى تتضمن أنه لم يسمعه بعد مجلس الزهد والتصوف بل اعتذر إليه من ترك الالتقاء حتى لا يجدد له حزناً بسماعه والثانية تتضمن أنه سمعه بعد ذلك بدليل ما كان يلبس من الصوف

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٣، ١٧٤.

(٢) معاهد التنصيص، ج ١ ص ٢٤١.

(٣) في الأصل دواة.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٨.

وفي بعض ما طويناه من الرواية الأولى ما استظهرنا وضعه عند الكلام في حرفته وفي بعض ما سنستقبله من الروايات في هذا الفصل ما يجري مجرى المناقضة لبعض أجزاء الخبر. وعن محمد بن أبي العتاهية قال: كان أبي لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج، وكان يجري عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون، فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبي الصوف وتزهّد وترك حضور المنادمة والقبول في الغزل، وأمر الرشيد بحبسه فكتب إليه من حبسه:

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| أنا اليوم لي والحمد لله أشهر | يروح عليّ الهم منكم وي بكر |
| تذكر أمين الله حقي وحرمتي    | وما كنت توليني فذلك يذكر   |
| ليالي تدني منك بالقرب مجلسي  | ووجهك من ماء البشاشة يقطر  |
| فمن لي بالعين التي كنت مرّة  | إلي بها في سالف الدهر تنظر |

قال: فلما قرأ الرشيد الأبيات قال: قولوا له: لا بأس عليك. فكتب إليه:

|                          |                                        |
|--------------------------|----------------------------------------|
| أرقت وطار عن عيني النعاس | ونام السامرون ولم يواسوا               |
| أمين الله أمنك خير أمن   | عليك من التقى فيه لباس                 |
| تساس من السماء بكل بر    | وأنت به تسوس كما تساس                  |
| كأن الخلق ركب فيه روح    | له جسد وأنت عليه راس                   |
| أمين الله إن الحبس باس   | وقد أرسلت: ليس عليك باس <sup>(١)</sup> |

وقد مضى البيتان الأخيران من هذه السينية في عهد الرشيد عن ابن قتيبة في «عيون الأخبار» و«الشعر والشعراء» في سياق غير هذا السياق، والأبيات بتبديل الثالث بآخر واختلاف يسير في الباقي. في «تاريخ الطبري» من قول أبي نواس في حبس الأمين<sup>(٢)</sup>. وكم ذا يكابد الباحث عن الحقيقة من اختلاف الروايات، ورواية الحصري في «زهر الآداب» توافق التي معنا في أول الخبر، وفي

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٢.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٧ ص ١٠٧.

رواية الرائية والبيتين الأخيرين من السينية إلا أنها تجعل ذلك بعد رده إياه إلى حبسه عقب إحضاره منه إذ غنى بقوله:

خليلي ما لي لا تزال مضرتي      تكون على الأقدار حتماً من الحتم  
كفاك بحق الله ما قد ظلمتني      فهذا مقام المستجير من الظلم  
ألا في سبيل الله جسمي وقوتي      ألا مسعد حتى أنوح على جسمي

فقال له: بالأمس ينهك أمير المؤمنين المهدي عن الغزل فتأبى إلا لجأاً ومحكاً، واليوم آمرك بالقول فتأبى جرأة علي وإقداماً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الحسنات يذهبن السيئات: كنت أقول الغزل ولي شباب وجدة وبي حراك وقوة، وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثلي تصاب. فرده إلى حبسه فكتب إليه بالشعر السابق<sup>(١)</sup>. وهذه الرواية منافية لبعض ما سلف من رواية مخارق لتضمنها أنه سأل أن يغنيه في ما اقترح من قوله:

خليلي ما لي لا تزال مضرتي      تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فإن الرشيد لم يحبسه فيشكوه بمثل هذا الشعر حتى صار إلى ما وصفه مخارق من الزهد وما رواه أبو الفرج من قوله، إذ توانى الرشيد في إخراجه من الحبس:

أما والله إن الظلم لوم      وما زال المسيء هو الظلوم  
إلى ديان يوم الدين نمضي      وعند الله تجتمع الخصوم  
لأمر ما تصرفت الليالي      لأمر ما تحركت<sup>(٢)</sup> النجوم  
تموت غداً وأنت قرير عين      من الغفلات في لجج تعوم  
تنام ولم تنم عنك المنايا      تنبه للمنية يا نؤوم  
سل الأيام عن أمم تقضت      ستخبرك المعالم والرسوم  
تروم الخلد في دار المنايا      وكم قدر أم غيرك ما تروم

(١) زهر الأداب، للحصري، ج ٢ ص ٤٥، ٤٦.

(٢) في الأصل توليت والتصحيح من الديوان المنسوب لسيدنا علي، رضي الله عنه، ص ٦٠.



وروى أبو الفرج بعد هذه الأبيات ما لا يشبهها ولا يوافق هذا المقام وهو:

ألا يا أيها الملك المرجي عليه نواهض الدنيا تحوم  
أقلني زلة لم أجر منها إلى لوم وما مثلي ملوم  
وخلصني تخلص يوم بعث إذا للناس برزت الجحيم<sup>(١)</sup>

فإن هذه الضراعة بعد ذلك التجبيه بالظلم والتقريع بما ساقه من الزواجر من غير الملائم وسؤاله الإقالة من الزلة ولم يحسه إلا لامتناعه عن القول في الغزل مما لا يكون. فهذه الأبيات الثلاثة إن كانت له فهي من سجنه السياسي لأنها به أشبه كما أسلفناه في عهد الرشيد من أن لكل مقام مقالاً يقتضيه وقد روى القصيدة الإمام ابن عبد البر دون هذه الزيادة وزاد فيها أبياتاً منها:

وما تنفك في زمن عقور بقلبك من مخالفه كلوم  
إذا ما قلت قد زجيت غماً فمر تشعبت منه هموم  
وليس يذل بالإنصاف حي وليس يعز بالغشم الغشوم<sup>(٢)</sup>

وقد لفق مخرج الديوان المطبوع بين الروائتين فأخرجهما قصيدة واحدة وسببها بسبب مفترى لم يقله أبو الفرج ولا غيره وهو أنه قالها إذا حبسه الرشيد لامتناعه عن مجلس خمرة وامتناعه عن شعر الغزل<sup>(٣)</sup>. وروى أبو الفرج أنه كتب للرشيد بعض ما أنشده أبو العتاهية من هذه الميمية في حبسه فبكى وأطلقه وأمر له بألفي دينار<sup>(٤)</sup>. ثم إن ما رواه أبو الفرج من اعتذار أبي العتاهية عن القول في الغزل بالسن ينافي ما سلف في عهد الرشيد عن المسعودي، وسيأتي مع ما يشبهه مما يدل على أن السبب ليس الشيخوخة بل اليأس من عتبة وهو أرجح لإلحاحه

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٥.

(٢) الديوان المخطوط.

(٣) الديوان، ص ٢٤٦.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٥.

عليه في أمرها، فإن هذا الإلحاح يبطل هذا الاعتذار وإن كانت الشيخوخة تصح سبباً لمثل ذلك كقول عمران بن حطان:

صباماً صباحتي علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل أبعد  
وروى أبو الفرج أيضاً بسنده إلى عبد القوي بن محمد بن أبي العتاهية  
عن أبيه قال: لبس أبو العتاهية كساء صوف ودراعة صوف وآلى على نفسه أن  
لا يقول شعراً في الغزل وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال:

يا ابن عم النبي سمعاً وطاعة قد خلعنا الكساء والدراعه  
ورجعنا إلى الصناعة لما كان سخط الإمام ترك الصناعة<sup>(١)</sup>

ويناقض هذه الرواية ما رواه أبو الفرج بسنده إلى يزيد بن محمد المهلب  
قال: كان إسحاق (ابن إبراهيم الموصلي) قد أظهر التوبة وغير زيّه واحتجر من  
حضور دار السلطان فبلغه أن المأمون وجد عليه من ذلك وتنكر فكتب إسحاق  
إليه وغنى فيه بعد ذلك:

يا ابن عم النبي سمعاً وطاعة

(البيتين).

وأشار أبو الفرج في هذا المقام إلى هذا التنازع<sup>(٢)</sup>، والظاهر أن البيتين  
لإسحاق لأن أحداً لم يذكر أن أبا العتاهية قد خلع ملابس الزهد أو رجع إلى  
القول في الغزل. وقد رأينا قبل كيف كان إجلال المأمون لهذا الشيخ. وقال  
المسعودي، وهو يذكر وفاته: وفي هذه السنة مات أبو العتاهية متنسكاً لابساً  
للصوف<sup>(٣)</sup>. وقال الخطيب البغدادي: وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء  
قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك إلى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ<sup>(٤)</sup>. وإن كنا

(١) نقي المصدر، ص ١٥٥.

(٢) نقي المصدر، ج ٥ ص ٩٦.

(٣) مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٨.

(٤) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٠، ٢٥١.

لا نوافقه على تركه المديح جملة لنحو ماسلف، من مثل مدحته للأمين، وإن كان قوله في غير الزهد نادراً وفي ما لا ينافيه، حين انصرف إليه. ومن روايات أبي الفرج أن الرشيد أمر بحبسه والتضييق عليه حتى يقول الشعر الرقيق في الغزل كما كان يقول؛ فحبس في بيت خمسة أشبار في مثلها فصاح: الموت! أخرجوني فأنا أقول كل ماشئتم. فأخرج فقيل له قل: فقال: حتى أت نفس، فأخرج فأعطي دواة وقرطاساً فقال أبياته التي أولها:

من العبد أذله مولاه      ما له شافع إليه سواه  
يشتكي ما به إليه ويخشا      ه ويرجوه مثل ما يخشاه

فتقدم الرشيد إلى إبراهيم الموصلي أن يغني بها وأمر بإحضار أبي العتاهية؛ فلما أحضر قال له: أنشدني قولك:

يا عتب سيدتي أما لك دين      حتى متى قلبي لديك رهين  
وأنا الذلول لكل ما حملتني      وأنا الشقي البائس المسكين  
وأنا الغداة لكل باك مسعد      ولكل صب صاحب وخدين  
لا بأس إن لذاك عندي راحة      للصب إن يلق الحزين حزين  
يا عتب أين أفر منك أميرتي      وعلي حصن من هواك حصين<sup>(١)</sup>

وإيراد القصة على هذا الوجه ينافي إخراجه عقب الميمية كما سبق، وليس فيه دلالة على عودته إلى القول في الغزل، فإن استنشاده لشيء قاله قبل ذلك على فرض طاعته له وإنشاده إياه تخلصاً مما يلاقي ليس كإنشائه ابتداء. وفي رواية لمخارق تشبه ماسلف عن محمد بن أبي العتاهية في سبب حبس الرشيد له، وتزيد عليها أنه ضربه ستين عصاً وحلف أن لا يخرج من حبسه حتى يقول شعراً في الغزل. فلما رفعت المخارح عنه قال: كل مملوك له حر وامراته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن مخارقاً سأله إذ مضت السنة: هل قال شيئاً للتخلص من هذا الموضع، أي السجن، وذلك

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٣.

لما سلف من قسم الرشيد، فقال: نعم قد قلت في امرأتي شعراً. فقال: هاته. فأنشده:

من لقلب متيم مشتاق      شفه شوقه وطول الفراق  
طال شوقي إلى قعيدة بيتي      ليت شعري فهل لنا من تلاق  
هي حظي قد اقتصرت عليها      من ذوات العقود والأطواق  
جمع الله عاجلاً بك شملي      عن قريب وفكني من وثاقي

فصنع فيها الموصلي لحناً غنى به الرشيد فأطلقه وأعطاه بالسيتين عصا ستين ألف درهم<sup>(١)</sup>. ولا نستطيع مع هذه الروايات الكثيرة أن نعين الشعر الذي خرج به ولكننا نستطيع أن ننتهي إلى أنه لم يعد إلى الغزل بعتبة أو بغير هذه التي لا بأس عليه من التشوق إليها من ذوات العقود والأطواق.

#### سبب زهده:

عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أن أبا العتاهية أكثر مسألة الرشيد في عتبة فسعى له إلى أن اعتذرت له أشد اعتذار فكف عنها، وأن أبا العتاهية قال إذ أخبره الرشيد بذلك: مكثت ملياً لا أدري أين أنا، قائم أوقاعد، وقلت: الآن يثست منها إذ ردتك وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك. وقال أبو العباس: فلبس أبو العتاهية الصوف وقال في ذلك من أبيات:

قطعت منك حبال الآمال      وحططت عن ظهر المطي رحالي  
ووجدت برد اليأس بين جوانحي      فغنيت عن حل وعن ترحال<sup>(٢)</sup>

وقد سبق ترجيح قول هذا الشعر في عهد الرشيد على ما هي رواية أبي العباس على قوله في عهد المهدي، وهو ظاهر في أن سبب زهده هو يأسه من عتبة ولا يحق ذلك حتى يكون حبه لها حقاً، وقد سبق في عهد المهدي أنه كان مزحاً فصار جداً. وما ذكرناه آنفاً من تمنعه عن القول في الغزل على النحو الذي

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٦.

(٢) مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٧٤، ٢٧٥ باختصار.

كان يقوله مع حبسه وضربه والتضييق عليه دليل آخر على صدقه فيه، وأنه كان قد ملأ قلبه وملك عليه مشاعره؛ ويفصح أيضاً عن صدق هذا الحب ما رواه أبو الفرج وهو صريح فيه أنه كتب إلى الرشيد من الحبس:

وكلفتني ما حلت بيني وبينه      وقلت سأبغي ما تريد وما تهوى  
فلو كان لي قلبان كلفت واحداً

هواك وكلفت الشجي بما يهوى<sup>(١)</sup>

ولأبي العتاهية قصتان أخريان يؤيدان صدقه في هذا الحب، إحداها قبل يأسه من عتبة وأخراهما بعد يأسه منها. أما الأولى فما رواه أبو الفرج والخطيب البغدادي أن إسحاق بن غرير أحب جارية للخيزران اسمها عبادة، فحدث عبدالله بن مصعب المهدي في شأنها، فحاول المهدي أن يشتريها له من الخيزران بخمسين ألف درهم فأبت، فأعطى إسحاق هذا المال فأخذه فقال أبو العتاهية يعيره:

من صدق الحب لأحبابه      فإن حب ابن غرير غرور  
أنساه عبادة ذات الهوى      وأذهب الحب الذي في الضمير  
خمسون ألفاً كلها راجح      خشن لها في كل كيس صرير  
وقال أيضاً في ذلك:

حبك للمال لا كحبك عبا      دة يافاضح المحبين  
لو كنت أصفيتها الوداد كما      قلت لما بعته بخمسينا<sup>(٢)</sup>

وأما الثانية فما رواه الخطيب بسنده إلى محمد بن أبي أمية الشاعر قال: كنت أنا وأخي نكتب للعباس بن الفضل بن الربيع فجاءه أبو العتاهية مسلماً فأمره بالمقام عنده فقال: على شريطة أن ينشدني كاتبك هذا من شعره - وأوماً إليّ. فقال: ذلك لك. وتغدينا فقال: الشرط؛ فأمرني أن أنشده فحصرته وقلت: ما أجسر على ذلك ولا ذاك قدرني؛ فقال: إن أنشدتني وإلا قتلت. فجذبني فأنشدته:

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٥٠؛ وتاريخ بغداد، ج ٦ ص ٣١٧، ٣١٨.

رب قول منك لا أنساه لي      واجب الشكر وإن لم تفعلني  
أقطع الدهر بظن حسن      وأجلي غمرة ما تنجلي  
وأرى الأيام لا تدني الذي      أرتهج منك وتدني أجلي  
كلما أملت يوماً صالحاً      عرض المكروه لي في أملي

قال: فبكى أبو العتاهية أشد بكاء ثم قال: إن لم تزدني قمت، فقال لي: زده. فأنشدته:

بنفسي من ينجيه      ضميري بأمانيه  
ومن يعرض عن ذكرى      كأني لست أعنيه  
لقد أسرفت في الذل      كما أسرف في التيه  
أما تعرف لي إحس      أن يوم فتجازه

قال: فزاد والله بكاءه<sup>(١)</sup>. ولأبي الفرج في هذه القصة روايتان مختلفتان. فإحداهما أن ابن أبي أمية كان عند جعفر بن يحيى، وأن القصة معه، ويضعفها ما سبق من سوء علاقة أبي العتاهية بالبرامكة، والأخرى أنه كان عند إبراهيم بن المهدي وأن القصة معه مع النص على أن ذلك كان بعد تنسكه ولبسه الصوف وتركه قول الشعر إلا في الزهد، وسيأتي له إن شاء الله في باب الشاعرية بعض ما آنس به محمداً في هذا المجلس لينشده من الشاء على شعر الصبا. والروايتان لا تختلفان في الجملة عن رواية الخطيب إلا باقتصارهما على الشعر الأول وما جاء في أولاهما من أنه حين أنشده البيت:

وأرى الأيام لا تدني الذي      أرتهج منك وتدني أجلي

أقبل أبو العتاهية يردده ويقبل رأس ابن أبي أمية ويبكي وقال: وددت والله أنه لي بكثير من شعري<sup>(٢)</sup>. وما ورد في الثانية من أنه بكى حتى جرت دموعه على لحيته وجعل يردد البيت الأخير منها وينتحب وقام وهو يردده ويبكي

(١) تاريخ بغداد، ج ٢ ص ٨٦.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٣.

حتى خرج من الباب<sup>(١)</sup> فإن في بكاء هذا الشيخ بمثل هذا الشعر من دلائل التصديق لحبه والتأييد له ما ليس بعده تصديق ولا تأييد. وانظر اذن كيف انطلق شعر الزهد من قلبه عن هذا اليأس الباخع والحزن الدفين، وكيف ذهب به مذاهبه الخلقية الشريفة التي إن لم تكن ظاهرة الصلة بحاله فهي وثيقة الارتباط بالقلوب التي صهرتها لواعج الشوق ونيران الأحزان والأشجان فنفت عنها زبد الشهوات وشبهت لها بدء شأن الدنيا أوله وآخره فأقرتها على قواعد من اليقين والحق القويم ونفخت فيها من روح الصواب والبصر بالأمور ما لا تغلبه كواذب الآمال أو تخدعه بارقات الغرور:

قطعت منك حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطي رحالي  
ووجدت برد اليأس بين جوانحي فأرحت من حل ومن ترحالي  
يا أيها البطر الذي هو من غد في قبره متمزق الأوصال  
حذف المنى عنه المشمر في الهدى

وأرى منك طويلة الأذيال  
حيل ابن آدم في الأمور كثيرة والموت يقطع حيلة المحتال  
قست السؤال فكان أعظم قيمة من كل عارفة جرت بسؤال  
فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً فابذله للمتكرم المفضل  
وإذا خشيت تعذرا في بلدة فاشدد يديك بعاجل الترحال  
واصبر على غير الزمان فإنما فرج الشدائد مثل حل عقال<sup>(٢)</sup>

### بدء زهده:

سبق عن محمد بن أبي العتاهية أن زهد أبيه كان عند قدوم الرشيد إلى الرقة، وكان هذا القدوم كما في «الأخبار الطوال»<sup>(٣)</sup>، و«تاريخ الطبري»<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني، ج ١١ ص ٣٠، ٣١.

(٢) القصيدة في الأغاني، ج ٣ ص ١٢٧، ١٢٨؛ وفي مقدمة الديوان المخطوط والروايتان عن ابن الأعرابي وفي المطبوع، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٣) الأخبار الطوال، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٤) الطبري، ج ٦ ص ٤٦٩، ٤٧٠.

وغيرهما في سنة ثمانين ومائة. ونص «صاحب الشذرات» على اتخاذ الرشيد لها وطناً في هذه السنة. وذكر الدينوري والطبري أيضاً ما يتضمن أن هذه الإقامة امتدت إلى سنة أربع وثمانين ومائة إذ قدم الرشيد فيها إلى مدينة السلام ثم عاد إليها في سنة خمس وثمانين، وليس فيما ذكره محمد تعيين لهذا القدوم، ولا يصح أن يكون القدوم الأول لما سبق في عهد الرشيد أن أبا العتاهية كان في مدينة السلام فبلغه أن الرشيد واجد عليه لأمر بلغه عنه فكتب للفضل بن الربيع يعاتبه على أن لم يكلم الرشيد في أمره، وأن الفضل قام له بما أحب واستقدمه إلى الرقة، فلم يكن إذن أبو العتاهية فيها عند قدوم الرشيد إليها أول مرة ليصلح ذلك موعداً لزهد. على أن سعيه إليه بنفسه، وبمدائح في الفضل، مما يغير مسلكه في الزهد: فهل يكون هذا الزهد عند قدوم الرشيد إليها في سنة خمس وثمانين ومائة؟ قد يكون، ولكن في رواية ابن أبي العتاهية ما يساعد على استظهار أن مبدأ الزهد قدوم غير القدومين. فلفظ محمد: «كان أبي لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج، فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبي الصوف وتزهد إلخ»، فإن ذكر محمد لهذه الملازمة بين أبيه والرشيد في السفر والحضر إلا في طريق الحج مع عدم الحاجة إليها مشعرة بأن قدوم الرشيد آنئذ كان من الحج، ويساعده ما تتضمنه رواية مخارق، إذ أنه عاده في بيته بعد زمن من بدء زهده فوجده على الحال التي وصفها، فإن مكث أبي العتاهية في بيته ما كان ليتم له إلا في غيبة الرشيد لما سبق من حبسه إياه ليقول في الغزل. أما قدوم الرشيد إلى الرقة من الحج فكان في سنة اثنتين وثمانين ومائة. قال الطبري في أحداثها: كان فيها انصراف الرشيد من مكة ومسيره إلى الرقة<sup>(١)</sup>. ولا ينافي هذا البدء ما سبق من تسبيب اليأس من عتبة للزهد، إذ قد يكون هذا اليأس عند شروع الرشيد في الحج.



(١) الطبري، ج ٦ ص ٤٧٠.



في أسباب زهده الدينية والعقلية  
وشواهدا من شعره

توطئة :

ليس عند القدماء من سبب لزهد أبي العتاهية غير ما سبق ولكن المتبع  
لشعره منذ نشأته يجد أن له فيها كما سبق في باب التعريف :

ساكني الأحداث أنتم  
مثلنا بالأمس كنتم  
ليت شعري ما صنعتم  
أربحتم أم خسرتم

وقال أبو الفرج: وهي قصيدة طويلة في شعره. ويجد له في عهد المهدي  
قطعتين من الشعر ذهب بهما مذهب الزهد، أحدهما في استعطافه إياه لوزيره  
أبي عبيد الله وهي :

أرى الدنيا لمن هي في يديه      عذاباً كلما كثرت لديه  
تهين المكرمين لها بصغر      وتكرم كل من هانت عليه  
إذا استغنيت عن شيء فدعه      وخذ ما أنت محتاج إليه

والأخرى في رثائه للبانونة بنت المهدي وهي قوله :

ما للجددين لا يبلى اختلافهما      وكل غض جديد فيهما بالي  
يا من سلا عن حبيب بعد ميته      كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي

كأن كل نعيم أنت ذائقه      من لذة العيش يحكي لمعة الآل  
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى      ما شئت من عبر فيها وأمثال  
ما حيلة الموت إلا كل صالحة      أو لا فيما حيلة فيه لمحتال

ولا يمنع انبعاثها عن نزعة زهدية في نفسه أخذه معنى البيتين الأولين من قول المهدي إذ قصد إليه ليعزيه فوافاه وقد سلا وهويقول: لا بد من الصبر على ما لا بد منه، ولئن سلونا عمن فقدنا لسلون عنا من يفقدنا، وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه - فلما سمع هذا منه استأذن في الانشاد فأذن له فأنشده الأبيات<sup>(١)</sup>: فإن ما بعد البيتين منبئ بنفسه عن اتصال هذه المعاني بقرارة نفسه. واستظهر أنها البانوقة، من أن المذكور في تاريخ الطبري تسمية بنت المهدي التي توفيت فجزع عليها إلى الحد الذي وصفه أبو الفرج مع النقل الآنف، وجلس للتعزية فيها كما سبق في الباب الأول عن الجاحظ بهذا الاسم<sup>(٢)</sup>، مع عدم ذكر أحد من المؤرخين لوفاة غيرها من أولاد المهدي في حياته. ونعود إلى النسق فنجد أنه من غير المستطاع جعل اليأس من عتبة هو السبب الأول لزهده، إذ لا بد أمام الشعر الأنف من الرجوع به إلى فطرته ونزعات نفسه منذ الصبا ورد كل ما سلف من فنونه المسرفة في نشأته وما قرب منها إلى البيئة التي وصفناها أولاً، وإلى مخالطة شعراء المجون والمطامع، وإلى غروره ناشئاً بجودة شعره، وإلى نفاق أسواق المديح المضرع والهجاء المقذع، والغزل المفتون في هذا الحين؛ وليكن هذا الحب هو النار التي صهرت قلبه فحرقت ما خالطه من زبد الشهوات واللذات فذهبت به جفاء وأبقت له من فطرته الصافية النقية ما بدت بشائره في مبدئ شأنه ما سلف. ولا ينبغي أن نفر من هذا الرأي الجديد فإنه يؤنس به أمران: الأول، تتبع قصص المحبين جميعاً من الشعراء الذين أصابهم مثل ما أصاب أبا العتاهية، كجميل بثينة ومجنون ليلى وغيلان مية، فإنك لن تجد شاعراً منهم قد تحول عن شعر الغزل إلى

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٦ القصة والأبيات.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٤٠٥.

شعر الزهد؛ نعم إنه يترك الحديث عن الغزل الوصفي الذي يتعلق بما تراه العيون وتسمعه الأذان من مظاهر الجمال ومفاته إلى أقرب أنواع الغزل، إلى الزهد وهو الشوق وشكوى الفراق؛ أما الأمر الثاني، فهو شعره الزهدي نفسه، فقد ضمنه ذكر كثير من أسباب زهده الراجعة إلى قضايا الدين والعقل والتي لا تختص بزاهد دون آخر بل يستوي فيها كل من فطره الله على استقامة الرأي وسلامة القلب من أولي الرشد والدين. فلنجل هذه الأسباب ثم نتبعها بشواهدا من شعره والله المستعان.

### أسباب زهده الدينية والعقلية:

الحديث عن معظم هذه الأسباب هو حديث الفناء اللازم لهذه الحياة الدنيا، الواغل في جميع لذاتها، الغالب على بهيج مسراتها؛ حديث الكدر في كل صفو والفرع في كل أمن والقلق في كل قرار والفرقة في كل اجتماع؛ وهو حديث ناطق في صمته، مدوّ في خفوته، عنيف في رفقه، ناثر في هدوئه؛ يصم الأذان بما يقوض من قصور ويطوي من بسط ويريق من شراب، ويخلع القلوب بما يسلب فلا يهب، ويأسر فلا يمين، من أحباب كانوا ملء العيون وبهجة القلوب وأوطار النفوس وروح الحياة.

وإنما كان الحديث عنه هو الحديث عن الفناء لأن نصيب كل موجود منه بقدر مظهره، بلوغاً وقصوراً خفاء وظهوراً كثرة وقلة؛ فكلما عزّ في الوجود شيء ذل بمقدار عزته، وكلما ارتفع اتضع بمقدار رفعته، فمع كل بشير بخير نذير بزواله، يقتحم على النفوس حصون الآمال وقلاع المنى، ويأتي القلوب المغرورة والنفوس المزهوة من قواعدها، يجري في ذلك كله على مقدار يملأ موضعه أسمى وأسفأً وشجى وشجنأً وجوى وحزنأً؛ فإن شئت أن تنظر إلى سطوة الدهر العارمة وبطشته الصارمة فانظر إلى أنيابه الزرق حين تمسّ عيش المترفين وإلى نخاله السود حين تنال نعيم الناعمين؛ وإن شئت أن ترى الساء الصافية كيف تحجبها حوالك الظلام، والآفاق الرحيبة كيف تضيق بالأنفاس، فانظر إلى سماء القصور الشاخنة حين تنزل النوازل بأربابها فيطبقها ليل اليأس الحالك والأسى الرهيب، وانظر إلى جنباتها الرحيبة حين تخرج بذويها المبلسين البائسين؛ ومن

هنا كانت فوادم الخطوب أثقل وطأ وكان ذكرها أشد وقعاً على قلوب المترفين الناعمين، فكانوا أغزر الناس دموعاً وإن كانوا أكثرهم مسرة، وأبلغهم لوعة وإن كانوا أشهرهم بهجة؛ والحق أن أحزان الحياة أعم وأشمل من أن تختص بموضع دون آخر من مواضعها، فإن لها في كل مكان منزلاً تنزله ومقاماً تشغله بفادحة واقعة أو جائحة متوقعة، وفي الأولى لكثير من الناس هموم دائمة وحزن مقيم وفي الثانية لذوي النعيم منهم حسرات لا قرار معها لقلوب المترفين.

ولفداحة خطوبها أو ضخامتها باتساع منازلها تخفف المتدينون والحكماء من لذاتها وتقللوا من رغائبها؛ لا إضاعة للخيرات فهم أدرى بها، ولا رغبة عن الطيبات فهم في طلبها، ولكن فرقاً من وحشة الفراق وهرباً من سوء الزوال ونجاة من شدة النزع وعنف التغيير؛ بل إنهم اتخذوا أوقات إقبالها فرص تذكّر وعبر وتأمل ونظر وترث وحذر، وتدبر لا يدبر ولا يحور وقضاء لا يحيف ولا يحور، في عواقب الأمور ونوازل المقدور. والعجب من أمر هؤلاء الحكماء أن مواسم اللهو عند المترفين هي مواسم الجد عندهم، وأن أسباب الجد عند الهازلين العابثين هي بواعث وجومهم وانقباضهم بل تسميرهم وجدهم، وإن عوامل الخفض واللين عند المتنعمين هي عوامل الصلابة والقوة في رأيهم ودينهم إذ اتخذوا من ربيها يقيناً فسدوا به ثلمات قلوبهم، ومن هواها حزماً أحاطوا به ثغرات نفوسهم، فكان لهم من الحزم واليقين أسوار لا تهدم وحصون لا تقتحم، من الغنى بالقليل عن الكثير، والرضا من العيش باليسير والسلامة من آفات القلوب المدمرة لها، المقوضة لو طيد أركانها الحرص والطمع والحسد والجشع والهلع والجزع والغفلة والغرور، فكانوا في راحة لا يجدها سواهم ومتعة لا ينالها من عداهم.

على أنهم وجدوا أنها إن أقبلت فبالبطر والأشر ونسيان المعاد، فطلبوا الخلاص من إقبالها كما طلبه غيرهم من إدبارها، وربأوا بأنفسهم عن مهالك رجائها وخوفها؛ وإنهم ليساعدتهم على هذا العجب العجيب أن الحياة إنما تساعي من ساعاها وتسابق من سابقها، ثم تغلبه بضروب من مكايدها وصنوف من غدراتها وفجراتها حين تخلو به في المضمار ويزاحمها في الميدان.

وحين يراه أقدر ما يكون عليها وأدنى ما يكون إلى أمله المرجو منها ورجائه المأمول فيها، إذا به يجد آثار السبق وتبعات الفوات في كل شيء مما يقيه أو يتقيه، في نفسه وماله في حاله ومآله في مآربه وآماله؛ فهذا العجيب من شأنها إنما يغلب بالعجيب من شأن الزاهدين، أن يبطلوا سحرها بيقينهم ويزهقوا باطلها بحقهم ويمحو شهواتها بعفافهم، حتى يسقط في يدها فلا تدري ما تأتي وما تدع؛ ثم لا تجد لها شأنًا مع هذه الجبال الرواسخ والأعلام الشوامخ إلا أن تزيدهم علمًا بضعتها ويقينًا بخسة قدرها، فتزيدهم إيمانًا وتثبيتًا ورفعة وتمكينًا، وكان مما صح عزمهم على قطع حبالها وحسم آمالها أنه لا قبل لمتن مهما أوتي من أصالة الرأي وحسن التدبير وبعد النظر وسلامة التفكير أن يهيبء لنفسه منها موائمة أو يعد منها متعة طيبة دائمة، ولو أعين على ما أحب واشتهى بجميع قواها أو أمد منها بأوثق أسبابها... وكيف ووراءه غيب طالما أظهر الخوف من الأمن والحنف من التدبير والآفة من التقدير.. وكيف ولعل قصاراه أن يجمع المال الجسيم لعدوه ويمهد وسائل المتاع لزوج عرسه، فاكتفوا من تدبيرهم أن يخشعوا ومن تقديرهم أن يرضوا ويخضعوا، ومن حيلتهم أن يذعنوا ويتوكلوا ومن بصرهم بظاهر الأمر وخافيه أن يكفوا عن الغيب وما فيه، فكانوا أصلح الناس بالاً وأحسنهم حالاً وأهداهم سبيلاً ومالاً؛ على أنهم وجدوا أنها لا تنزل من النفس منزلة إلا وقد هدمت منها بمقدارها وسلبت من فضائلها محاسنها التي فتنت بها؛ وأنها إنما تستبد عذرها من وفاء خلانها وتنسج حبالها من حبال وصالها، وأنها ساهرة في شأنها وهم نائمون، يقظة لأمرها وهم غافلون، حتى إذا ظفرت بفريستها طرحت بها ناحية موحشة، لا تجد فيها يد منالاً ولا رجل سعيًا ولا عين منظرًا ولا لسان مقالًا؛ وكأنما كان روضها الأريض جدبًا يبابًا وماؤها النмир آلًا وسرابًا، وظلها الظليل جحيماً وعذاباً ونسيمها العليل سموماً وأريجاً عقيماً؛ وكأنما كان النجح في كل سعي خيبة واليمن شؤماً والبهجة والسلامة والخير ندامة وسقماً وشرًا.

ويساعدهم على هذا العجب العجيب أيضًا أنهم يعلمون أن الناس ملبس عليهم في كثير من أمورهم، مغبونون في أنفسهم ومساعيههم، مخدعون

فيما يحبون ويكرهون، يرون الهوى رأياً والباطل حقاً، والهبوط رفعة والإدبار إقبالاً، حتى أنهم ليشربون قلوبهم من حب الدنيا ما كان حقيقاً لولا الغفلة أن يكون بغضاً واطراحاً لها وإذلاً لقدرها، فإنما هي دار محنة وبلية وسجن للقلوب الأبية وندس للنفوس الزكية ورين على الفطر النقية.

وهل في ما يثير العجب أعجب شأناً من هذا الذي يهبط به من جنة النعيم والسلامة والكرم والكرامة، والحسن والاحسان والرحمة والحنان والمسرة والأمان والروح والريحان والخيرات الحسان، إلى أرض الشقاء والآلام ومباءة الشح والهوان والعناء والأحزان، فلا يكون منه إلا نسيان ما فقد على جلالاته وخطره، والولوع بما وجد على ضآلته وحقارته، وقد علم أنه الهلكة التي لا نجاة بها والغربة التي لا مقام فيها والضياع الذي ليس وراءه إلا البوار وسوء الدار؟! وهل تجد البصائر البريئة من الأسقام والأنظار الناجية من الأوهام أعجب شأناً من هذا المفتون، الذي صوره الله بيديه ونفخ فيه من روحه فأودعه ما شاء من أسرار الكرامة والخلود، ثم ندبه إلى لقائه خفيفاً من أوزار هذه الأرض وآثامها، نزهاً عن باطل هذه الحياة وأوهامها، معافى من أمراض القلوب وأسقامها، ليرد إليه برحمته ما سلبه بغضبه، ويعود عليه بسوالف إحسانه وعوائد فضله، فيأبى إلا أن يؤثر هذا الظل الزائل والسند المائل والمتاع القليل، بل إنه ليتخذ من وحشة الحياة أنساً ومن غربتها وطناً، ومن أدوائها دواءً ومن أسقامها شفاءً، ومن عماها وجهلها بصيرةً وعلماً، لا مكرهاً ولا مضطراً بل منافساً مغترّاً، يغالي في جمع الخطام ويسامي به الزاهدين، ويلصق أنفه بالرغام ثم يشمخ به على البررة الأكرمين، الذين عرفوا لأنفسهم أقدارها فاشتروا لها كفاءها من الطيب الباقي وربأوا بها عن الخبيث الفاني؛ ويأبى الأشقياء إلا أن يسموا ذلك مهانة وعجزاً وضعة وضعفاً، حتى تكون الحاجة بين البشر يغرى فيها الضال بهاديه والموعوظ بواعظه والهالك بمنقذه والغاوي بمرشده والحائر برائده والأعمى بقائده، إلى أن تكون رغبة الراضين وزهد الزاهدين هي الحرب الشعواء بين الخير والشر والظلام والنور والغواية والرشاد والهدى والضلال.

على أنهم وجدوا أنها تسرع في طياتهم أكثر مما يسرعون فيها وتنال منهم

أكثر مما ينالون منها، وأنها لا تقنع منهم بمقنع مهما عظم، ولا تقف عند حد مهما بعد، وأنها لا تغلب بأهوائها قلوبهم حتى تحيلها عن حقائقها، فتكون عوناً للشر على ذوبها، تغشهم وهي مظنة النصيح وتكبهم وهي مئة الاقالة والنجح، وتردهم عبيداً لا يملكون لأنفسهم رأياً ولا رشداً، إلا السخرية بذوي القلوب والفطر من الراشدين الأحرار، وتحيلهم أنعاماً تأكل وتتمتع وتلهيهم الآمال ثم لا تنعم إلا بالتهكم والاستهزاء بأولي الأيدي والأبصار. . . فعلموا أنها الخطب الفادح والشر الكالغ والبلاء الممين فأقاموا بينهم وبينها سداً بذلوا فيه أوقاتهم وأوقاتهم وحرّموا على أنفسهم كل ما زاد عن سداد العوز أو جاوز حد الكفاف فأمنوا وسلموا وعزوا وكرموا ونالوا بما جاهدوا وبذلوا عيش الطيبين الخالدين .

ووجدوا أنها ما انضافت إلى صلة إلا بثتها، ولا خالطت عروة مودة إلا فصمتها، ولا جمعت عليها قلوباً إلا فرققتها؛ وأنها لا تزال ساعية بين أولي المودات حتى تفرق بين الحبيب وحبيبه والأخ وأخيه والابن وأبيه، حتى إذا ما أشعلت بينهم نار العداوة والبغضاء أذكتها بأحسن ما قدموا، فأمدتها بما أنبتة الحب ليكون عيشاً رغيذاً وسقاء الود ليكون ثمراً طيباً وظلاً ظليلاً . . . فيا لها من قاطعة لوشائج الأرحام، واصلة لأسباب الشر والخصام، باعثة على عظام الشرور وكبائر الآثام .

ولقد تبين لأولي الرأي والدين من عداوة الدنيا وضراوتها وشرها وشرتها ما اتخذوها به عدواً يحارب وهلاكاً يقاوم، وعرفوا أنها لا تحارب بأبلغ من ترك ما تتودد به إلى نفوسهم من حلوها، وهو مر الآخرة، وفرحها، وهو حزن العاقبة، وهوها وهو القاصمة الفاقرة، فرفضوا عيشها الطيب الرغيد وهجروا فراشها الناعم الوثير وأنسها الزائل القصير .

على أنهم وجدوا أنها لا تدني مأرباً من مآربها إلا مصرداً محسوباً أو مكدرًا ممنوناً أو محولاً عن جهته أو محرّفاً عن موضعه أو مزالاً عن شيمته أو مكذباً لأحاديث النفوس وخواطر القلوب وتصاوير الخيال؛ وأنه لا يستقر في قلوبهم قليلاً حتى يصير داء دويماً أو جهلاً وغياً، أو حقاً مضاعماً أو خزيّاً مذاعاً أو شغلاً شاغلاً أو همّاً ماثلاً؛ ثم تأملوه على أحسن صورته وأصبح وجوهه وألسن

مفاداته وأيسر أموره، فوجدوه متاعاً قليلاً ونصيباً ضئيلاً، وطعاماً لا يدفع مسغبة وشراباً لا يشفي غليلاً وغصة وشوقاً وعذاباً وبيلاً، ثم ساعدتهم على تبين أمرها وبصرهم بعظيم كيدها وخبيث غدرها وفادح خطبها كل خبر مأثور أو حدث مشهور أو قصص مسطور أو نظرة حسيمة أو حكمة بالغة شريفة.

ولعل شر ما يلاقيه أهل الرعاية لها والعكوف عليها أنها حين تفعل بهم أفاعيلها وتوردتهم موارد حتوفها لا تبدي لهم من الحياء والتلوم أو الخجل والتذم ما يشبه أن يكون مواساة أو اعتذاراً أو تسلية أو استغفاراً، أو جبراً لهذه القلوب الكسيرة العاملة الناصبة في تزكيتها والنفوس الأسيفة الدائبة في تمجيدها، بل إنهم ليمنون منها إثر كل نازلة من نوازلها بسخرية تضاعف الآلام وتزيد الحسرات والأشجان، ونقض لكل موثق وثقتة بيديها وإنكار لكل عهد حاطته برعايتها، حتى إذا ذكرها مفتونها أنكرت وإذا تعرض لها مدللها أعرضت واستكبرت، وأرته من كل عهد غدرأً ومن كل ود جفاء ومن كل وصل قطيعة وهجرأً، ومن كل درجة دركأً ومن كل كرامة ورفعة إهانة ووضعأً، فعي بالقول وكان به طلق اللسان، وشرق بالحجة وغصّ بالبرهان وقد كان المدره البليغ والقاتل المبين.

على أنهم وجدوا أن شرفها الكاذب أبعد منالاً وأكثر أعباءً وأثقالاً، وأنه السراب الذي يحسب ماء فلا ينال ولا يذاق، بل تحف دونه القلوب وتتقطع الأعناق فرغبوا عنه إلى ذلك الشرف العظيم الذي ينال بعزمة واحدة من عزمات الإيمان أو هداة ثابتة من هدآت اليقين، ووجدوا أنها عروس الدهر الخائنة، التي غالت أزواجها وهي لا تزال في معرض عرسها، وتبرجت لأبنائها حتى فتنهم ببريق زينتها، وبسمت لهم عن ثنايا بشمات نهشت بها رمم الآباء والأجداد لو كانوا يعقلون، ودلتههم بينان رخص خضيب مزقت به أجساد الخلان وفرقت أوصال الأحباب لو كانوا يبصرون، وسبتهم واستهوتهم بصوت خاضع رخييم كان صيحة خلعت قلوب الأتراب لو كانوا يسمعون، فلا جرم إن كانت أفراحها عند الحكماء أحزاناً وأعراسها آلاماً وأشجاناً؛ ووجدوا أن لهم حظوظاً سماوية تنال بالشرف والعفاف، وأخرى أرضية تدرك بالضعة



والإسفاف، وأن حظهم الأرضي هَيَّء وأعين بفتن من الماء والطين، وإن حظهم السماوي غيب وأُخِّر حتى تتم الفتنة وتقع المحنة؛ ثم وجدوا من نفوسهم ولوعاً بالعاجل على زواله وخسته، وزهداً في الآجل على بقائه ونفاسه، فخاروا لأنفسهم، إذ وقموها وقمعوها، وأنقذوها من الهلكة، إذ خطموا أهواءهم وزموها؛ وكانوا أولي الجلادة والصبر والمضاء والعزم والروية والحزم، وكانوا بما وجدوا من حلاوة الزهد وبشاشته وطيبه وكرامته وشرفه وعزته وثباته وقوته، أثرى الناس على تقللهم، وأقواهم على تضعفهم وأحقهم بهذا الشرف الصادق الذي لا تكذبه ألسنة الحق، الصافي الذي لا تكدره أقدار الفناء والطين.

ثم إنهم استظهروا بحكمتهم أنها لم تجبل على خصاها المزهدة فيها الصارفة عنها إلا لحكمة علوية حكيمة وإرادة إلهية رحيمة، هي فض الخلق عن سوقها الخاسرة وصرفهم عن سوءاتها الخفية والظاهرة، فإنه لا أقوى في الصرف ولا أبلغ في الكف ولا أوقع في الزجر من أن يكون من صنع المحبوب ومن جهة المطلوب فتخذوها عظة زاجرة ونصيحة مثمرة ودعوة منقذة مرشدة للمهالكين الحائرين.

### شواهد هذه الأسباب من شعره:

قال في الحض على ذم الدنيا:

فلا تحمد الدنيا ولكن ذمها      وما بال شيء ذمه الله يحمد  
وذمه لها يتصرف في وجوه:

فمنها: انها ليست بدار قرار، كقوله:

عجباً من مطمئن آمن      أوطن الدنيا وليست بوطن  
وقوله:

والمرء يوطنها ويعلم انه      عنها إلى وطن سواها ظاعن  
يا ساكن الدنيا أتعمر مسكنا      لم يبق فيه مع المنية ساكن  
وقوله:

ألا يا نفس ما أرجو بدار      أرى من حلها قلق القرار

وقوله:

أيا دنيائي مالي لا أراني      أسومك منزلاً الانبائي  
الا وأراك تبذل يا زماني      لي الدنيا وتسرع باستلابي

وقوله:

أوطنت داراً لا بقاء لها      تعد الغرور وتنبت الدرنا  
عجباً لها لا بل لموطنها الـ      مغرور كيف يعدها وطنا  
بيننا المقيم بها على ثقة      في أهله إذ قيل قد ظعنا

وقوله:

والمرء يوطنها ويعلم انه      عنها إلى وطن سواها منقلع

وقوله:

إنني لفي منزل ما زلت أعمره      على يقيني بأني عنه منقول  
وان رحلي وان أوثقته لعلی      مطية من مطايا الحين محمول

وقوله:

عجبت لذي الدنيا وقد حطر حله      بمستن سيل فابتنى وتحصنا  
وانها دار مخافة وفزع، كقوله:

رأيتك في الدنيا على ثقة بها      وانك في الدنيا لأنت المروع

وقوله:

ومن يأمن الدهر في وعده      وللدهر في كل وعد وعيد

وقوله:

عجباً من مطمئن آمن      انما يغذى بألوان الفرع

وفيها:

أحن إلى الدنيا حينئذ كأنني      ولست بها مستوفزاً قلق الرحل  
ومن ذا عليها ليس مستوحشاً بها      ومغترباً فيها وان كان ذا أهل

وإنها مكدرة الصفو ومنغصة السرور، كقوله:

أشقى بني الدنيا بها      لله أنت صديقها  
وهي المنغصة السرو      وإن زهاك أنيقها  
إني أعيذك أن يغمر      رك زهرها وبريقها  
وقوله:

بقدر ما ذاق ذائق لصفاء الـ      عيش يوماً يذوق من كدره  
وقوله:  
عش بما شئت فمن تسـ      رره دنياه تسؤه  
وانها مهينة مكرميتها وواضعة العالين فيها، كقوله:

تهين المكرمين لها بصغر      وتكرم كل من هانت عليه  
وقوله:  
وإذا ابن آدم نال رفعة منزل      قرن ابن آدم عندها بسفال  
وقوله:

رضيت بذى الدنيا لكل مكابر      ملح على الدنيا وكل مفاخر  
ألم ترها ترقيه حتى إذا سما      فرت حلقة منها بمدية جازر  
وأنها مستعبدة الراغبين فيها كقوله:

ارغب فأنت أسيرها      وازهد فأنت طليقها  
إذا طاوعت نفسك كنت عبداً      لكل دنئة تدعو إليها  
وقوله:

من حزم رأيك أن لا      تكون للمال عبداً  
وقوله:

ومالت بك الدنيا إلى اللهو والصبأ      ومن مالت الدنيا به صار عبداً  
وقوله:

الرشد يعتقني لو كنت أتبعه      والغى يجعلني عبداً لشهوته

وقوله:

أطعت مطامعي فاستعبدتني      ولو اني قنعت لكنت حرا

وقوله:

ترى الأموال أرباباً علينا      وما هي بيننا إلا عواري  
وانها مسكرة لأصحابها ملبسة على أحبائها، كقوله:

ما أسكر الدنيا لصاحبها      وأضرها للعقل أحيانا  
دار لها شبه ملبسة      تدع الصحيح العقل سكرانا  
وقوله:

من أحب الدنيا تجبر فيها      واكتسى عقله التباسا وتيها  
وقوله:

للمرء ألوان دنيا رغبة وهوى      وعقله أبدا ما عاش مدخول  
وقوله:

فإنك لا ترى ما أنت فيه      وأنت بغيره لأصم أعمى  
وقوله:

إلى كم تعامى عن أمور من الهدى      وأنت إذا مر الهوى بك تبصر  
وقوله:

والدار دار أباطيل مشبهة      الجد مر بها والهزل معسول  
وقوله:

أأخي ان الدار مدبرة وان      كنا نرى إدبارها إقبالا  
وقوله:

وان العيون قد ترى غير انه      كأن القلوب لم تصدق عيونها  
وقوله:

ولله دنيا لا تزال تردني      أباطيلها في الجهل بعد استقامتي

وقوله:

وأدنى بني الدنيا إلى الغي والعمى  
وانها الخائنة الغادرة، كقوله:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها  
إن التي تخطب غدارة

وقوله:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها  
ما أقتل الدنيا لخطابها

وقوله:

تستنكح البعل وقد وطنت  
في موضع آخر منه البديل<sup>(١)</sup>

وقوله:

قتالة خبطت جميع  
خداعة بغرورها  
دار بليت بحبها  
كل معنى مبتلى  
ويخلبها وغرورها  
ويخلبها وغرورها  
ما تنقضي لك لذة  
إن أقبلت ببشارة

ع العالمين بقتلها  
وينقضها وبقتلها  
خوَّانة لمحبتها  
بعطائها وبسلبها  
وببعدها وبقربها  
وبحبها وبسبها  
إلا بفجعة خطبها  
صاح النعي بجنبها

وقوله:

بليت من الدنيا بغول تلونت  
لها فتن قد فضضتها وذهبت

(١) من البيان والتبيين، ج ٣ ص ١١٨.

وقوله :

هوئ النفس فف الدنفا إلى أن تغولها  
كما غالت الدنفا أباهأ وجاها

وقوله :

لا تلعبن بك الدنفا وخذعتها فكم تلاعبت الدنفا بأقوام  
وقوله :

أوردتنا الدنفا وما أصدرتنا إن هذا من فعلها لغرور  
وقوله :

لم تعذر قط من ذنب إلى أحد والحر معذر إن زلة فعلا  
هي التي لم تدم منها مودتها لصاحب قط إلا صارمت عجلا  
وقوله :

يا صاحب الدنفا أبال دنفا تدل وتستطيل  
كل يفارق روجه وبصدره منها غليل

وأنها قاطعة الأرحام ومورثة الخصام، كقوله :

هي الدنفا رأيت الحب فيها عواقبه التفرق عن تقالي  
وقوله :

نسر بدار أورثنا تضاعنا عليها ودار أورثنا تعاديا

وأنها مبددة الشمل الملتئم والجمع المنتظم كقوله :

وإننا لفي دار الفراق ولن ترى بها أحداً ما عاش مجتمع الشمل  
وقوله :

أيا عجباً للدهر لا بل لريبه تخرم ريب الدهر كل إحاء  
وشتت ريب الدهر كل جماعة وكدر ريب الدهر كل صفاء

وقوله:

أوثقت بالدنيا وأنـ ست ترى جماعتها شتاتا

وقوله:

يا للمنايا ويا للبين والحين كل اجتماع من الدنيا إلى بين

وقوله:

قل لي لمن أصبحت تجمع ما أرى

البعل عرسك لا أبا لك تجمع

وقوله:

سل القصر أودى أهله أين أهله أكلهمو عنه تبدد شمله

أكلهمو حالت به الحال فانقضت وزلت به عن حومة العز نعله

وأنها باطلة النعيم كاذبة الآمال كقوله:

أراك وإن طلبت بكل وجه كحلم النوم أو ظل السحاب

أو الأمس الذي ولى ذهاباً وليس يعود أو لمع السراب

وقوله:

كأن محاسن الدنيا سراب وأي يد تناولت السرابا

وقوله:

ألا رب آمال إذا قيل قد دنت

رأيت صروف الدهر قد حلن دونها

وقوله:

وتسمو إلى الدنيا لتشرب صفوها بغير قنوع عن أذاها ولا صبر

فلو أن ما تسمو إليه هو الغنى ولكنه فقر يجبر إلى فقر

وقوله:

ترتاح من غير إلى تعب وتفر من فقر إلى فقر

قد طفت كالظمان ملتمساً للال في الديمومة القفر

تبغي الخلاص بغير مأخذه      لتنال روح اليسر بالعسر  
أكثرت في طلب الغنى تعباً      وغناك أن ترضى عن الدهر  
وقوله:

نبغي من الدنيا الغنى فيزیدنا      فقراً ونطلب أن نصح فنمرضا  
وقوله:

ومن يأمن الأيام؟ أما اتساعها      فخبيل وأما ضيقها فشديد  
وقوله:

ما أرى الدنيا على كل حي      نالها إلا أذى وعذابا  
وقوله:

لا تغفلن فإن الدار فانية      وشربها غصص وصفوها رنق  
وقوله:

إن دقت حلوتها عادت عواقبها      مرارة يجتوبها كل من أكلا  
لم يصف شرب امرئ فيها فأعجبه  
ألا تكدر أو أمسى له وشلا  
وقوله:

ضمنت للطالب الدنيا وزينتها      أن لا يزال بها ما عاش مشغولا  
وقوله:

وأفضل شيء نلت منها فإنه      متاع قليل يضمحل وينفد  
وأنها سجن لأهلها كقوله:

ألا إنما الدنيا عليك حصار      ينالك فيها ذلة وصغار  
وقوله:

كيف رضينا بضيق دار      أم كيف قرت به العيون  
تكنفتنا الهموم منها      فهن فيها لنا سجون



وأنها السلعة البائرة والصفقة الخاسرة كقوله :

ما أربح الله في الدنيا تجارة ان      سنان يرى أنها من نفسه عوض  
وقوله :

هي النفس لا اعتاض عنها بغيرها      وكل أخي عقل إلى مثلها يرنو  
لها أطلب الأخرى فإن أنا بعثتها      بشيء من الدنيا فذاك هو الغبن  
وقوله :

شر أيامي هو اليوم الذي      أقبل الدنيا بديني عوضا  
وقوله :

رب امرئ متيقن      غلب الشقاء على يقينه  
فأزاله عن رشده      فابتاع دنياه بدينه  
وقوله :

كيف نبتاع فاني العيش بالدا      ثم أين العقول والأحلام  
لوجهلنا فناءه وقع العذ      ر ولكن كلنا علام  
وقوله :

وإن امرأ يبتاع دنيا بدينه      لمنقلب منها بصفقة خاسر  
وكل امرئ لم يرتحل بتجارة      إلى داره الأخرى فليس بتاجر  
وأنها متفوية الفخر فانية الشرف كقوله :

يا من تشرف بالدنيا وطينتها      ليس التشرف رفع الطين بالطين  
إذا أردت شريف الناس كلهمو      فانظر إلى ملك في زي مسكين  
وقوله :

تشرف الناس بالدنيا وقد غرقوا      فيها فكل على أمواجها طافي  
هم العبيد لدار قلب صاحبها      ماعاش منها على خوف وإيجاف

حسب الفتى بتقى الرحمن من شرف  
وما عبيدك يا دنيا بأشراف

وقوله:

تنافس في الدنيا لتبلغ عزها      ولست تنال العز حتى تذللا

وقوله:

لا فخر إلا فخر أهل التقى      غداً إذا ضمهم المحشر  
ليعلمن الناس أن التقى      والبر كانا خير ما يذخر  
ما أحق الإنسان في فخره      وهو غدا في حفرة يقبر  
ما بال من أوله نطفة      وجيفة آخره يفخر

وقوله:

ولن يبقى لأهل الأر      ض لا عز ولا شرف

وأنها وعرة المسالك سيئة الغايات كقوله:

دار وعورة سهلها      شملت مذاهب أهلها

وقوله:

ألم تر إنما الدنيا حطام      توقد بيننا فيه الحروب  
إذا نافست فيه كساك ذلاً      ومسك في مطالبه اللغوب

وقوله:

فتجنب الشهوات واحداً      نذر أن تكون لها قتيلا  
فلرب شهوة ساعة      قد أورثت حزناً طويلا

وقوله:

خل التي إن رمت لم      يسهل عليك طريقها  
محن الرجال إذا سمت      سعة الصدور وضيقها

وأنها ذات صروف متصرفة وأحوال متحولة وغايات متخلفة كقوله:  
وإنك يا زمان لذو صروف وإنك يا زمان لذو انقلاب  
وما لي لست أحلب منك شطراً فأحمد منك عاقبة الحلاب  
وما لي لا ألح عليك إلا بعثت الهم لي من كل باب  
وقوله:

كم ترك الدهر من أناس مضوا وكم غال من قبيل  
كم نغص الدهر من مبيت على سرور ومن مقيـل  
كم قتل الدهر من أناس يدعون بالويل والعويل  
هيهات للأرض من عزيز يبقى عليها ولا ذليل  
وأنها دار الآلام والأسقام كقوله:  
عجبت من آمن بمنزلة يكثر فيها الأمراض والوجع  
وقوله:

دار أذى لم يزل عليل يشكو أذاها إلى عليل  
وقوله:  
أرى علل الدنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل  
وقوله:  
رأيت المرء معتزماً يسامي ورائحة البلى منه تضيع  
وقوله:

والموت آخر علة يعتلها البدن العليل  
وأنها دائمة الفجائع شاملة الوقائع كقوله:

ما زالت الدنيا منغصة لم يخل صاحبها من البلوى  
دار الفجائع والهموم ودا ر البؤس والأحزان والشكوى  
بيننا الفتى فيها بمنزلة إذ صار تحت ترابها ملقى  
تقفو مساويها محاسنها لا شيء بين النعي والبشرى

لا تعتبن على الزمان فما عند الزمان لعاتب عتبي  
وقوله:

أعيذك أن تسر بعيش دار قليلاً ما يدوم لها سرور  
بدار ما تزال لساكنيها تهتك عن فضائحها الستور  
ونحوه قوله:

وكل لاعتساف الدهر ر معرضة مقاتله  
وما من مسلك إلا وريب الدهر شامله  
فيصرع من يصارعه وينضل من يناضله  
ينازل من يهم به وأحياناً يخاتله  
وأحياناً يؤخره وأحياناً يعاجله  
كفاك به إذا نزلت على قوم كلاكله  
وفي وصف حال صرعاها قوله:

ما حال من سكن الثرى ما حاله  
أمسى وقد قطعت هناك جباله  
أمسى ولا روح الحياة يصيبه يوماً ولا لطف الحبيب يناله  
أمسى وحيداً موحشاً متفرداً متشتتاً بعد الجميع عياله  
أمسى وقد درست محاسن وجهه وتفرقت في قبره أوصاله  
وقوله:

إني سألت القبر ما فعلت بعدي وجوه فيك منعفره  
فأجابني: صيرت ريحهم تؤذك بعد روائح عطره  
وأكلت أجساداً منعمة كان النعيم يهزها نضره  
لم أبق غير جماجم عريت بيض تلوح وأعظم نخره  
وأن مهالكها تجاوزت الوصف كقوله:

فنون رداك يا دنيا      لعمري فوق ما أصف  
فأنت الدار فيك الظل      م والعدوان والسرف  
وأنت الدار فيك الهم      م والتنغيص والكلف  
وفيك الجبل مضطرب      وفيك البال منكسف  
وفيك لساكنيك الغب      ن والآفات والتلف  
وملكك فيهم دول      بها الأقدار تختلف  
وفي غفلة أهلها ويقظتها لشأنها قوله:

لهونا والحوادث دائبات      لهن بما قصدن إليه فتك  
وقوله:

ما للمنايا سكون      عنا ونحن سكون  
وقوله:

وعجبت إذ علل الحتوف كثيرة      والناس عن علل الحتوف نيام  
وقوله:

كم لابن آدم من لهو ومن لعب      وللحوادث من شد وإقدام  
وأنها ناهية عن نفسها واعظة بحالها كقوله:

يا من على الأرض اسمعوا      نعي الحياة لأهلها  
يا من على الأرض افطنوا      للحداث وكلها  
وقوله:

أبلغ الدهر في مواعظه بل      زاد فيهن لي على الإبلاغ  
وقوله:

ورب محرك لك في سكون      كأن لسانه السبع العقور  
وقوله:

أكب بنو الدنيا عليها وإنهم      لتنهاهم الأيام عنها لو انتهوا

وقوله:

يا عاشق الدار التي ليست له بمواتيه  
أحببت داراً لم تزل عن نفسها لك ناهيه  
وقوله:

لم تر أنهى لك منها عنها

وفي وصف أسباب الخلاص منها قوله في القناعة:

واقنع اليوم ودع هم غد كل يوم لك فيه مضطرب  
وقوله:

ومن عقل استحيا وأكرم نفسه ومن قنع استغنى فهل أنت قانع  
وقوله:

لما حصلت على القناعة لم أزل ملكاً أرى الإكثار كالإقلال  
إن القناعة بالكفاف هي الغنى والفقر كل الفقر في الأموال  
وقوله:

وبحسب من يسمو إلى الشهوات ما يكفيه من شهواتها ويقوت

وفيها وفي الرضا بالقسم:

رأيت أقل الناس همّاً أشدهم قنوعاً وأرضاهم بما هو فيه  
وقوله:

فاز بالروح والسلامة من كا نت فضول الدنيا عليه تهون  
وقوله:

والغنى أن تحسن الظن في الله وترضى بكل أمر يكون  
وقوله:

والنفس في طلب الخلاص وما لها من مخلص حتى تصير إلى الرضا

وقوله:

وإذا ما رضيت كل قضاء الله لم تخش أن يصيبك ضرر  
وفي الصبر ومسألة الدهر:

ليس لمن ليست له حيلة      موجودة خير من الصبر  
فاخط مع الدهر على ما خطا      واجر مع الدهر كما يجري  
من سابق الدهر كبا كبوة      لم يستقلها من خطا الدهر  
وقوله:

اصبر على نوب الزما      ن وريبه وتقلبه  
لا تجزعن فمن تعت      ب دام وصل تعتبه  
وفي تهوين الأمر ومساحة الدهر:

هون عليك مضايق الـ      دنيا تعد سبلاً فجاجا  
لا تضجرن بضيقة      يوماً فإن لها انفراجا  
من عاج من شيء إلى      شيء أصاب له معاجا  
وقوله:

إذا ضاق صدر المرء لم يصف عيشه  
وما يستطيب العيش إلا المسامح

وقوله:

هون الأمر تعش في راحة      قلما هونت ألا سيهون  
ما يكون العيش حلواً كله      إنما العيش سهول وحزون  
تطلب الراحة في دار العنا      ضل من يطلب شيئاً لا يكون  
وقوله:

خذ الدنيا بأيسرها عليك      وحد عنها إذا قصدت إليك  
فإن جميع ما خولت منها      ستركه سريعاً من يديكا

وفي التخفف منها والتقلل من علائقها:

تخفف من الدنيا ونل من كفافها ولا تعتقدها في ضمير ولا يد  
وكن داخلاً فيها كأنك خارج إلى غيرها منها من اليوم أو غد  
وقوله:

وقد أرى العقل إذا ما صفا قلت من الدنيا معاليقه  
وقوله:

تخفف من الدنيا لعلك تفلت وإلا فياني لا أظنك تفلت  
وقوله:

طيب الحياة لمن خفت مؤونته ولم تطب لذوي الأثقال والمؤن  
وقوله:

ألا فاخرج من الدنيا مخفا ولم أر دونه للحي مسلك  
وفي قطع وساوسها:

طوبى لعبد ماتت وساوسه واقتصرت نفسه على فكره  
وفي تركها والتجرد منها:

تجرد من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد  
وقوله:

حرامك يا دنيا يعود إلى الضنا وذو اللب منا مشفق من حلالك  
أليفك يا دنيا كثير همومه فليس نجاة منك غير اعتزالك  
وقوله:

تركك للدنيا النجاة منها

وفي اتخاذها دار جد وعمل لا فكاهاة ولذة:

خليلي ما الدنيا بدار فكاهاة ولا دار لذات لمن صح عقله



ومن الإرشاد إلى جوامع الخصال قوله :

|                        |                           |
|------------------------|---------------------------|
| إن القريرة عينه عبد    | خشي الاله وعيشه قصد       |
| عبد قليل النوم مجتهد   | لله كل فعالة رشد          |
| نزّه عن الدنيا وباطلها | لا عرض يشغله ولا نقد      |
| حذر حمى الأكدار مهجته  | ما إن له في غيرها وكد     |
| مستجهل في الله محتقر   | هزل المخافة عنده جد       |
| متذلل لله مرتقب        | ما ليس من إتيانه بد       |
| رفض الحياة على حلاوتها | واختار ما فيه له الخلد    |
| يكفيه ما بلغ المحل به  | لا يشتكى إن نابّه جهد     |
| فاشدد يدك إذا ظفرت به  | ما العيش إلا القصد والزهد |

ومن الحض على التحلي بها قوله :

|                   |                    |
|-------------------|--------------------|
| رغيف خبز يابس     | تأكله في زاويه     |
| وكوز ماء بارد     | تشربه من صافيه     |
| وغرفة ضيقة        | نفسك فيها خاليه    |
| أو مسجد بمعزل     | عن الورى في ناحيه  |
| تدرس فيه دفترأ    | مستندأ بساريه      |
| معتبرأ بمن مضى    | من القرون الخاليه  |
| خير من الساعات في | فيء القصور العاليه |
| تعقبها عقوبة      | تصلى بنار حاميه    |

ومن الترغيب عنها إلى الآخرة قوله :

|                         |                          |
|-------------------------|--------------------------|
| اسل عن الدنيا وعن ظلها  | فإن في الجنة ظلاً ظليل   |
| وإن في الجنة للروح والـ | ريحان والراحة والسلسيل   |
| من دخل الجنة نال الرضا  | مما تمنى واستطاب المقليل |

وقوله:

إن العقول لذاهلا ت غافلات لاهيه  
إن العقول عن الجنا ن ودورهن لساهيه  
أفلا تبيع محلة تفنى بأخرى باقيه

وقوله:

إذا ذكرتك النفس دنيا دنية

فلا تنس روضات الجنان وخلدها

ومنه مع الحض على إعداد العدة وأخذ الأهبة قوله:

يا باني الدار المعد لها ماذا عملت لدارك الأخرى  
وممهد الفرش الوثيرة لا تغفل فراش الرقدة الكبرى

□ □ □

في  
زهدياته الاجتماعية والسياسية

تمهيد:

ليس المراد بهذا الفصل بيان أسباب زهده، فقد مضى أنها أحوال دينية وعقلية، ومضى أن يأسه من عتبة بعد حبه لها كان ناراً متلظية صهرت مشاعره فنفث خبثها وأبقت طيبها، وبهذا تهيأ له أن يخلص مما جرفه إليه تيار الحياة الماحجة الراغبة، بل المراد بهذا الفصل بيان دواعي زهدياته المتأثرة بأحوال العصر الاجتماعية والسياسية. ومن حق من تعرض لهذا البحث من الأساتذة المعاصرين أن نصف آراءهم في ذلك وما لها وما عليها، وهي ثلاثة آراء:

فالرأي الأول: هو ما ضمنوه كتاب المجمل في تاريخ الأدب العربي.

والرأي الثاني: هو ما ضمنوه كتاب المفصل.

والرأي الثالث: تضمنه كتاب (أبو العتاهية الشاعر العالمي).

□ الكلام على الرأي الأول:

قال أصحاب المجمل: بعد الكلام على أن أشد الفنون الشعرية وأكثرها نمواً وشيوعاً في هذا العصر هو المجون ووصف الخمر، وأن الداعي إلى نمو هذا الفن وتهالك الناس عليه ما أحدثه الانتقال من فساد الأخلاق وانحلال الروابط الاجتماعية، وما أحدثه ظهور المذاهب الفلسفية وكثرة المقالات الدينية، من اضطراب العقول وتسلب الشك على النفوس وغير ذلك. على أن فناً آخر من الشعر حديثاً ظهر في هذا العصر، وكان أبو العتاهية هو الذي أظهره وأذاعه،

وهو الزهد. ومهما يكن ظهور هذا الفن غريباً في هذه البيئة، فإن تعليقه يسير بما كان من اشتداد الصلة بين العرب والفرس، وانتشار الحكمة الشرقية، فارسية وهندية، في هذه البيئة وحرص الفرس على إذاعتها، فظهرت هذه الحكمة في زهد أبي العتاهية شعراً وظهرت في كتب ابن المقفع نثراً<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الرأي من مواضع الريب أن الصبغة الإسلامية لزهديات أبي العتاهية أعم وأشمل من هذه الصبغة الأعجمية، فستجد إن شاء الله في باب المعاني اقتباسات له من مئات الآيات ومن أكثر من مائة حديث ومن أضعاف ذلك من الآثار والحكم الإسلامية، وأن الأخذ من حكمة الفرس والهند وغيرهما من العجم لا تعد شيئاً بجانب هذا الفيض الإسلامي الغزير الذي عل منه ونهل. ولست أريد أن أرمي هؤلاء السادة بأنهم لم يتأملوا معاني الرجل ولم يتيبنوا أجناسها، ولست أريد أن أبسط القول في هذا الخلط بين مستمد الشاعر، إن كان صحيحاً أنه كما يقولون، وبين البواعث على القول في شعر الزهد، فإنهم قد رجعوا عن هذا الرأي إلى غيره في كتابه المفصل، بل دل تخلف أحدهم عن التأليف فيه أن الرأي الأول رأيه وحده، وهو ممن ملأ هذا العصر بالإشادة بالثقافة الأجنبية والتعامي عن هذا السراج الوهاج الذي شرع للناس سبل العلم والصلاح في الدنيا والدين. على أن عد حرص الفرس على إذاعة حكمتهم في علل ظهور هذا الشعر مبني على فارسية أبي العتاهية وقد عرفت ما فيها.

#### □ الكلام على الرأي الثاني:

قال أصحاب الفصل، وهم المرحومان الأستاذ أحمد الاسكندري والأستاذ عبدالعزيز البشري والأساتذة أحمد أمين وعلي الجارم وأحمد ضيف — بعد إشارتهم في ذكر التغيرات الطارئة على الشعر في القرنين الأولين من خلافة بني العباس بما كان من زيادة استعماله في المجون والخلاعة والتهتك وحكاية المخازي

---

(١) المجلد، ص ٩١.

والفسوق: ومن الأغراض المبتدعة في هذا العصر: التزهيد في الدنيا ونعيمها، والتذكير بالموت، والنهي عن الاسترسال في الشهوات واللذات. وقالوا: وكان ظهور هذا النوع ضرورياً ليكون لسان حال أهل الجدد من المسلمين، كالفقهاء والعلماء والمتكلمين والمحدثين وأهل الورع والزهادة، يضادون به الفساق من الشعراء والكتاب ومجان الموالى ومن جاراهم من سلائل العرب. وقالوا: وبطل هذه الغارة أبو العتاهية، وربما كايده بعض الشعراء المجان كأبي نواس، فنظموا في الزهديات قصائد لا تقل في الصناعة عن شعر أبي العتاهية، ولكنهم لم يكونوا مخلصين في شعرهم وإنما كانوا يقولونها إظهاراً لمقدرتهم في صناعة الشعر<sup>(١)</sup>. وإنما كان هذا الرأي نسخاً للأول، لأن الفصل مؤلف بعد المجلد، أو أن الفصل المقابل له في المجلد ليس من وضعهم هم، كما سبق، وقد زكوا هذا الرأي الذي ضمنوه الفصل في مؤلف لهم آخر في هذا الفن<sup>(٢)</sup>، ويتجه على هذا الرأي مع وجاهته ملاحظات:

أولها: أنه قد خلا من بيان أسباب زهد أبي العتاهية؛ لأن أسباب التزهيد بمعنى القول في مذاهب الزهد المختلفة غير سبب الزهد، بل إن السبب الذي ذكره، وهو سوء الأحوال على النحو الموصوف، لا يزكي النفوس ولا يطهرها؛ وإلا لكان الفساد وسيلة من وسائل الصلاح، وهو ما لا يقال. وقد يجاب عن هذه الملاحظة بأن الإشارة على أن قول أبي العتاهية في الزهد كان لسان حال أهل الجدد من المسلمين متضمن أن أبا العتاهية منهم وليس المقام لوصف أسباب زهده، بل لوصف قوله في الزهد وهو جواب.

ثانيها: أن صنيعهم يحصر زهديات أبي العتاهية في هذا المجال المحدود: وهو مضادة الفساق من الشعراء وغيرهم؛ مع أن كثيراً من زهدياته لم تتبع إلا

---

(١) الفصل، ج ١ من ص ١٧٣ إلى ١٧٥.

(٢) هو تاريخ الأدب العربي للسنتين الثالثة والرابعة من المدارس الثانوية، ط. سنة ٩٣٨،

ص ٤١، ٤٢.

عن ذات نفسه، كالذي سبق في ذم الدنيا وما صدر عن يأسه من عتبه وما يكثر في شعره من لوم نفسه على ما كان من جهل الصبا وعبث الشباب، وما سنجده في الكلام على الرأي الثالث من أثر السياسة في هذه الزهديات.

#### □ الكلام على الرأي الثالث:

قال فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال: «وكان أبو العتاهية يتشيع للعلويين ولم يكن مخلصاً للعباسيين في اتصاله بهم وفي مامدحهم به من شعره، وكان لنشأته بالكوفة تأثير فيما ذهب إليه في ذلك التشيع لأنها كانت مهد التشيع للعلويين من يوم أن اتخذها علي، رضي الله عنه، عاصمة لخلافته، وآثرها على «المدينة» التي كانت عاصمة الخلافة قبله. وكان العباسيون يستريبون بأبي العتاهية من أجل ذلك، فأحاطوه بجواسيسهم وحاولوا أن يلصقوا به تهمة الزندقة ليرهبوه بها ويلجئوه إلى الميل إليهم خوفاً من نقيمتهم. ولكنه أمكنه، مع هذا، أن يقوم بتلك الدعاية الشعرية التي أراد أن يفتح بها عيون الناس إلى عيوب حكمهم وإلى انغماسهم في الملاهي واللذات وانحرافهم عن سنن الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين. وقد أعياهم هذا السلاح الذي يحاربهم به أبو العتاهية، وكانوا يأخذونه باللين مرة وبالشدة مرة أخرى، ولكن أخذهم له بذلك كان أدعى إلى افتضاح أمرهم، لأن مثل هذا لا يصح أن يؤخذ عليه ولا أن ينتقم من صاحبه»<sup>(١)</sup>. ولا غبار على هذا الرأي إلا في شدة الحكم على العباسيين من الناحية الخلقية، وإن كان ذلك أو أكثر منه هو مقتضى الروايات والأخبار، كما سلف في الباب الأول. ولا يناقض هذا الرأي رأي أصحاب المفصل، لأن زهديات أبي العتاهية ليست نوعاً واحداً، بل هي أنواع ينبعث كل نوع منها عن داع أو أكثر من الدواعي النفسية أو الاجتماعية أو السياسية. وإذ قد انتهينا من الأقوال في بواعث هذه الزهديات وأسبابها، فلتتجه بالقول إلى ما لا بد لنا منه من وصف المذهب الزيدي وانتساب أبي العتاهية إليه.

---

(١) أبو العتاهية الشاعر الغالي، ص ٧٨، ٧٩.

## المذهب الزيدي:

ينتسب هذا المذهب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن الإمام علي، رضي الله عنهم، وقد وصف إمام هذا المذهب، بما يتناسب مع زهده وعلمه وورعه، بعض الفضلاء من كتاب مجلة الإسلام الغراء وتعرض لوصف مذهبه من ناحيتيه الفقهية والسياسية، وقدم لذلك بكلمة مجملة هي قوله: وهذا المذهب أعدل مذاهب الشيعة، وهو مأخوذ من الكتاب والسنة والإجماع، وآراء أصحابه قريبة من آراء أهل السنة، والعمل جار عليه الآن ببلاد اليمن. ونقل عن الملل والنحل للشهرستاني وصف المذهب من الناحية السياسية، فقال: ومن قواعد إمام هذا المذهب، جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، فقد قال: كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لأبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها: من تسكين ثائرة الفتنة وتطبيب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً، وسيف أمير المؤمنين علي، عليه السلام، لم يحف بعد من دماء مشركي قريش والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب لتميل إليه كل الميل، ولا لتنقاد له الرقاب كل الانقياد، فكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرف باللين والتودد والتقدم في السن، والسبق في الإسلام، والقرب من رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ألا ترى أنه لما أراد في مرضه الذي مات فيه تقليد الأمر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، زعق الناس وقالوا: لقد وليت علينا فظاً غليظاً. فما كانوا يرضون بأمر المؤمنين عمر لشدة وصلابة وغلظة له في الدين وفضافة مع الأعداء حتى سكنهم أبوبكر، رضي الله عنه، وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائم، فيرجع إليه في الأحكام ويحكم بحكمه في القضايا<sup>(١)</sup>. وما ذكره الشهرستاني في تجويز هذا المذهب إمامة المفضول مع قيام الفاضل، يكاد يتنافى مع ما ذكره هو أيضاً من أن زيداً، رضي الله عنه،

(١) مجلة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثالثة ٥ صفر سنة ١٣٥٣؛ وانظر الملل والنحل للشهرستاني على هامش ابن حزم، ج ١ ص ٢٠٧ وما بعدها.

كان يشترط الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً<sup>(١)</sup>. وعبرة الأصفهاني في المطالع: وقالت الزيدية كل فاطمي عالم خرج بالسيف وادعى الإمامة صار إماماً<sup>(٢)</sup>. ويؤيد هذه القاعدة مقتل زيد نفسه خارجاً على هشام بن عبد الملك في سنة إحدى أو اثنتين وعشرين ومائة. ومن العجيب مع إجماع المؤرخين والمتكلمين على أن اعتدال زيد في أمر أبي بكر وعمر، رضي الله عنهم، هو سبب رفض طائفة من الشيعة لمبايعته فسموا رافضة لذلك، إن يعد ابن قتيبة في كتابه «المعارف» الزيدية من الرافضة، قال: وهم أقل الرافضة غلواً غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج<sup>(٣)</sup>.

### انتساب أبي العتاهية إلى المذهب الزيدي:

روى أبو الفرج، بطريق الصولي، أن أبا العتاهية كان يتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة، لا ينتقص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان<sup>(٤)</sup>. وهذا الذي ذكره الصولي عجيب من شأن هذه الطائفة من الزيدية، وقد يذهب بهذا العجب تخصيص ما سبق عن ابن قتيبة والأصفهاني والشهرستاني من أمر الخروج على الإمام ببعض فرقهم دون بعض. ومن نسب أبا العتاهية إلى هذا المذهب صاحباً شذرات الذهب<sup>(٥)</sup> وشرح العيون<sup>(٦)</sup>. وفي الديوان بيتان يتنافيان مع زيديته، هما الثاني والثالث من قوله:

|                                |                                      |
|--------------------------------|--------------------------------------|
| بل أين أهل التقى بعد النبي ومن | جاءت بفضلهم الآيات والسور            |
| أعدد أبا بكر الصديق أولهم      | وناد من بعده في الفضل يا عمر         |
| وعد من بعد عثمان أبا حسن       | فإن فضلهما يروى ويذكر <sup>(٧)</sup> |

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٧.

(٢) الطوالع، ص ٤٧٣.

(٣) المعارف، ص ٢٦٧.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٤.

(٥) شذرات، ج ٢ ص ٢٥.

(٦) شرح العيون، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٧) الديوان المخطوط؛ وفي المطبوع والأنبياء وهو تبديل، ص ١٠٤.



وقبل أن نقضي بحكم في مبعث هذه الأبيات، نقص عليك هذه القصة. قال ابن خلكان: وكان أبو العتاهية ترك قول الشعر فحكي، قال: لما امتنعت من قوله، أمر المهدي بحسبي في سجن الجرائم، فلما دخلته دهشت ورأيت منظرًا هالكي، فطلبت موضعاً أوي فيه، فإذا أنا بكهل حسن البزة والوجه عليه سيما الخير، فقصدته وجلست من غير سلام عليه لما أنا فيه من الجزع والحيرة والفكر، فمكثت كذلك ملياً وإذا الرجل ينشد:

تعودت من الضر حتى ألفته      وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر  
وصبرني يأسى من الناس واثقاً      بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

قال: فاستحسن البيتين وتبركت بهما، وثاب إليّ عقلي. فقلت له: تفضل، أعزك الله علي بإعادتهما، فقال: يا إسماعيل ويحك، ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك، دخلت فلم تسلم علي تسليم المسلم على المسلم، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم، حتى سمعت مني بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله تعالى فيك خيراً ولا أدباً ولا معاشاً غيره، طفقت تستنشدني مبتدئاً كأن بيننا أنساً وسالف مودة توجب بسط القبض، ولم تذكر ما كان منك ولا اعتذرت عما بدا من إساءة أدبك، فقلت: اعذرني متفضلاً، فدون ما أنا فيه يدهش، قال: وفيهم أنت تركت الشعر الذي هو جاهك عندهم وسببك إليهم ولا بد أن تقوله فتطلق وأنا يدعى الساعة بي، فأطلب بعيسى بن زيد بن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإن دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خصمي فيه وإلا قتلت، فأنا أولى بالحيرة منك، وها أنت ترى صبري واحتسابي. فقلت: يكفيك الله عز وجل؛ وخجلت منه، فقال: لا أجمع عليك التوبيخ والمنع، إسمع البيتين، ثم أعادهما علي مراراً حتى حفظتهما، ثم دعي به وبني، فقلت له: من أنت أعزك الله عز وجل، قال: أنا حاضر صاحب عيسى بن زيد، فأدخلنا على المهدي، فلما وقفنا بين يديه قال للرجل: أين عيسى بن زيد؟ قال: وما يدريني أين عيسى بن زيد، تطلبته فهرب منك في البلاد فحبستني، فمن أين أقف على خبره، قال له: متى كان متوارياً وأين آخر عهدك به وعند من

لقيته، قال: ما لقيته منذ توارى ولا أعرف له خبراً، قال: والله لتدلن عليه أو لأضربن عنقك الساعة، فقال: اصنع ما بدا لك، فوالله ما أدلك على ابن رسول الله، صلى الله عليه وسلم وألقى الله تعالى ورسوله، عليه السلام، بدمه، ولو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت لك عنه. قال اضربوا عنقه، فضربت عنقه، ثم دعا بي فقال، أتقول الشعر أو ألحقك به، قلت: بل أقول. قال: أطلقوه. فأطلقت<sup>(١)</sup>. وأنا لا أستطيع أن أعتقد أن هذا الشعر الذي حبسه المهدي ليقوله هو الغزل لما سبق من أنه حبسه وضربه ونفاه بسببه، فهو إذن في آخر غير الغزل. ولا أستطيع أن أعتقد أن هذا الفن هو المديح، وهو أحب الفنون إلى الخلفاء والرؤساء لأن سيرة أبي العتاهية كلها مبنية على طلب الوصول إليه بالمديح دون أن يحمل على ذلك بما يرهقه أو يؤذيه، ولم يكن أبو العتاهية قد برؤ من رغباته بعد، فهذه ملاحظة.

وسجن أبي العتاهية في سجن الجرائم ومع هذا الداعية السياسي الخطير في وقت واحد ومكان واحد، ثم وقوفهما للعقوبة في موقف واحد مما يريب، فهذه ثانية.

وتأخر سؤال أبي العتاهية للرجل عن اسمه إلى أن أخرجنا للمعاقبة مع ما تقدم ذلك من معاتبة واستنشاد للشعر وتكرير له ليحفظه، ومعرفة الرجل به وندائه إياه باسمه مما يدل على اتقاء أبي العتاهية فيما يرويه من قصصهما والتقية مما يريب، فهذه الثالثة.

وسوقه القصة على هذا النحو المثير مما ينبىء عن قصد منه لإمالة النفوس وإثارتها لمثل هذا المظلوم وذلك المطلوب، فهذه رابعة.

واتساع قلب المهدي في هذا الموقف الرهيب لأمرين، أحدهما جد كل الجد وهو أمر داعية عيسى بن زيد، وثانيهما، إن خلا من المغزى السياسي، فليس إلا وسيلة من وسائل الترفيه والمسرة وهو الشعر، هو كذلك مما يريب، فهذه خامسة.

---

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ١ ص ٩١، ٩٢.

وكون عقوبة الممتنع عن الشعر الخالي من المغزى السياسي الخطير هي القتل مع احتمال أن الشاعر قد ربا بنفسه عن هو الشعر وأخذ نفسه بالجد كما انتهى إليه أبو العتاهية بعد، هو كذلك مما يريب، فهذه سادسة.

ويحقق هذه الريب كلها أن نساير المنطق ومقتضى ما سلف من روايات المؤرخين من زيديته، فنتهي إلى أن أبا العتاهية لم يحشم من الشعر غزلاً ولا مديحاً ولا فناً آخر مما تطلب به التسلية أو المسرة، وإنما حشم أن يرى نفسه من مثل تهمة صاحبه وإلا قتل كما قتل، فافتدى نفسه بأن يقول ما ينفي زيديته بقوله الذي ينقض ما سلف من تقديم الزيدية لعل على أبي بكر وعمر، رضي الله عنهم، كما سبق، وقرأ، إن شئت، القصيدة التي فيها البيتان فلن تجد بين الغرض العام منها وهو الوعظ والتذكير بفناء السابقين قريباً ولا شبيهاً بهذا التقديم والتأخير، وقرأ شعره كله لتجد نظيراً لهذا الغرض الذي يعجب هؤلاء الخلفاء فلن تجد له من نظير. هذا وقد روى القصة، العباسي<sup>(١)</sup> وابن ظافر<sup>(٢)</sup> خالية من كثير من التفصيل وعلى أنها مع الرشيد لا المهدي، واسم الرجل في رواية ابن ظافر أبو حاضرة، وهو في الروایتين داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد، وسؤاله الرجل عن اسمه فيها قبل إخراجهما للمعاقبة. وإن صح أن هاتين الروایتين هما الصحيحتان لا رواية ابن خلكان، فلن نجد ما يبطل الملاحظات السابقة. فإن الرشيد، وإن كان قد غضب على أبي العتاهية لامتناعه عن القول في الغزل وحبسه من أجله، فإنه ما كان ليصل به إلى القتل أو التهديد به أو إيقافه في هذا الموقف العصيب؛ على أن لنا في شعره دليلاً على أنه يطوي بين جنبه سرّاً خطيراً يتقيه ولا يبديه، كقوله:

أمني تخاف انتشار الحديد      ث وحظي في صونه أوفر  
ولو لم يكن فيه معنى عليه      لك نظرت لنفسي كما تنظر

(١) معاهد التنصيص، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) بدائع البدائ على هامش معاهد التنصيص، ج ١ ص ١٥٠، ١٥١.

وانظر ما يدل على ضيق صدره برمي الناس لمثله بالابتداع لما سبق من  
أنه من البتريّة المبتدعة:

فسد الناس وصاروا إن رأوا صالحاً في الدين قالوا مبتدع

ومما يدل على عصبية المذهبية قوله:

بكى شجوه الإسلام من علمائه      فما اكثرثوا مما رأوا من بكائه  
فأكثرهم مستقبح لصواب من      يخالفه مستحسن لخطائه  
فأيهم المرجو فينا لدينه      وأيهم الموثوق فينا برائه

ولسنا في حاجة بعد ما أسلفناه في الباب الأول من اضطهاد العباسيين  
للشيعة وجسهم وقتلهم وتشريدهم في البلاد أن نفيض في وصف هذه الدواعي  
السياسية القوية التي وجهت بطائفة من شعر الشاعر هذه الوجهات المضادة  
لسياستهم، إذ ينعى عليهم ترفهم ويرقق قلوبهم أو يندرهم بفراق الملك ونزول  
الموت أو يذكرهم بأسلافهم ممن أذل الدهر مصارعهم وأخرجهم من قصورهم  
وجنودهم إلى وحشة القبور وضيقها. ونستطيع أن نجد علة سليمة لخلو شعره من  
رثاء هؤلاء الخلفاء الذين عاصرهم وعاشرهم إلا بما يشبه الشماتة بهم والتذكير  
بمصارعهم على الوجوه التي سنستقبلها إلى ما يشبه ذلك من البرم بالناس مع  
حذبه عليهم ورحمته بهم والله المستعان.

\* \* \*

## زهديات أبي العتاهية السياسية والاجتماعية:

وهي نوعان: خاصة، وعامة.

فالخاصية: ما كانت وعظاً للخاصة كالخلفاء والوزراء والأمراء؛ وهي أقسام بحسب العصور:

فالأول: ما كان في عصر الرشيد.

والثاني: ما كان في عصر الأمين.

والثالث: ما كان في عصر المأمون.

والعامة: ما كانت وعظاً لغيرهم أو نقداً لأحوال المجتمع.

### النوع الأول – في مواعظه الخاصة

#### القسم الأول – ما كان في عصر الرشيد

عن أبي العتاهية قال: كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلاّلات إذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه. فقليل له: ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية.. وهو في الحبس! قال: فوجه إلى الرشيد (أن) قل شعراً حتى أسمعهم منهم.. ولم يأمر بإطلاقه. فغاضني ذلك فقلت: والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره. فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه (من) الملاحين، فلما ركب الحراقة سمعه وهو:

|                    |                   |
|--------------------|-------------------|
| خانك الطرف الطموح  | أيها القلب الجموح |
| لدواعي الخير والشر | ودنو ونزوح        |
| هل لمطلوب بذنب     | توبة منه نصوح     |
| كيف إصلاح قلوب     | إنما هن قروح      |
| أحسن الله بنا أن   | ن الخطايا لا تفوح |
| فإذا المستور منا   | بين ثوبيه فضوح    |

|                       |                   |
|-----------------------|-------------------|
| كم رأينا من عزيز      | طويت عنه الكشوح   |
| صاح منه برحيل         | صائح الدهر الصدوح |
| موت بعض الناس في الأر | ض على قوم فتوح    |
| سيصير المرء يوماً     | جسداً ما فيه روح  |
| بين عيني كل حي        | علم الموت يلوح    |
| كلنا في غفلة والـ     | موت يغدو ويروح    |
| لبنى الدنيا من الدنـ  | يا غبوق وصبوح     |
| رحن في الوشي فأصبحـ   | ن عليهن المسوح    |
| كل نطاح من الدهـ      | ر له يوم نطوح     |
| نح على نفسك يا مسـ    | كين إن كنت تنوح   |
| لتموتن وإن عمـ        | مرت ما عمر نوح    |

قال: فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب- وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة وأشدّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة، فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أوماً إلى الملاحين أن يسكتوا<sup>(١)</sup>. وروى الأستاذ الرافعي، رحمه الله، هذه القصة ببعض الأبيات في كتابه النفيس تاريخ آداب العرب وجعلها موضوع مؤاخذه لأبي العتاهية فقال: نقول، ولو أن أبا العتاهية لم يطرح ظل نفسه على ذلك الشعر وقتئذ، وعمل على أن يصيب حقيقة غرض الرشيد لكان أول واضح في الإسلام للشعر الذي يسمى أغاني الشعب، ولجأ بعده من يأخذ في طريقه ويفتن فيها حتى توضع أغاني الشعب الاجتماعية والسياسية على حقيقتها، ويكون ذلك من أرقى أبواب الأدب العربي؛ ولكن ظل الشاعر كان في ذلك الغضب ثقيلاً بارداً كأنه قطعة من ظلمة حبسه أو كأنه ظل شيطاني لا ينسبط إلا ليطوي الأشعة المنبعثة من الأفكار الصالحة<sup>(٢)</sup>. وقد كان

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧١، ١٧٢.

(٢) تاريخ آداب العرب، للرافعي، ج ١ ص ٢٤٧، ٢٤٨.

الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، رحمه الله، من دلائل الحق في هذا العصر وأعلامه الأثبات، ومن ذوي القلوب العامرة بما شاء الله من الإيمان والخير، ومن أولئك الأفاضال الذين عرفوا أن من حق الفضائل الروحية أن تصرف إلى تمجيد بارئها وتحميد خالقها فلا تكون عوناً للباطل على الحق، ولا ظهيراً للهوى على الرأي، وهم في أضرابه من كتاب العصر أقل من القليل؛ ولكن الخطأ في هذه الحياة كثيراً ما يزاحم الصواب، والسلامة لا تكاد تسلم من عوارض السقام، سيما إذا كانت السلامة في مقبليها والصواب في مستهله: فقد ألف الرافعي، رحمه الله، هذا الكتاب في عصر الشباب<sup>(١)</sup>، إذ من ذا الذي يستطيع أن يحمل شاعراً أن يرى شعره من آلام نفسه وهي معدنه ومعانه، وأن يقطع صلته بمشاعره وحسه وهما جوهره وصورته؟ وهل يكون مثل هذا الشعر إلا كما يقول: جسداً ما فيه روح، وهل يكون هذا غير التكليف بالتكلف والرياء؟ ومن ذا الذي قال: إن على الشاعر إذا سأل سلطان قول شعر تلذه أذنه وترتاح إليه نفسه أن يلتزم مسابرة فيما أحب وطلب، والمبادرة إلى ما رغب، وأن لا ينتهز هذه الفرصة السانحة من فرص الإصاخة والإنصات فلا يذكر ولا يعظ ولا يؤنب ولا يزجر، ولا يرقق من غلظة حمل بعض أعبائها ولا يلين من قسوة حمل بعض آصارها ولا يزهّد في أثرة تلقي بأبناء الرسول في أطباق السجون؟ ومتى كان على الشاعر أن يضع أمامه غرضاً أدبياً كصنع الأغاني الشعبية وألا يضع أمامه غرضاً خلقياً كإصلاح السياسة وتهذيبها؟ وليت هذا المداد الطاهر كان جف حين شبه هذه العظة بظل شيطاني، وليت الصنعة البديعية لم تكن عرفت سبيلها إلى هذا القلم البارع فتسوقه إلى ما انساق إليه من تشبيه صنع الشيطان بالظل المنبسط ليقابلها بالطي والشعاع. وكم جمحت هذه الصنعة بأقلام فحملت أصحابها من القول ما لم ينووه ولا أرادوه. وعلق على هذه القصيدة صاحب كتاب التصوف الإسلامي تعليقاً ليس له فيه إلا بعض لفظه، فما تضمنه من السبب ليس عن رأيه كما يوهمه لفظه، بل هو من نفس رواية أبي العتاهية، وما تضمنه من الحكم ليس إلا اقتفاء لزلة الرافعي، رحمه الله، فوصف أبا العتاهية بأنه ما كان يخلو من الميل

(١) الكتاب مؤلف من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١١.

إلى الأذى، وبأنه لم ينظم هذا الشعر الجيد لوجه الحق وإنما نظمه لإيذاء الرشيد. وأتبعه بقوله: وهذا الميل الخبيث كانت له أسباب، فما كان يعقل أن ينظم أبو العتاهية أبياتاً تصلح لبشاشة الغناء وهو سجين، ولكن التعريض بالرشيد وإنذاره بزوال الدنيا والملك هو في هذا الموقف من نزعات الشيطان<sup>(١)</sup>.

أما أنا فإني أبدأ فأعوذ بالله من قول لا تؤيده القلوب، ثم من اعتقاد هفوات العلماء وزلاتهم والتزيد فيها، وأعوذ فألتمس بعض العذر للكاتبين. وما أظنه يصلح لهما عذراً بأنهما لوتنبها إلى ما يغفله كثير من كتاب العصر من الأسباب السياسية لمثل هذا الشعر لاستراحا وأراحا من عناء كثير؛ وقد غفل الكاتبان وهما بصدد بيان إيذاء أبي العتاهية عن أشد هذا الإيذاء وأبلغه في نفس الرشيد؛ فقد روى الطبري والمسعودي وابن الأثير أن المهدي لما توفي بقرية من قرى ماسبذان لبست جاريته حسنة وغيرها من حشمه السواد والمسوح جزعاً عليه ورجعن وعلى قبة حسنة المسوح قالوا: فقال في ذلك أبو العتاهية:

رحن في الوشي وأقبل      من عليهم المسوح  
كل نطاح وإن عا      ش له يوم نطوح  
لست بالباقي ولو عم      ممرت ما عمر نوح  
فعلى نفسك نح إن      كنت لا بد تنوح<sup>(٢)</sup>

فإن في هذا الشعر لدليلاً أي دليل على هذا البغض المذهبي لهؤلاء الخلفاء وإن ذكر المهدي على النحو الذي ذكر ليدل على أن الأمر ليس أمر هذا الحبس فحسب، فما كان أمره ليتعدى الأحياء إلى الأموات على هذا النحو المسرف، وما ذكره أبو العتاهية في روايته من أن حبسه هو السبب ليس إلا نوعاً من التقية والمداراة رأينا منه مثلها في روايته لقصة أبي حاضرة داعية عيسى بن زيد.

(١) التصوف الإسلامي، ج ١ ص ١٠٧.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٣٩٣؛ ومروج الذهب، ج ٣ ص ٢٣٣؛ والكامل، لابن الأثير، ج ٦ ص ٢٧.



ومما تظهر فيه هذه النزعة السياسية ما رواه الماوردي والمسعودي أن الأصمعي قال: دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خديه فلما أبصرني قال: أرايت ما كان مني؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى إلي بالقرطاس فإذا فيه شعر أبي العتاهية، رحمه الله:

|                             |                        |
|-----------------------------|------------------------|
| هل أنت معتبر بمن خربت       | منه غداة قضى دساكره    |
| وبمن أذل الدهر مصرعه        | فتبرأت منه عساكره      |
| وبمن خلت منه أسرته          | وتعطلت منه منابره      |
| أين الملوك وأين عزهم        | صاروا مصيراً أنت صائره |
| يا مؤثر الدنيا لذته         | والمستعد لمن يفاخره    |
| نل ما بدا لك أن تنال من الد | نيا فإن الموت آخره     |

فقال الرشيد، رحمه الله عليه: والله لكأني أخطب بهذا الشعر دون الناس؛ فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات، رحمه الله<sup>(١)</sup>. وأبو العتاهية لم يفصح في هذا الشعر بهذا الذي يذكر الرشيد بذل مصرعه، ولكن التاريخ دلنا على أنه المهدي، رحمه الله، فدل ذلك أيضاً على أن بغض الرجل القوم كان ممتزجاً بنفسه ودمه؛ فقد روى الطبري أن المهدي لما توفي لم توجد له جنازة يحمل عليها فحمل على باب ودفن تحت شجرة جوز كان يجلس تحتها<sup>(٢)</sup>؛ فلعل هذا هو ذل المصرع. وفيه أنه لما توفي أخفي أمر وفاته على الجند حتى لا يشغبوا ويتعلقوا بمحمله ويقولوا: لا نخليه حتى نعطي لثلاث سنين وأكثر، ويتحكموا ويشتطوا؛ وكان هذا سبب دفنه حيث دفن دون الرجوع به إلى بغداد. وذكر أن الأمر لما أخفي على الجنود أمروا بالقفول إلى بغداد فلما وافوها وعلموا الخبر شغبوا وحرقوا باب الربيع ولم يهدءوا حتى أعطوا عطاء سنتين<sup>(٣)</sup>، فهذه هي براءة عساكره منه. وقرع أذني

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص ٩٩؛ ومروج الذهب، ج ٣ ص ٢٨٣.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٣٩٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٠٦.

الرشيد بذل هذا المصراع وبراءة الجنود من سيدهم ودعوته إلى الاعتبار بمثل ذلك ليس عن سجن هذه المرة، بل هو عن هذه الزيدية التي ذكرت؛ وفي الأغاني عن محمد بن أبي العتاهية قال: قال الرشيد لأبي: عظمي فقال له: أخافك! فقال له: أنت آمن؛ فأنشده:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس      إذا تسترت بالأبواب والحرس  
واعلم بأن سهام الموت قاصدة      لكل مدرع منا ومترس  
ترجو النجاة ولم تسلك طريقها      إن السفينة لا تجري على اليبس  
قال: فبكى الرشيد حتى بل كمه<sup>(١)</sup>. وفي سراج الملوك: صنع الرشيد طعاماً وزخرف مجالسه وأحضر أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال:

عش ما بدا لك سالماً      في ظل شاهقة القصور  
وقال الرشيد: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

يسعى عليك بما اشتهدت      لدى الرواح أو البكور  
فقال: حسن.. ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقت      في ظل حشجة الصدور  
فهناك تعلم موقناً      ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحيى البرمكي: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنه. فقال الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه<sup>(٢)</sup>. وتدل القصة على أن أبا العتاهية إنما ينعى على الرشيد ما رآه من الترف. وقال المسعودي: حج أبو العتاهية في بعض الحجج مع الرشيد، فنزل الرشيد يوماً عن راحلته ومشى ساعة ثم أعيا فقال: هل لك يا أبا العباس (كنية الفضل بن الربيع) أن نستند إلى هذا الميل.. فلما قعد الرشيد قال له: يا أبا العتاهية، حركنا فقال:

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٣؛ وانظر الديوان، ص ١٣٣.

(٢) سراج الملوك، ص ١٥؛ وانظر الديوان، ص ٩٢.

ألا يا طالب الدنيا      دع الدنيا لشانيكا  
وما تصنع بالدنيا      وظل الميل يكفيكا<sup>(١)</sup>  
وستأتي هذه القصة في باب الشاعرية على غير هذا الوجه. ومن زهديات  
أبي العتاهية المقولة في عصر الرشيد هذان البيتان:

ما اختلف الليل والنهار ولا      دارت نجوم السماء في الفلك  
إلا بنقل السلطان عن ملك      كان يحب الدنيا إلى ملك  
قال ابن قتيبة في عيون الأخبار: حدثني أبي عن أبي العتاهية أنها قرئا  
له على جدار من جدر القسطنطينية<sup>(٢)</sup> - ورواية الرياشي: اتصل بالرشيد أن ملك  
الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته...  
ورواهما باختلاف في الشطر الرابع فهو:

قد انقضى ملكه إلى ملك<sup>(٣)</sup>

ونقل أبو الفرج من كتاب هارون بن يحيى عن رواه قال: مر القاسم بن  
الرشيد في موكب عظيم، وكان من أتيه الناس، وأبو العتاهية جالس مع قوم على  
ظهر الطريق، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له فلم يزل قائماً حتى جاز  
ولم يلتفت إليه، فقال أبو العتاهية:

يتيه ابن آدم من جهله      كأن رحي الموت لا تطحنه  
فسمع بعض من في موكبه ذلك فأخبر به القاسم فبعث إلى أبي العتاهية  
وضربه مائة مقرعة وشتمه وقال له: أتعرض بي في مثل ذلك الموضع! وحبسه  
في داره فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر هذه الأبيات:

حتى متى ذو التيه في تيهه      أصلحه الله وغافاه

(١) مروج، ج ٣ ص ٣٥٨.

(٢) عيون الأخبار، ج ١ ص ٣٠٧.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٢، ١٧٣؛ والديوان، ص ١٩٠.

يتيه أهل التيه من جهلهم      وهم يموتون وإن تاهوا  
من طلب العز ليبقى به      فإن عز المرء تقواه  
لم يعتصم بالله من خلقه      من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبه وكانت ماثلة إليه فرقت له وأخبرت  
الرشيد بأمره وكلمته فيه، فأحضره وكساه ووصله، ولم يرض عن القاسم حتى بره  
وأدناه واعتذر إليه<sup>(١)</sup>. ومن الأمور التي أثرت في زهاديات أبي العتاهية كما  
أثرت في أكثر فنون الشعر في عصره هذه الدولة البرمكية وما كان لها من مجد  
وصولة وما انتهت إليه من نكبة وهلكة. روى المبرد بسنده إلى إسماعيل بن  
يحيى الهاشمي أن الرشيد خرج فإذا بركب أعظم من ركه فسأل عنه فقليل  
لجعفر. وذكر أن جعفر لم يعرج عليه ليزينه بموكبه وبجمله بجنده ومر ببعض  
الضياع العامرة فسأل، فقليل لجعفر، فذكر أنه ليس لأحد من أولاده شيء مثل  
ذلك. وذكر إسماعيل أن المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل كانت  
ترد كل صباح إلى قصر جعفر، وأن الرشيد وجد لانصرافهم عنه إليه، قال  
إسماعيل: فنصحت جعفر أن يهب بعض ضياعه لولد أمير المؤمنين، فقال:  
والله ما أكل الخبز إلا بفضل، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا؛ ورمى الرشيد بأنه  
يمد عينيه إلى ما ادخره لولده ورماه بالحسد له<sup>(٢)</sup>. وذكر الطبري من أسباب  
نكبتهم أن جعفر أنفق على دار واحدة له عشرين ألف ألف درهم حتى قال  
ناصر له: هوشيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. وقال له: إن  
العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول: يا أمير المؤمنين: إذا أنفق على دار  
عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النواصب التي تنوبه،  
وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب<sup>(٣)</sup>.  
والأسباب في نكبتهم كثيرة بسطها الطبري وغيره، وأمسه بالمقام ما ذكرت

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) أعلام الناس، للإتليدي، من ص ٨١ إلى ٨٣.

(٣) الدبري، ج ٦ ص ٤٨٧.

وهو عما لا خلاف فيه؛ وأياً ما كان السبب في نكبتهم فقد ظهرت لذلك بوادر كثيرة وصفها الطبري وعقبها بقوله: فقال الناس في البرامكة فأكثرُوا<sup>(١)</sup>. وعن مثل هذه الأسباب يصدر مثل قول أبي العتاهية والقرائن تدل على أنه يريد به جعفر بن يحيى:

|                         |                                   |
|-------------------------|-----------------------------------|
| ألا رب ذي أجل قد حضر    | كثير التمني قليل الحذر            |
| إذا هزّ في المشي أعطافه | تعرفت من منكبيه البطر             |
| يؤمل أكثر من عمره       | ويزداد يوماً بيوم أشر             |
| ويمسي ويصبح في نفسه     | كريم المساعي عظيم الخطر           |
| تكون له صولة تتقى       | وأمر يطاع إذا ما أمر              |
| يريش ويبرى وفي يومه     | له شغل شاغل لو شعر <sup>(٢)</sup> |
| يعد الغرور ويبنى القصور | ر وينسى الفناء وينسى القدر        |
| وينسى القرون وربب المنو | ن وينسى الخطوب وينسى العبر        |
| وينسى الشهور تحيل الأمو | ر فإما بخير وإما بشر              |
| يجرعه الحرص كأس العمى   | ويحمله فوق ظهر الغرر              |

ولما قتل جعفر أمر الرشيد بصلبه على ثلاثة جذوع: الرأس على جذع وشطراه على جذعين<sup>(٣)</sup> وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| قولا لمن يرتجي الحياة أما  | في جعفر عبرة ويحياء        |
| كانا وزيري خليفة الله ها   | رون هما ما هما خليلاء      |
| فذاكم جعفر برمته           | في حالق رأسه ونصفاه        |
| والشيخ يحيى الوزير أصبح قد | نحاه عن نفسه وأقصاه        |
| شتت بعد التجميع شملهمو     | فأصبحوا في البلاد قد تاهوا |

(١) نفس المصدر، ص ٤٨٥.

(٢) الديوان المخطوط والمطبوع، ص ١٠٩.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٤٩٣.

كذاك من يسخط الإله بما ير      ضي به العبد يجزه الله  
سبحان من دانت الملوك له      أشهد أن لا إله إلا هو  
طوبى لمن تاب بعد غرته      فتاب قبل الممات طوباه<sup>(١)</sup>

### القسم الثاني - ما كان في عهد الأمين

لما رجع الفضل بن الربيع من خراسان بعد موت الرشيد دخل عليه أبو العتاهية فاستنشدته فأنشده:

أفريت عمرك ادباراً وإقبالاً      تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا  
الموت هول فكن ماشئت ملتماً      من هوله حيلة ان كنت محتالاً  
ألم تر الملك الأمسى حين مضى      هل نال حي من الدنيا كما نالا  
أفناه من لم يزل يفني القرون فقد

أضحى وأصبح عنه الملك قد زالا

كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم

فأصبحوا عبراً فينا وأمثالاً<sup>(٢)</sup>

والملك الأمسي كما هو ظاهر هو الرشيد. ولما مات الرشيد خطب الأمين ببغداد، فقال: أيها الناس إن المنون تراصد ذوي الأنفاس حتماً من الله، لا يدفع حلوها ولا ينكر نزولها، فاسترجعوا قلوبكم عن الجزع على الماضي إلى البهج للباقي تعطوا أجور الصابرين وجزاء الشاكرين<sup>(٣)</sup>. وقد أجمع المؤرخون على ميل الأمين إلى اللهو والصبا فيشبهه إذن أن يكون فيه قول أبي العتاهية:

يا ناسي الموت وهو يذكره      هل لك بالموت ان أتاك يد  
يا ساكن القبة المطيف به      حراسه والجنود والعدد

(١) الطبري، ج ٦ ص ٣٩٦.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٤؛ والديوان، ص ٢١٠.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٣ ص ٣٣٨.

دارك دار يموت ساكنها      دارك يبلى جديدها الأبد  
تختال في مطرف الصبا مرحا      يخطر منك الذراع والعضد  
تبكي على من مضى وأنت غدا      يوردك الموت في الذي وردوا  
لو كنت تدري ما ذا يريد المو      ت لأبلى جفونك السهد<sup>(١)</sup>

ومن مظاهر ترف الأمين ما رواه الطبري من انه أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواقع خلوته ولهوه ولعبه في قصر الخلد وقصور أخرى ذكرها الطبري<sup>(٢)</sup>. فمن الظاهر أن يكون ما يتضمن ذلك من شعر أبي العتاهية مقولاً للأمين أو فيه سيما إذا انضم إليه ما يشبه هو الصبا ومرح الشباب وخيلاءه، كقوله:

ألا أيها الباني لغير بلاغة      ألا لخراب الدهر أصبحت بانيا  
ألا لزوال العمر أصبحت بانيا      وأصبحت مختالا فخورا مباهايا  
كانك قد وليت عن كل ما ترى      وخلفت ما خلفته عنك ساليا<sup>(٣)</sup>

وقوله «ويتضمن الرمي بسوء السيرة» وقد يكون مبعث ذلك ما أظهره المأمون من التشيع في خراسان وما قام بينه وبين الأمين من الخصومة والحروب:

أيها الباني قصورا طوالا      أين تبغي هل تريد السحبا  
إنما أنت بوادي المنايا      إن رماك الموت فيه أصابا  
أيها الباني لهدم الليالي      ابن ما شئت ستلقى خرابا  
ثم قوله:

أيها المرء الذي قد أبى أن      يهجر اللهو بها والشبابا  
وبنى فيها قصوراً ودورا      وبنى بعد القباب قبابا  
ورأى كل قبيح جميلا      وأبى للغى إلا ارتكابا

(١) الديوانين، ص ٨٦.

(٢) الطبري، ج ٧ ص ١٠٢.

(٣) الديوانين، ص ٣٠٠.

أنت في دار ترى الموت فيها مستشيطا قد أزل الرقابا<sup>(١)</sup>

ويروى من غفلة الأمين وهواه في حربه مع أخيه مع توالي الهزومات على جيوشه ما تكفل الطبري<sup>(٢)</sup> والبغدادى<sup>(٣)</sup> بوصفه، ويروى بإزاء ذلك من احتقار قائده علي بن عيسى لجيوش المأمون ما الظاهر انه مراد أبي العتاهية، من قوله:

|                          |                                         |
|--------------------------|-----------------------------------------|
| أمنت الزمان والزمان خثون | له حركات بالبلى وسكون                   |
| رودك لا تستبط ما هو كائن | الا كل مقدور فسوف يكون                  |
| ستذهب أيام ستخلق جدة     | ستمضي قرون بعدهن قرون                   |
| ستدرس آثار ستعقب حسرة    | ستخلو قصور شيدت وحصون                   |
| ستقطع آمال وتذهب مدة     | سيبدو من الشأن الحقيق شؤن               |
| وما كل ذي ظن يصيب بظنه   | وقد يستراب الظن وهو يقين <sup>(٤)</sup> |

وكأن البيت الأخير تعريض بالفضل بن الربيع إذ نقض عهود الرشيد للمأمون وارتحل عن طوس بجنوده إلى محمد قائلاً: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون<sup>(٥)</sup>. ونحو هذا الشعر قوله يتهدد الأمين أو وزيره الفضل بما سيكون من الأحداث الجسام بقدم جيوش المأمون على بغداد:

|                  |                                 |
|------------------|---------------------------------|
| سترى بعد ما ترى  | غير هذا الذي ترى                |
| سترى ما بقيت ما  | يمنع الناعس الكرى               |
| سترى من يصبر بعـ | د نعيم إلى الثرى                |
| سترى كل حادث     | كيف يجري إذا جرى <sup>(٦)</sup> |

(١) نفس المصدر، ص ٢٨، ٢٩.

(٢) الطبري، ج ٧ ص ٧، وما بعدها.

(٣) تاريخ بغداد، ج ٣ ص ٣٣٩.

(٤) الديوانين، ص ٢٦٥.

(٥) الطبري، ج ٦ ص ٥٤٩.

(٦) الديوانين، ص ١٠٢.



وعنوان السابقة في الديوان، «وقال يتأسف على ركونه إلى الزمان واغتراره بغلبته»، وهو كما ترى وعنوان الأنفة «وقال يتهدد الساهي عن الموت» وأنا لا أعقل أن يصلح ذلك عنواناً لها، وكيف وهو تهديد لمن يعيش إلى أن يرى لا لمن يسهو إلى أن يموت وهل يرى الميت من الأحداث ما يمنعه النعاس.. إنه لنبا طريف، ولأمر ما غنت ضعف جارية الأمين إياه في ليلة أراد أن تفرح فيها من ضيق حصار طاهر له بهذه الأبيات:

أما ورب السكون والحرك      ان المنايا كثيرة الشرك  
ما اختلف الليل والنهار ولا      دارت نجوم السماء في الفلك  
الا لنقل النعيم من ملك      عان يحب الدنيا إلى ملك  
وملك ذي العرش دائم أبداً      ليس بفان ولا بمشترك<sup>(١)</sup>

فإن هذا الشعر الذي يتضمّن من التهديد بمثل ما سلف ما رأيت من شعر أبي العتاهية بدليل البيتين الثالث والرابع، وقد سبق انهما له وان مقتل الأمين وهو في غرته وغفلته ليكاد ينسب عن أنه المراد ببيتي أبي العتاهية:

يا قاطع الدهر بلذاته      ليس له ناه ولا أمر  
أتاك يا مغرور سهم الردى      والموت في سطواته قاهر<sup>(٢)</sup>

### القسم الثالث — ما كان في عهد المأمون

عن ثمامة بن أشرس، قال: دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده:

ما أحسن الدنيا واقبالها      إذا أطاع الله من نالها  
من لم يواس الناس من فضلها      عرّض للإدبار إقبالها

فقال له المأمون: ما أجود البيت الأول، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً. الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها، وإنما توجب السماحة بها الأجر

(١) الطبري، ج ٧ ص ٧٥.

(٢) الديوانين، ص ١١٩.

والضن بها الوزر. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل،  
وأهل النقص أولى بالنقص. فأمر المأمون أن يدفع له عشرة آلاف درهم  
لاعترافه بالحق. فلما كان بعد أيام عاد فأنشده:

كم غافل أودى به الموت      لم يأخذ الأهبة للفوت  
من لم تزل نعمته قبله      زال<sup>(١)</sup> عن النعمة بالموت  
فقال له: أحسنت، الآن طيبت المعنى. وأمر له بعشرين ألف درهم<sup>(٢)</sup>.  
وبعد البيتين الأولين في الديوان:

كأننا لم نر أيامها      تلعب بالناس وأحوالها  
إننا لنزداد اغتراراً بها      والله قد عرفنا حالها  
نغضب للندى ونرضى لها      كأننا لم نر أفعالها<sup>(٣)</sup>  
وعن محمد بن عيسى الحربي، قال: كنت جالساً مع أبي العتاهية إذ مر بنا  
حميد الطوسي في موكبه وبين يديه الفرسان والرجالة، وكان يقرب أبي العتاهية  
سوادي على أتان فضربوا وجه الاتان ونحوه عن الطريق وحميد واضع طرفه على  
معرفة فرسه والناس ينظرون إليه يعجبون منه وهولاً يلتفت تيهاً، فقال  
أبو العتاهية:

للموت أبناء بهم      ما شئت من صلف وتيه  
وكأنني بالموت قد      دارت رحاه على بنييه  
قال، فلما جاز حميد مر صاحب الاتان، فقال أبو العتاهية:  
ما أذل المقل في أعين النا      س لإقلاله وما أقماه  
انما تنظر العيون من النا      س إلى من ترجوه أو تخشاه<sup>(٤)</sup>

(١) في الأصل تذعره، والتصحيح من الديوانين ص ٥٤.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٦.

(٣) الديوان، ص ٢٣٦.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٧؛ والديوان، ص ٣٣٦.

وإذا عرفنا ان حميداً كان مشهوراً بالغطرسة إلى حد أن المأمون حمد الله على أن رزقه من الحلم ما يحتمل به مثله<sup>(١)</sup>، وكان المأمون يحلم إلى أن يغيظ أصحابه حلمه، أدركنا انصاف أبي العتاهية في وصفه بالتية؛ وفي ديوانه قصيدة بلغت كل مبلغ من السناء والشرف بمقاصدها الكريمة وبواعثها الشريفة، إذ أنزل نفسه منزلة الذائد عن حقوق الضعفاء، الواصف لعيشهم الشقي وبؤسهم المرير، المذكور بحقوقهم الداعي إلى مديد المعونة إليهم... ومنها فيما هو أخص بالمراد:

|                       |                                  |
|-----------------------|----------------------------------|
| من مبلغ عني الإما     | م نصائحاً متواليه                |
| إنني أرى الأسعار أسـ  | عار الرعية غاليه                 |
| وأرى غموم الدهر را    | ثحة تمر وغاديه                   |
| وأرى اليتامى والأرا   | مل في البيوت الخاليه             |
| من بين راجٍ لم يزل    | يسمو إليك وراجيه                 |
| يشكون مجهدة بأصـ      | وات ضعاف عاليه                   |
| يرجون رفدك كي يروا    | مما لقوه العافيه                 |
| من يرتجى للناس غيـ    | رك للعيون الباكيه                |
| من مصبيات جوع         | تمسي وتصبح طاويه                 |
| من يرتجى لدفاع كر     | ب ملة هي ما هيه                  |
| من للبطون الجائعا     | ت وللجسوم العاريه                |
| من لارتياح المسلميـ   | ن إذا سمعنا الواعيه              |
| يا ابن الخلائف لا فقد | ت ولا عدمت العافيه               |
| إن الأصول الطيبا      | ت لها فروع زاكيه                 |
| ألقيت أخباراً إليـ    | ك من الرعية شافية <sup>(٢)</sup> |

(١) عصر المأمون، ج ١ ص ٣٥٣.

(٢) الديوان المخطوط والمطبوع، من ص ٣٠٢ إلى ص ٣٠٥.

وتحديد الوقت الذي قال فيه هذه القصيدة يحتاج إلى تقليب النظر في أطوار المجتمع العباسي وأحواله في عصر الشاعر ليعرف ما هو المناسب لهذه الأوصاف التي تضمنتها القصيدة من الأوقات؛ وقبل أن نتلمس ما نريد من الأخبار نستطيع أن نتلمس مراده إجمالاً من مثل قوله:

|                          |                                       |
|--------------------------|---------------------------------------|
| لله أزمنة عهدت رجالها    | في النائبات وانهم لكرام               |
| أيام أعطية الأكف جزيلة   | إذ لا يضيع لدى الذمام ذمام            |
| فلعبرة أخرت للزمن الذي   | هلك الأرامل فيه والأيتام              |
| زمن مكاسب أهله مذخورة    | دخلا فروع أصوله الآثام                |
| زمن تحامى المكرمات سراته | حتى كأنّ المكرمات حرام                |
| زمن هوت أعلامه وتقطعت    | قطعاً فليس لأهله أعلام <sup>(١)</sup> |

فإن هذا الشعر يتضمن أن هذه الصورة البائسة من صور المجتمع لم تكن إلا حين تأخر الزمن به؛ وليس في زمنه المتأخر أجمع لألوان البؤس والشقاء من غلو الأسعار وخلو الديار إلا من الأرامل والأيتام وبلوغ الجهد والضيق كل مبلغ ورجاء الناس العافية مما لقوه من ارتياح وعري وجوع متصل صباح مساء... وليس في زمنه المتأخر أيضاً ما هو أجمع لما وُصف في القطعة الثانية من هلاك الضعيف وذهاب الكرماء وهويّ الأعلام من أهل المروءة والدين إلا هذه البرهة الشقية التي تغلبت فيها جنود المأمون من الخراسانيين والترك وغيرهم على جيوش الأمين، حتى وصلوا إلى بغداد وفعلوا فيها الأفاعيل وأعادوا مع المسلمين ما فعلوه قبل في حربهم مع الأمويين؛ فقد روى الطبري في أحداث سني سبع وثمان وتسعين ومائة ما يتضمن أن طاهراً وهرثمة وزهير بن المسيب حاصروا محمداً ببغداد وأخذوا يضربون من أقبل أو أدبر بالمجانيق والعرادات، ودخل طاهر البستان بباب الأنبار فدخل محمداً أمر عظيم من دخوله، فأمر برمي الحرية (وهي جهة من جهات بغداد) بالنفط والنيران والمجانيق والعرادات، يقتل بها المقبل والمدير، وألح بعض قواد محمد في إحراق الدور والدروب وهدمها، وفعل طاهر مثل ذلك،

(١) الديوانين، ص ٢٤٤.

وأحرق منازل من لم يدخل في طاعته؛ وكان يغدو ويروح بقواده وفرسانه حتى أوحشت بغداد وخاف الناس أن تبقى خراباً. وأشد مما سلف أن طاهراً قبض ضياع من لم ينجز إليه من بني هاشم والقواد والموالي وغلاتهم حيث كانت، فذلوا وانكسروا وانقادوا، وذلت الأجناد وتواكلت عن القتال إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع وغيرهم، وكانوا قد أبيح لهم النهب وفي ذلك يقول الخزيمي قصيدته الرائية التي سلف طرف منها في وصف الحالة الاجتماعية ومنها في وصف ما أصاب قصور بغداد ومنتزهاتها:

قفرا خلاء تعوي الكلاب بها  
وأصبح البؤس لا ما يفارقها  
أمت كجوف الحمار خالية  
كأنما أصبحت بساحتهم  
يحرقها ذا وذاك يهدمها  
والنهب تعدو به الرجال وقد  
يا هل رأيت الثكلي مولولة  
في إثر نعش عليه واحدا  
أما رأيت النساء تحت المجا  
يحملن قوتا من الطحين على الـ

فهذه الأحوال منبئة كل الإنباء عن بواعث قصيدة أبي العتاهية ووقتها؛ وفي وصف هذه الأحوال في هذا المقام من الطبري أخبار وأشعار كثيرة<sup>(١)</sup>. وقد استمرت هذه الأحوال السيئة إلى ما بعد سنة إحدى ومائتين وهي سنة قيام المطوعة للنكير على الفساد كما سبق. ولم تنقطع مادة هذه الفتن إلاّ بقدوم المأمون إلى بغداد في سنة أربع ومائتين. وإنما يعين أن «هذا الإمام المرجو للناس» هو المأمون، لا الأمين، أن الأمين كان بين قومه يلاقي ما يلاقون من

(١) انطبري، ج ٧١ من ص ٤٩ إلى ص ٧٤.

شظف العيش وسوء الحال<sup>(١)</sup>. ولعل من نافلة القول بعد هذا أن تأخذ من ندائه للمرجو بقوله «يا ابن الخلائف» أنه ليس إلا من أولاد الرشيد. ولعل من آثار ما سلف من شدة الحصار وهلاك الرجال وانتهاب السفلة للأموال وتجويعهم العاجزين البائسين قوله:

لو ان ذوي الأبصار يرعون كل ما يرون لما جفت لعين مدامع  
طغى الناس من بعد النبي محمد فقد درست بعد النبي الشرائع

وصارت بطون المرملات خميصة

وأيتامها منهم طريد وجائع  
وان بطون المكثرات كأنما تنقنق في أجوافهن الضفادع  
وما يعرف العطشان من طال ربه

وما يعرف الشبعان من هو جائع<sup>(٢)</sup>

تذييل فيما يشبه أن يكون وعظاً للخاصة أو بهم:

قال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك أن تعيش بغيطة

ما أقرب المحيا الطويل من الممات

فتجاف عن دار الغرور وعن دوا عيها وكن متوقفاً للحادثات

أين الملوك ذوو العساكر والمنا برو الدساكر والقصور المشرفات

والملهيات فمن لها والغاديا

ت الرائحات من الجياد الصافنات

هم بين أطباق الثرى فتراهم أهل الديار الخاويات الخاليات

هل فيكم من مخبر حيث استقر رقرار أرواح العظام الباليات

فلقل ما لبث العوائد بعدكم ولقل ما ذرفت عيون الباقيات

(١) نفس المصدر، ص ٧٤.

(٢) الديوان المخطوط وهي في المطبوع مع إفساد الترتيب وحذف البيت الثاني، ص ١٥٠.

والدهر لا يقي على نكباته

صم الجبال الراسيات الشامخات<sup>(٢)</sup>

وقال:

|                       |                                 |
|-----------------------|---------------------------------|
| أين القرون بنو القرون | وذوو المدائن والحصون            |
| وذوو التجبر في المجا  | لس والتكبر في العيون            |
| كانوا الملوك فأيهم    | لم يفنه ريب المنون              |
| أو أيهم لم يلف في     | دار البلى غلق الرهون            |
| ولقد غنوا بمعيشة      | ليست لأنفسهم بدون               |
| صاروا حديثاً بعدهم    | إن الحديث لذو شجون              |
| والدهر دائبة عجا      | تب صرفه جم الفنون               |
| لا بد فيه لآمن الـ    | أيام من يوم خؤون <sup>(١)</sup> |

وقال:

زرت القبور قبور أهل الملك في الـ

|                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| كانوا ملوك مأكّل ومشارب     | سدنيا وأهل الرتع في الشهوات |
| فإذا بأجساد عرين من الكسا   | وملابس وروائح عطرات         |
| لم تبق منها الأرض غير جماجم | وبأوجه في الترب منعفات      |
| إن المقابر ما علمت لمنظر    | بيض تلوح وأعظم نخرات        |

وقال:

|                  |                 |
|------------------|-----------------|
| وكم قد عز من ملك | تحف به قنابله   |
| يخاف الناس صولته | ويرجى منه نائله |
| ويثني عطفه مرحا  | وتعجبه شمائله   |

(١) الديوانين، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٤١، ٤٢.

ق ولى عنه باطله  
ت واسترخت مفاصله<sup>(١)</sup>

فلما ان أتاه الحر  
فغمض عينيه للمو  
وقال:

جحة البطارقة الأول  
لس والترفل في الحلل  
وذوو المكاييد والحيل  
ية كلهم فيمن سفل<sup>(٢)</sup>

أين المرازبة الجحا  
وذوو التفاضل في المجا  
وذوو المشاهد في الوغى  
سفلت بهم لجج المن  
وقال:

أين كسرى أين قيصر  
ل مع المال فأكثر  
بغنى الدنيا ويفخر<sup>(٣)</sup>

ما لنا لا نتفكر  
أين من قد جمع الما  
أين من كان يسامي  
وقال:

للواردين القبور من صدر  
أهل القباب العظام والحجر  
أم هل لهم من ملا ومن حضر  
بدد عنها محاسن الصور<sup>(٤)</sup>

يا ساكناً باطن القبور أما  
ما فعل التاركون ملكهمو  
هل يبتنون القصور بينكمو  
ما فعلت منهم الوجوه أقد  
وقال:

قد أوقرته الأكف من مدره  
وعن فساطيطه وعن حجره  
فزره فيها وانظر إلى خطره

كم من عظيم مستودع جدثاً  
أخرجه الموت عن دساكره  
إذا ثوي في القبور ذو خطر

(١) الديوانين، ص ٢٢٨.

(٢) الديوانين، ص ٢٢٠.

(٣) الديوانين، ص ١١١.

(٤) الديوانين، ص ٩٤، ٩٥.



وقال:

ألا يا ساكن البيت الموشى      ستسكنك المنية بطن رمس  
رأيتك تذكر الدنيا كثيرا      وكثرة ذكرها للقلب يقسي<sup>(١)</sup>

وقال:

كم مستظل بظل ملك      أخرج من ظله الظليل  
لا بد للملك من زوال      عن مستدال إلى مديل<sup>(٢)</sup>

وقال:

لله أهل قبور كنت أعرفهم  
أهل القباب الرخاميات والغرف<sup>(٣)</sup>

ومما هو خاص بالبطانة، قوله:

يا صاحب التيه منذ قرّبه الـ      سلطان هذا من قلة الفكر  
ما لك ترجع السلام على الـ      زوار الا بطرفة النظر  
تفعل هذا وأنت من بشر      فكيف لو كنت من سوى البشر  
ما أنت إلا من العباد وان      أصبحت في إمرة وفي خطر  
الملك لله لا شريك له      تجري القضايا منه علي قدر  
ما أقدر الله أن يغير ما      أصبحت فيه فكن على حذر  
واعلم بأن الأيام تلعب بالـ      سمرء وأن الزمان ذو غير<sup>(٤)</sup>

وقوله:

كم من أخ لك نال سلطانا      فكأنه ليس الذي كانا  
ما أسكر الدنيا لصاحبها      وأضرها للعقل أحيانا

(١) الديوانين، ص ١٢٨.

(٢) الديوانين، ص ٢٠٩.

(٣) الديوانين، ص ١٦٥.

(٤) نفس المصدر، ص ١١٤.

دار لها شبه ملبسة      تدع الصحيح العقل سكرانا<sup>(١)</sup>  
وقوله:

سكرت بإمرة السلطان جدا      فلم تعرف عدوك من صديقك  
رويدك في طريق سرت فيها      فإن الحادثات على طريقك<sup>(٢)</sup>  
ويشبه أن يكون مراده بهذا الشعر أصدقاءه الذين سلف وصفه إياهم  
بمثل هذه الأخلاق كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف ويحيى بن خاقان.

\* \* \*

### النوع الثاني في مواعظه العامة

لأبي العتاهية في المجتمع الذي يعيش فيه رأي ينسب عنه ما رواه  
محمد بن أبي العتاهية من أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع  
الناس فذكره الرشيد فعرف خبره فقال: قولوا له: صرت زير نساء وحلس  
بيت. فكتب إليه أبو العتاهية:

برمت بالناس وأخلاقهم      فصرت أستاذس بالوحدة  
ما أكثر الناس لعمري وما      أقلهم في منتهى العدة<sup>(٣)</sup>  
وظاهر أنه الحبس الثاني لامتناعه عن الغزل بعد يأسه من عتبة لما قرن به  
البيتين من الأبيات التي منها:

عاد لي من ذكرها نصب      فدموع العين تنسكب  
وقد سبقت؛ ولا ينبغي أن تعد هذه العزلة من ذات نفس أبي العتاهية  
دون باعث خارجي فقد وصف رأيه فيها بقوله:

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٥٦.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٨.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٣، ١٣٩؛ والديوان، ص ٨٠.

وحدة الإنسان خير من جليس السوء عنده  
وجليس الخير خير من جلوس المرء وحده  
وأبو العتاهية وإن كان يقول:  
خبرت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير ختال وقالي<sup>(١)</sup>  
ويقول:

طلبت أخاً في الله في الشرق والغرب  
فأعوزني هذا على كثرة الخلق  
فصرت وحيداً بينهم متصبراً  
على الغدر منهم والملاة والمذق  
أرى من بها يقضي علي نفسه ولم أر من يرعى علي ولا يبقي  
وكم من أخ قد ذقته ذا بشاشة إذا ساغ في عيني يغص به حلقي  
ولم أر كالدينيا وكشفي لأهلها  
فما انكشفوا لي عن وفاء ولا صدق  
ولم أر أمراً واحداً من أمورها أعز ولا أعلى من الصبر للحق<sup>(٢)</sup>  
وهو وإن كان يرمي هذا المجتمع حيناً بالمنع أو كفر المعروف كقوله:  
فتشت ذي الدنيا فليس بها أحد أراه لآخر حامد  
حتى كأن الناس كلهمو قد أفرغوا في قالب واحد<sup>(٣)</sup>  
والبخل الشامل في قوله:  
اضرب بطرفك حيث شئت فلن ترى إلا بخيلاً<sup>(٤)</sup>

---

(١) الديوانين، ص ٢٠٧.

(٢) الديوانين، ص ١٧١.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٧.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٧.

وبانتهاك المحارم والركون إلى الدنيا في قوله :  
عشقنا من اللذات كل محرم      فأفّ علينا ما أغرّ وأجهلا  
ركنا إلى الدنيا فطال ركوتنا      ولسنا نرى الدنيا على ذاك منزلا  
لقد كان أقوام من الناس قبلنا      يعافون منهن الحلال المحللا<sup>(١)</sup>  
وبالغفلة والبغي واتباع الهوى في قوله :

فما لي أرى الناس في غفلة      كأن قلوبهمو سامده  
شروا برضا الله دنياهمو      وقد علموا أنها بائده  
إذا أصبحوا أصبحوا كالأسو      د باتت مجوعة حارده  
يطيعون في الحيّ أهواءهم      وقد زعموا أنها راشده  
ترى صوراً تعجب الناظرين      من ومخبرة تحتها فاسده<sup>(٢)</sup>  
وبالتواصل على الدنيا وجمع المال من كل سبيل في قوله :

من رجونا لديه دنيا وصلنا      ه وقلنا له عليك السلام  
لا نبالي أمن حرام جمعنا      أم حلال ولا يحل الحرام  
همّنا اللهو والتكاثر في الما      ل وهذا البناء والخدام<sup>(٣)</sup>  
وقوله :

ما أذل المقل في أعين النا      س لإقلاله وما أقماه  
إنما تنظر العيون من النا      س إلى من ترجوه وتخشاه<sup>(٤)</sup>  
وبالكبر والجبروت في قوله :

واعلم بأن زماننا      سطواته مثل الأسنه  
صار التواضع بدعة      فيه وصار الكبر سنه<sup>(٥)</sup>

---

(١) الديوانين، ص ٢١٢ .

(٢) الديوانين، ص ٨٩ .

(٣) الديوانين، ص ٢٣٩ .

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٧ .

(٥) الديوانين، ص ٢٨٠ .

وبمآدم كثيرة، منها الظلم واللؤم والشماتة والحسد والبخل وكفر المعروف  
في قوله :

|                                     |                              |
|-------------------------------------|------------------------------|
| وإن أنا لم أنصفهم ظلموني            | فياربَّ إن الناس لا ينصفونني |
| وإن جئت أبغي سبيهم منعوني           | وإن كان لي شيء تصدوا لأخذه   |
| وإن أنا لم أبذل لهم شتموني          | وإن نالهم رفدي فلا شكر عندهم |
| وإن نزلت بي شدة خذلوني              | وإن وجدوا عندي رخاء تقربوا   |
| وإن صحبتني نعمة حسدوني              | وإن طرقتني نكبة فكهوا بها    |
| وأحجب عنهم ناظري وجفوني             | سأمنع قلبي أن يحن إليهمو     |
| أزجي به عمري ويوم حزون              | وأقطع أيامي بيوم سهولة       |
| وما نلت في عفة وسكون <sup>(١)</sup> | إلا إن أصفى العيش ما طاب غبه |

ونحو ما سبق، قوله وقد يكون خاصاً بوقت الفتنة :

يا بؤس للناس ما دهاهم صاروا وما ينكرون منكر<sup>(٢)</sup>  
وقوله :

فسد الناس جميعاً فأمسى خيرهم من كف عنا أذاه<sup>(٣)</sup>

فليس في كل هذا إسراف من أبي العتاهية إذا قرناه بما سبق في وصف  
الحالة الاجتماعية عن سفيان الثوري، وقد يخص أقواماً كالذين وصفهم القاضي  
أبو يوسف هناك بأكل أموال الأرامل والأيتام كقوله :

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| عجباً لأرباب العقول | والحرص في طلب الفضول |
| سلا بأكسية الأرا    | مل واليتامى والكهول  |
| والجامعين المكثري   | ن من الخيانة والغلول |

(١) الديوانين، ص ٢٥٥.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٨.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٨٧.

والمؤثرين لدار رحـ      لثهم على دار الحلول  
 وضعوا عقولهم من الـ      لدنيا بمدرجة السيول  
 وتتبعوا جمع الحطا      م وفارقوا سنن العقول  
 ولقد رأوا غيلان ريـ      ب الدهر غولاً بعد غول<sup>(١)</sup>

وقد يعتمد إلى أولي الناس بالزهد كقوله:

أيا عجباً للناس في طول ما سهوا

وفي طول ما اغتروا وفي طول ما لهوا

يقولون نرجو الله ثم افتروا به      ولوانهم يرجون خافوا كما رجوا  
 تصابي رجال من كهول وجلة      إلى اللهو حتى لا يبالون ما أتوا  
 فيا سواة للشيب إذ صار أهله      إذا هيّجتهم للصبا صبوة صبوا<sup>(٢)</sup>

وقد يميز قبيلاً عن قبيل كقوله:

ذكرت أهل القبور من ثقتي      فأنهل دمعِي كوابل المطر  
 فقل لأهل القبور من ثقة      لست بنا سيكم مدى عمري<sup>(٣)</sup>

ويخص من تأخر بالذم كقوله:

لله در أبيك أي زمان      أصبحت فيه وأي أهل زمان  
 كل يوازنك المودة دائباً      يعطي ويأخذ منك بالميزان  
 فإذا رأى رجحان حبة خردل      مالت مودّته مع الرجحان<sup>(٤)</sup>

وقوله:

أحمد الله كيف قد فسد النا      س وقل الوفاء في الإخوان

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٩٦، ص ٢٩٧.

(٣) الديوانين، ص ٢٩٤.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٨٢.

وقد يتوقع لهم سنن الله في أمثالهم فيقول:  
 المنايا تجوس كل البلاد      والمنايا تبید كل العباد  
 لتنالن من قرون أراها      مثلما نلن من ثمود وعاد<sup>(١)</sup>  
 وقد يحمد الله على السلامة من هذه الأحوال فيقول:  
 لك الحمد يا ذا المن شكراً خلقتنا  
 فسويتنا فيمن خلقت وسويتنا  
 وكم من بلایا نازلات بغيرنا      فسلمتنا يا رب منها وعافيتنا<sup>(٢)</sup>  
 فإنه يجمع إلى هذا حين نزلت الكارثة في بغداد في حرب الأمين والمأمون  
 دعوة الإمام إلى كشف مصابهم وتفريج كربهم بمثل قوله:  
 من مبلغ عني الإمام      م نصائحاً متواليه  
 إنني أرى الأسعار أس      عار الرعية غاليه  
 القصيدة. وما يناسب هذه الحال دعوته إلى الرحمة في قوله:  
 ارحم الناس جميعاً      فهم أبناء جنسك  
 ابغ للناس من الخير      ر كما تبغي لنفسك<sup>(٣)</sup>  
 ودعوته إلى المواساة في قوله:  
 أخي قد أبى بخلي وبخلك أن يرى  
 لذي فاقة مني ومنك مواسيا  
 كلانا بطين، جنبه ظاهر الكسا  
 وفي الناس من يمسي ويصبح عارياً<sup>(٤)</sup>

(١) نفس المصدر، ص ٧٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٦.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٠٠.

وقد يتندب لمضادة شيخ الماجنين أبي نواس كالذي رواه الخطيب من قوله له :

لا ترقدن لعينك السهر      وانظر إلى ما تصنع الغير  
انظر إلى عبر مصرفة      إن كان تنفع عينك النظر  
وإذا سألت فلم تجد أحداً      فسل الزمان فعنده الخبر  
أنت الذي لا شيء تملكه      وأحق منك بمالك القدر

قال راويه: فقال أبو نواس: «أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون»<sup>(١)</sup>. وروى أبو الفرج أنه جلس يوماً يعذل أبا نواس ويلومه في استماع الغناء ومجالسته لأصحابه فقال له :

أتراني يا عتاهي      تاركاً تلك الملاهي  
أتراني مفسداً بال      نسك عند القوم جاهي

فوثب أبو العتاهية وقال: لا بارك الله عليك. وجعل أبو نواس يضحك<sup>(٢)</sup>، ونحوه في سرح العيون لابن نباتة<sup>(٣)</sup>. وقد أسلفت أن من الزندقة المزدكية أو المانوية المجترئة على المعاصي، مثل قول أبي نواس الذي اغتر به ابن خلكان:

تكثر ما استطعت من الخطايا      فإنك بالغ ربا غفورا  
ستبصر إن وردت عليه عفواً      وتلقى سيداً ملكاً كبيراً  
تعصّ ندامة كفيك مما      تركت مخافة النار السرورا  
فمن مضادة هذه الدعوة الإباحية قول أبي العتاهية:

فيا حزن المسيء لشؤم ذنب      وبعد الحزن يكفيه حماه  
فيندب حسرة من بعد موت      ويبكي حيث لا يجدي بكاه  
يعض اليد من ندم وحزن      ويندب حسرة ما قد عراه

(١) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٩.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٠.

(٣) سرح العيون، ص ٢١٨.



فبادر بالصلاح وأنت حي لعلك أن تنال به رضاه<sup>(١)</sup>  
ومن مضادة الزنادقة الملاحدة قوله:  
والخير موعده الجنا ن وظلها ورحيقها  
والشر موعده لظى وزفيرها وشهيقها<sup>(٢)</sup>  
وقوله في إنجاز وعد الله للناجين والهالكين:  
ولا تحسبن الله يخلف وعده بما كان أوصى المرسلين وأرسلا  
هو الموت يا ابن الموت والبعث بعده  
فمن بين مبعوث مخفا ومثقلا  
ومن بين مسحوب على حرّ وجهه  
ومن بين من يأتي أغرّ محجلا<sup>(٣)</sup>  
وقوله في وصف أحوال القيامة وأهوالها:  
الله يوم تقشعر جلودهم وتشيب منه ذوائب الأطفال  
يوم النوازل والزلازل والحوامل فيه إذ يقذفن بالأحمال  
يوم التغابن والتباين والتنازل والأمور عظيمة الأهوال  
يوم ينادى فيه كل مضلل بمقطعات النار والأغلال  
للمتقين هناك نزل كرامة علت الوجوه بنضرة وجمال  
زمر أضاءت للحساب وجوهها فلها بريق عندها وتلالي  
وسوابق غر محجلة جرت خمص البطون، خفيفة الأثقال  
من كل أشعث كان أغبر ناحلاً خلق الرداء مرقع السربال  
نزلوا بأكرم سيد فأظلمهم في دار ملك جلالة وظلال<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، ص ١٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٢١٢.

(٤) الديوانين، ص ١٩٦.

وقوله في الترغيب والترهيب:

أبشربعون الله إن تك محسناً      فالمرء يحسن طرفه فيعان  
ويح ابن آدم كيف تسكن نفسه      وله يوم حسابه استيقان  
يوم انشقاق الأرض عن أهل البلى  
فيها ويبدو السخط والرضوان  
يوم القيامة يوم يظلم فيه ظلـ      هم الظالمين ويشرق الإحسان<sup>(١)</sup>

□ □ □

---

(١) الديوان المخطوط.

في  
حكمته ومذاهبها في شعره

الحكمة:

تدور معاني هذه المادة حول المنع والامتناع، فيقال: حكم الفرس وأحكمها: وضع عليها الحكمة - كقصبة - وهي ما يأخذ بفم الدابة وأنفها من اللجام، سميت بذلك لأنها تمنعها من كثير من الجهل، كما يرى ابن منظور، والفرس محكومة ومحكمة، وفي الأساس: ومنه الحكمة، لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال. ويقال: الصمت حكم، أي حكمة، وحكم الرجل مثل حلم، أي صار حكيماً. وأحكمته التجارب: جعلته حكيماً. ومن المجاز: حكمت السفينة تحكيماً وأحكمته احكاماً: إذا أخذت على يده أو بصرته ما هو عليه. قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم ان أغضبا

وينبغي أن يعد من المجاز أيضاً ما ذكره من أحكام التجارب لأنه على تشبيه وعظ التجارب للإنسان بما سلف من المنع المحسوس، وفي اللسان: وأحكمته التجارب على المثل. وقصيدة حكيمة: ذات حكمة. قال، والقاتل كما في اللسان، الأعشى:

وقصيدة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

وفي اللسان والقاموس وكتب التفسير معان كثيرة للحكمة ينبغي أن تعد

من المجاز، كالعلم والفقه والسنة والصحة لمنعها من الجهل والشر والفساد، ومنها الإصابة والاتقان، لمنعها من الخطأ والاضطراب. وفي اللسان عن ابن عباس في نوع من العضل، فأحكم الله عن ذلك ونهى عنه، أي منع. وفي الكشف أن التوحيد هو رأس كل حكمة لقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ لأن أول المشار إليه هو قوله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾<sup>(١)</sup>، والناظر في المشار إليه من هذه الآيات يجد أن الحكمة أمر جامع للتوحيد والبر والإحسان والتوسط والتوكل والتعفف والعدل والوفاء والورع والتواضع، وغيرها من كريم السمائل والخصال. والناظر أيضاً في قوله تعالى ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله...﴾ (الآيات) يجد أنها جمعت إلى ما فسرته به من الشكر بعض معاني آيات الإسراء الآتفة، والثناء على الله، والأمر بالصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر والقصد في المشي، وغض الصوت وغير ذلك، فالحكمة إذن معنى جامع للتخلي بخلال الصلاح والخير، والتخلي عن خلال الفساد والشر، والحكيم أمر بمثل ما تحلى به ناه عن مثل ما تخلى عنه منها. وقد عقل أبو العتاهية الحكمة على هذا الوصف الجامع للعمل والدعوة، فقال:

وكيف تريد أن تدعى حكيماً وأنت لكل ما تهوى ركوب<sup>(٢)</sup>

وقال:

سميت نفسك بالكلام حكيماً ولقد أراك على القبيح مقيماً<sup>(٣)</sup>

والحكم القولية المشتهرة تسمى أمثالاً لما رواه الميداني من أن الحكم القائم صدقها في العقول تسمى أمثالاً لانتصاب صورها في العقول، مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب<sup>(٤)</sup>، وفي النهاية، نحوه: قال في معنى الحديث: (إن من الشعر

(١) الكشف، ج ٢ ص ٣٦١.

(٢) الديوان، ص ١٧.

(٣) الديوان، ص ٢٣٩.

(٤) مجمع الأمثال للميداني، ص ٩.

(الحكماء)، أي أن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما. قيل، أراد به<sup>(١)</sup> المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس، ثم قال: ويروى (إن من الشعر لحكمة) وهو بمعنى الحكم وهو الوجه في تسمية حكم سليمان، عليه السلام، أمثالاً. وفي الحديث عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: (كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إني<sup>(٢)</sup> لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من كافر)<sup>(٣)</sup>. وسيأتي إن شاء الله في باب المعاني بعض ما ورد في الحديث من الأمثال. وما الظاهر فيه إطلاق المثل على الحكمة قول يزيد بن الحكم:

يا بدر والأمثال يضـ      ربهـا لذي العقل الحكيم  
دم للخليل بوده      ما خير ود لا يدوم<sup>(٤)</sup>  
وهو ظاهر قول أبي العتاهية:  
كم من ضعيف العقل زين عقله      ما قدر عى ووعى من الأمثال<sup>(٥)</sup>  
وظاهر مراده من تسميته مزدوجته الآتية ذات الأمثال<sup>(٦)</sup>.

### صلة الحكمة بالزهد والتزهيد:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم الرجل أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلحن الحكمة»<sup>(٧)</sup>. ونحوه، لمشابهة الإخلاص للزهد لاجتماعهما على قطع العلائق والتخلي عن الشواغل، قوله، صلى الله عليه

(١) في الأصل: بها.

(٢) في الأصل: فإني.

(٣) الحلية، ج ١ ص ١٦٧، ١٦٨.

(٤) حاسة البحري، ص ٩٥.

(٥) الديوانين، ص ٢٠١.

(٦) التسمية من الأغاني، ج ٣ ص ١٣٨.

(٧) سنن ابن ماجه، ص ٣١١.

وسلم: «من أخلص لله تعالى أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه»<sup>(١)</sup>. وعن سفيان الثوري، رضي الله عنه: «إذا زهد العبد في الدنيا أنبت الله الحكمة في قلبه وأطلق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا وداءها ودواءها»<sup>(٢)</sup>. فالزهد إذن هو معدن الحكمة الدينية وأصلها الذي تتفرع عنه ومآلها الذي تؤول إليه، وهذا هو منشأ اختلاط الأشعار الزهدية بهذا النوع من الأشعار الحكمية عند الأدباء وعسر التمييز بينهما لأن الزهد أصله الأول؛ والحق أن الحكمة يمكن اتساعها لأشعار الزهد لأن الغالب على التزهيد: النهي عما تمنع عنه الحكمة من السفه والجهل مع ما تتضمن الحكمة من الإصابة والإتقان، ولهذا جعله بعض المدحجين لأغراض الشعر - إذ جعلها أربعة: المديح والهجاء والحكمة واللهو - قسماً من أقسام الحكمة<sup>(٣)</sup>، إلا أن أحداً من النقاد لم يبين لنا خصائص هذا القسم المفردة له عن سائر الحكمة، فلا مناص لنا حين نتعرض لوصفها أن نأخذ بالمتبادر من معنيهما لغة، فما كان المتبادر منه ذم الدنيا والصرف عنها والترغيب في الآخرة والدعوة إليها، فهو من التزهيد، وما كان في الحض على سائر المكارم والمآثر أو في الثناء على الله جل شأنه، أو ذكر لمآثر محمد، صلى الله عليه وسلم، أو أمراً بما أمر به الله من المعروف أو نهياً عما نهى عنه من المنكر، فليس من التزهيد، بل هو من الحكمة المجردة. ومن فصل بين النوعين المرحوم محمود سامي باشا البارودي في مختاراته، إلا أنه سمي الحكمة أدباً وهو غير أجنبي عنها لاجتماعهما على النهي عن المقابح والدعوة إلى المحاسن، والظاهر أنه يحتذي على حماسة أبي تمام، لأن أول أبوابها باب الأدب، وقد يختلط عليه الأمران لدقة الفروق كقوله في باب الأدب، وهو لأبي العتاهية:

متى تمسي وتصبح مستريحاً      وأنت الدهر لا ترضى بحال  
وقد يجري قليل المال مجرى      كثير المال في سد الخلال

(١) الحلية، ج ٥ ص ١٨٩.

(٢) الحلية، ج ٦ ص ٣٨٧.

(٣) العمدة، ج ١ ص ٧٨.

إذا كان القليل يسد فقري      ولم أجد الكثير فلا أبالي<sup>(١)</sup>  
وقوله، وهوله أيضاً:

الحرص داء قد أضر      ر بمن ترى إلا قليلا  
كم من عزيز قد رأيت      ت الحرص صيره ذليلا  
فتجنب الشهوات واحداً      ز أن تكون لها قتيلا  
فلرب شهوة ساعة      قد أورثت حزناً طويلا<sup>(٢)</sup>  
وكالذي أورده في باب الزهد من قول أبي العتاهية:

يا رب أنت خلقتني      وخلقت لي وخلقت مني  
سبحانك اللهم عا      لم كل غيب مستكن  
ما لي بشكرك طاقة      يا سيدي إن لم تعني<sup>(٣)</sup>  
وقوله:

ألا إننا كلنا بائد      وأي بني آدم خالد  
وبدؤهم كان من ربهم      وكل إلى ربه عائد  
فيا عجباً كيف يعصي الإلـه      ه أم كيف يجحده الجاحد  
ولله في كل تحريكة      وفي كل تسكينة شاهد  
وفي كل شيء له آية      تدل على أنه الواحد<sup>(٤)</sup>

وصنيع الرافعي، رحمه الله، على إدماج الزهديات في الشعر الحكمي،  
وقد عد من شعراء هذا النوع شاعري الزهد والحكمة المشهورين في الجاهلية  
عدي بن زيد العبادي وأمّية بن أبي الصلت الثقفي. وقد سلف في مساجلة ابن  
الأنباري وابن المعتز عد هذا لهما بأنها أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ، وألحق بهما  
من ليس مذكوراً بالشعر ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل لتناشدهما

(١) مختارات البارودي، ج ١ ص ١٤.

(٢) المختارات، ج ١ ص ١٣.

(٣) المختارات، ج ٤ ص ٤٥٦.

(٤) نفس المصدر، ص ٤٦٢.

أشعاراً في التوحيد وعبادة الله، وقس بن ساعدة الإيادي الحكيم الخطيب قال: وكان مذهبه الوعظ والاعتبار<sup>(١)</sup>. وسيأتي تحقيق القول فيمن هو أحق بوصف التزهيد أو وصف الحكمة من هؤلاء في الخاتمة إن شاء الله، ولم يكن من الخير إفراده، رحمه الله، للشعر الأخلاقي عن الشعر الحكمي<sup>(٢)</sup>. وما سلف من صنيع أصحاب المفصل وغيرهم ممن سلف الكلام عليهم في أسباب قول أبي العتاهية في الزهد بجمع حكمياته وزهدياته تحت اسم واحد هو الثاني، وكذلك جامع الديوان المطبوع وهو محتمل بالحمل على التغليب أو الاكتفاء، أولاً لأن مرجع النوعين إلى الزهد. ومما جمع بين الزهد والحكمة أرجوزة أبي العتاهية المشهورة كما قال ابن عبد البر بذات الأمثال<sup>(٣)</sup>. وقال صاحب الأغاني: وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله:

|                          |                             |
|--------------------------|-----------------------------|
| حسبك مما تبغيه القوت     | ما أكثر القوت لمن يموت      |
| الفقر فيما جاوز الكفافا  | من اتقى الله رجا وخافا      |
| هي المقادير فلمني أو فذر | إن كنت أخطأت فما أخطا القدر |
| لكل ما يؤذي وإن قل ألم   | ما أطول الليل على من لم ينم |
| ما انتفع المرء بمثل عقله | وخير ذخر المرء حسن فعله     |
| إن الفساد ضده الصلاح     | ورب جد جره المزاح           |
| من جعل المنام عيناً هلكا | مبلغك الشر كباغيه لكا       |
| إن الشباب والفراغ والجده | مفسدة للمرء أي مفسده        |
| يغنيك عن كل قبيح تركه    | يرتهن الرأي الأصيل شكه      |
| ما عيش من آفته بقاؤه     | نغص عيشاً كله فناؤه         |
| يا رب من أسخطنا بجهد     | قد سرنا الله بغير حمده      |

(١) تاريخ آداب العرب، ج ٣ ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٦.

(٣) الديوان المخطوط.



ما تطلع الشمس ولا تغيب      إلا لأمر شأنه عجيب  
 لكل شيء معدن وجوهر      وأوسط وأصغر وأكبر  
 من لك بالمحض وكل ممتزج      وساوس في الصدر منه تعتلج  
 وكل شيء لاحق بجوهره      أصغره متصل بأكبـره  
 ما زالت الدنيا لنا دار أذى      ممزوجة الصفو بألوان القذى  
 الخير والشر بها أزواج      لذا نتاج ولذا نتاج  
 من لك بالمحض وليس محض      يخبث بعض ويطيب بعض  
 لكل إنسان طبيعتان      خير وشر وهما ضدان  
 إنك لو تستنشق الشحيحة      وجدته أنتن شيء ريحا  
 والخير والشر إذا ما عدا      بينهما بون بعيد جدا  
 عجبت حتى غمني السكوت      صرت كأني حائر مبهور  
 كذا قضى الله فكيف أصنع      الصمت إن ضاق الكلام أوسع  
 قال أبو الفرج: وهي طويلة جداً، وإنما ذكرت هذا القدر منها حسب  
 ما استاق الكلام من صفتها. وروى له قبل ذلك منها:

يا للشباب المرح التصابي      روائح الجنة في الشباب<sup>(١)</sup>  
 وأوردها ابن عبد البر ببعض زيادة على ما سلف منها ولم يذكر في  
 المطبوع<sup>(٢)</sup> قوله:

الله حسبي في جميع أمري      به غناي وإليه فقري<sup>(٣)</sup>  
 ومن جوامع الزهد والحكمة قول أبي العتاهية في الحض على البذل:  
 خير سبيل المال تفريقه      في طاعة الله وتمزيقه<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) انظر الديوان المطبوع من ص ٣٤٦ إلى ٣٤٨.

(٣) الديوان المخطوط.

(٤) الديوانين، ص ١٧٥.

وعليه وعلى العفاف قوله:

المرء منظور إليه      ما دام يرجى ما لديه  
من كنت تبغي أن تكو      ن الدهر ذا فضل عليه  
فابذل له ما في يدي      لك وغض عما في يديه  
وقوله:

إذا ما سألت المرء هنت عليه      يراك حقيراً من رغبت إليه<sup>(١)</sup>  
فلا تسألن المرء إلا ضرورة      ووفر عليه كل ذات يديه  
ومن جاء يبغى ما لديك فأرضه      بجهدك واترك ما يكون لديه  
وقوله:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله      عوضاً ولو نال الغنى بسؤال  
قست السؤال فكان أعظم قيمة      من كل عارفة جرت بنوال  
فإذا ابتليت ببذل وجهه سائلاً      فابذله للمتكرم المفضل<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

وابغ ما اسطعت عن الناس الغنى

فمن احتاج إلى الناس ضرع<sup>(٣)</sup>

وقوله في الحض على التواضع والإيثار:

إذا اصطحب الأقوام كان أذلهم      لأصحابه نفساً أبر وأفضلاً  
وما الفضل في أن يؤثر المرء نفسه

ولكن فضل المرء أن يتفضلاً<sup>(٤)</sup>

(١) نفس المصدر، ص ٢٨٥.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٧، ٢٠١؛ والأغاني، ج ٣ ص ١٢٨.

(٣) الديوانين، ص ١٥١.

(٤) نفس المصدر، ص ٢١٢.

## مذاهبه الحكمية:

قال في الحظ على الورع والمساحة وكف الأذى:

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا  
سليم دواعي النفس لا باسطاً يداً ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجراً  
إذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن أنت مرتاداً لزلته عذرا

وعلى الصبر والرفق والصدق واختيار الإخوان وغير ذلك:

ما أكرم الصبر وما أحسن الصـ صدق وما أزينه بالفتى  
الخرق شؤم والتقى جنة والرفق يمن والقنوع الغنى  
نافس إذا نافست في حكمة أخ إذا آخيت أهل التقى  
ما خير من لا يرتجى نفعه يوماً ولا يؤمن منه الأذى<sup>(١)</sup>

وفي النهي عن الغيبة والنميمة:

إياك والغيبة والنميمة فإنها منزلة ذميمة<sup>(٢)</sup>

وفيما يجمل من الكلام والصمت:

الصمت أجمل بالفتى من منطلق في غير حينه  
لا خير في حشو الكلام م إذا اهتديت إلى عيونه<sup>(٣)</sup>

وفي حب الخير للناس والصمت والحلم وغيرها:

إكره لنفسك ما لغيرك تكره وافعل بنفسك فعل من يتنزه  
وادفع بصمتك عنك خاطرة الخنا حذر الجواب فإنه بك أشبه  
وكل السفه إلى السفاهة وانتصف

بالحلم أو بالصمت ممن يسفه

(١) الديوانين، ص ٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٤٨.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٨٢؛ والأول في البيان، ج ١ ص ١٧٠.

ودع الفكاهة بالمزاح فإنه يردى ويسخف من به يتفكه  
والصمت للمرء الحليم وقاية ينفي بها عن عرضه ما يكره<sup>(١)</sup>  
وفي الثبوت والتوسط في الأمور:  
إذا ما الشيء فات فسر عنه ولا تشهد بما لم تستبته  
توسط كل رأي أنت فيه وخذ بمجامع الطرفين منه<sup>(٢)</sup>  
وفي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والتحلي ببعض المكارم، كالرحمة وحسن  
الجوار وغيرها:

أقم الصلاة لوقتها بطهورها ومن الضلال تفاوت الميقات  
وإذا اتسعت برزق ربك فاجعلن منه الأجل لأوجه الصدقات  
في الأقربين وفي الأبعد تارة إن الزكاة قرينة الصلوات  
وارع الجوار لأهله متبرعاً بقضاء ما طلبوا من الحاجات  
واخفض جناحك إن رزقت تسلطاً

وارغب بنفسك عن هن وهنات<sup>(٣)</sup>

وفي طاعة الله:

أطع الله بجهدك راغباً أو دون جهدك  
أعط مولاك كما تط لب من طاعة عبدك<sup>(٤)</sup>

وفي مراقبته:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى ولا أن ما يخفى عليه يغيب<sup>(٥)</sup>

(١) نفس المصدر، ص ٢٨٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٣.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٣؛ ورواية المطبوع مكان عن هن وهنات عن ردى اللذات.

(٤) نفس المصدر، ص ٨٦ بتصحيح من المخطوط.

(٥) الديوان المطبوع، ص ١٥، ١٦.

وفي اليقظة لأمره:

لوبذلت النصيح الصحيح لنفسي      لم تذق مقلتاي طعم الرقاد  
لوبذلت النصيح الصحيح لنفسي      همت أخرى الزمان في كل واد  
يا طويل الرقاد لو كنت تدري      كنت ميت الرقاد حي السهاد<sup>(١)</sup>

وفي الثقة به:

الله في كل حادث ثقتي      والله عزري والله مفتخري  
لست مع الله خائفاً أحداً      حسبي به عصمة من الأشر<sup>(٢)</sup>

وفي رجائه وخوفه:

لم يعتصم بالله من خلقه      من ليس يرجوه ويخشاه<sup>(٣)</sup>

وفي التوكل عليه والرضا بقضائه:

لعمر أبي لو أنني أتفكر      رضيت بما يقضى عليّ ويقدر  
توكل على الرحمن في كل حاجة      أردت فإن الله يقضي ويقدر<sup>(٤)</sup>

وفي الغنى بالله عما سواه:

أيها المستغيث حسبك الله مغيث الأنام من مستغاث  
فلعمري لرب يوم قنوط      قد أتى الله بعده بالغيث<sup>(٥)</sup>

وقال في الغنى بالله والرحمة بالناس وإنصافهم، واطراح الحقد والعفو عن  
الزلات والهفوات، ومكافأة الإحسان والمداراة والصلة وغير ذلك:

الله كاف فما لي دونه كافي

على اعتدائي على نفسي وإسرافي

---

(١) الديوانين، ص ٧٧.

(٢) الديوانين، ص ٩٥.

(٣) نفس المصدر، ص ١٢.

(٤) نفس المصدر، ص ١٠٢.

(٥) نفس المصدر، ص ٦٠.

أخيّ عندي من الأيام تجربة      فيما أظن وعلم بارع شافي  
لا تمس في الناس إلا رحمة لهم      ولا تعاملهم إلا بإنصاف  
واقطع قوى كل حقد أنت مضمرة      إن زل ذو زلة أو إن هفا هافي  
وارغب بنفسك عما لا صلاح له      وأوسع الناس من بر وإلطف  
وإن يكن أحد أولاك صالحة      فكافه فوق ما أولى بأضعاف  
ولا تكشف مسيئاً عن إساءته

وصل حبال أخيك القاطع الجافي  
فتستحق من الدنيا سلامتها      وتستقل بعرض وافر وافي  
ما أحسن الشغل في تدبير منفعة

أهل الفراغ ذوو خوض وإرجاف<sup>(١)</sup>

وفي أن الدين حياة لأهله:

من الناس ميت وهو حي بذكره      وحي سليم وهو في الناس ميت  
فأما الذي قد مات والذكر ناشر      فميت له دين به الفضل ينعت  
وأما الذي يمشي وقد مات ذكره      فأحرق أفنى دينه وهو أموت<sup>(٢)</sup>

وفي توحيد الله وحمده والثناء عليه بما هو أهله، قوله:

لك الحمد يا ذا العرش يا خير معبود

ويا خير مسؤول ويا خير محمود

شهدنا لك اللهم أن لست والداً      ولكنك المولى ولست بمولود<sup>(٣)</sup>

وأنت معروف ولست بموصوف      وأنت موجود ولست بمحدد

وأنت رب لا تزال ولم تزل      قريباً بعيداً غائباً غير مفقود<sup>(٤)</sup>

(١) الديوانين المخطوط والمطبوع، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٠.

(٣) الديوان المخطوط وهو مبطل في المطبوع، ص ٧٠.

(٤) الديوانين، ص ٧٠.

وقوله :

|                            |                                         |
|----------------------------|-----------------------------------------|
| الحمد لله لا شريك له       | حاشا له أن يكون مشتركا                  |
| الحمد للمخالق الذي حرك الـ | ساكن منا وسكن الحركا                    |
| وقامت الأرض والسماء به     | وما دحا منهما وما سمكا                  |
| وقلب الليل والنهار وصـ     | ب الرزق صباً ودبر الفلكا <sup>(١)</sup> |

وقوله :

|                       |                                      |
|-----------------------|--------------------------------------|
| سبحان من ألهمني حمده  | ومن هو الأول والآخر                  |
| ومن هو الدائم في ملكه | ومن هو الباطن والظاهر <sup>(٢)</sup> |

وقوله، وضمنه الرجاء :

|                       |                                    |
|-----------------------|------------------------------------|
| يا رب أرجوك لا سواكا  | ولم يخب سعي من رجاكا               |
| أنت الذي لم تزل خفياً | لم يبلغ الوهم متهاكا               |
| إن أنت لم تهدنا ضللنا | يا رب إن الهدى هداكا               |
| أحطت علماً بنا جميعاً | أنت ترانا ولا نراكا <sup>(٣)</sup> |

وقوله :

|                           |                                   |
|---------------------------|-----------------------------------|
| تعالى الواحد الصمد الجليل | وحاشا أن يكون له عدیل             |
| هو الملك العزيز وكل شيء   | سواه فهو منتقص ذلیل               |
| وما من مذهب إلا إليه      | وإن سبيله لهو السبیل              |
| وإن له لَمَنَّا ليس يحصى  | وإن عطاءه لهو الجزیل              |
| وكل مفوه أثنى عليه        | ليبلغه فمنحسر كلیل <sup>(٤)</sup> |

(١) الديوانين المخطوط وهي في المطبوع ما عدا الأول، ص ١٨١.

(٢) الديوانين، ص ١١٩.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨١، ١٨٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٠١، ٢٠٢.

وقوله، وضمنه حكمة الخلق والابتلاء:

أرى الناس في الدنيا معافى ومبتلى

وما زال حكم الله في الأرض مرسلًا

مضى في جميع الناس سابق علمه      وفصله من حيث شاء ووصلا

ولسنا على حلو القضاء ومره      نرى حكماً فينا من الله أعدلا

بلا خلقه بالخير والشر فتنة      ليرغب فيما في يديه ويسألا

ولم يبخ إلا أن ييؤ بفضلته      علينا وإلا أن نتوب فيقبلا

هو الأحد القيوم من بعد خلقه      وما زال في ديمومة الملك أولا

وما خلق الإنسان إلا لغاية

ولم يترك الإنسان في الأرض مهملاً<sup>(١)</sup>

وقوله:

وما نال عبد قط فضلاً بقوة      ولكنه من الإله وفضله

لنا خالق يعطي الذي هو أهله      ويعفو ولا يجزي بما نحن أهله

ألا كل شيء زال فالله بعده      كما كل شيء كان فالله قبله<sup>(٢)</sup>

وقوله:

والله أكرم من رجوت نواله      والله أعظم من ينيل نوالا

ملك تواضعت الملوك لعزه      وجلاله سبحانه وتعالى<sup>(٣)</sup>

وقوله، وضم إليه يمين الطاعة وبركتها:

والذي يملك الأمور جميعاً      ملك جل نوره المكنون

وسع الخلق قدرة فجميع الـ      خلق فيها محدد موزون

(١) الديوانين، ص ٢١١.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٣٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٢١٥.



كل شيء فقد أحاط به الله — وأحصاه علمه المخزون  
إن رأياً دعا لطاعة الله — لرأي مبارك ميمون<sup>(١)</sup>  
وقوله:

ما كل شيء كان أو هو كائن — إلا وقد جفت به الأقلام  
فالحمد لله الذي هو دائم — أبداً وليس لما سواه دوام  
والحمد لله الذي لجلاله — ولحلمه تتصاغر الأحلام  
والحمد لله الذي هو لم يزل — لا تستقل بعلمه الأنفهام  
سبحانه ملك تعالى جده — ولوجهه الإجلال والإكرام<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

سبحان من يعطي المنى بخواطر — في النفس لم ينطق بهن لسان  
سبحان من لا شيء يحجب علمه — فالسر أجمع عنده إعلان  
سبحان من هو لا يزال مسيحاً — أبداً وليس لغيره السبحان  
سبحان من تجري قضاياه على — ما شاء منها غائب وعيان  
سبحان من هو لا يزال ورزقه — للعالمين به عليه ضمان  
سبحان من في ذكره طرق الرضا — منه وفيه الروح والريحان  
ملك عزيز لا يفارق عزه — يعصى ويرجى عنده الغفران  
ملك هو الملك الذي من حلمه — لم تبل جده ملكه الأزمان  
يبلى لكل مسلط سلطانه — يعصى بحسن بلائه ويخان  
والله لا يبلى له سلطان<sup>(٣)</sup>

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٣) الديوانين، ص ٢٥٨.

وقوله:

سبحان من وسع العبا      د بعدله في حكمه  
وبعفوه وبعطفه      ويلطفه وبحلمه  
وجميع ما هو كائن      يجري بسابق علمه<sup>(١)</sup>  
وقوله، وضمنه الاستغفار:

يا رب إني لك في كل ما      قدرت عبد آمل شاكر  
فاغفر ذنوبي إنها جمة      واستر خطائي إنك الساتر<sup>(٢)</sup>  
وفي مديحه، صلى الله عليه وسلم، قال:

على رسول الله مني السلام      ما كان إلا رحمة للأنام  
أحيا به الله قلوباً كما      أحياموات الأرض صوب الغمام  
وأصبح الحق به قائماً      وأصبح الباطل دحض المقام  
كان رسول الله يدعو إلى      مدرجة الحق ودار السلام<sup>(٣)</sup>  
ومنه:

ومحمد لك إن سلكت سبيله      في كل خير قائد وإمام<sup>(٤)</sup>  
ومنه:

وأفضل هدي هدي سميت محمد      نبي تنقاه الإله لدينه  
عليه السلام كان في النصح رحمة      وفي بره بالعالمين ولينه  
إمام هدى ينجاب عن وجهه الدجى  
كأن الشرّياً علقت بجبينه

(١) نفس المصدر، ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٩، ١٢٠.

(٣) الديوان المخطوط.

(٤) الديوان المخطوط.

بحبل رسول الله أوثقت عصمتي وخيرته في خلقه وأمينه<sup>(١)</sup>  
ومنه :

سلام على قبر النبي محمد      نبي الهدى والمصطفى والمؤيد  
نبي هداانا الله بعد ضلالة      به لم نكن لولا هداه لنهتدي  
فكان رسول الله مفتاح رحمة      من الله أهداها لكل موحد  
وكان رسول الله أفضل من مشى      على الأرض إلا أنه لم يخلد  
شهدت على أن لا نبوة بعده      وأن ليس حي بعده بمخلد<sup>(٢)</sup>  
ومنه في ضمن الثناء على الله جل جلاله :

وهو الذي بعث النبي محمداً  
صلى الإله على النبي المصطفى  
وهو الذي أنجى وأنقذنا به  
بعد الضلال من الضلال إلى الهدى<sup>(٣)</sup>

ومنه في الثناء والنصيحة للمؤمنين :  
يا بني آدم صونوا دينكم      ينبغي للدين أن لا يطرح  
واحمدوا الله الذي أكرمكم      بنبي قام فيكم فنصح  
بنبي فتح الله به      كل خير نلتموه وشرح  
مرسل لو يوزن الناس به      في التقى والبر طاشوا ورجح  
فرسول الله أولى بالعلا      ورسول الله أولى بالمدح<sup>(٤)</sup>

□ □ □

(١) الديوان المخطوط .

(٢) الديوان المخطوط .

(٣) الديوان المخطوط وهو مبذل في المطبوع ، ص ٨ .

(٤) الديوان المخطوط وهي مبذلة في المطبوع ، صفحة ٦٧ ، ٦٨ .



في  
آرائه وآراء الناس فيه

وفيه فصول:

الفصل الأول: في مطاعن الطاعنين في زهده ودينه، وردّها.

الفصل الثاني: في آرائه الكلامية والفلسفية .

الفصل الثالث: في رأي أبي العتاهية في نفسه .



### توطئة:

لم تكن هذه المقاومة العنيفة التي قاوم بها أبو العتاهية هذا التيار الأعجمي الجارف بالأمر الهين اليسير، ولم يكن انتدابه لمواجهة كتائب الزنادقة في جميع مظاهرها المشتركة أو الملحدة أو الماجنة—مع عملها الدائب على إفساد العقائد والأخلاق واستعانتها على ذلك بنفوذها البالغ في السياسة والآداب—مما يمكن لهؤلاء الساعين في هدم أركان الدين أن يذعنوا إليه أو يقرؤا عليه. وكيف يهدأون أمام عشرين ألف بيت في الزهد ذات بلاغة آخذة بمجامع الشعور، نافذة إلى سويداوات القلوب، قريبة إلى الأفهام، حسنة في العقول، داعية إلى الإيمان الخالص والعمل الصالح والرغبة عن الدار الفانية إلى الدار الباقية، حاضرة على التحلي بمكارم الأخلاق وشريف الخصال؟ وهل يعجزهم وقد ملأوا الدنيا كذباً واختلاقاً أن يضعوا على هذا الخصم العنيد والعدو الألد مثلما وضعوا على من هم أولى منه بالرعاية والحفاظ كخلفاء بني العباس، كما وصفت قبل، وعلى أئمة الدين الأعلام من مثل الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه<sup>(١)</sup>، والإمام أبي الحسن الكسائي<sup>(٢)</sup>، أحد القراء السبعة وقاضي القضاة يحيى بن أكثم<sup>(٣)</sup>، رحمهما الله؟..

(١) انظر تاريخ بغداد، ج ١٣ من ص ٣٨٦ إلى ص ٤٢٣.

(٢) معجم الأدباء، لياقوت، ج ١٣ ص ١٩١.

(٣) تاريخ بغداد، ج ١٤ ص ١٩٥ وما بعدها؛ وانظر الدفاع بعدهما؛ وفي مقدمة ابن خلدون ص ١٩.

ولا أستحب أن أذيع في هذه الرسالة شيئاً من أكاذيب هؤلاء الطاعنين في أخلاق هؤلاء الأعلام، وما أظنهم في حاجة عند أحد إلى تبرئة أو دفاع. ولكني أريد أن أصور لك صنع زنادقة العصر وثلبهم لكل ذي فضل أو منزلة في الدين. وأن أعلن بذلك عن مقاصد هؤلاء الوضاعين إذ يرمون إلى النيل من هذا الدين بالنيل من أئمتهم أو محو آيته من قلوب اللاهين الغافلين. وكيف لا تنتهي إلى هذا الوصف الصادق لصنعهم الخبيث ومقصدهم الأثيم وقد رأينا قبل كيف وضعوا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، اثني عشر ألف حديث؟..

وقد كان من حيلهم لترويج ما يضعون من الأخبار أن يصنعوا لها أسانيد إلى من لا يتهم لصدقه أو لصلته الوثيقة بالموضوع عليه كأن يكون ابنه أو حفيده أو صديقه. وقد يصنعون للخبر الواحد عدة أسانيد مختلفة الرجال بعضاً أو كلاً مع تغير يسير في لفظ الخبر تأكيداً لهذا التمويه والتضليل وخدعاً لعقول الغافلين. وقد ساعد على رواج هذه الأخبار أداء طائفة من ذوي الجلالة في العلم بالأدب والأخبار لها في كتبهم كالخطيب البغدادي وأبي الفرج الأصفهاني والصولي وغيرهم من هؤلاء الذين لا يعنون إلا بالرواية والإسناد دون نظر في حقائق هذه الأخبار وما يكون منها وما لا يكون، مما جعلهم يجمعون من المستحيلات والمتناقضات ما تلفظه الأسماع وتمجه العقول؛ ولو أنهم ينقدون ما يكتبون لحذفوا شطره أو أكثره ولكان في سائرته خير كثير. وينبغي أن يضم إلى ما سبق من وضع الزنادقة وضع أصحاب المذاهب المختلفة بعضهم على بعض عصبية من كل أصحاب مذهب له وتكفيراً لمخالفهم، وهوداء قديم ساعد على ظهوره في هذا العصر ولوعهم بالجدل واستعانتهم بمختلف الفلسفات والمقالات.

\* \* \*



في

## مطاعن الطاعنين في زهده ودينه وردها

قال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»، وهو حكاية لما تتضمنه أخبار الطاعنين فيه: وكان يرمي بالزندقة. وحدثني شيخ من قدماء الكتاب أنه كان له ابتنان يقال لإحدهما لله وللأخرى بالله، قال: ورأيتَه يستعظم ذلك<sup>(١)</sup>. وقال أبو الفرج في ضمن رواية له: وكان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد<sup>(٢)</sup>. وقد أفصح عن قائل ذلك فقال: قال يحيى بن علي: حدثنا ابن مهرويه عن أبي عمر القرشي، قال: لما قص منصور بن عمار على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية: إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي. فبلغ قوله منصوراً فقال: أبو العتاهية زنديق، أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار وإنما يذكر الموت فقط؟ فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه:

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً | إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها |
| كالملبس الثوب من عري وخزيتَه  | للناس بادية ما إن يواريتها    |
| فأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه   | في كل نفس عماها عن مساوئها    |

(١) الشعر والشعراء، ص ٣٠٩.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٣.

عرفانها بعيوب الناس تبصرها

منهم ولا تبصر العيب الذي فيها<sup>(١)</sup>

وروى أيضاً ببعض طرقه أن أبا العتاهية قال: قرأت البارحة كذا ثم قلت قصيدة أحسن منه. قال: وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا<sup>(٢)</sup> وبطريق آخر أنه لما قال في عتبة:

كأن عتابة من حسنها دمية قس فتنت قسها

يا رب لو أنسيتنيها بما في جنة الفردوس لم أنسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة وقال: يتهاون بالجنة ويتبذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون. وشنع عليه أيضاً بقوله:

إن المليك رآك احسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وقال: أيصور الحور على مثال امرأة آدمية، والله لا يحتاج إلى مثال؟ وأوقع له هذا على السنة العامة فلقي منهم بلاء<sup>(٣)</sup>. وقال ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»: وما نسب فيه إلى الزندقة قوله وأشار إلى السماء: إذا ما استجزت الشك في كل ما ترى

فما لا تراه الدهر أمضى وأجوز

وروى الأبيات الآتفة<sup>(٤)</sup>. وروى الخطيب في «تاريخ بغداد» أن منصور بن عمار جلس بعض مجالسه فحمد الله وأثنى عليه وقال: إني أشهدكم أن أبا العتاهية زنديق. فبلغ ذلك أبا العتاهية فكتب إليه:

إن يوم الحساب يوم عسير ليس للظالمين فيه نصير

فاتخذ عدة لمطلع القبر وهو الصراط يا منصور

(١) نفس المصدر، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٧.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٥، ١٤٦.

(٤) الشعر والشعراء، ص ٣١٢، ٣١٣.

ووجه بها أبو العتاهية إلى منصور فندم على قوله وحمد الله وأثنى عليه وقال: أشهدكم أن أبا العتاهية قد اعترف بالبعث<sup>(١)</sup>، ومن اعترف بذلك فقد برىء مما قذف به<sup>(٢)</sup>. وروى أبو الفرج أيضاً أنه لما مات منصور بن عمار وقف على قبره وقال: يغفر الله لك أبا السرى ما كنت رميتني به<sup>(٣)</sup>. ونسخ من كتاب هارون بن علي بسنده إلى بعض رواته قال: كنت في مجلس خزيمة فجرى حديث ما يسفك من الدماء فقال: والله ما لنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته، ولولا عز السلطان وكراهة الذلة وأن أصير بعد الرياسة سوقة وتابعا بعد ما كنت متبوعاً ما كان في الأرض أزهد ولا أعبد مني؛ فإذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبي العتاهية فيها مكتوب:

أراك امرأً ترجو من الله عفوه      وأنت على ما لا يحب مقيم  
تدل على التقوى وأنت مقصر      أيا من يداوي الناس وهو سقيم  
وإن امرأً لم يلهه اليوم عن غد      تخوف ما يأتي به لحكيم  
وإن امرأً لم يجعل البر كنزه      وإن كانت الدنيا له لعديم

فغضب خزيمة وقال: والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر. فقليل له: وكيف ذاك؟ فقال: لأنه من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله<sup>(٤)</sup>. وروى أبو الفرج ببعض طرقه أن المأمون أنشد بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر:

تعالى الله يا سلم بن عمرو      أذل الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون: إن الحرص لمفسدة للدين والمروءة؛ والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرهاً فرأيت فيه مصطنعاً. فبلغ ذلك سلماً فقال: ويلى على المخنث الجرار الزنديق، جمع الأموال وكنزها وعبأ البدر في بيته ثم ترهد مرءاة

(١) في الأصل: بالموت والبعث.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٨.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٩، ١٧٠.

ونفاقاً فأخذ يهتف بي إذ تصدّيت للطلب<sup>(١)</sup>. وروى هذه الرواية في موضع ثان بتغيير يسير وبزيادة: وأنا لا أملك إلا ثوبي هذين<sup>(٢)</sup>؛ ونحو هذه في «معاهد التنصيص»<sup>(٣)</sup>. ورواها أبو الفرج في موضع ثالث على أن القائل هو الرشيد لا المأمون<sup>(٤)</sup>. والقصة ببعض إجمال في «معجم الأدباء» وقال ياقوت: ثم كتب إليه:

|                         |                                      |
|-------------------------|--------------------------------------|
| ما أقبح التزهيد من واعظ | يزهد الناس ولا يزهد                  |
| لو كان في تزهيده صادقاً | أضحى وأمسى بيته المسجد               |
| ورفض الدنيا ولم يلقها   | ولم يكن يسعى ويسترفد                 |
| يخاف أن تنفد أرزاقه     | والرزق عند الله لا ينفد              |
| الرزق مقسوم على من ترى  | يناله الأبيض والأسود                 |
| كل يوفى رزقه كاملاً     | من كل عن جهد ومن يجهد <sup>(٥)</sup> |

وروى ابن خلكان بعض أبياتها مع تغيير في أحدها فلفظه:

ويرفض الدنيا ولم يقنها ولم يكن يسعى ويسترفد<sup>(٦)</sup>

وفي «الأغاني» و«المعاهد» مسنداً إلى العباس بن عبد الله ورواية العباسي أوفى قال: كنا عند قثم بن جعفر بن سليمان وهو يومئذ أمير البصرة وعنده أبو العتاهية ينشد شعره في الزهد فقال لي قثم: يا عباس اطلب لي الجمار الساعة حيث كان وجثني به ولك شيء. فطلبت فوجدته فقلت له: أجب الأمير. فقام حتى أتى قثم فجلس في ناحية مجلسه وأبو العتاهية ينشد ثم قام إليه الجمار فواجهه

(١) نفس المصدر، ص ١٥٨.

(٢) نفس المصدر، ج ٢١، ص ٧٩.

(٣) معاهد التنصيص، ج ٢ ص ١٢٣.

(٤) الأغاني، ج ٢٠ ص ٧٦.

(٥) معجم الأدباء، ج ١١ ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٦) وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٤٨، ٢٤٩.

وأشده أبيات سلم هذه، فقال أبو العتاهية: من هذا، أعز الله الأمير؟ قال: هذا الجمار وهو ابن اخت سلم الخاسر انتصر لخاله حيث تقول له وأنشد البيتين:

تعالى الله يا سلم بن عمرو      أذل الحرص أعناق الرجال  
هب الدنيا تصير إليك عفوا      أليس مصير ذاك إلى الزوال

قال: فقال أبو العتاهية للجمار: يا ابن أخي إني لم أذهب في شعري الأول حيث ظننت ولا ظن خالك، ولا أردت أن أهتف به وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه، فالله يغفر لكما؛ ثم قام<sup>(١)</sup>. وروى أبو الفرج بطريق الصولي أن حمدويه صاحب الزنادقة كان قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففرع من ذلك وقعد حجاً<sup>(٢)</sup>. وقد أسلفت هذه الرواية وما فيها في باب التعريف وبطريق جحظة البرمكي عن بقية الله بن إبراهيم بن المهدي قال: بلغ أبا العتاهية أن أبي رماه في مجلسه بالزندقة فأرسل إليه يعاتبه فكتب إليه إبراهيم:

|                              |                                        |
|------------------------------|----------------------------------------|
| إن المنية أمهلتك عتاهي       | والموت لا يسهو وقلبك ساهي              |
| يا ويح ذي السن الضعيف، أماله | عن غيه قبل الممات تناهي                |
| وكلت بالدنيا تُبَكِّيهَا وتـ | سـدبها وأنت عن القيامة لاهي            |
| والعيش حلو والمنون مريرة     | والدار دار تفاخر وتباهي                |
| فاختر لنفسك دونها سبلا ولا   | تتحامقن لها فلإنك لاهي                 |
| لا يعجبـنك أن يقال مفوه      | حسن البلاغة أو عريض الجاه              |
| أصلح جهولاً من سريرتك التي   | تخلو بها وارهـب مقام الله              |
| إني رأيتك مظهراً لزهادة      | تحتاج منك لها إلى أشباه <sup>(٣)</sup> |

ورواية الصولي في الأوراق:

أصلح فساداً من سريرتك التي      تلهو بها وارهـب مقام الله

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٨؛ والمعتمد، ج ٢ ص ١٢٤.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٥.

(٣) نفس المصدر، ص ١٧٠، ١٧١.

وتجد دس الزنادقة ظاهراً جداً في الأبيات التي يرويها الصولي مع هذه.  
وها هي ذي بعد البيت الأنف:

|                              |                                       |
|------------------------------|---------------------------------------|
| ما الزهد من رجل ألد مكذب     | بالبعث غير ضلالة وسفاه                |
| وأرى المقالة غير صالحة وإن   | أظهرت مثل مقالة الأواه <sup>(١)</sup> |
| إنني رأيتك مظهراً لزهادة     | نحتاج منك لها إلى أشباه               |
| إن كان لبس الصوف حجتك التي   | تدعو النجاة فإنني لك ناهي             |
| ما في يديك من اللباس إذا غوت | منك السريرة غير حبل واهي              |
| لا شيء يقبل منك إلا ما به    | حكمت عليك نواطق الأفواه               |
| والأمر بعد عليك ويحك واسع    | ما لم يسو الهنا بإله                  |

قال: فقال أبو العتاهية: أنا عيي بجواب مثله وماله عندي إلا ما يحب<sup>(٢)</sup>. وروى أبو الفرج ببعض طريقه أن ثمامة بن أشرس قال: أنشدني أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه  
تملكه المال الذي هو ماله  
إلا إنما مالي الذي أنا منفق  
وليس لي المال الذي أنا تاركة  
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي  
بحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له: من أين قضيت بهذا؟ فقال: من قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيته أو لبست فأبليت أو تصدقت فأَمْضيت». فقلت له: أتؤمن بأن هذا قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

---

(١) في الأصل: غير.

(٢) الأوراق، للصولي، ج ١ ص ٤٧، ٤٨.

وأنه الحق؟ قال: نعم. قلت: فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بكرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تركي ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال: يا أبا معن، والله إن ما قلت هو الحق، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. فقلت: وبم تزيد حال من افتقر على حاله وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله ثم قال لي: والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم. فلما قال لي هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته فأمسكت عنه، وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام<sup>(١)</sup>. ثم روى عن ثمامة أيضاً ما يتضمن جثوبة مطعمه<sup>(٢)</sup>.

وعن الجاحظ عن بعض أصحابه قال: دخلت على أبي العتاهية في بعض المتنزهات وقد دعا عياشاً صاحب الجسر وتهيأ له بطعام وقال لغلामه: إذا وضعت قدامهم الغداء فقدم إلي ثريدة بخل وزيت. فدخلت عليه وإذا هو يأكل أكل متكّمش غير منكر لشيء، فدعاني فمددت يدي معه فإذا بثريدة بخل وبزر<sup>(٣)</sup> بدلاً من الزيت، فقلت له: أتدري ما تأكل؟ قال: نعم ثريدة بخل وبزر. فقلت: وما دعاك إلى هذا؟ قال: غلط الغلام بين دبة الزيت ودبة البزر فلما جاءني كرهت التجبر وقلت دهن كدهن فأكلت وما أنكرت شيئاً<sup>(٤)</sup>. وروى أبو الفرج عدة روايات عن محمد بن عيسى الخزيمي ترمي أبا العتاهية بالبخل على جار له سبىء الحال يلتقط النوى وأنه قال له: لم لا تتصدق عليه؟ فقال: أخشى أن يتعود الصدقة والصدقة آخر كسب العبد. وعلى خادم له - لأنه لا يجب أن يُشبعه وهو يدخل على عياله - وعلى سائل من العيارين الظرفاء، وتتضمن هذه الرواية محاوراً طويلة ومعارضة من السائل له بقوله:

كل حي عند ميته - حظه من ماله الكفن

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٨.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٩.

(٣) يطلق على زيت الكتان.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٩.

وأن أبا العتاهية قال: من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة. فقليل له: ومن حرمها، ومتى حرمت؟ ومنها أن الخزيمي هذا سأله: أتزكي مالك؟ فقال: والله ما أنفق على عيالي إلا من زكاة مالي. فقال له: سبحان الله إغما ينبغي أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين. فقال: لو انقطعت عن عيالي زكاة مالي لم يكن في الأرض أفقر منهم<sup>(١)</sup>.

### تلخيص هذه المطاعن وردها:

تتلخص هذه المطاعن فيما يأتي:

أولاً: أنه من المستعظم أي المستنكر أن يسمي إحدى إبتنيه لله والأخرى بالله وهو غير مُسَلَّم. لأنه وإن كانت التسمية بهما مما لم يعهد فإنها لا يبعدان عن نحو عبدالله وأمة الله مما لا ضير في التسمية به بل فيها خير كثير.

ثانياً: أنه يرمى بمذهب الفلاسفة المنكرين للبعث بحجة أن شعره في الموت لا في النشور والمعاد. والرد على هذا ظاهر مما ورد في حكمته من ذكر البعث والصراط وغيرهما. ومما هو أجل من ذلك من الثناء على الله جل جلاله والمدائح النبوية، وقد سلف كل ذلك، وبه يسقط ما ينسب إلى منصور بن عمار، رحمه الله، من مثل هذا الطعن عليه؛ على أن مثل أبي العتاهية ليس بالذي يهجو منصور بن عمار بأنه ينهى الناس عما يأتيه وليس منصور بن عمار بالذي يرمي أبا العتاهية بما ينسب إليه؛ وما سبقت روايته من ذلك فيجب رده. وكيف وأبو العتاهية ليس إلا رداءً مصداقاً لمنصور وليس منصور إلا رداءً مصداقاً له في رد كيد هؤلاء الكائدين للمسلمين. ولوقيل في البيتين اللذين رواهما الخطيب وفيهما ذكر منصور أنهما في منصور بن مهدي الذي أمره البغداديون على بغداد قبل مقدم المأمون فكان عوناً للفساق والشرار واتخذ منهم بطانته مما كان سبباً في قيام المطوعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمجاهدتهم<sup>(٢)</sup> لكان قولاً؛ فليس مثل منصور بن عمار ممن يذكره مذكر بالحساب والصراط.

(١) نفس المصدر، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) انظر الطبري، ج ٧ ص ١٣٦.



ثالثاً: أنه قال: قرأت البارحة كذا فقلت قصيدة أحسن منه. ويكفي في الرد على هذا ما سبق وصفه من شدة المهدي ومن بعده في قتل الزنادقة ومبالغتهم في ذلك إلى أن يأخذوا بالظنة، كقتل المهدي لمحمد ابن وزيره أبي عبيد الله إذ أمره أن يقرأ فاستعجم عليه القرآن وقتله، هو أو الرشيد لصالح بن عبد القدوس مع ما روي من توبته، فإن أبا العتاهية ما كان لينطق بمثل هذه الكلمة في هذا العهد مهما كانت طويته. ويعجبني من هذه التهمة هذا الإسراف المنبئ أعظم الإنباء عما وراءه من الكيد الخبيث لشاعر الزهد والحكمة، ولا عجب أن تكون هذه التهمة كاشفة عن مقاصد خصومه مبرئة له مما يقولون، فإن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده كما قيل. ومن الطريف تبرئة ابن عمار له مع هذا لا اعترافه بالبعث مع أن المعترف بالبعث مع اعتقاد أن قصيدة من قصائده خير من بعض ما قرأ لا يكون من الإيمان في شيء.

رابعاً: أنه قال شعراً ذهب به مذهب الشك في الغيب في بيت انفرد بروايته ابن قتيبة، أو أنه تهاون بالجنة وتبذل بذكرها إذ لم يجعل لها أن تنسيه عتبة، وجعل عتبة مثلاً لأحذيت عليه الحور. أما بيت ابن قتيبة الذي انفرد بروايته فهو:

إذا ما استجزت الشك في كل ما ترى

فما لا تراه الدهر أمضى وأجوز

ولا ينكر عليه انفراده بمثل هذه الرواية فأبو العتاهية شيعي زيدي، وقد رأيت من بغض ابن قتيبة لهذه الفرقة أن عدها وحده من الرافضة مع ما بينهما من التضاد. وقد بلغ من بغضه للشيعة أن انفرد في كتابه «المعارف» برواية ما رواه في المأمون اعتماداً على بيت شعر قاله أحد شعراء الأئمة معرضاً بالمأمون فيه<sup>(١)</sup>. ولي الإمامة بأبيات عتبة لم أحظ بها من زمن بعيد، وأنا إذ ألم بأبياتها أتساءل: أيسوغ مواجهة الشعراء إذا تلطفوا في وصف الحب أو الوفاء

(١) المعارف، ص ١٦٩.

أوما إليهما بشيء من المبالغة كالذي سلف لأبي العتاهية وكقول عمر بن أبي ربيعة:

ما ضراري نفسي بهجري من لي — س مسيئاً ولا بعيداً تراه  
واجتنابي بيت الحبيب وما الخلد — سد بأشهى إلي من أن أراه  
وقول بهاء الدين زهير:

حرمت رضاكم إن رضيت بغيركم  
أو اعتضت عنكم في الجنان بحوراء

وقول شوقي وهو في منفاه الأندلسي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

بأنهم زنادقة، وأن يعد هذا التلطف منهم إلى المراد دليلاً على سوء الاعتقاد؟ .. ما أحسب ذلك بسائع ولا مقبول في العقول، وما أحسب أمر هؤلاء يتجاوز وصفهم بالإسراف ومجاوزة الحدود. على أني إنما أدافع عن أبي العتاهية زاهداً، فقد كانت سيرته في نشأته سيرة كثير من شعراء الرغبات والمجون، على ما وصفته قبل، وقد انقطع غزله في عتبة بانتهائه إلى الزهد على ما وصفت، فلا حاجة إذن إلى إبلاغ القول في الدفاع عنه أمام هذه التهمة إلى أبعد من هذا الحد.

خامساً: أما رمي خزيمة له بأن المعروف عنده ليس من كنوز البر إلى آخر مقالته .. فهي كلمة موتور، إذ لم ينطق بها فمه إلا وقد اتهمه في ما كتب به إليه من الشعر بمثل ما رماه به، وبأنه يرجو عفو الله مع إقامته على المعصية، وفي دون ذلك ما يدفع كثيراً من الناس إلى سوء القول والإفحاش فيه.

هذا ولم يعرفنا أحد بخزيمة هذا، ولا بهذه الدماء التي جرى عنده حديث سفكها. . والقصة صريحة في أنه أمير من الأمراء ولم أجد أميراً عاصر الرجل في زهده في عصور الرشيد والأمين والمأمون بهذا الاسم إلا واحداً هو خزيمة بن خازم فتعين أن يكون هو وقد عده الطبري من ولاة البصرة في عهد الرشيد<sup>(١)</sup>،

(١) الطبري، ج ٦ ص ٥٢٩.

وعده أيضاً في وجوه قواد الأمين الذين شاورهم في خلع المأمون فنهاه وحذره مغبة الغدر والنكت<sup>(١)</sup>. وذكر في أحداث سنة ثمان وتسعين ومائة خلافة الأمين ومفارقتة إياه واستثمانه إلى طاهر بن الحسين ثم خلعه الأمين مع آخر ودعوتها للمأمون<sup>(٢)</sup>؛ فقد اتضح إذن أن الدماء التي جرى حديث سفكها في مجلس خزيمة وإنكاره لما يسفك منها هي دماء هذه الحرب الباغية التي نهى الأمين عنها إذ نهاه عن الغدر بأخيه. وقد كان أبو العتاهية يحب النصر ل جيش المأمون لما سلف من تشييعه فهو ينكر على خزيمة أن يقول ولا يفعل حرصاً على الإمارة وخوفاً من أن يصير سوقة وقد انتهى خزيمة كما رأيت إلى ما أراد.

سادساً: وأما رمي سلم الخاسر له بما رماه به فلأنه أصاب منه مقتلاً إذ رماه بالحرص ولم يكن سلم أهلاً لأن يتقبل من صديقه هذه العظة بقبول حسن، فقد وصف ابن خلكان خلقه وحرصه فقال: سمي الخاسر لكونه باع مصحفاً واشترى به طنبوراً، وكان يتظاهر بالخلاعة والفسوق والمجون؛ ثم قال: ومات أيام الرشيد وخلف ستة وثلاثين ألف دينار أمر بها الرشيد لإبراهيم الموصللي إذ سأله إياها بحجة أنه لا وارث له<sup>(٣)</sup>. فانظر مع هذا ما سبق من قوله: «وأنا لا أملك غير ثوبي هذين». وصدق أبو العتاهية إذ يقول:

يا سلم أريقك باسم الله أريقك      من بخل نفسك على الله يشفيك  
ما سلم كفك إلا من يناولها      ولا عدوك إلا من يرجيك

سابعاً: وأما القصيدة التي رواها أبو الفرج لإبراهيم بن المهدي فيه بطريق جحظة ينعى عليه فيها اشتغاله بالدنيا فإنها مما يمكن أن يقال لرجل استار سيرة غيره من الشعراء إلى أن جاوز الخمسين، ثم ترك هذه الحال وانصرف عنها إلى الزهد وشعره كما سلف، فإن ذلك من عجائب الأمور وشواذ الأحوال، وقد

(١) نفس المصدر، ج ٧ ص ١١.

(٢) نفس المصدر، ص ٧١، ٧٢.

(٣) انظر وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٤٨.

انتهى إبراهيم إلى اعتقاد صدق صاحبه في زهده اعتقاداً جاوز به حد العصبية العمياء؛ فقد روى الصولي نفسه وهو راوي ما سلف من إضافات الزنادقة إلى قصيدة إبراهيم بسنده إلى حماد بن إسحاق قال: كانت يد إبراهيم بن المهدي في يد أبي العتاهية بمكة وهو ينشد:

|                                |                             |
|--------------------------------|-----------------------------|
| عجباً عجبت لغفلة الإنسان       | قطع الحياة بغرة وتواني      |
| فكرت في الدنيا فكانت منزلاً    | عندي كبعض منازل الركبان     |
| مجرى جميع الخلق فيها واحد      | وكثيرها وقليلها سيان        |
| أبغى الكثير إلى الكثير مضاعفاً | ولو اقتصرت على القليل كفاني |
| لله در الوارثين كأنني          | بأخصهم متبرماً بمكاني       |
| قلقاً لتجهيزي إلى دار البلا    | متحريراً لكرامتي بهواني     |

فقال له قائل: لو قرأنا القرآن كان أنفع لكما. فقال له إبراهيم: هذه أخلاق حث على مثلها القرآن<sup>(١)</sup>.

ثامناً: وأما ما رواه أبو الفرج بطريق الصولي من قصة بخله إلى الحد الذي وصفه فقد سبق من قصته مع عتبة أن المهدي استرضاه بعدما أوقع به من العقوبة ما سلف وصفه بخمسين ألف درهم ففرقها على من بالباب، وفي الأصل أن المهدي استحلّفه إذ عوضه عنها مثلها أن لا يعود إلى تفريقه؛ وقد سلف أنه امتنع عن تزويج بعض بناته للمنصور ابن أمير المؤمنين المهدي، فلو أنه ينظر في زهده إلى جاه أو مال لكان ينبغي له أن يقبل هذه المصاهرة، بل أن يسعى إليها ويسارع في قبولها. وسبق في وصف زهده وصف مائدته التي كانت آخرة مظاهر نهماته وشهواته، وهي دليل على ما كان عليه هذا الزاهد قبل زهده من بذخ وترف وعيش رغيد. وقد سلف أيضاً أن الرشيد شدد عليه العقوبة وجبسه ليقول في الغزل فأبي، مع ما كان يعطيه الرشيد قبل ذلك من الجوائز والمعاون سوى خمسين ألف درهم وظّفها له في كل عام. أما ما سلف من مقالة ثمامة فيه فمع

(١) الأوراق، للصولي، ج ١ ص ٤٦، ٤٧.

أن نسبتها إلى ثمامة غير مستقرة في النفس فإنها على فرض استقرارها غير مقبولة من مثله فيه لما سيأتي عن أبي الفرج من وصف ما بين الرجلين من الخصومة المذهبية العنيفة؛ ولو أننا رضينا قول الجرجاني في ثمامة كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس<sup>(١)</sup> لما ترددنا في رد شهادته، ولو أننا رددنا قول الجرجاني بالخصومة المذهبية لحق لنا ما رددنا به أولاً.

تاسعاً: وأما ما رواه بعده طرق عن الخزي من بخله على جاره وسائله ففيه من دلائل الوضع أعاجيب: منها ما في الرواية الأولى من وصف هذا الجار بأنه كان يلتقط النوى، وأنه كان يمر بأبي العتاهية طرفي النهار فيقول أبو العتاهية: اللهم أعنه، اصنع له، بارك فيه. . . وأنه بقي على هذا إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة؛ قال: ووالله أن تصدق عليه بدرهم ولا دانق قط وما زاد على الدعاء شيئاً؛ فقلت له يوماً: يا أبا إسحاق، إني أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ وتزعم أنه فقير مقل فلم لا تتصدق عليه بشيء؟ فقال: أخشى أن يعتاد الصدقة، والصدقة آخر كسب العبد، وإن في الدعاء خيراً كثيراً. ومما تضمنته الرواية أن الخزي هذا كان جاراً لأبي العتاهية، ووجه العجب في هذه الرواية أنها طعن في الخلافة العباسية قبل أن تكون طعناً في أبي العتاهية، فإن بقاء شيخ سييء الحال يلتقط النوى على حاله تلك عشرين سنة في بغداد عاصمة الخلافة مع كونه جاراً لمن يستطيع أن يصف أمره لأمرء المؤمنين، إن صح، فهو دليل على إحصاء بيت المال في وجوه المعوزين—ولم يكن الأمر قد وصل إلى هذا الحد بعد؛ فقد كان المهدي جواداً سمحاً، وكان يجري على المجذمين وأهل السجون كما سبق، والرشيدهو الذي تقدم إلى القاضي أبي يوسف أن يؤلف له كتاب الخراج ليعمل بمافيه، وفيه إلى جانب وصف وجوه الجباية وصف مصارف الصدقات وما يجب لهم من الحقوق؛ وكان الرشيد يتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم بعد زكاته، ولم ير خليفة قبله كان أعطى للمال منه. ثم المأمون من بعده<sup>(٢)</sup>.

(١) شرح المواقب، ص ٦٢٣.

(٢) الطبري، ج ٦ ص ٥٣٠.

ومدة الأمين على غموضها لم تزد على نحو خمس سنين، وما وقع بعدها من الفتن التي استمرت إلى مقدم المأمون من خراسان لا يتجاوزست سنين فهذه العشرون سنة التي ظل فيها جار أبي العتاهية على الوصف السيئ الذي سلف لا متسع لها في هذه العصور. ولا يقال إن أبا العتاهية لم يكن ليعنيه أمر مثل هذا الشيخ فيرفع أمره إلى أولي الأمر، فقد مضى بنا قريباً استعطافه المأمون للمعوزين ونعيه على ظاهري الكسا ممتلئي البطون ما هم عليه مع ما عليه الناس من عري وجوع أيام الفتنة. ومما في هذه الروايات من الأعاجيب قوله في جواب السائل إذ منعه فغضب وقال له ألسنت القائل:

كل حي عند ميتته حظه من ماله الكفن

ثم قال له: فبالله عليك أتريد أن تعد مالك كله لثمن كفنك؟ قال: لا. قال: فبالله كم قدرت لكفنك؟ قال: خمسة دنانير. قال: فهي إذن حظك من مالك كله. قال: نعم. قال: فتصدق علي من غير حظك ب درهم واحد. قال: لو تصدقت عليك لكان حظي. إلى حوار طويل يصور لك هذا السائل بصورة عالم جدل مهيمن على خصمه وأبا العتاهية بصورة عيٍّ عاجز مغلوب على أمره، وقد رأيت قبل وسترى بعد أن أبا العتاهية لم يكن متخلفاً في فن من فنون القول، وقد رأيت كيف حاور المهدي في أمر التأديب والجائزة فظفر بما أحب ونجا مما كره. ولا شك أنك تعجب من سائل جدل يحتج على الرجل بشعره ولا يزيد شأنه في عصر العناية بالعلم والعلماء عن أن يكون سائلاً! وتعجب كذلك من أن يختلط على أبي العتاهية الأمر فيخلط بين حظ الميت من ماله وهو كفنه وبين حظه من عمله المالي وهو صدقته. وتعجب أيضاً من أن يمنعه كون الصدقة حظه من أن يناله لا أن يدعو إليه، بل إن الراوي ليضيف إلى ذلك أنه التفت إلى الحاضرين فقال: من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة. ثم قال: فقلنا له: ومن حرمها ومتى حرمت؟ فما رأينا أحداً ادعى أن الصدقة حرمت قبله ولا بعده. وقد أفصحت لنا هذه الرواية أن صميم الغرض من وصفه بالبخل هو وصفه بتحريم ما أحل الله وليس بعد هذا تشنيع عليه من هؤلاء الأثمين. وأنا أتساءل: لم لا يرمون داعية العفاف والسخاء بالبخل وما هو أشد منه مما إن صح جعل

زهده كله رياء ونفاقاً، وأقام بينه وبين القلوب سداً من الإعراض والرفض والتكذيب، وقد ظهر مما رواه أبو الفرج بطريق آخر أنه قيل له: مالك تبخل بما رزقك الله؟ فقال: والله ما بخلت بما رزقني الله قط. فقيل له: وكيف ذاك، وفي بيتك من المال ما لا يحصى؟ قال: ليس ذاك رزقي ولو كان رزقي لأنفقتة. . مع ما بينه وبين ما رواه الخزمي أنفاً من قوله للسائل: لو تصدقت عليك به لكان حظي. . أن الخزمي قد حمل من القول ما لم يقل، وأن الأمر لا يعدو ما وصفته أول الباب من اختلاق الأسانيد. بقي أن في آخرة روايات الخزمي أنه أجابه إذ سأله لم لا تصدق بأنه لومع عن عياله زكاة ماله ما كان في الأرض أفقر منهم - وهو جواب لو صح عن أبي العتاهية فإنه قد يدلنا على مكرمة خفية لهذا الرجل بدوها أعداؤه أسوأ التبديل؛ فإن عيال الرجل في اللغة يعمون مع أهل بيته جميع من يمونه، وقد علمنا قبل أن أبا العتاهية قد نشأ في أسرة فقيرة تحترف عمل الجرار، والظاهر أنه لم يظهر منهم غيره وقد أهله شعره أن يتحول إلى بغداد، وليس من المعقول أن يتحول معه كل أسرته، فالشأن في مثله أن يتحمل من أعباء أسرته الفقيرة ما لا يبقى معه من المال شيء، فضلاً عن أن يكثره. وإذا أضفنا إلى هذا أن تحول الرجل إلى شعر الزهد كان تحولاً عن رضا الرشيد وحرماناً من كثير من جوائزه أدركنا أن هذا الشيخ مثقل بعظيم من الأعباء؛ وإذا أضفنا إليه أنه ليس له ممن يكتسب إلا ابنه عتاهية وأن له ثلاث بنات رقية والله وبالله أدركنا فداحة هذه الأعباء. وإذا أضفنا إلى ما سبق أنه لقي وقد جاوز الستين شر ما لقي من أيامه إذ عاصر الأمين ولم يكن بالذي يعنيه زهده ولا مواعظه، ثم لقي مع أهل بغداد هذه السنين السود التي أكلت الأخضر واليابس ونشرت الغلاء والجوع والخراب في بغداد في حروب الأخوين وما تلاها من الفتن، أدركنا أن الرجل لم يكن خالياً من هذا البكاء الذي بكى به الأرامل والأيتام في قوله:

فلعبرة أخرت للزمن الذي هلك الأرامل فيه والأيتام

ولعلك تأذن بعد ما سلف لمثل قوله:

لمن المال الذي أجمعه النفسي أم لأهلي والولد

ما يبالي ولدي بعدي إذا غيوا والدهم تحت اللبد  
وأصابوا ما له من بعده ألغى ما مضى أم لرشد<sup>(١)</sup>  
ولعلك واجد من زهد ابنه وهو كما سلف من رواة الحديث وناشره أنه  
ما كان من وراثي الكنوز ولا المعروفين بكثرة الأموال.

عاشراً: وأما رواية دعوته لعياش صاحب الجسر وتبثته له طعام مثله  
واختصاصه دونه بما هو دونه، فمع ما في النفس منها لما سلف من منزلة  
أبي العتاهية عند الخلفاء التي ترفعه عن أن يهيسء لصاحب الجسر طعاماً في  
أحد المتنزعات، فهي على تقدير صحتها شاهد صدق على صدقه في زهده،  
إذ لا يرضى لنفسه أن تنال شهوتها من شيء بذله وسخت به نفسه؛ وفي ترك  
عياش الاعتراض عليه دليل على اشتهاره بهذا المذهب وصدقه فيه صدقاً يمنع  
الاعتراض عليه؛ وفي هذه القصة من أوصاف الزاهدين وشيمهم ما أظهر من  
حلمه على خادمه إذ غلط فجعل البزر مكان الزيت فلم يعنفه كراهة للتجبر، وقد  
رأينا قبل في غير موضع أن هذا الصفح الجميل من شيمه وكريم خلاله، وسنرى  
فيما أمامنا بعض شواهد.

وبعد: فما كان لنا أن نثق بشيء من مطاعن الطاعنين في الرجل بعد أن  
تبين لأولي الأمر من معاصريه أنه براء مما يزعم المبطلون؛ فقد روى الخطيب في  
تاريخ بغداد أن الرشيد قال لأبي العتاهية: الناس يزعمون أنك زنديق. فقال:  
يا سيدي كيف أكون زنديقاً وأنا القائل:

أيا عجباً كيف يعصى الإلـه أم كيف يجحده الجاحد  
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد  
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد<sup>(٢)</sup>

ونحو هذه الرواية في الأغاني على أن القائل غير الرشيد<sup>(٣)</sup>، ولا تعارض.

(١) الديوان المخطوط والمطبوع ببعض تغير، ص ٧٣.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٢٥٣.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٣٨.



وفيه عن محمد بن أبي العتاهية قال: كانت لأبي العتاهية جارة تشرف عليه فرأته ليلة يقنت، فروت عنه أنه يكلم القمر. واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة فصار إلى منزلها وبات وأشرف على أبي العتاهية، ورآه يصلي ولم يزل يرقبه حتى قنت، وانصرف حمدويه خاسئاً<sup>(١)</sup>. ونستطيع أن نضيف إلى شواهد إيمانه وإخلاصه فيه ما سبق في أول الباب الأنف من قصده إلى بيت مخارق في يوم جمعة ليغنيه بقوله:

قال لي أحمد ولم يدر ما بي

... البيتين.

على أن يكون ذلك بعد العود من الصلاة ففعل<sup>(٢)</sup>؛ والظاهر أن ذلك كان قبل زهده؛ وما سبق أيضاً من رواية ابن عبد البر مما يتضمن حجه في عهد المهدي<sup>(٣)</sup> وهو كذلك قبل زهده؛ وما سبق من رواية أبي الفرج مما يتضمن حجه في عهد الأمين<sup>(٤)</sup>. وفي بعض رواياته – والظاهر أنه خاص بعهد المأمون – أنه كان يحج في كل سنة<sup>(٥)</sup>. ولعل فيما سلف من بكاء الرشيد من أبياته التي منها:

نل ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

وقوله للفضل بن يحيى إذ زجره: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه، وبكائه من الأبيات التي سبقت روايتها معها وبكاء المأمون والناس بما قصه من قصة سليمان بن عبد الملك تعزية للمأمون في مصابه بأخيه أبي عيسى بن الرشيد دليلاً على أن أولي العلم بحال هذا الرجل ما كانوا يرون من حاله إلا الصدق والإخلاص فيما يقول، فإن الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب وإذا خرج من اللسان لم يعد الأذان، وقد بلغ أمر هذه الثقة منهم به وحسن ظنهم فيه أن يقول متواضعاً لله جل جلاله متبرئاً من مثل هذه التزكية له:

---

(١) نفس المصدر، ص ١٣٨.

(٢) الأغاني، ج ٣ ص ١٥٨.

(٣) الديوان المخطوط.

(٤) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٠.

(٥) الأغاني، ج ٣ ص ١٤٧.

يظن الناس بي خيراً وإني لشر الخلق إن لم تعف عني  
وستأتي القصيدة آخر الفصول إن شاء الله. ولعل ما يشوب أدلتي من  
القصور والوهن عن أن تظهر هذا الرجل الصالح على صورته الكاملة المعلنة  
عن إخلاصه ودينه المتين يزول بما يضيفي عليها الوجاهة والقبول وما ينفخ فيها  
من روح القوة والإقناع من قول الإمام ابن عبد البر وهو الخبير بأهل العدالة  
والفضل من الرجال قال، رحمه الله، : وكان بعض من مال به هواه إلى المجون  
وغلب عليه إلى الجنون يمقت أبا العتاهية ويحسده ويغتابه لانصرافه عن طبقته  
من الشعراء المستخفين، إذ بان له من ضلالهم ما زهده في أفعالهم فمال عنهم  
ورفض مذاهبهم وأخذ في غير طريقهم، وتاب توبة صادقة وسلك طريقة حميدة،  
فزهده في الدنيا ومال إلى الطريقة المثلى، وداخل العلماء والصالحين ونور الله تعالى  
قلبه فشغله بالفكرة بالموت وما بعده، ونظم ما استفاده من أهل العلم من السنن  
وسير السلف الصالح؛ وأشعاره في الزهد والمواعظ والحكم لا مثل لها كأنها  
مأخوذة من الكتاب والسنة، وما جرى من الحكمة على ألسنة هذه الأمة؛ وكانت  
طبقته الأولى تعييه حسداً له وبغضاً فيه حتى قالوا إنه لا يؤمن بالبعث وإنه  
زنديق وإن شعره ومواعظه إنما هي في ذكر الموت. . . وقد بان في شعره لمن طالعه  
وعني به كذبهم وافترائهم، لما فيه من ذكر التوحيد والبعث والإقرار بالجنة والنار  
والوعد والوعيد، وبرهان ذلك فيما نورده من أشعاره في هذا الكتاب إن شاء الله  
تعالى. ولقد عجبت من أبي محمد بن قتيبة عفا الله تعالى عنه كيف جاز عليه  
ما نسبته إليه أهل الفسق حسداً له ولم يتدبر أشعاره في التوحيد والإقرار بالوعد  
والوعد والمواعظ التي لا يفتن لها إلا الثابت السليم القلب<sup>(١)</sup>. وصدق ابن  
عبد البر، وليت ابن قتيبة وغيره من رواة الأخبار وقفوا عند قول أبي العتاهية،  
رحمه الله :

ولا ترم بالأخبار عن غير خبرة ولا تحمل الأخبار عن كل خابر<sup>(٢)</sup>

(١) الديوان المخطوط.

(٢) نفس المصدر والبيت في المطبوع ببعض تغير، ص ١٠٠.

في  
آرائه الكلامية والفلسفية

روى أبو الفرج بطريق الصولي عن بعض رواته، قال: كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء، ثم انه بنى العالم هذه البنية منهما، وان العالم حيث العين والصنعة، لا يحدث له إلا الله. وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً. وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً، وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب وكان مجبراً<sup>(١)</sup>. ونحوه في سرح العيون<sup>(٢)</sup>. ونريد أن نقسم الكلام على هذه الآراء إلى أقسامها، وهي:

أولاً - كيفية الخلق.

ثانياً - طريق تحصيل المعارف.

ثالثاً - القول بالوعيد.

رابعاً - تحريم المكاسب.

خامساً - الجبر.

أولاً - كيفية الخلق:

القارىء لعبارته في كيفية الخلق لا يجد فيها شيئاً يلفت النظر، وهي لا تزيد عن أن توصف بأنها نوع من التفكير والفهم الخاص؛ ولكن الأستاذ أحمد

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٤.

(٢) سرح العيون، ص ٣٢٠، ٣٢١.

أمين يقول في كتابه ضحى الإسلام بعد النقل السالف عن الصولي: وعلى الجملة فالشعر الديني الذي كان يحمل لواءه في ذلك العصر صالح بن عبدالقدوس وأبو العتاهية فيه نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديماً. ثم قال: ويمكننا أن نقول انه إن كان في نزعة بشار الإباحية عنصر مزدكي ففي نزعة أبي العتاهية الزاهد عنصر مانوي<sup>(١)</sup>. ولكننا لا نستطيع أن نسلم بصحة هذا الاستنباط بعد دراستنا السابقة للمانوية، فقد سبق هناك أن دين ماني الذي أحدثه هو ان صانع العالم اثنان: فاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة، وانهما قديمان لم يزالا ولن يزالا، الخ ما سبق<sup>(٢)</sup>. والذي معنا من مقالة الرجل إن صحت نسبتها إليه: أن الخالق واحد هو الله وانه هو الذي خلق جوهرين متضادين، هما أصل هذا العالم الحديث العين والصنعة المنتهي إلى الفناء؛ وظاهر أن القديمين الباقيين المتضادين اللذين هما إلهما العالم عند المانوية غير هذين المحدثين المتضادين المنتهين إلى الفناء في هذه الرواية. إلا أن يكون كل قول بائنين، مانوية. وعلى قياسه يكون كل قول بثلاثة مسيحية، وهو ما لا يجوز؛ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ ويقول: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعلهم أولئك هم الخاسرون﴾. ولئن صح للأستاذ أحمد أمين أن يجعل في إباحية بشار عنصراً مزدكياً فما كان يصح له أن يجعل في زهد أبي العتاهية عنصراً مانوياً؛ فقد انتهينا هناك اعتماداً على وصية المهدي للهادي إلى أن من الخطأ البين القول بأن المانوية تقصد إلى الزهد وان كانت تتظاهر به ابتداءً تضليلاً للناس؛ وبعد فإن مظهر زهدهم الكاذب كما سبق كان تحريم النسل ومس الماء الطهور، وأبو العتاهية لم يحرم النسل لا قولاً ولا فعلاً، فقد كان له زوج وأولاد وليس في شعره إلا تحريم ما حرمه الله من اللذات المحرمة وطلب الفضول.

(١) ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) وانظر: سرح العيون، من ص ١٩٨ إلى ص ٢٠٠، وهذه الرسالة.

## ثانياً - طريق تحصيل المعارف:

تتلخص العبارة المنسوبة إلى أبي العتاهية في هذا المعنى في ان العقل وحده هو أصل المعرفة، وهو مذهب فلسفي ذهب إليه سولون الفيلسوف اليوناني القديم، فقال: ليس لنا هاد يهديننا أعظم من العقل فلا نقول شيئاً إلا بعد استشارته<sup>(١)</sup>. ومن اعتنق هذا المذهب من المتكلمين المعتزلة، قال الشهرستاني: وقال أهل العدل: المعارف كلها معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبح<sup>(٢)</sup>. وفي المواقف: إن الجبرية وافقوا المعتزلة في إيجاب المعرفة بالعقل<sup>(٣)</sup>، وقد أيد الأستاذ أحمد أمين ذهاب أبي العتاهية إلى هذا المذهب بقوله:

وإنما العلم من قياس ومن عيار ومن سماع<sup>(٤)</sup>

ولفظ عيار محرف عن عيان<sup>(٥)</sup>. وأياً ما كانت الرواية فالبيت نقيض المدعى لأن المسموع وهو المنقول هو مقابل المعقول والذي يصلح لذلك هو قوله: وما لك غير عقلك من نصيح وما لك غير عقلك من دليل

## ثالثاً - القول بالوعيد:

الوعيد في اللغة مصدر وعد وهو في الشر كالوعد في الخير وذكره ابن حزم فيما يتمسك به المعتزلة<sup>(٦)</sup>؛ وقال البيضاوي في الطوابع: والمعتزلة أوجبوا على الله تعالى أموراً، منها العقاب على الكبائر قبل التوبة وخصه شارحه الأصفهاني بمعتزلة بغداد<sup>(٧)</sup>. وفي مروج الذهب أن للمعتزلة أصولاً خمسة ذكرها، ومنها القول

(١) تاريخ الفلاسفة، مترجم عن الفرنسية، ص ١٩.

(٢) الملل والنحل، للشهرستاني، على هامش ابن حزم، ج ١ ص ٥٣.

(٣) شرح المواقف، ج ٢ ص ٤٩٢.

(٤) ضحى الإسلام، والبيت في الديوان المطبوع، ص ١٥٨.

(٥) الديوان المخطوط.

(٦) الفصل لابن حزم.

(٧) طوابع الأنوار، ص ٤٠٢، ٤٠٣.

بالوعيد، وفسر مرادهم منه بأن الله لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بالتوبة<sup>(١)</sup>. وفي الصباح نسبة القول بوجوب الوعيد لعمر بن عبيد من المعتزلة، وفيه ردود قيمة عليه. وفي شرح المواقف في الكلام على نشأة الاعتزال ما يتضمن أن الخوارج قد سبقوا المعتزلة إلى القول به. قال الجرجاني: دخل على الحسن رجل فقال: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة—يعني وعيدية الخوارج—وجاعة أخرى يرجئون الكبائر ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد في ذلك؟ فتفكر الحسن وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، ثم قام إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين قائلاً: إن المؤمن اسم مدح والفاقد لا يستحق المدح، فلا يكون مؤمناً وليس بكافر أيضاً، لإقراره بالشهادتين ولوجود سائر أعمال الخير فيه، فإذا مات بلا توبة خلد في النار إذ ليس في الآخرة إلا فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير، لكن يخفف عليه وتكون دركته فوق دركات الكفار. فقال الحسن: قد اعتزل عنا واصل؛ فسموا معتزلة<sup>(٢)</sup>. وفي شعر أبي العتاهية مما يدل على تأثره بالاعتزال في خلود العصاة في النار قوله:

هما أمران يوضح عنهما لي      كتابي حين أنظر في كتابي  
فأما أن أخلد في نعيم      وأما أن أخلد في عذاب<sup>(٣)</sup>

#### رابعاً — تحريم المكاسب:

كلمة غامضة ليس لها من أصل كلامي ولا فلسفي مشهور؛ ولعل ما ذكره الغزالي في «الإحياء» مما سأسوقه إليك يكشف هذا الغموض، قال في مطلع كتاب «الحلال والحرام» قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «طلب الحلال فريضة

(١) مروج، ج ٣ ص ١٥٣.

(٢) شرح المواقف، ص ٦٢٠.

(٣) الديوانين، ص ٢٤.

على كل مسلم». رواه ابن مسعود، رضي الله عنه. وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض أعصاها على العقول فهماً وأثقلها على الجوارح فعلاً، ولذلك اندرس بالكلية علماً وعملاً<sup>(١)</sup> وصار غموض علمه سبباً لاندراس عمله، إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود، وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات والحشيش النابت في الموات، وماعداه فقد أخبثته الأيدي العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة. وإذا<sup>(٢)</sup> تعذرت القنعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات فرفضوا هذا القطب من الدين أصلاً ولم يدركوا بين الأموال فرقاً وفصلاً، وهيئات هيهات، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهاً، ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات؛ ولما كانت هذه بدعة عم في الدين ضررها واستطار في الخلق شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام، والشبهة على وجه التحقيق والبيان<sup>(٣)</sup>. والصلة ظاهرة بين المانوية وبين هذه الفرقة المتدعة في هذا الوصف<sup>(٤)</sup>، ولا صلة كما سبق بين المانوية وأبي العتاهية وقد اجتمع أعداؤه وأصدقاؤه على نقشه وتقلله من المباحات؛ إلا أن أعداءه يسمون ذلك بخلاً لازهداً، وقد سلف رده. والظاهر أن رمي أبي العتاهية بهذا المذهب لا يرجع عند راميه إلى ما سلف بل إلى دعوته إلى الزهد ورفض الدنيا، وقد سلف أن طلب ما لا بد منه ليس من طلب الدنيا أول قوله:

ولقد عجبت من المثمر ماله نسي المثمر زينة الإقلال<sup>(٥)</sup>

مع أن الظاهر من مقابلة التثمير بالإقلال أن المراد به الجمع والاستكثار لا الكسب وقد حث على الكسب وحسنه في قوله:

لا ترتج الخير عند من لا يصلح إلا على الهوان

(١) لعل مرجع الضمير الفرض.

(٢) لعلها: وإذا.

(٣) الأحياء، ج ٢ ص ٧٨.

(٤) انظر الشهرستاني، على ابن حزم.

(٥) الديوانين، ص ١٩٩.

فاستغن بالله عن فلان      وعن فلان وعن فلان  
ولا تدع مكسباً حلالاً      تكون منه على بيان<sup>(١)</sup>  
فالمال من حلّه قوام      للعرض والوجه واللسان  
والفقر ذل عليه باب      مفتاحه العجز والتواني  
وقوله:

شرف الفتى طلب الكفا      ف بعفة في مكسبه  
يرضى بقسم مليكه      متجماً في مطلبه<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

ما أحسن الشغل في تدبير منفعة  
أهل الفراغ ذوو خوض وإرجاف<sup>(٣)</sup>

#### خامساً - الجبر:

الجبر كما في التعريفات للجرجاني هو إسناد فعل العبد إلى الله تعالى؛ وفي الملل والنحل للشهرستاني الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل التضاد<sup>(٤)</sup>؛ ونقل من قول واصل في تقريره لمذهبه الاعتزالي: أن الباري تعالى حكيم عادل لا يجوز أن يضاف إليه شروط ظلم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحكم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه، فالعبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية وهو المجازى على فعله والرب تعالى أقدره على ذلك كله<sup>(٥)</sup>. ويتفرع على مذهبي الجبرية والمعتزلة نفي الاستطاعة عند الأولين وإثباتها عند الآخرين، لأن الاستطاعة عندهما هي قدرة العبد على خلق الفعل، والفرق بين الاستطاعة

(١) الديوانين، ص ٢٧٠.

(٢) الديوانين، ص ٣٦.

(٣) الديوانين، ص ١٦٧.

(٤) الملل والنحل، للشهرستاني، على هامش الفصل، لابن حزم، ج ١ ص ٥٤.

(٥) نفس المصدر، ص ٥٨، ٥٩.



عند أهل السنة وبينها عند هؤلاء - مع قول أهل السنة بأن خالق أفعال العبد هو الله تعالى مع إثباتهم الاستطاعة للعبد - انهم يجعلونها تهيئة الأسباب وإزالة الموانع لا القدرة على خلق الفعل، وهو موضوع جدال تكفلت به كتب الكلام ولا يحتمله هذا المقام. وفي شعر أبي العتاهية ما يدل على اعتزاله وفيه ما يدل على مقابل الاعتزال، فمن شواهد الأول على احتمال قوله:

والله أرحم بالفتى من نفسه

فاعمل فما كلفت ما لم تستطر<sup>(١)</sup>

ومن شواهد الثاني قوله:

متى ما يرد ذو العرش أمراً بعبده      يصبه وما للعبد ما يتخير  
وقوله:

وليس للمرء ما تمنى      وليس للمرء ما تخير<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

إن للخير لرسماً يئناً      طبع الله عليه ما طبع<sup>(٣)</sup>  
وقوله:

الحمد لله يقضي ما يشاء ولا

يقضى عليه وما للخلق ما شاؤوا<sup>(٤)</sup>

وفي معجم الأدباء لياقوت: والعرب تقول: لو خيرت لاخترت تحيل على القدر وينشدون:

هي المقادير فلمني أو فذر

إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر<sup>(٥)</sup>

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٨.

(٣) نفس المصدر، ص ١٥١.

(٤) الديوانين، ص ١.

(٥) معجم الأدباء، لياقوت، ج ٧ ص ١٢٦، ١٢٧.

هذا والبيت لأبي العتاهية. وفي تمثل العرب بشعر شاعر حضري محدث  
مثله نظر، ومن شواهد الجبر في شعره قوله:

إلى الله كل الأمر في الخلق كله

وليس إلى المخلوق شيء من الأمر<sup>(١)</sup>

وقوله:

نسأل الله بما يقضي الرضا      حسبى الله فما شاء قضى

قد أردنا فأبى الله لنا      وأراد الله شيئاً فمضى<sup>(٢)</sup>

وقوله:

ما لابن آدم في تصرف ما      يجرى به بسط ولا قبض  
وحكى أبو الفرج عن الصولي - بعد قوله: وكان مجبراً - قوله: فحدثني  
يموت بن المزرع، قال: حدثني الجاحظ قال: قال أبو العتاهية لثمامة بين يدي  
المأمون - وكان كثيراً ما يعارضه بقوله في الاجبار -: أسألك عن مسألة. فقال  
له المأمون: عليك بشعرك. فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته  
ويأمره بإجابتي. فقال له: أجبه إذا سألك، فقال: أنا أقول إن كل ما فعله  
العباد من خير وشر فهو من الله وأنت تأبى ذلك فمن حرك يدي هذه؟ -  
وجعل أبو العتاهية يحركها - فقال له ثمامة: حركها من أمه... فقال: شتمني  
والله يا أمير المؤمنين. فضحك المأمون وقال له: ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك  
وتدع ما ليس من عملك؟ قال ثمامة فلقيني بعد ذلك فقال يا أبا معن ما أغناك  
الجواب عن السفه. فقال إن من أتم الكلام ما قطع الحجة وعاقب على الإساءة  
وشفى من الغيظ وانتصر من الجاهل<sup>(٣)</sup>. ويمكن دفع هذا التناقض الواقع بين  
هذا الخبر وما قبله من الشعر وبين البيت الأول بأن نحمل الاستطاعة فيه على  
معناها عند السلف وهي تهئية الأسباب وإزالة الموانع لا خلق الأفعال والفريقان  
جبرية عند المعتزلة.

(١) الديوانين، ص ١١٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٤.

## سادساً - التحيز:

قال ابن حزم: ذهبت المعتزلة إلى ان الله سبحانه وتعالى في كل مكان واحتجوا بقول الله تعالى ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ وقوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وقوله تعالى ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ ورده واحتج لنقيضه وهو مذهب الجمهور من أهل السنة فقال: لو كان الله تعالى في مكان لكان جسماً أو عرضاً في جسم والله سبحانه وتعالى ليس كذلك فقد انتفى أن يكون في مكان أصلاً. وبأن الله تعالى بكل شيء محيط فهو محيط بالمكان أيضاً فلو كان في مكان لكان محيطاً ومحاطاً به وهو محال<sup>(١)</sup>. ومذهب أبي العتاهية في هذا مذهب اعتزالي لقوله:

كل امرئ فكما يدين يدان      سبحانه من لم يخل منه مكان

## سابعاً - خلق القرآن:

ذهب المعتزلة إلى ان القرآن مخلوق خشية تعدد القدماء<sup>(٢)</sup>، وكان الكلام في هذه المسألة قبل إظهار المأمون الاعتزال لا يتعدى المناظرة والاستدلال، وكان الرشيد، رحمه الله، يكره المراء في الدين ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالبحري أن لا يكون فيه ثواب<sup>(٣)</sup>. وفي شذرات الذهب في أحداث سنة اثنتي عشرة ومائتين: فيها أظهر المأمون القول بخلق القرآن وقام في هذه البدعة قيام متعبد وتهدد عليها بالقتل<sup>(٤)</sup> ونحوه باختصار في تاريخ الطبري<sup>(٥)</sup> وفي الأغاني عن أبي شعيب صاحب ابن أبي داود قال قلت لأبي العتاهية وأعدت عليه فأجابني هذا الجواب حتى فعل ذلك مراراً فقلت له ما لك لا تجيبني؟ فقال: قد أجبتك ولكنك...<sup>(٦)</sup> وظاهر هذا الجواب من أبي العتاهية أنه يذهب إلى

(١) ابن حزم، ج ١ ص ١٢٢، ١٢٥.

(٢) الشهرستاني، على هامش ابن حزم، ج ١ ص ٥٧.

(٣) الطبري، ج ٦ ص ٥٣٠، وكان الرشيد، الخ.

(٤) الشذرات، ج ٢ ص ٢٧.

(٥) الطبري، ج ٧ ص ١٨٨.

(٦) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٥.

القول بخلق القرآن وجزم به فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالمتعال<sup>(١)</sup> ووجهه انه يشير إلى قياس من الشكل الأول نظمه هكذا: القرآن غير الله، وكل ما هو غير الله مخلوق، فالقرآن مخلوق. وأضمرت الكبرى لاشتهارها، والنتيجة لبداهتها. ويحتمل هذا الجواب أن يكون نوعاً من التقية ويكون تحميلاً للسائل لما تحمله، كقول أبي حنيفة، رحمه الله، إذا جاءتك معضلة فاجعل جوابها منها. ويؤيد هذا الثاني ما رواه ابن عبدالبر من قوله:

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد  
أو كان عزمك عزمياً فيه توفيق  
لكان في ذاك شغل لو قنعت به  
عن أن تقول كلام الله مخلوق  
ماذا عليك واصل الدين يجمعهم  
ما كان في الفرع لولا الجهل والموق<sup>(٢)</sup>

وبعد:

فهل أبو العتاهية جبري أم معتزلي؟ الحق أن القطع بشيء من ذلك مما لا يستطيع، فيظهر أنه كان متردداً في هذا الأمر أو أنه كان معتزلياً ثم انتهى إلى الجبر إن صحت مناظرته ثمانية بين يدي المأمون، أو أنه لم يكن معنياً بدراسة المذاهب الكلامية، ففي بعض روايات أبي الفرج عن جار لأبي العتاهية قال: كان أبو العتاهية من أقل الناس معرفة؛ سمعت بشراً المريسي يقول له: يا أبا إسحاق لا تصل خلف فلان جارك وإمام مسجدكم فإنه مشبه. قال: كلا انه قرأ بنا البارحة في الصلاة قل هو الله أحد، وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ قل هو الله أحد<sup>(٣)</sup>. وأياً ما كان فالتردد أو الجهل بهذه الأمور العقلية المعقدة ليس مما يشين؛ والذي في

(١) أبو العتاهية، الشاعر العالمي، ص ٨٤.

(٢) الديوان المخطوط وحده.

(٣) الأغاني، ج ٣ ص ١٦٠.

بعض روايات الأغاني انه كان متردداً. قال ببعض طرقه: كان أبو العتاهية مذبذباً في مذهبه، يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره<sup>(١)</sup>. وقد أثرت هذه الكلمة كما أثر اختلاف شعره في مبدئه وغايته في آراء جمهرة كتاب العصر فقال الأستاذ الإسكندري، رحمه الله، في انتقاده كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لفقيده الأدب جورجى زيدان: ومن تناقض المؤلف وتحيره قوله في أبي العتاهية: «وقد نظم في كل أبواب الشعر وامتاز منها بالزهد، ويؤخذ من سيرة حياته انه كان متردداً متقلباً ويغلب ذلك في طباع الشعراء لأنهم أهل خيال وأوهام وخصوصاً الذين يستجدون بشعرهم فإنهم يتقلبون مع الأهواء ويسعون وراء النفع حيثما كان؛ على أن تمنع أبي العتاهية عن قول الغزل بعد أن أمره به الرشيد يخالف هذه القاعدة ولكن لعل له سبباً حمله على ذلك»<sup>(٢)</sup>. قال الإسكندري: ما قولك أيها القارئ في هذه العلل التي لو صدقت، لا قدر الله، على كل شاعر يتكسب بالشعر كأبي العتاهية لتبرمت الدنيا بكثرة المرورين والموسوسين المتخبطين، على أن الله أرحم من أن يصدق زعم المؤلف في الشعراء من عباده فلم نر بعد أبي العتاهية من يشبهه في سودائه والحمد لله<sup>(٣)</sup>. وعلى رأي الإسكندري أستاذي المرحوم محمود مصطفى<sup>(٤)</sup> وبعض كتاب مجلة الرسالة<sup>(٥)</sup>، وغيرهم. ولعل ما أسلفته في الكلام على شعر المجون والرغبة إذ قسمته على عهوده المختلفة يفي بتصوير تدرج الرجل وتنقله من الشر إلى الخير، وليس أبو العتاهية بأول من تحول عن الشر إلى الخير وعن اللهو إلى الجد فقد كان ذلك شأن إبراهيم بن أدهم وداود الطائي، رحمهما الله، وسنحاول في الفصل التالي إن شاء الله أن نصيخ لأبي العتاهية ليحدثنا عن نفسه بعد أن نعرف وجه الاستدلال بمثل حديثه على المراد، إن شاء الله.

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٢٤.

(٢) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، لزيدان، ج ٢ ص ٦٩.

(٣) انتقاد الإسكندري، ص ١١٧.

(٤) المذكرات، ص ٤٢٦، ٤٢٧.

(٥) الرسالة، السنة الثانية، العدد، غمرة ٥٧.



## في رأي أبي العتاهية في نفسه

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ﴾. فأولوا نفي القسم بأنه مبالغة في تعظيم المقسم به. قال في «الكشاف»: وكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك<sup>(١)</sup>. أقول: ولوقيل إنه إجلال لهذا القسم العظيم أن يلقي على هؤلاء المرتابين لكان وجيهاً. وفسرت النفس اللوامة فيه بعدة تفاسير منها: أنها هي التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان قال: وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لائئماً نفسه وأن الكافر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه<sup>(٢)</sup>. ونحو من كلمة الحسن ما ورد في «الحلية» له من قوله: المؤمن أحسن عملاً وأشد الناس خوفاً، لو أنفق جبلاً من مال ما أمن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحاً وبراً وعبادة إلا ازداد فرقاً، يقول: لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفر لي ولا بأس علي، فينسى العمل ويتمنى على الله تعالى<sup>(٣)</sup>. وعن محمد بن واسع<sup>(٤)</sup> أو الفضيل بن عياض<sup>(٥)</sup>: من مقت نفسه في ذات الله أمنه الله من مقتته: الروايتان في «الحلية».

(١) الكشاف، ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الحلية، ج ٢ ص ١٥٣.

(٤) الحلية، ج ٢ ص ٣٥٠.

(٥) الحلية، ج ٨ ص ١٠٤.

وعن علي بن عبدالله بن عباس، رضي الله عنهم: من لم يجد من نقص  
الجهل في عقله وذل المعصية في قلبه ولم يستتب موضع الخلّة في لسانه عند كلال  
حده عن حد خصمه فليس ممن يفزع عن ريبة ولا يرغب عن حال معجزة  
ولا يكثر لفضل ما بين حجة وشبهة<sup>(١)</sup>. وقال أبو العتاهية:

إذا ما صدقت النفس أكثرت ذمها

وأكثرت جدواها<sup>(٢)</sup> وقللت حمدها

وقال:

أما والذي نفسي له لو صدقتها      لرددت توبيخي لها وملامتي<sup>(٣)</sup>  
فمن صدقه نفسه إذن قوله:

طالما حلا معاشي وطابا      طالما سحبت خلفي الثيابا  
طالما طاوعت جهلي ولعبي      طالما ناهزت صحتي الشرابا  
طالما كنت أحب التصابي      فرماني بسهمه وأصابا<sup>(٤)</sup>

وقوله:

بليت بنفسي شر نفس رأيتها      لجوج تمادى بي إذا ما نهيتها  
فكم من قبيح كنت معترفاً به      وكم من جنايات عظام جنيها  
وكم من شفيق باذل لي نصيحة      ولكنني ضيعتها وأبيتها  
دعنتي إلى الدنيا دواع من الهوى      فأرسلت ديني من يدي وأتيتها  
ولي حيل عند المطامع ربما      تطلعت للدنيا بها فرقيتها  
أقول لنفسي إذ شكت ضيق بيتها      كأني بها في القبر قد ضاق بيتها  
ولي في خصال الخير ضد معاند      يثبطني عنها إذا ما نويتها

(١) البيان والتبيين، ج ١ ص ٨٥.

(٢) رواية المخطوط، وفي المطبوع شكواها، ص ٨٨.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٥.

(٤) الديوانين، ص ٢٨.



ومنها :

فلو كنت في الدنيا بصيراً وقد نعت  
إلى ساكنيها نفسها لنعيها  
ولو أنني ممّن يحاسب نفسه  
لخالفت نفسي في الهوى وعصيتها<sup>(١)</sup>

**وقوله :**

يا غفلي عن يوم يجـ مع شرتي كفن ولحد  
ضيعت ما لا بد لي منه بما لي منه بد

وقوله :

فإلى متى أنا غافل  
وإلى متى أنا ممسك  
يا نفس لا تتضايقي  
يا نفس أنت شحيحة  
يا نفس توبي من مؤا  
وتعلقي بمعالق الـ  
وتفكري في الموت أحـ  
فلتغشيني غشية  
ولتعولن المعولا  
ولتجعلني بعد خلـ  
وليأتين عليّ تحـ

يا نفس ويحك خبريني  
بخلا بما ملكت يميني  
وثقي ببرك واستعيني  
والشح من ضعف اليقين  
خاة الأخ البطر البطين  
مكروب ذي القلب الحزين  
ياناً لعلك أن تليني  
يندى لسكرتها جيني  
ت هناك حولي بالرنين  
قي طينة لحقت بطين  
ت الترب حين بعد حين<sup>(٢)</sup>

(١) هذه رواية المخطوط وفيها تغييرات في المطبوع، ص ٥٧.

(٢) الرواية من المخطوط وهي في المطبوع، ص ٢٧٧ بتغير في إعراب البيت الأخير.

وقوله :

|                                       |                          |
|---------------------------------------|--------------------------|
| فنهاها النقص عن ذاك الورع             | سمت نفسي ورعا تصدقه      |
| ولها مكر دقيق وخدع                    | فلنفسى علل لا تنقضي      |
| ولها بالشيء أحياناً ولع               | ولنفسى غفلات لم تزل      |
| واضطراب عند منع وجزع                  | ولنفسى حين تعطى فرح      |
| زاد يا هذا لهول المطلع <sup>(١)</sup> | ليت شعري ما تزودت من الـ |

وقوله :

|                                     |                              |
|-------------------------------------|------------------------------|
| وفكرة مغرور وتدبير جاهل             | نظرت إلى الدنيا بعين مريضة   |
| ونافست منها في غرور وباطل           | فقلت هي الدار التي ليس غيرها |
| بلدة أيام قصار قلائل <sup>(٢)</sup> | وضيعت أهوالاً أمامي طويلة    |

وقوله :

|                                 |                 |
|---------------------------------|-----------------|
| وقد قصرت في عملي                | سهوت وغرني أملي |
| جعلت لغيرها شغلي <sup>(٣)</sup> | ومنزلة خلقت لها |

وقوله :

لقد لعبت وجد الموت في طلبي  
وإن في الموت لي شغلاً عن اللعب  
لو شممت فكرتي فيما خلقت له  
ما اشتد حرصي على الدنيا ولا طلبي<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان المخطوط وهي في المطبوع بتقديم وتأخير، ص ١٥١.

(٢) الديوانين، ص ٢١٩.

(٣) الديوانيني، ص ٢٠٧.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٢.

وقوله :

استغفر الله من ذنبي ومن سرفي      إني وإن كنت مستوراً لخطاء

وقوله :

تزاهدت في الدنيا وإني لراغب      أرى رغبتى ممزوجة بزهادتي  
وعودت نفسي عادة ولزمتها      أراه عظيماً أن أفارق عادتي  
إرادة مدخول وعقل مقصر      ولو صح لي عقلي لصحت إرادتي  
ولو طاب لي غرسي لطابت ثماره

ولو صح لي غيبي لصحت شهادتي<sup>(١)</sup>

وقوله :

يا نفس أنى تؤفكينا      حتى متى لا ترعونا  
حتى متى لا تقلعي      من وتسمعين وتبصرينا  
أصبحت أطول من مضى      أملاً وأضعفهم يقينا  
وليأتين عليك ما      أفنى القرون الأولينا  
يا نفس طال تمسكي      بعري المنى حيناً فحيناً  
يا نفس ألا تصلحين      فتشبهى بالصالحينا  
وتفكري فيما أقرو      ل لعل قلبك أن يلينا<sup>(٢)</sup>

وقوله : وهو آخر ما قال :

إلهي لا تعذبني فإني      مقر بالذي قد كان مني  
فما لي حيلة إلا رجائي      لعفوك إن عفوت وحسن ظني  
وكم من زلة لي في الخطايا      وأنت عليّ ذو فضل ومن  
إذا فكرت في ندمي عليها      عضضت أنا ملي وقرعت سني

(١) الديوانين، ص ٥٠.

(٢) الديوانين، ص ٢٦٤.

أجن بزهرة الدنيا جنوناً وأقطع طول عمري بالتمني  
ولو أني صدقت الزهد فيها قلبت لأهلها ظهر المجن  
يظن الناس بي خيراً وإني لشرّ الخلق إن لم تعف عني<sup>(١)</sup>

وفي هذه الفنون المتنوعة من لومه لنفسه وتأنيبها ورميها بما رماها به من الصفات دليل على حقيقة هذا الرجل وصراحته ونقاء صحيفته وأنه ليس من أهل الرياء والتفاق كما ظن كثير من القدماء والمعاصرين. ولقد بلغ من صدق الرجل وصراحته أنه حين يدعوه القول أن يتحدث عن زهده لا يستطيع أن ينطلق في هذا الحديث دون أن يعلله بما كان من تبنّيه قبح ما كان من رغبته في الدنيا وسوء ما لقي منها كقوله:

طلبتك يا دنيا فأعذرتُ في الطلب  
فما نلت إلا الهم والغم والنصب  
فلما بدا لي أنني لست واصلاً إلى لذة إلا بأضعافها تعب  
وأسرعت في ديني ولم أقض بغيتي  
هربت بديني منك إن نفع الهرب  
تخلّيت مما فيك جهدي وطاقتي  
كما يتخلّى القوم من عرّة الجرب  
فما تم لي يوماً إلى الليل منظر أسره إلا أتى دونه شغب<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

تنكبت جهلي فاستراح ذوو عذلي  
وأحدث غب العذل حين انقضى جهلي  
وأصبح لي في الموت شغل عن الصبا  
وفي الموت شغل شاغل لذوي العقل

(١) الأغاني، ج ٣ ص ١٧٥؛ والديوانين، ص ٢٦٣.

(٢) الديوانين، ص ٢٥، ٢٦.

إذا أنا لم أشغل بنفسي فنفس من  
من الناس أرجو أن يكون بها شغلي

وإن لم يكن عقلي يصون أمانتي  
وعرضي وديني ما حييت فما فضلي<sup>(١)</sup>

وإذ قد أبدى الله صفحة أبي العتاهية ناصعة نقية، وأظهر طبيته مشرقة  
وضية، ورد عنه سهام الكائدين وألسن المغتابين، وأعطاه نصيبه من شرف دعوته  
وأحدث له ذكراً ببركة نيته، فقد وضح أن كل ما أثير في وجهه ليس إلا قتام  
الشكوك والأوهام وغبار الأباطيل والآثام، وأن الرجل ماض في سبيله الذي أحب  
من الدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن مثل دعوته الشريفة ومثل  
ما قيل فيه كمثل الحق والباطل والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿بل نقذف بالحق  
على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾. ويقول جل شأنه تمثيلاً للحق والباطل:  
﴿فأما الزبد فذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب  
الله الأمثال. للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ ورحم الله هذا البرّ الصادق إذ  
يقول:

ونيات أهل الصدق بيض نقية وألسن أهل الصدق لاتلجلج<sup>(٢)</sup>

وإذ يقول:

والصدق يعقد فوق رأ س حليفه للبرّ تاجا  
والصدق يثقب زنده في كل ناحية سراجا  
ولربما صدع الصفا ولربما شعب الزجاجا<sup>(٣)</sup>

(١) الديوانين، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٦٤.

وإذ يقول:

قل للذين تشبهوا بذوي التقى لا يلعبن بنفسه متشبه  
هيهات لا يخفى التقى من ذي التقى  
هيهات لا يخفى امرؤ متأله  
إن القلوب إذا طوت أسرارها أبدت لك الأسرار منها الأوجه<sup>(١)</sup>



---

(١) نفس المصدر، ص ٢٨٧.

في  
معاني شعره وأخيلته

وفيه فصول:

- الفصل الأول: فيما الأصل فيه الاقتباس من القرآن الكريم.  
الفصل الثاني: فيما الأصل فيه الاقتباس من الحديث النبوي الشريف.  
الفصل الثالث: فيما الأصل فيه الأخذ من سائر الآثار والأخبار.  
الفصل الرابع: في أخذه من الشعراء وأخذ الشعراء منه.  
الفصل الخامس: فيما يغلب على الظن أنه اختراع لا اتباع.





## في ما الأصل فيه الاقتباس من القرآن الكريم

### الاقتباس الأول:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وقال، صلى الله عليه وسلم، في «حجة الوداع»: «أيها الناس ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لأدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»<sup>(٢)</sup>. وعنه، صلى الله عليه وسلم، من حديث: «لا حسب كحسن الخلق»<sup>(٣)</sup>. وعنه، صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه ورفعتم أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾»<sup>(٤)</sup>. ورواية المبرد في «الكامل»: إذا حشر الناس في صعيد واحد نادى مناد من قبل العرش: ليعلمن أهل الموقف من أهل الكرم اليوم، ليقيم المتقون. ثم تلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ونبه إلى أن أبا العتاهية أخذ من الحديث قوله:

ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يذخر

(١) سورة الحجرات.

(٢) البيان والتبيين، ج ٢ ص ٢٥، ٢٦.

(٣) الحلية، ج ١ ص ١٦٨.

(٤) إتحاف السادة المتقين، ج ٩ ص ٢١٠.

ثم قال: ولو قال قائل، إن أقرب ما أخذ منه أبو العتاهية قول الخليل بن أحمد:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد      ذخراً يكون كصالح الأعمال  
لكان قد قال قولاً<sup>(١)</sup>. هذا ويبت الخليل منسوب للأخطل في  
«الأغاني»<sup>(٢)</sup>، ولا بن مقبل في «تاريخ الطبري»<sup>(٣)</sup>. وقد أكثر أبو العتاهية  
الافتباس من الآية والأحاديث كقوله في حقيقة الكرم والنسب الرفيع:  
ولقد طلبت فلم أجد كرمأً      أعلى بصاحبه من التقوى  
ونحوه الشطر الثاني من قوله:  
أشد الجهاد جهاد الهوى      وما كرم المرء إلا التقى<sup>(٤)</sup>  
وقوله:

ألا إن تقوى الله أكرم نسبة      تسامى بها عند الفخار كريم  
وقوله لمن فخر عليه واستطال بقوم من أهله:  
دعني من ذكر أب وجد      ونسب يعليك سور المجد  
ما الفخر إلا في التقى والزهد      وطاعة تعطي جنان الخلد  
وقوله:

إذا لم تتخذ للموت زاداً      ولم تجعل بذكر الموت شغلك  
فقد ضيعت حظك يوم تدعى      وأصلك حين تنسبه وفصلك  
وقوله:

وإذا تناسبت الرجال فما أرى      نسباً يكون كصالح الأعمال

(١) الكامل، للمبرد، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) الأغاني، ج ٧ ص ١٧٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥ ص ٢٩.

(٤) الديوان المخطوط.

ولهذا البيت من الشبه ببيت الخليل أو الأخطل أو ابن مقبل من جهة بناء الكلام وأسلوبه ووزن البيت وقافيته وبعض لفظه ما يرجح أنه كان نصب عيني الشاعر حين نظم بيته، بل ولا فرق إلا في وضع النسب موضع الذخر، ونسب المتقين إلى التقوى هو ولا ريب كل العدة والذخر. ويلاحظ أن أبيات أبي العتاهية لا تخلو من فروق تجعل بعضها أخص ببعض المقتبس من بعض. فالبيت الثاني أقرب إلى الآية وخطبة الوداع وحديث الحشر في الصعيد الواحد، والبيت الرابع بما تضمن من التسامي بالنسب الرفيع أظهر اتصالاً بحديث رفع الله لنسبه ووضعه أنساب الرافعين أنسابهم، والبيت الثامن بما تضمن من ضياع الحظ يوم الدعوة فيه إشارة إلى ما في هذا الحديث من قول الله تعالى: ﴿أين المتقون أين المتقون﴾. هذا وللبحتري في المعنى:

لا أحفل المرء أو تقدمه      شتى خلال أشفها أدبه  
ولست أعتد للفتى حسبا      حتى يرى في فعاله حسبه  
وللمتنبي:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي      وبنفسي فخرت لا بجدودي  
ولشوقي ما قطع مقالة كل مغتر بأصله فخور على أبناء جنسه وهو قوله:  
لا يقولن امرؤ أصلي فما      أصله مسك وأصل الناس طين  
وبيت شوقي هذا أظهر اتصالاً ببيت أبي العتاهية الثامن وأبيات البحتري والمتنبي أخص بما سبق من قوله، صلى الله عليه وسلم: «لا حسب كحسن الخلق».

### الاعتباس الثاني:

قال تعالى حكاية لقول من يؤق كتابه بشماله يوم القيامة: ﴿ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه﴾<sup>(١)</sup> اقتبس منها أبو العتاهية قوله:  
أشهد الجامع أن لو قد أتى      يومه لم يغن عنه ما جمع

(١) سورة الحاقة.

### الاقْتِبَاسُ الثَّالِثُ :

قال تعالى : ﴿وَيَدْعُو الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾<sup>(١)</sup> .  
وتأويلها كما في «الكشاف» أن الإنسان يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه  
ويخطر بباله، لا يتأنى فيه تأتي المتبصر؛ اقتبسها أبو العتاهية في قوله :  
المرء يغلط في تصرف حاله      فلربما اختار العناء على الدعه

### الاقْتِبَاسُ الرَّابِعُ :

قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾<sup>(٢)</sup> ، اقتبس منها قوله :  
يبكي ويضحك ذونفس مصرفة      والله أضحكه والله أبكاه

### الاقْتِبَاسُ الْخَامِسُ :

نبه صاحب «الموازنة» على أخذ بيت أبي تمام :  
قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت      وبيتلي الله بعض القوم بالنعيم  
من قول أبي العتاهية :  
كم نعمة لا يستقل بشكرها      لله في طي المكاره كامنه<sup>(٣)</sup>  
ونبه أبو هلال في «الصناعتين» على مثله ثم قال : وزاد عليه لأنه أتى بضد  
المعنى<sup>(٤)</sup> .

وروى الحصري في «زهر الآداب» تعزية جعفر بن محمد لرجل بقوله

---

(١) سورة الإسراء .

(٢) سورة النجم .

(٣) الموازنة، ص ٤٠ .

(٤) الصناعتين، ص ٢١٦ .

أعظم بنعمة في مصيبة جلبت أجراً، وأفزع بمصيبة في نعمة كسبت كفراً. وعقبها بقوله: هذا كقول الطائي:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت

... البيت<sup>(١)</sup>.

وصنع الحموي في «خزانة الأدب» بالبيتين صنيع أبي هلال في «الصناعتين» وجعله من حسن الاتباع للزيادة التي أشار إليها أبو هلال<sup>(٢)</sup>. ولا أدري لِمَ لَمْ يتنبهوا لهذا النبع الفياض الذي نهل منه أبو العتاهية وغيره ممن ورد حياض هذا المعنى وهو قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾<sup>(٣)</sup>. وقد جمعت معنى أبي العتاهية وضده الذي في بيت حبيب وقوله تعالى: ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾<sup>(٤)</sup> ولأبي العتاهية في ما جمع بين المعنيين:

وقد يهلك الإنسان من باب أمنه

وينجو بإذن الله من حيث يحذر

وأغار عليه أبو هلال في قوله:

وقد يعرض المحذور من حيث يرتجى

ويمكنك المرجو من حيث تتقي

وينبغي التنبيه إلى أمرين: أحدهما مشاركة أبي دهمان الغلابي من معاصري أبي العتاهية له في هذا المعنى بقوله:

فما كل ما يخشى الفتى بمصيبه ولا كل ما يرجو الفتى هونائل

---

(١) زهر، ج ١ ص ١٢٣.

(٢) خزانة الأدب للحموي، ص ٤٠٩.

(٣) سورة البقرة.

(٤) سورة النساء.

ثانيهما سبق طائفة لهما به كجميل في قوله :  
فكم مرتج أمراً أتيج له الردى      ومن خائف لم ينتقصه التخوف  
وعبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر في قوله :  
لا تعجلن فربما      عجل الفتى فيما يضره  
ولربما كره الفتى      أمراً عواقبه تسره  
ولأعرابي :

كم مرة حفت بك المكاره      خار لك الله وأنت كاره  
وفي أمثال أبي عبيد (من مأمنه يؤق الحذر)<sup>(١)</sup>. وقال أبو العتاهية :  
يكون الفتى في نفسه متحرزاً      فيأتيه أمر الله من حيث لا يدري

#### الاقتباس السادس :

قال الله جل وعلا : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾<sup>(٢)</sup>. وقال :  
﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن  
يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾<sup>(٣)</sup>. ومما ورد في « التوراة » من هذا  
المعنى : ﴿ يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تهتك  
ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك ﴾<sup>(٤)</sup>. وقال عيسى ، عليه السلام :  
« تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير العمل ولا تعملون للآخرة  
وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل »<sup>(٥)</sup>. وعن علي ، كرم الله وجهه : « ألا  
فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة »<sup>(٦)</sup>. ومن وصية له لابنه الحسن : « واعلم

(١) أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام ، ص ١٤ .

(٢) سورة الذاريات .

(٣) نفس السورة .

(٤) التصوف الإسلامي ، ج ١ ص ٢٧٠ .

(٥) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٠٩ .

(٦) نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٦٧ .

أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا»<sup>(١)</sup>. وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه: «ما لي أراكم تحرصون على ما تكفل لكم به وتضيعون ما وكلتم به»<sup>(٢)</sup>. وعن إبراهيم بن أدهم بقوله لبعض أصحابه: «إنك طالب ومطلوب بطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته كأنك بما غاب عنك قد كشف لك وكأنك بما أنت فيه قد نقلت عنه»<sup>(٣)</sup>. وعنه إذ سئل عن بدء أمره حتى صار إلى الزهد قال: «إني من ملوك خراسان وكان قد حُبب إليّ الصيد، فبينما أنا راكب فرساً وكلبي معي إذ تحركت على صيد فسمعت نداء من ورائي: يا إبراهيم ليس لهذا خلقت ولا به أمرت»<sup>(٤)</sup>. وقال أبو العتاهية في معنى الآية الثانية وما ورد من التوراة، وكلمة إبراهيم بن أدهم:

ومنزلة خلقت لها جعلت لغيرها شغلي  
فالمنزلة التي خلق لها الناس عبادة الله والشغل الذي شغلوا به هو طلب الدنيا. وقال في معنى الآية الأولى وكلمة المسيح:

فالرزق قد فرغ الإله لنا منه ونحن بجمعه نغنى  
وأشد اتصالاً بكلمتي علي، كرم الله وجهه، الشطر الأول من قوله:  
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها وما كنت فيه فهو شيء محبب  
وقال، فيما هو أَمَس بكلمة أبي الدرداء وأولى كلمتي ابن أدهم:  
تعنى بما تكفى وتترك ما به توصى كأنك للحوادث آمن  
ومن هذا البيت قول أبي تمام:

تحوم على إدراك ما قد كفيته وتقبل بالآمال فيه وتدبر  
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءه وليلته تنعاك إن كنت تشعر

(١) النهج، ج ٣ ص ٥٤.

(٢) الحلية، ج ١ ص ٢٢١.

(٣) الحلية، ج ٨ ص ١٣.

(٤) الحلية، ج ٧ ص ٣٦٨؛ وتاريخ أبي الفداء، ج ٢ ص ٩.

والمأمل في البيتين يجد أنها مع هذا التطويل لم يزيدها على بيت  
أبي العتاهية إلا هذا التكلف في إقبال الآمال وإدبارها وهذا التفصيل في نعي  
الصباح للناس بضوئه ثم ليله، وأجمع منه ما تطويه كلمة الحوادث تحتها من  
طرووقها في كل وقت وآن، وتبعه أبو العلاء فقال:

وإن دنيائي دار لا قرار بها      وما أزال معنّى في مساعيها  
كذلك النفس ما زالت معللة      بباطل العيش حتى قام ناعيها  
وقال:

أنشأت تطلب فيها غير مسعفة      وما لها أيها الإنسان أنشينا  
ولأبي العتاهية في نحو ما سلف له:  
يا صاحبي نسيت دار إقامتي      وعمرت داراً ليس لي فيها مقام

#### الاقتباس السابع:

قال تعالى، مخاطباً نبيه، صلى الله عليه وسلم في شأن المنافقين:  
﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا  
وتزهد أنفُسهم وهم كافرون﴾<sup>(١)</sup>. اقتبس أبو العتاهية معنى الآية مطلقاً عن قيد  
النفاق فقال:

أرى الدنيا لمن هي في يديه      عذاباً كلما كثرت لديه  
ودل على أنه يقيد الغنى بقيد الحرص والرغبة أن البيت مقول في أبيات  
شفاعة للوزير أبي عبيد الله وقد سبقت القصة ووصفه فيها بالحرص، ويدل  
البيتان اللذان بعد البيت على هذا التقييد أيضاً وهما:

تهين الكرمين لها بصغر      وتكرم كل من هانت عليه  
إذا استغنيت عن شيء فدعه      وخذ ما أنت محتاج إليه

---

(١) سورة التوبة.



## الاقْتِباس الثامن:

قال تعالى: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
لَايَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(١)</sup>. ومن معنى الآية مع الحكم بالشمول قول بعض  
الخطباء: أشهد أن في السموات والأرض آيات ودلالات وشواهد قائمة كل  
يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية<sup>(٢)</sup>. وقول أبي العتاهية:

فيا عجباً كيف يعصي الإله      ه أم كيف يجحده الجاحد  
ولله في كل تحريكة      وتسكينة في الورى شاهد  
وفي كل شيء له آية      تدل على أنه الواحد

وأخذ ابن العربي هذا البيت الثالث فتصرف فيه تصرفاً أخرجه عن  
أنس المتعارف المألوف إلى وحشة المنكر المخوف إذ زجَّ به في بيداء وحدة الوجود  
في قوله:

وفي كل شيء له آية      تدل على أنه عينه<sup>(٣)</sup>

وأحسن أبو العتاهية الاقتباس من الآية إذ جعل الحكم خاصاً بالعقلاء  
كمضمونها مع مثل ما سبق من الشمول فقال:

إذا المرء كانت له فكرة      ففي كل شيء له عبرة

## الاقْتِباس التاسع:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي  
الْصُّدُورِ﴾<sup>(٤)</sup>. فاقتبس منها قوله:

ألا رب ذي عينين لا تنفعانه      وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) زهر، ج ٢ ص ٤٨، ٤٩.

(٣) التصوف، ج ١ ص ١٧٢، ٢٦٤؛ وانظر ج ٢ ص ١٦.

(٤) سورة الحج.

## الاعتباس العاشر :

قال تعالى : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾<sup>(١)</sup> فاعتبس منها قوله :  
كم من فتى قد دنت للموت رحلته وخير زاد الفتى للقبر تقواه  
وقوله :

طاعة الله خير زاد إليه      حكمة الله للقلوب تزيع  
وقد سبقه إلى هذا الاعتباس عمير بن الحمام أخو بني سلمة إذ سارع إلى  
قتال المشركين في بدر ليقتل فيدخل الجنة وهو يقول :  
ركضاً إلى الله بغير زاد      إلا التقى وعمل المعاد  
والصبر في الله على الجهاد      وكل زاد عرضة النفاق  
غير التقى والبر والرشاد<sup>(٢)</sup>

## الاعتباس الحادي عشر :

قال تعالى : ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾<sup>(٣)</sup>  
اعتبس مضمونها في الشطر الثاني من قوله :  
الخير والشر عادات وأهواء      وقد يكون من الأحباب أعداء

## الاعتباس الثاني عشر :

قال تعالى : ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾<sup>(٤)</sup> . وقال صلى الله  
عليه وسلم : «حب الدنيا رأس كل خطيئة» . قال الأثري : رواه البيهقي في  
الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً وهو عند أبي نعيم في  
ترجمة سفيان الثوري من «الحلية» من قول عيسى بن مريم ، عليه السلام وعند

---

(١) سورة البقرة .

(٢) القصة في الأغاني مفصلة عن ابن اسحاق ، ج ٤ ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة التغابن .

(٤) سورة العلق .

ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» له عن مالك بن دينار؛ وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب البجلي وبالأول يرد عليه وعلى غيره ممن صرح بالحكم عليه بالوضع لقول ابن المديني: مراسلات الحسن إذا رواها عنه الثقات صحاح. وقال الدارقطني في «مراسيله»: ضعيف<sup>(١)</sup>. وزاد الزبيدي روايته عن علي مرفوعاً ثم أضاف إلى هذه النسب المترددة نسبة ابن يونس له في كتابه «تاريخ مصر» لسعد بن مسعود التجيبي<sup>(٢)</sup>. اقتبس أبو العتاهية من الآية والحديث قوله ووضع الآفة موضع رأس كل خطيئة:

المرء آفته هوى الدنيا والمرء يطغى كلما استغنى

### الاعتباس الثالث عشر:

قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾<sup>(٣)</sup>. فقال أبو العتاهية: وغلب لفظ الطي على القبض أو جعله مجازاً عنه تشبيهاً له به في مطلق الضم والجمع واستعماله في المعنيين الحقيقي والمجازي من عموم المجاز. غداً تخرب الدنيا ويذهب أهلها جميعاً وتطوى أرضها وسماؤها

### الاعتباس الرابع عشر:

قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني﴾<sup>(٤)</sup>. وقال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾<sup>(٥)</sup>. فأحسن الاعتباس منها في قوله:

أليس الله في كل قريباً بلى من حيث ما نودي أجاباً

(١) كتاب «تمييز الطيب من الخبيث» ص ٦٤.

(٢) إتحاف السادة المتقين، ج ٧ ص ٣٥٤.

(٣) سورة الزمر.

(٤) سورة البقرة.

(٥) نفس المصدر.

## الاعتباس الخامس عشر:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾<sup>(١)</sup>. فاعتبس من الآية الرزق من حيث لا يحتسب وضم إليه ضده وهو عدمه من حيث يحتسب فساغ له أن يعم بالوصفين الناس أجمعين متقين وغير متقين فيقول:

ويرزق الإنسان من حيث لا يرجو وأحياناً يضل الرجا  
وخاص بالمتبس البيت الثاني من قوله:

يا رب رزق قد أتى من سبب وسلم العبد إليه السطلب  
ورب من قد جاءه رزقه من حيث لا يرجو ولا يحتسب

وتقسيم الرزق في البيتين إلى مطلوب بالسبب وغير مرجو ولا محتسب على حذو قول بعض الأعراب - وقد قال له أبو العتاهية في الحج: من أين معاشكم؟ فقال: منكم معشر الحجاج، فقال: إنما يكون ذلك في وقت من السنة. فأطرق الأعرابي ثم قال: لا والله لا أدري ما أقول إلا أنا نرزق من حيث لا نحسب أكثر مما نرزق من حيث نحسب<sup>(٢)</sup>.

## الاعتباس السادس عشر:

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(٤)</sup>. وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾<sup>(٥)</sup>. اقتبس من الآيات بيته:

فكرت في الدنيا وجدتها فإذا جميع جديدها يبلى

(١) سورة الطلاق.

(٢) القصة في الأغاني، ج ٣ ص ١٦١.

(٣) سورة القصص.

(٤) سورة الرحمن.

(٥) سورة آل عمران.

وإذا جميع أمورها دول بين البرية قلما تبقى  
ومن بعض هذه الأبيات قول علي، كرم الله وجهه، فله الحمد رب  
السموات السبع ورب العرش العظيم الذي يبقى ويفنى ما سواه<sup>(١)</sup>. وعلى  
حذوه قول أبي العتاهية:  
فالحمد لله الذي يبقى ويهلك ما سواه

### الاقْتِبَاسُ السَّابِعُ عَشَرَ:

قال تعالى: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون. لهم  
دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾<sup>(٢)</sup>. وقال، صلى الله عليه  
وسلم، من حديث: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»<sup>(٣)</sup> اقتبس  
من الآية والحديث قوله:

والله للناس بأعمالهم وكل ناو فله ما نوى

وظاهر أن الشطر الأول خاص بالآية وتقديره ولاية الله فهو على حذف  
مضاف والثاني خاص بالحديث ونحوه:

وما للمرء إلا ما نوى في الخير أو قدّم

### الاقْتِبَاسُ الثَّامِنُ عَشَرَ:

قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة  
طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾<sup>(٤)</sup> اقتبس منها قوله:  
وإذا اتقى الله الفتى وأطاعه فهناك يصفو عيشه ويطيب

---

(١) دستور معالم الحكم، ص ٥١.

(٢) سورة الأنعام.

(٣) صحيح البخاري، ج ١ ص ٢.

(٤) سورة النحل.

## الاقتباس التاسع عشر:

قال تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾<sup>(١)</sup>. وقال جل شأنه: ﴿يا معشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾<sup>(٢)</sup> اقتبس من الآيتين قوله:

أين المفر من القضا      ء مشرقاً ومغرباً  
انظر ترى لك مذهباً      أو ملجأ أو مهرباً  
وقوله:

وما من مذهب إلا إليه      وإن سبيله لهو السبيل  
ولبهلول في المعنى:  
حسبي الله توكلت عليه      من نواصي الخلق طراً في يديه  
ليس للهارب في مهربه      أبداً من ملجأ إلا إليه

## الاقتباس العشرون:

قال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾<sup>(٣)</sup>. اقتبس من الآية قوله:  
وإذا أردت ذخيرة تبقى فنا      فس ادخار الباقيات الصالحات

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة الرحمن.

(٣) سورة الكهف.

## الاقْتَباس الحادي والعشرون:

قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾<sup>(١)</sup>. اقتبس منها قوله:

ما كل ذي حاجة بمدركها      كم من يد لا تنال ما طلبت  
وقوله:

ما كل ما تشتهي يكون      والدهر تصريفه فنون  
وقوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه      رب امرئ حثفه فيما تمناه

المراد الشطر الأول أما الثاني فمما رواه القالي قال: حج عتبة سنة إحدى وأربعين والناس حديث عهدهم بفتنة فصلى بمكة الجمعة ثم خطبهم ومن خطبته: «رب متمن حثفه في أمنيته»<sup>(٢)</sup> وأغار على البيت أبو الطيب فأخذ الشطر الأول بلفظه وأضاف إليه تمثيلاً ساقه مساق الدليل في قوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه      تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

## الاقْتَباس الثاني والعشرون:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال، صلى الله عليه وسلم، من حديث: «رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»<sup>(٤)</sup>. اقتبس من الآية قوله في الرشيد:

أمين الله أمنك خير أمنٍ      عليك من التقى فيه لباس

---

(١) سورة النجم.

(٢) أمالي القالي، ج ١ ص ٢٣٦.

(٣) سورة الأعراف.

(٤) البخاري، ج ٩ ص ٥٤.

ومنها ومن الحديث قوله:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى

تقلب عريانا وإن كان كاسيا

ومن الحديث وقول الحسن ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر عورة بادية ولا عيناً باكية من يوم القيامة<sup>(١)</sup> وقول الفضيل إن كان سبق الشاعر بها كم من قبيح تكشفه القيامة غداً<sup>(٢)</sup> قوله:

وخف القيامة ما استطعت فانما يوم القيامة يوم كشف المخبات

ونحوه بإطلاق المعنى عن التقيد بيوم القيامة قوله:

كم قد رأينا امراً من الخير عر يانا وإن كان يلبس الحللا

### الاقتباس الثالث والعشرون:

قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾<sup>(٣)</sup>. فأحسن الاقتباس منها ورد استعارة الموت للكفر إلى التشبيه الساذج الصريح فقال:

لقد أغفل الأحياء حتى كأنهم بما أغفلوا من طاعة الله أموات

ونظيره قوله مع التصرف في المستعار له وهو الإيمان بجعله الذكر الحسن والكفر بجعله الخزي:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الداني

فأحي ذكرك بالإحسان تفعله يكن كذلك في الدنيا حياتان

وزم إلى الاقتباس من الآية ما يقتضيه المعنى من عدم تأثر هذه الحياة المجازية بالموت الحقيقي وعدم انتفاع الميت المجازي بالحياة الحقيقية فقال:

(١) الحلية، ج ٢ ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) الحلية، ج ٨ ص ١٠٨.

(٣) سورة الأنعام.



من الناس ميت وهو حي بذكره      وحي سليم وهو في الناس ميت  
فأما الذي قد مات والذكر ناشر      فميت له دين به الفضل ينعت  
وأما الذي يمشي وقدمات ذكره      فأحمق أفنى دينه وهو أموت

ومن سبق إلى نحو هذا التصرف نثراً قول علي، كرم الله وجهه: «هلك خزان المال وهم أحياء وأهل العلم باقون ما بقي الدهر: أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة»<sup>(١)</sup>. وقوله: العالم حي وإن كان ميتاً والجاهل ميت وإن كان حياً. وقوله: المحسن حي وإن نقل إلى منازل الأموات<sup>(٢)</sup>. ومن سبق إلى المعنى شعراً قول بعض الشعراء يرثي عمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنه:  
رَدّت صنائعه عليه حياته      فكأنه من نشرها منشور

ومن حسن الاتباع قول أبي تمام يرثي:  
سلفوا يرون الذكر عيشاً ثانياً      ومضوا يعدون الثناء خلوداً  
وقول أبي الطيب وضم إليه بعض المعاني الزهدية:  
ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته      ما فاته وفضول العيش أشغال  
وقول البهاء زهير يرثي:  
فيا ثاويماً قد طيب الله ذكره

فأضحى وطيب الذكر عمر له ثاني  
وقوله:

لقد طوت الحوادث منه جسماً      وليس لذكره في الناس طي  
وفي أجفانه ندب سرى      تخلف بعده ذكر سني  
وليس شوقي ببعيد عن صنيعهم حيث يقول:  
من سره أن لا يموت فبالعلا      خلد الرجال وبالفعل النابه

(١) نهج البلاغة، ج ٣ ص ١٨٧؛ والخليّة، ج ١ ص ٨٠؛ ونوابغ كلم أمير المؤمنين، ص ٣٣.

(٢) غرر الحكم، ص ٣٣، ٥٢.

وليته لم يمت النبل والفضل ليتكلف إحياءهما لدى التاريخ، فإن القضية على أن الموت لا ينال مآثر الكرام وإن كان لا يبقى إلا العظام في قوله: مامات من نبل الرجال وفضلهم يحيا لدى التاريخ وهي عظام

#### الاقْتِباس الرابع والعشرون:

قال تعالى في شأن قارون: «أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا»<sup>(١)</sup>. وقال: «فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ويثر معطلة وقصر مشيد»<sup>(٢)</sup>. اقتبس منها قوله:

وكم باد جمع أولو قوة وحصن حصين وقصر مشيد

#### الاقْتِباس الخامس والعشرون:

قال تعالى: «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد»<sup>(٣)</sup>. فاقْتِبس منها قوله:

أرى الموت ديناً له علة فتلك التي كنت منها تحيد

وكأنه أراد بالعلة السكرة أو ما يؤدي إليها وقال:

وحدث عن الموت الذي لن تفوته

ولا بد مما أنت منه تحيد

وقال:

يا عجباً كلنا يحيد عن الحيـ من وكل لحينه لا قي

---

(١) سورة القصص.

(٢) سورة الحج.

(٣) سورة ق.

### الاعتباس السادس والعشرون:

قال تعالى مشيراً إلى ما يلاقيه الإنسان بعد موته: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾<sup>(١)</sup> واعتبس منها الثوري قوله: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»<sup>(٢)</sup>. وقال أبو العتاهية:

تيقظ فإنك في غفلة      يمد بك السكر فيمن يمد

### الاعتباس السابع والعشرون:

قال تعالى في شأن المؤمنين والجنة: ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾<sup>(٣)</sup>. اعتبسها مع اطلاق حكم الزيادة والإحسان عن قيد المكان والزمان، فقال:

تريد من الله احسانه      فيعطيك أكثر مما تريد

### الاعتباس الثامن والعشرون:

قال تعالى: ﴿وسنزيد المحسنين﴾<sup>(٤)</sup>. وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾<sup>(٥)</sup>. فاعتبسها في قوله: ومن شكر الله لم ينسه ولم ينقطع عنه منه المزيد

### الاعتباس التاسع والعشرون:

قال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾<sup>(٦)</sup> وعن أبي عبد الله الحسين، رضي الله عنه، : جديدها بال ونعيمها مضمحل وسرورها مكفهر<sup>(٧)</sup>. وبيننا سليمان بن

---

(١) سورة ق.

(٢) الحلية، ج ٧ ص ٥٢.

(٣) سورة ق.

(٤) سورة البقرة والأعراف.

(٥) سورة إبراهيم.

(٦) سورة النساء.

(٧) زهر الأداب، ج ١ ص ٩٩.

عبدالملك يتوضأ ليس عنده غير خاله والغلام يصب عليه إذ خر الغلام ميتاً فقال سليمان :

قرب وضوءك يا حسين فإنما هذي الحياة تعلقة ومتاع<sup>(١)</sup>  
المراد ومتاع قليل لدلالة التوكيد بمعونة المقام على التقليل ومن الآية  
وما اقتبس منها قول أبي العتاهية :  
وأفضل شيء نلت منها فانه متاع قليل يضمحل وينفد

### الاقتباس الثلاثون :

قال تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾<sup>(٢)</sup> . اقتبس منها الشطور الثواني من قوله :  
سبحان من ألهمني حمده ومن هو الأول والآخر  
ومن هو الدائم في ملكه ومن هو الباطن والظاهر  
وقوله :

ولا ملك إلا ملكه عز وجهه هو القبل في سلطانه وهو البعد

### اقتباس آخر :

وقال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال في  
الإنسان : ﴿ ونثرته ما يقول ويأتينا فرداً ﴾<sup>(٤)</sup> . ومن السبق إلى الاقتباس من  
الآيتين شعراً قول وضاح اليمن في الموق :

كذلك يبعثون وهم فرادى ليوم فيه توفية الحقوق

ونثراً قول الحسن ابن آدم : انك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك وتبعث  
وحداً وتحاسب وحدك<sup>(٥)</sup> . وقول ثابت البناني : أي عبد أعظم حالاً من عبد يأتيه

(١) البيان والتبيين، ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) سورة الحديد .

(٣) سورة الأنعام .

(٤) سورة مريم .

(٥) الحلية، ج ٢ ص ١٥٥ .

ملك الموت وحده ويوقف بين يدي الله وحده ومع ذلك ذنوب كثيرة ونعم من الله كثيرة<sup>(١)</sup>. وقال أبو العتاهية:

تموت فرداً وتأتي يوم القيامة فرداً

### الاقتباس الحادي والثلاثون:

قال تعالى: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾<sup>(٢)</sup>. اقتبس منها قوله:

ليت شعري فكيف حالك يا نفس      س غداً بين سائق وشهيد

وسبقه إليه الفرزدق إلا أنه لم يصبه ولعل ذلك كان قبل أن يصبر نفسه على حفظ القرآن لذكره لفظي السائق والقائد وهما بمعنى واحد، والذي في الآية سائق وشاهد، ولا دليل على التحريف لأنه وصف القائد بالعنف ولا يوصف به الشاهد، فقال فيما يخافه مما هو أشد من القبر:

إذا جاءني يوم القيامة قائد      عنيف وسواق يقود الفرزدقا

### الاقتباس الثاني والثلاثون:

قال تعالى حكاية لمقالة نوح، عليه السلام، لقومه: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾<sup>(٣)</sup> اقتبس المعنى الثاني فقال:

ما استوى الناس منذ كانوا أناساً      خلق الله خلقه أطواراً

واختلاف الناس بهذا الاقتباس ذهاب بمعنى الأطوار إلى الأصناف المختلفة الألوان واللغات، والأظهر فيها الضروب والأحوال النطف ثم العلق ثم المضغ ثم العظام كقوله تعالى: ﴿خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) الحلية، ج ٢ ص ٣٢٥.

(٢) سورة ق.

(٣) سورة نوح.

(٤) سورة الزمر.

### الاعتباس الثالث والثلاثون:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾<sup>(١)</sup>. وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾<sup>(٢)</sup>. اعتبسهما في قوله:  
أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ      مَا أَنْتَ يَا دُنْيَايَ إِلَّا غُرُورٌ

### الاعتباس الرابع والثلاثون:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. اعتبس من المعنى لازمه وهو حب الدنيا وبغض الآخرة، فقال:  
إِذَا وَصَفْتَ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ ضَحِكُوا      وَإِنْ وَصَفْتَ لَهُمْ آخِرَاهُمْ عَبَسُوا

### الاعتباس الخامس والثلاثون:

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾<sup>(٤)</sup>. فقال وترك وصف الإحسان للدلالة التوفير عند الله على أنه جزاء الإحسان:  
وَاعْلَمْ بِأَنْ جَمِيعَ مَا قَدَمْتَهُ      عِنْدَ الْإِلَهِ مُوَفَّرٌ لَكَ لَمْ يَضَعْ

### الاعتباس السادس والثلاثون:

قال تعالى: ﴿وَالِىَ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾<sup>(٥)</sup>. اعتبسهما في الشطر الأول من بيته الآتي وضم إليه معنى آخر يتصل بالرجوع إلى الله وهو التفرق بعد الاجتماع في هذه الحياة فقال:

لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ جَمِيعًا      أَخْشَى التَّفَرُّقَ أَنْ يَكُونَ سَرِيعًا

---

(١) سورة الشورى.

(٢) سورة الحديد.

(٣) سورة الزمر.

(٤) سورة الكهف.

(٥) سورة لقمان.

### الاقبتباس السابع والثلاثون:

قال تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾<sup>(١)</sup>.  
اقتبسها في الشطر الأول من قوله:

انفق فإن الله يخلفه لا تمض مذموماً وتتركه

### الاقبتباس الثامن والثلاثون:

قال تعالى: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي  
أرض تموت إن الله عليم خبير﴾<sup>(٢)</sup>. اقتبس منها قوله:

ليت شعري فإني لست أدري أي يوم يكون آخر عمري  
وبأي البلاد يقبض روحي وبأي البقاع يحفر قبري

هذا وليس الاقتباس ظاهراً إلا في الشطر الثالث ولكن جهل النفس  
بكسب الغد يومئذ إلى الجهل بكل ما يجري على النفس في غدها ومن ذلك  
الحياة والموت فيظهر الاقتباس في البيت الأول؛ على أن أبا العلاء تجوز في المنية  
فجعلها من الكسب في قوله:

ولرب مشتار ترقى في الذرى فجنى المنية في الذي يشتار

وجهل النفس بأرض مماتها يدل على جهلها بموضع قبرها لكونه غالباً في  
أرض الموت فيشرق الاقتباس في الشطر الرابع وعلى ضوء هذا القبس جاء  
بهاء الدين زهير، فقال:

ليت شعري ليت شعري أي أرض هي قبري  
ومتى يوم وفاتي ليتني لو كنت أدري

---

(١) سورة سبأ.

(٢) سورة لقمان.

## الاعتباس التاسع والثلاثون:

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَإِنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى. ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى. وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾<sup>(١)</sup>. فاعتبس منها قوله:

فما ماتت الأحياء إلا ليعثوا والا لتجزى كل نفس بما سعت

## الاعتباس الأربعون:

قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>. فقال:

وإن له لمنأ ليس يحصى وإن عطاءه لهو الجزيل

## الاعتباس الحادي والأربعون:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مَخْلَفٌ وَعَدَهُ رُسُلُهُ﴾<sup>(٣)</sup>. فاعتبس منها قوله:

ولا تحسبن الله يخلف وعده بما كان أوصى المرسلين وأرسلا

## الاعتباس الثاني والأربعون:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذْ اهْتَدَيْتُمْ﴾<sup>(٤)</sup>. فقال:

وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلاً جميلاً

## الاعتباس الثالث والأربعون:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾<sup>(٥)</sup>. فاعتبسها في الشطر الثاني من قوله:

ولئن عقلت لتشكرن وإن تشكر فقد أغنى وقد أقنى

---

(١) سورة النجم.

(٢) سورة النحل.

(٣) سورة إبراهيم.

(٤) سورة المائدة.

(٥) سورة النجم.



ولكن الاقتباس خلا من التخصيص أو القنوة الدال عليها ضمير الفصل في الآية.

### الاقتباس الرابع والأربعون:

قال تعالى في وصف الحياة الدنيا: ﴿اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾<sup>(١)</sup>. اقتبس منها قوله:

تسل عنها فانها لعب      تفنى سريعاً وانها لهو  
وقوله:

ألم تر انما الدنيا حطام      وأن جميع ما فيها غرور  
وقوله:

همتنا اللهو والتكاثر في الما      ل وهذا البناء والخدام  
وزيادته البناء والخدام ظاهرية لدخول البناء في الحقيقة تحت المال وتبعية الخدام له.

### الاقتباس الخامس والأربعون:

قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾<sup>(٢)</sup>. ومنها وصف ابن عباس الهوى بأنه إله معبود<sup>(٣)</sup>. وقال الله جل شأنه: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾<sup>(٤)</sup>. فاقبس أبو العتاهية من الآية الأولى قوله:

لا تمض رأيك في هوى      إلا ورأيك فيه قصد  
من كان متبعاً هوا      ه فانه لهواه عبد

(١) سورة الحديد.

(٢) سورة الجاثية.

(٣) البيان والتبيين، ج ١ ص ١٩٩.

(٤) سورة الطور.

وقوله:

من أجاب الهوى إلى كل ما يد  
عوه مما يضل ضل وتاها  
ومن الآيتين قوله:

يا ذا الهوى مه لا تكن  
ممن تعبد هواه  
واعلم بأن المرء مر  
تهن بما كسبت يدها

### الاقتباس السادس والأربعون:

قال تعالى يخاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، في شأن المشركين الذين لم تغن فيهم النذر والعظات ﴿فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾<sup>(١)</sup>. والنكر هو المنكر الفظيع وقال: ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾<sup>(٢)</sup>. أدهى أشد وأفظع والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه، ومن هذا النور قبس أبو بكر، رضي الله عنه، قوله: الموت أشد مما قبله وأهون مما بعده<sup>(٣)</sup>. ولما احتضر معاوية تمثل:

هو الموت لا منجى من الموت والذي

نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع<sup>(٤)</sup>

وقال عمران بن حطان:

وكل كرب أمام الموت متضع  
للموت والموت فيما بعده جلل

وجاء أبو العتاهية على ضوء ما قبسوا فنظم طائفة من الأبيات المشرقات منها:

كل حي سيطعم الموت كرهاً  
ثم خلف الممات يوم فظيع  
ومنها:

ولله يومي أي يوم فظاعة  
وأفظع منه بعد يوم قيامتي

(١) و (٢) سورة القمر.

(٣) البيان والتبيين، ج ٣ ص ١٧٥.

(٤) مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٤٧.

ومنها:

فلو كان هول الموت لاشيء بعده      لهان علينا الأمر واحتقر الأمر  
ومن المعنى ما روي أن ابن أبي دلف قاسم بن عيسى العجلي رآه في  
سنة ٢٢٥ في النوم فأنشده:

فلو أنا إذا متنا تركنا      لكان الموت راحة كل حي  
ولكننا إذا متنا بعثنا      ونسأل بعدها عن كل شيء<sup>(١)</sup>

### الاعتباس الثامن والأربعون:

قال تعالى: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث  
لم يحتسبوا﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿ولا يحسن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون﴾<sup>(٣)</sup>.  
فاقتبس أبو العتاهية من الآيتين قوله:

وكم من ملوك شيدوا وتحصنوا      فما سبقوا الأيام شيئاً ولا فاتوا

ويؤخذ عليه أن السبق والفوات لا يتفرعان على التشييد والتحصين وإنما  
يتفرعان على الهرب والسير الحثيث كالذي رواه الجاحظ من قول من هرب على  
حماره من الطاعون الجارف والموت الذريع فلما كان في بعض الطريق ضرب وجه  
حماره راجعاً إلى حيه وقال:

لن يسبق الله على حمار      ولا على ذي مية خطر  
قد يصبح الله أمام الساري<sup>(٤)</sup>

وزاد ابن قتيبة، قبل الرابع:

أو يأتي الحتف على مقدار

(١) القصة في شذرات الذهب، ج ٢ ص ٥٧.

(٢) سورة الحشر والضمير لبني النضير.

(٣) سورة الأنفال.

(٤) البيان والتبيين، ج ٣ ص ١٧١.

وروايته للثاني:

ولا على ذي ميعة مطار<sup>(١)</sup>

### الاعتباس التاسع والأربعون:

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. لكيلاً تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ<sup>(٢)</sup>. ومن نور هذا المعنى اقتبس علي، كرم الله وجهه، ما كتب به إلى ابن عباس من قوله: أما بعد، فإن المرء يفرح بإدراك ما لم يكن ليفوته ويغتتم لفوت ما لم يكن ليدركه، فإذا آتاك الله من الدنيا شيئاً فلا تكثر به فرحاً وإذا منعك منها شيئاً فلا تكثرن عليه ترحاً وليكن همك لما بعد الموت، والسلام<sup>(٣)</sup>. وقد ذهب الشعراء بهذا المعنى مذاهب مختلفة من الفخر والأدب والمديح كقول حسان، رضي الله عنه، يمدح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقومه:

لا يفرحون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

وقال الزبير، رضي الله عنه، يفخر:

لا أحسب الشرجاراً لا يفارقني ولا أحز على ما فاتني الودجا  
ولا لقيت من المكروه نازلة إلا وثقت بأن ألقى لها فرجا  
ولا تراني لما قد فات مكتئباً ولا تراني بما قد نلت مبتهجا<sup>(٤)</sup>

وقال الخطيئة يمدح:

فتى غير مفراح إذا الدهر مسه ومن نكبات الدهر غير جزوع

(١) عيون الأخبار، ج ١ ص ١٤٤.

(٢) سورة الحديد.

(٣) دستور معالم الحكم، ص ٩٦.

(٤) الفرج بعد الشدة، ج ٢ ص ٢١٥.

وقال أعشى همدان يمدح عبدالملك:

إن تلق بلوى فأنت مصطبر وإن تلاق النعمى فلا فرح

وقال كثير في عمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنه:

هو المرء لا يبدي أسى من مصيبة ولا فرحاً يوماً إذ النفس سرت

وقال الأحوص يمدح:

إذا نال لم يفرح وليس بنكبة إذا حدث بالخاضع المتضائل

وقال طريح الثقفي في بني أمية:

لا يفرحون إذا ما الدهر طاوعهم يوماً يبسر ولا يشكون إن نكبوا

وقال البعيث<sup>(١)</sup> أو هذبة بن خشرم<sup>(٢)</sup> يفخر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب

وزهب أبو العتاهية بالمعنى مذهب الأدب والحكمة في قوله:

وذو الفضل لا يهتر إن هزه الغنى لفخر ولا إن عضه الدهر يفزع

وقوله:

لا تفرحن بما ظفرت به وإذا نكبت فأظهر الجلد

وقوله:

لقد حلبت الزمان أشطره فكان فيهن الصاب والسلع

ما لي بما قد أتى به فرح ولا على ما ولى به جزع

وقال البارودي:

فما أسفت لبؤس بعد مقدرة وما فرحت بوفر بعد إقلال

(١) رواية عيون الأخبار، ج ١ ص ٢٧٦.

(٢) رواية الطبري، ج ٥ ص ٢٨.

## الاعتباس الخمسون:

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾<sup>(١)</sup>. وقال، صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله»<sup>(٢)</sup>، فاعتبس من الآية والحديث قوله:

لن يصدق الله المحبة عبده إلا أحب له وفيه وأبغضا

## الاعتباس الحادي والخمسون:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٣)</sup>، فاعتبس منها قوله:

صاحب البغي ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغي

## الاعتباس الثاني والخمسون:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾<sup>(٤)</sup>، فاعتبس منها مع نوع تصرف، قوله:

من لم يوال الله والرسول التي نصحت له فوليه الطاغوت وقوله:

لم تقتحم بي دواعي النفس معصية إلا وبيني وبين النور ظلماء

---

(١) سورة المجادلة.

(٢) العزيزي، ج ١ ص ٧٩.

(٣) سورة يونس.

(٤) سورة البقرة.

### الاعتباس الثالث والخمسون:

قال تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾<sup>(١)</sup>، فاعتبسها بنوع تصرف في قوله:  
من ضاق عنك فأرض الله واسعة  
في كل وجه مضيق وجه منفرج

### الاعتباس الرابع والخمسون:

قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾<sup>(٣)</sup>، فاعتبس منها الشطر الثاني من قوله:  
والله أرحم بالفتى من نفسه فاعمل فما كلفت ما لم تستطع

### الاعتباس الخامس والخمسون:

قال تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾<sup>(٤)</sup>، فاعتبس منها قوله:  
نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نصير  
وأغار عليه بعض الشعراء، ففي روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار  
لابن يعقوب صاحب الهداية<sup>(٥)</sup> أنشدنا أبو البركات بنيسابور:  
إنا على الدنيا ولذاتها ندور والموت علينا يدور  
نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نحور

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة التغابن.

(٤) سورة طه.

(٥) مخطوط.

## الاقبتباس السادس والخمسون:

قال تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذن لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾<sup>(١)</sup>، اقتبس منها قوله، مع نوع تصرف:

لو أن عبداً له خزائن ما في الـ  
أرض ما عاش خوف إملاق

وقوله:

ولربما سئل البخيل      هل الشيء لا يسوى فتيلاً  
فيقول لا أجد السبيـ      هل إليه يكره أن ينيلاً

ثم قال:

فاضرب بطرفك حيث شئ      ست فلن ترى إلا بخيلاً<sup>(٢)</sup>

## الاقبتباس السابع والخمسون:

قال تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق . وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق﴾<sup>(٣)</sup>، اقتبس منها قوله:

كأن حياً قد قام نادبه      والتفت الساق منه بالساق  
واستل منه حياته ملك المو      ت خفياً وقيل من راق

وسبقه إلى بعض المعنى وضاح اليمن في قوله:

وللأحياء أيام تقضى      تلف ختامها سوقاً بسوق

---

(١) سورة الإسراء.

(٢) القطعة في الأغاني، ج ٣ ص ١٥٩.

(٣) سورة القيامة.



## الاعتباس الثامن والخمسون:

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١)</sup>، اعتبسها مع تأويل للعلة وهي الفتنة بالرغبة في ما في يدي الله وسؤاله إياه، وهو تأويل ظاهر في الشر خفي في الخير، فقال:

بلا خلقه بالشر والخير فتنة      ليرغب فيما في يديه ويسألا

## الاعتباس التاسع والخمسون:

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>، فاعتبسها إلا أنه كما هو الظاهر تصرف في المعنى إذ جعله لكل نفس لا لنفوس المجاهدين بخصوصها وهو تصرف غير محمود، فقال:

أجابت نفوس داعي الله فانقضت      وأخرى لأمر الله منتظرات

## الاعتباس الستون:

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، اعتبسها ووضع الرضا بالقضاء موضع الشكر وهو من لوازمه، فقال:

لعلك تلقى أمر ربك شاكرًا      وقل امرؤ يرضى له بقضاء

## الاعتباس الحادي والستون:

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>، قاتبس منها قوله فيمن لا يقلع عن لذاته:

كأنني بنفسك قد عوجلت      على ذاك في بعض غراتها

---

(١) سورة الأنبياء.

(٢) سورة الأحزاب.

(٣) سورة سبأ.

(٤) سورة محمد.

وهذي القيامة قد أشرفت      على العالمين لميقاتها  
وإني لفي بعض أشراطها      وأيامها وعلاماتها

### الاعتباس الثاني والستون:

قال تعالى في بعض ما مثل به أعمال الكافرين لظلمتها وخلوها من نور الحق: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب﴾<sup>(١)</sup>، فاقبَس هذا المثل وتصرف فيه، فوضع الرياح والعواصف موضع السحب وجعله مثلاً لما يلقاه صاحب الدنيا منها، فقال:

تمنى المني والريح تلقاك عاصفاً      وفوقك أمواج وتحتك أبحر

### الاعتباس الثالث والستون:

قال تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾<sup>(٢)</sup>، فنقل هذا المثل الذي ضربه الله لقوة تأثير القرآن مع قسوة القلوب إلى تأثير العبر مع ضن العيون بالعبوات وقسوة القلوب، فقال:

وما زلت أرمي كل يوم بعبرة      تكاد لها صم الجبال تصدع  
فما بال عيني لا تجود بمائها      وما بال قلبي لا يرق ويخشع

### الاعتباس الرابع والستون:

قال تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾<sup>(٤)</sup>، ومنها ومن نحوهما وهو كثير في القرآن الكريم، اقتبس قوله:

إن أنت لم تهدينا ضللنا      يا رب إن الهدى هداكا

(١) سورة النور.

(٢) سورة الحشر.

(٣) سورة آل عمران.

(٤) سورة الكهف.

### الاعتباس الخامس والستون:

قال تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(٢)</sup>، اقتبس منها، مع بعض تصرف، قوله:

أحطت علماً بنا جميعاً أنت ترانا ولا نراكا  
وقوله قبله:

أنت الذي لم تزل خفياً لم يبلغ الوهم انتهاكا

### الاعتباس السادس والستون:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾<sup>(٥)</sup>، فاقتبس منها قوله:

الله يعلم ما تجن قلوبنا والله لا تخفى عليه خافيه

### الاعتباس السابع والستون:

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٦)</sup>، فاقتبس من بعضها الشطر الثاني من قوله:

إنّا بالله وحده وإليه إنما الخير كله في يديه

---

(١) سورة الطلاق.

(٢) سورة الأنعام.

(٣) سورة طه.

(٤) سورة النمل.

(٥) سورة التغابن.

(٦) سورة آل عمران.

## الاعتباس الثامن والستون:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾<sup>(١)</sup>، فاقبَس منها قوله:

أيا نفس لا تنسي كتابك واذكري لك الويل إن أعطيت به شمالك  
وقوله:

ليت شعري غدا أعطى كتابي بشمالي لشقوتي أم يميني

## الاعتباس التاسع والستون:

قال تعالى، يخاطب بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، فاقبَس منها:

يا ذا الذي يقرأ في كتبه ما أمر الله ولا يعمل  
قد بين الرحمن مقت الذي يأمر بالحق ولا يفعل  
إن الذي ينهى ويأتي الذي عنه نهى في الخلق لا يعقل

## الاعتباس السبعون:

قال تعالى في شأن القرآن: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾<sup>(٤)</sup>، فاقبَس منها قوله:

وتخير الشبهات من لم ينهه عنهن تسليم ولا استسلام

(١) سورة الحاقة.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة الصف.

(٤) سورة آل عمران.

### الاعتباس الحادي والسبعون:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(١)</sup>،  
فاقتبس منها قوله:

لا تتبعن يداً بسطت بها الـ — معروف منك أذى ولا مناً

### الاعتباس الثاني والسبعون:

قال تعالى: ﴿إِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، واقتبس منها علي،  
كرم الله وجهه، قوله: المحسن معان<sup>(٣)</sup>، وأتبعه أبو العتاهية، فقال:  
أبشر بعون الله إن تك محسناً فالمرء يحسن طرفه فيعان  
وقال:

حبذا الإحسان ما أكرمه من يسيء يخذل ومن يحسن يعن

### الاعتباس الثالث والسبعون:

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾<sup>(٤)</sup>،  
فاقتبس منها قوله:

لتنالئك المنايا ولو أنـ لك في شاهر عليك الحصون

### الاعتباس الرابع والسبعون:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مِثْقَلَةَ إِلَى حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾<sup>(٥)</sup>، وقال: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة الأعراف.

(٣) غرر الحكم، ص ١٠.

(٤) سورة النساء.

(٥) سورة فاطر.

ما يزون ﴿١﴾، وقال: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ ﴿٢﴾، وقال: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها﴾ ﴿٣﴾، وقال: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ ﴿٤﴾، وقال في شأن الكافرين: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ ﴿٥﴾، وقال: ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ ﴿٦﴾، وقال: ﴿يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا من سقر﴾ ﴿٧﴾، وقال: ﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه﴾ ﴿٨﴾، وقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ ﴿٩﴾، وقال: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ﴿١٠﴾، وقال: ﴿إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ ﴿١١﴾، وقال: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ ﴿١٢﴾، وعن النبي، صلى الله عليه وسلم: «رب أشعث [أغبّر] مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» ﴿١٣﴾، وعنه، صلى

- 
- (١) سورة الأنعام.
  - (٢) سورة المزمل.
  - (٣) سورة الحج.
  - (٤) سورة التغابن.
  - (٥) سورة يس.
  - (٦) سورة غافر.
  - (٧) سورة القمر.
  - (٨) سورة الحاقة.
  - (٩) سورة الكهف.
  - (١٠) سورة القيامة.
  - (١١) سورة المطففين.
  - (١٢) سورة الحديد.
  - (١٣) تمييز الطيب، ص ٧٩.

الله عليه وسلم: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»<sup>(١)</sup>، اقتبس أبو العتاهية من الآيات والحديثين قوله:

هو الموت يا ابن الموت والبعث بعده

فمن بين مبعوث مخفأ ومثقلا

ومن بين مسحوب على حروجه

ومن بين من يأتي أغر محجلا

وقوله:

لله يوم تقشعر جلودهم

وتشيب منه ذوائب الأطفال

يوم النوازل والزلازل والحوادث

مل فيه إذ يقذفن بالأحمال

يوم التغابن والتباين والتنا

زل والأمور عظيمة الأهوال

يوم ينادى فيه كل مضلل

بمقطعات النار والأغلال

للمتقين هناك نزل كرامة

علت الوجوه بنضرة وجمال

زمر أضاءت للحساب وجوهها

فلها بريق عندها وتلالي

وسوابق غر محجلة جرت

خمس البطون خفيفة الأثقال

من كل أشعث كان أغبر ناحلاً

خلق الرءاء مرقع السربال

وصدر هذه الأبيات مقتبس من قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث

كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾، وفي نقل هذا

الوصف إلى القيامة شيء لأن أهوال القيامة أشد وأفظع (والساعة أدهى وأمر).

### الاقتباس الخامس والسبعون:

قال تعالى في شأن المدعوين آلهة من دون الله وهو خاص بذوي القرب

إلى الله منهم لما تضمنته الآية من جميل أوصافهم: ﴿أولئك الذين يدعون

يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب

(١) البخاري، ج ١ ص ٤٠.

ربك كان محذوراً<sup>(١)</sup>، وقال في شأن المؤمنين بآيات الله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾<sup>(٣)</sup>، فاقبّس منها قوله:

لم يعتصم بالله من خلقه من ليس يرجوه ويخشاه  
وقوله:

من اتقى الله رجا وخافا

وقوله، وفيه بعض تصرف:

وسألت ربك يا ابن آدم رغبة فوجدت ربك إذ سألت كريماً  
ودعوت ربك يا ابن آدم رهبة فوجدت ربك إذ دعوت رحيماً

هذا، واجتماع وصفي الرجاء والخوف للمتقين في الآيات مشعر مع لزومهما للتقوى بعدم انفكاكهما وعليه قول علي، كرم الله وجهه، أن العبد إنما يكون حسن ظنه بربه على قدر خوفه منه<sup>(٤)</sup>، ونحوه عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لوجدنا سواء<sup>(٥)</sup>. وكان وهيب بن الورد المكي يقول: يقولون إنا نرجو، ولا والله ما رجا عبد قط حتى يخاف، ثم يقول: كيف تفتري أنك ترجو رضا من لا تخاف غضبه<sup>(٦)</sup>، وهو الأصل الأظهر لقول أبي العتاهية:

أيا عجباً للناس في طول ما سهوا

وفي طول ما اغتروا وفي طول ما لهوا

(١) سورة الإسراء.

(٢) سورة السجدة: الآية ٥.

(٣) سورة الزمر.

(٤) نهج البلاغة، ج ٣ ص ٣٢.

(٥) الحلية، ج ٢ ص ٢٠٨.

(٦) الحلية، ج ٨ ص ١٥٠.



يقولون نرجو الله ثم افتروا به      ولوأنهم يرجون خافوا كما رجوا  
ونحوه قوله:

ألهو ولي رهبة من كل حادثة      وإنما رهبتي فرع لرغبته  
وله في تلازمهما:

ليس يرجو الله إلا خائف      من رجا خاف ومن خاف رجا  
ويتصل بما سلف الشطر الرابع من قوله:

أمامك يا نومان دار سعادة      يدوم الهنا فيها ودار شقاء  
خلقت لإحدى الغائتين فلا تنم      وكن بين خوف منهما ورجاء

أما البيت الأول، فإنه ينظر إلى قوله، صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها»<sup>(١)</sup>، أو إلى قول علي، كرم الله وجهه: ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها<sup>(٢)</sup>. والشطر الثالث ينظر إلى قول يزيد الرقاشي لعمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين ليس بين الجنة والنار منزل<sup>(٣)</sup>، ويشبهه قول ابن السماك للرشيد: واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثلاثة لهما: جنة أونار<sup>(٤)</sup>. ومن حسن الاتباع في أصل المعنى قول ابن الرومي:

تنازعني رغب ورهب كلاهما      قوي وأعياني اطلاع المغايب  
فقدمت رجلاً رغبة في رغبة      وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب  
أخاف على نفسي وأرجو مفازها      واستار غيب الله دون العواقب

(١) العزيزي، ج ٤ ص ٣١١.

(٢) نهج البلاغة، ج ١ ص ٦٧؛ والبيان والتبيين، ج ٢ ص ٤٣؛ ومروج الذهب، ج ٢ ص ٣٠١.

(٣) سراج الملوك، ص ٤٩.

(٤) الطبري، ج ٦ ص ٥٣٨.